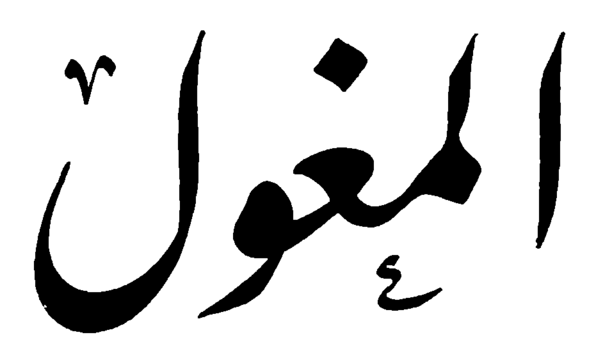
الدكتور السيد الباز العريني

المغول



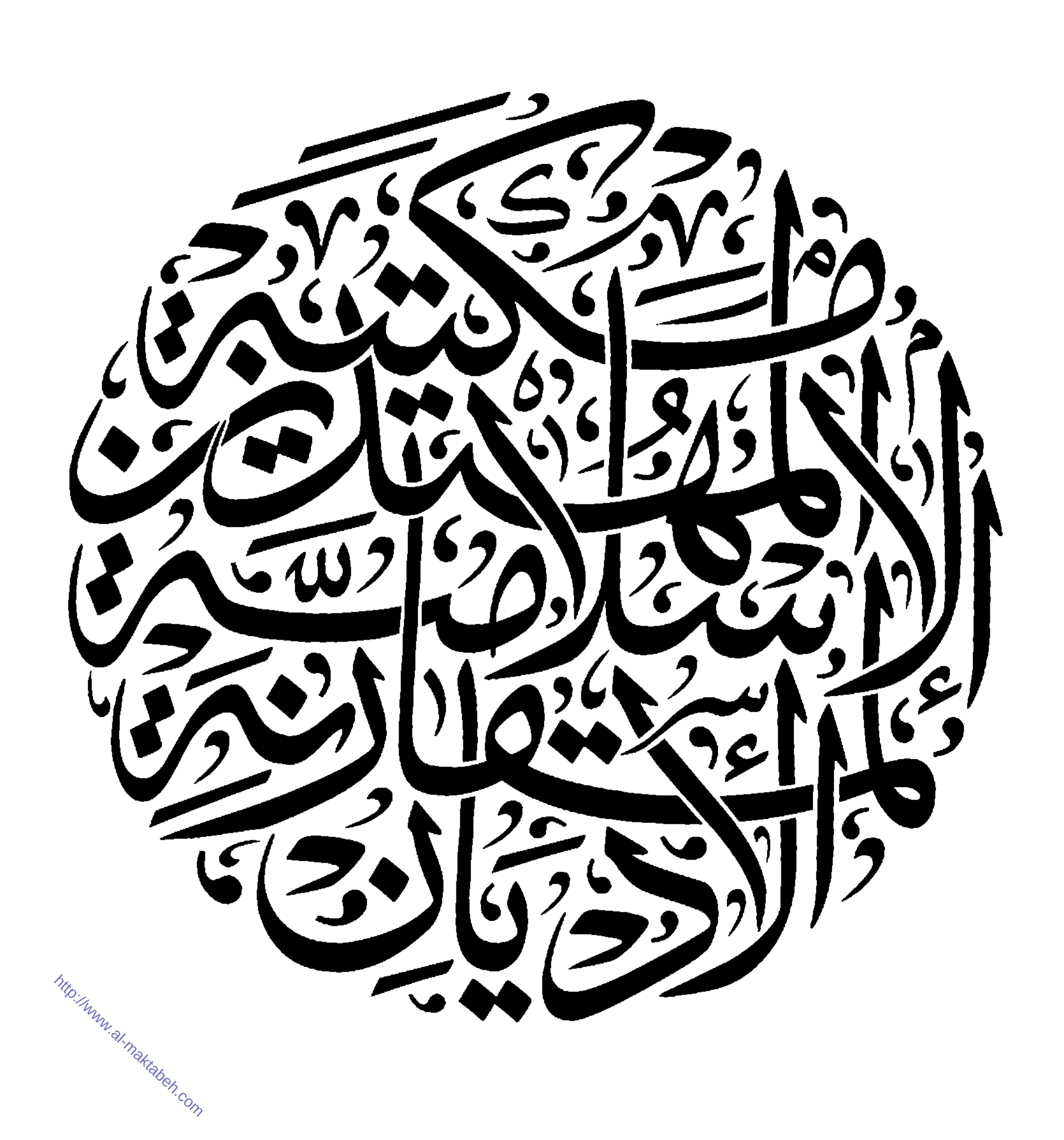
الدكتور السيد الباز العريني
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب جامعتي القاهرة وبيروت العربية



المغول

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩



تصدير

تعرض المشرق الاسلامى منذ أواخر القرن الحادى عشر ، ولفترة تزيد على ثلاثة قرون ، لأخطار خارجية ، بلغت من الشدة والعنف ما كاد يلحق الضرر بالحضارة الاسلامية والتراث العربي .

وجاءت هذه الأخطار أول الأمر من جهة الغرب المسيحى ، بما سيره من حملات حربية ، أدت الى أن تقيم في جوف العالم العربى امارات الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس . ولم يلبث المسلمون أن أدركوا خطورة بقاء هذه الامارات الصليبية ، فبدأت حركة الجهاد وتوحيد الجبهة الاسلامية ، وتيسر لصلاح الدين في معركة حطين سنة ١١٨٧ ، أن ينزل ضربة قاصمة بالقوات الصليبية ، استرد على اثرها بيت المقدس وسائر ما بأيدى الصليبيين من قلاع وحصون ، ولم يبق لهم الا انطاكية وطرابلس والساحل بين صور ويافا ، واضحت هذه البقايا الصليبية تعتمد على ما يرد اليها من مساعدات من غرب أوربا ، وعلى ما تلتمسه من حلفاء .

وفي أوائل القرن الثالث عشر ، أضحت مصر مركز المقاومة الاسلامية، بفضل مواردها الضخمة وسيادتها على البحر المتوسط والبحر الأحمر وصارت المصالح التجارية والاقتصادية والشخصية تتحكم في الحركة

الصليبية ، فحرص الصليبيون على أن يحولوا جهدهم الحربى ، منذ سنة ١٢١٨ ، للاستيلاء على مصر .

وحدث وقتذاك أن ظهرت حركة المغول في أقصى الشرق بآسيا ، بزعامة جنكيزخان وأخلافه ، اوكتاى ، كيوك ، ومونكو (١٢٠٦ — ١٢٥٧) فاجتاحت جموعهم الصين وآسيا الوسطى ، وأملاك الأمبراطورية الخوارزمية ، ودولة السلاجقة بآسيا الصغرى ، ونفذوا الى أوربا الشرقية، وروسيا وبولندا والمجر . وقامت حكومة ايلخانات فارس ، سنة ١٢٥٦ عند قدوم هولاكو ، لتوطيد سلطان المغول بهذه الجهات وللقضاء على قوة الاسماعيلية والخلافة العباسية ، والتحالف مع المسيحيين في بلاد الكرج (جورجيا) وأرمينية الصغرى والامارات الصليبية والقوى المسيحية في الغرب ، لانتزاع الأماكن المقدسة والاستيلاء على مصر .

وحدث في الشرق الاسلامى وقتذاك من أسباب التشاحن والتخاصم والتصادم بين القوى الاسلامية ، ما أدى الى أن تسعى كل قوة الى تأييد المغول ومساندتهم ، فاستطاع العدو بذلك أن ينفذ الى الأراضى الاسلامية ، ويقهر القوى الاسلامية ، الواحدة بعد الأخرى .

وبرغم ما اشتهر به المغول من البسالة والشجاعة ، فانهم قلما استخدموها ، طالما كان بوسعهم أن يحققوا أغراضهم عن طريق الغش والخداع ، فاذا كان الموت عقوبة الشخص الذى يبدى مقاومة لهم ، فانه في كثير من الأحوال يعتبر أيضا عقوبة الشخص الذى يذعن ويستسلم. فاذا أبقى المغول على حياة بعض سكان المدن التى أذعنت لهم ، فلم يكن ذلك الا من أجل الافادة من مهارتهم الفنية ، أو لاستخدامهم في قتال مواطنيهم واخوانهم في الدين ، بأن جعلوهم في مقدمة جيوشهم عند الهجوم ، ولم يلبث المغول أن يجهزوا عليهم بعد أن يتحقق غرضهم .

والواقع أن قسوة المغول وشدتهم جرت وفقا لخطة موضوعة ، كيما يثيروا من الخوف والرعب ما يشل حركة الذين سوف يتعرضون

لهجومهم . ورأوا أن ما ينزلونه بالمدن والبلاد من خرائب تندلع فيها النيران ، يكفل لجيوشهم الأمن والسلامة ، ويجنبهم تمرد الذين نجوا من القتل . وكلما حاز المغول نجاحا ، اشتد تعطشهم لسفك الدماء ، فلم يظهروا شيئا من الرحمة والرفق بالبلاد التي خضعت لهم . ويشير المؤرخون المسلمون الى أنه مهما زاد عدد السكان في خراسان والعراق العجمى حتى يوم القيامة ، فلن يبلغ عشر ما كانوا عليه قبل الغزو المغولى. يضاف الى ذلك ما أصاب الكنوز الأدبية من دمار وحريق .

كان المسيحيون في الغرب يأملون في أن يعتنق المغول المسيحية ، وأن يتم التحالف بينهم ، وان يوجهوا ضربة قاصمة للاسلام ، غير أن هذه الآمال لم تلبث أن تبددت بفضل ما جرى من قيام دولة المماليك فى مصر والشام ، وانزال الهزيمة الساحقة بالمغول في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، فتحطمت الأسطورة التي ذاعت بأن المغول قوة لا تقهر ؛ وجرت سياسة سلاطين المماليك على التخلص من بقايا الصليبيين في الشام ، وانزال العقاب بالأرمن في قليقية ثم المضى في قتال المغول ، فاستطاع السلطان بيبرس أن ينزل الهزيمة بالأرمن سنة ١٢٦٦ ، فعزلهم بذلك عن حلفائهم الفرنج والمغول . وتلى ذلك الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٦٨، وحلت الهزيمة بالمغول في معركة عين تاب سنة ١٢٧٧ ، حيث لقى نحو ٦٧٧٠ من المغول مصرعهم في ساحة القتال ، وما هو أكبر من ذلك أهمية ، الانتصار الذى أحرزه المصريون ، زمن الناصر محمد ابن قلاون على المغول في وقعة مرج الصفر بالقرب من دمشق فى ابريل سنة ١٣٠٣ ، اذ دخل السلطان الناصر القاهرة ،«والأسرى من التتار بين يديه مقيدون ،ورؤوس من قتل منهم معلقة في رقابهم ، وألف رأس على ألف رمح ، وعدة الأسرى ألف وستمائة رأس ، وطبولهم قدامهم مخرقة » .

على أن الاسلام أخذ يستعيد مكانته رويدا رويدا في البلاد التى خضعت للمغول ، ولم يلبث أن حاز من النجاح ما لم يظفر به البوذيون

والمسيحيون . فعلى الرغم من مصرع تكودار في أغسطس سنة ١٢٨٣ بسبب تعلقه بالاسلام ، فان أول ما قام به غازان (١٢٩٥ ــ ١٣٠٤) من أعمال ، أنه اعتنق الاسلام ، ولم يلبث أن أقبل الموظفون ورجال الديــن المغول على اعتناق الاسلام ، وانقطع ما كان يربط ايلخانات فارس بمغول الوطن الأم من علاقات . فاستقر الاسلام بين المغول في فارس والأقاليم التابعة لهم . ولم تلبث المدن الاسلامية التى تعرضت للخراب ، أن نهضت وانتعشت ، وامتزجت الشعوب المختلفة ، ودارت المناقشات بــين أرباب دياناتهم . ونشطت التجارة ، بعد أن عطلتها ما كان من عداوة بين سلاطين المماليك وايلخانات فارس . واتسعت أملاك مصر ، فتجاوزت حدود الدولة الأيوبية ، ولا سيما بعد زوال البقية الباقية مــن أمــلاك الصليبيين بالاستيلاء على عكا ، سنة ١٢٩١ ، والسيطرة على ارمينيــا الصغــرى .

هذا الكتاب ليس الا محاولة لمعالجة علاقات المغول بالمسلميــن في الشرق الأوسط ، ولا شك أن ظهور المغول في الأقاليم الاسيــويــة والأوروبية ، يعتبر مرحلة جديدة في تاريخ شعوب هذه الأقاليم .

وما كان من تأثير المغول في نظم المماليك في مصر يحتاج الى دراسة تفصيلية ، من الدارسين في الجامعات العربية .

والله ولى التوفيق ،

السيد الباز العرينى

بيروت في ربيع الأول سنة ١٣٨٧

يوليه (تموز) ١٩٦٧

الفصل الأول

مقدمة

الاستبس وتاريخ المغول

تحكم في امتداد شمال القارة الاسيوية وانعزالها ، ما كان من التقاء سلسلتى جبال التوائيتين ضخمتين ، السلسلة الاولى جبال تيان شان والتاى ، بينما تؤلف جبال الهملايا السلسلة الثانية • فجبال تيان شان والتاى في الشمال الغربى ، يواجهها في الجنوب جبال هملايا ، تطوقان فيما بينهما تركستان ومنغوليا وتعزلهما أيضا ، فبقيتا قائمتين فوق السهول التى تقع في داخل الدائرة ، التى يؤلف محيطها هذه السلاسل الجبلية •

وجبال تيان شان سلسلة ضخمة ، يتفاوت ارتفاعها عن سطح البحر بين ١٥ ألف ، ٢٠ ألف قدم ، وقد يصل ارتفاع بعض قممها الى ما يزيد على ٢٥ ألف قدم • ويبلغ طولها نحو ١٢٠٠ ميل ، وتمتد من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى •

أما جبال التاى ، أو جبال الذهب ، فهى مجموعة من السلاسل

الجبلية المرتفعة التى تمتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، ما يزيد على سبعمائة ميل على امتداد الحافة الغربيه للهضبة المرتفعة الواقعة الى الشمال الغربى من منغوليا • ولا يتجاوز ارتفاع هذه الجبال اثنى عشر ألف قدما • ويقع بين سلاسل هذه الجبال سهول شاسعة يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف وستة آلاف قدم ، ويفصل بينها خطوط تقسيم مياه نهري أوبى وارتش •

وتقع البامير الى الجنوب الغربى من تيان شان ، وتؤلف هضبة مستطيلة بالغة الارتفاع ، وتلتقى عندها أضخم السلاسل الجبلية في آسيا الوسطى ، وتتألف من أحواض فسيحة مستوية ، ترتفع عن سطح البحر نحو ١٢٠٠ قدم ، وتنحدر انحدارا هينا نحو الغرب ، وتفصل بينها تلال واراضى جبلية ، يتراوح ارتفاعها عن الأحواض بين ألفين وأربعة آلاف ، من الأقدام •

على أن البعد الشديد عن البحار ، فضلا عن الارتفاع ، أسهم في أن يخص هذه الأراضى المرتفعة بمناخ قارى ، شديد الحرارة صيفا ، قارس البرودة شتاء • والمناخ القارى واضح بين الفصول ، وبين الليل والنهار ، والمطر ضئيل • ويقل المطر في أوائل الصيف في النطاق الشمالى ، وفي الخريف في الجزء الجنوبى • غير أن الجفاف يقع في وسط الصيف ، وفي وسط الشتاء • وأشد ما كان من التغيير الفصلى ، نلحظه في الأراضي الممتدة صوب الشمال الشرقي • ففي أوجرا Ougra الواقعة بمنغوليا ، تتفاوت درجة الحرارة بين ٣٨ فوق الصفر ، و٤٢ تحت الصفر •

ويستثنى من ذلك هضبة التبت التى تهىء عروضها من الأحوال النباتية ، ما يجعلها تندرج حتى تصل الى نباتات المنطقة القطبية ، وكذا جبال تيان شان وألتاى التى تؤلف نصف دائرة ، والتى تتسم بمناخ

البى ، فيتوافر سقوط الثلج في المرتفعات الشمالية ، بينما تسقط الأمطار في الصيف • فعلى ارتفاع يتفاوت بين أربعة آلاف وتسعة آلاف قدم، تنمو أشجار الصنوبر والشربين ، التى تؤلف نطاقا من الغابات ، تمتد بين الاستبس الجافة الواقعة في سفوح التلال ، وبين المراعى الصيفية الغزيرة الواقعة في الأحواض العليا ، وعلى جوانب التلال التى ترتفع حتى خط الثلج الدائم حيث يندر نمو النبات •

وما تبقى من شمال آسيا يعطيه سهوب عشبية تخبو شتاء ، وتجف صيفا • فالسهوب العشبية التى تغزر في الأقاليم التى يتوافر بها الماء ، والتى تتحول الى صحراء في المناطق الوسطى المعزولة ، تمتد من منشوريا حتى شبه جزيرة القرم ، ومن اوجرا بأعالى منغوليا ، حتى اقليم مرو وبلخ، ومنه تتصل البرارى الاسيوية الاوروبية ، بالبرارى الجافة في ايران وافغانستان •

وفي الشمال تلتحم منطقة البرارى الاسيوية الأوروبية بمنطقة الغابات الشمالية ، التى تتسم بمناخ سيبريا ، وتكسو كل روسيا وسيبريا الوسطى ، حتى الحافة الشمالية لمنغوليا ومنشوريا •

وفي الوسط تتحول الى صحراء في ثلاثة مواطن صحراوية • صحراء كزل قم في اقليم ما وراء النهر ، وقراقوم جنوبي نهر اموداريا (جيحون)، وصحراء تكلاماكان في حوض نهر التاريم ، ثم صحراء جوبى التى تمتد في منطقة شاسعة من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من لوب ــ نور حيث تتصل صحراء جوبى بصحراء تكلاماكان ، حتى جبال خنجان على تخوم منشوريا •

والواقع أن هذه الصحارى ظلت منذ عصور التاريخ البعيدة ، تعتدى على منطقة البرارى غزيرة العشب ، فوقوع صحراء جوبى بين شمال منغوليا ، حيث تغزر الغابات عند بحيرة بايكال ، أو سهوب وديان نهرى

ارخون وكيرولين ، وبين جنوب منغوليا حيث سهول الان شان ، وتشاخار ، كان من الأسباب التى أسهمت في زوال الأمبراطوريات التركية المغولية ، ابتداء من أسرة هيونج نو Hiong - nou في العصور القديمة حتى أسرة توكيو Tou - kiuo في العصور الوسطى •

أما حوض نهر تاريم ، وهو تركستان الصينية الحالية ، فان ما حدث من اعتداء الصحراء على البرارى ، جعل له مصيرا خاصا • فاذ لم يتوافر فيه حياة الرعى ، وتعرض دائما لغارات جموع الشمال وسيطرتهم ، فقد اشتهرت واحاته بحياة المدن والنشاط التجارى • وهذه الواحات المتناثرة ربطت بين حضارة الشعوب المستقرة المتحضرة في الغرب ، حيث عالم البحر المتوسط ، وايران ، والهند ، وبين الحضارة الزاهرة في الشرق ، وهى حضارة الصين •

وهذا الطريق المزدوج ، الذى يسير شمال نهر التاريم وجنوبه ، بما يقع عليه في الشمال من مدن توين هوانج ، وتورفان ، وقراشهر ، وكشغر، وفرغانه ، الى ما وراء النهر ، بينما يجتاز في الجنوب ختن ويرقند ، ووديان البامير ، وباكتيريا ، اعترضته على طول امتداده ، الصحارى والجبال ، ومع ذلك كان كافيا للمحافظة على الاتصال بين الحضارة الصينية ، والحضارة الايرانية • وهذا هو طريق الحرير ، وطريق الحجاج، وقد سلكته التجارة والديانة والفن اليونانى زمن خلفاء الاسكندر ، واجتازته البعثات التبشيرية القادمة من افغانستان • واستخدم هذا الطريق التجار اليونانيون والرومان ، الذين أشار اليهم بطليموس ، وبذلوا كل ما في وسعهم كيما يحصلوا على لفائف الحرير ، وهذا الطريق هو الذى اجتازه القادة الصينيون زمن اسرة هان في التاريخ القديم ، للاتصال بالعالم الايرانى والشرق الرومانى • على أن المحافظة على تأمين هذا الطريق ، بالغ الأهمية للتجارة العالمية ، لقيت الاهتمام الكبير من السياسة

الصينية، منذ زمن أسرة هان حتى عهد قبيلاى •

ويقع الى شمال هذا الطريق ، الذى سلكته الحضارة والديانة ، طريق آخر يختلف تمام الاختلاف ، هيأته الاستبس للرعاة ، وهو طريق لا حدود لامتداده ، ووطأته اقدام لا حصر لها ، وهو طريق المتبربرين • فما من شيء يعترض انسياب جموع المتبربرين النازلين بين نهرى أرخون وكيرولين وبحيرة بالكاش • فاذا كانت جبال التاى الضخمة تقترب عند هذه النقطة من جبال تيان شان ، فلا زال الدرب بالغ الاتساع من شاطىء نهر اميل الى تلال تارباجتاى والى تشوجوتشك Tchougoutchick وازداد اتساعا أيضا بين يولدوز Youldouz ، وايللى ، وحوض ايزيك كول في الشمال الغربى ، ومن ثمَّ تمتد مرة أخرى تحت أقدام الفرسان القادمين من منغوليا ، استبس القرغيز واستبس الروس التى لا حدود لامتدادها •

وهذه الدروب الشرقية ، اجتازتها عادة جموع الاستبس الشرقية ، أثناء سعيها للحصول على مراعى في استبس الغرب • واذا حدث في الأزمنة التاريخية الغابرة أن كانت الحركة عكسية ، بأن تدفق نحو الشمال الشرقى ، البـدو الرعـاة الايرانيون الذين ينتمون للعنصر الايرانى كالسيزيين والسرامطة • فما حدث من استقرار جماعات من هؤلاء البدو في حوض نهر التاريم ، من كشغر ، حتى كوتشا Koutcha ، وتورفان وكانسو Kan - sou ، فمن المحقق أن الحركة اتجهت منذ ظهـور المسيحية من الشرق الى الغرب • فلم يكن الايرانيون وحدهم هم الذين فرضوا لهجتهم الايرانية الشرقية في واحات ماصار يعرف بالتركستان الصينية ، بل ان هيونج نو ، المعروفين باسم الهون ، هم الذين أقاموا أول امبراطورية تركية في جنوب روسيا والمجر ، نظرا لأن استبس المجر تتصل باستبس الروس ، التى تلتحم بالاستبس الاسيوية • ثم جاء بعد الهون ،

الأفار الذين ينتمون للعنصر المغولى ، اذ قدموا في القرن السادس ، من آسيا الوسطى ، فارين من ضغط الترك Tou - kue ، ونزلوا في المواضع التى سبق أن نزل بها الهون في روسيا والمجر • وحذا حذوهم الترك الخزر في القرن السابع الميلادى ، والترك البجناك في القرن الحادى عشر الميلادى ، والترك الكومان في القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم جاء من بعد هؤلاء جميعا مغول جنكيزخان في القرن الثالث عشر •

أما التاريخ الداخلى للاستبس ، فهو تاريخ جموع الترك والمغول ، التى تنازعت وتخاصمت من أجل الحصول على المراعى الغزيرة• واجتازوا اثناء حركتهم المستمرة لتوفير المراعى لقطعانهم ؛ المساحات الشاسعة التى هيأت للفرسان كل ما يلائمها من تركيب جثمانى ونوع خاص من الحياة• ولم يحفظ التاريخ الذى يكتبه عادة سكان الحضر ، عن الحركات التى لا تنقطع بين النهر الاحمر وبودابست ، الا النـذر القليل ، وهو الذي يرتبط بالسكان المستقرين • فلم يورد الا الموجات المختلفة التى جاءت من السور الكبير أو من الحصون المنيعة على نهر الدانوب ، تحت ضغط الشعوب القوية ، (أمثال التانونج والسيلستر) •

على أنه كيف تفهم التحركات الداخلية للجموع التركية المغولية ؟ الواقع أنه توالى على المنطقة الشاسعة في قره بالجاسون Qarabalgasson وفي قرا قورم ، وفي أعالى منغوليا ، وحول منابع نهر أورخون ، كل العشائر البدوية التى كانت تطمع في أن تفرض سلطانها على سائر الجموع، ومن هذه الاسرات الطموحة ، هيونج نو ، (الهون) ، التى تنتمى الى العنصر التركى ، والتى يرجع زمن ظهورها الى ما قبل المسيحية ، ثم سيين بى Sien - pei من العنصر المغولى ، التى ظهرت في القرن الثالث الميلادى ، ثم جاء جوان جوان (الآفار) من العنصر المغولي أيضا ، في القرن الخامس ، ثم توكيو من الترك في القرن السادس ، والاويغور

(من الترك) في القرن التاسع ، ثم الخطا (من المغول) في القرن العاشر ، والكرايت والنايمان (من الترك) في القرن الثاني عشر ، ثم جاء آخر الامر مغول جنكيزخان في القرن الثالث عشر •

وعلى الرغم من تحديد صفة هذه العشائر ، من حيث انتمائها للترك أو المغول ، وهى التى فرضت سيطرتها على العشائر الأخرى ، فانه لم يتيسر معرفة المواطن ألأصلية لهذه الجماعات الكبيرة ، كالترك والمغول والتونجوز • ففى الوقت الحاضر ينزل التـونجوز في جماعات صغيرة في شمال منغوليا ، في شرق سيبريا ووسطها ، ابتداء من نهر ينيسى حتى شبه جزيرة كمشتكا ، الى الجزء الشمالى من جزيرة سخالين ، على حين أن المغول يحلون في منغوليا الأصلية ، بينما يعيش الترك في غرب سيبريا وفي تركستان الصينية وتركستان الروسية •

والمعروف أن الترك لم يقدموا الا حديثا الى تركستان ، اذ ظهروا في جبال التاى في القرن الأول الميلادى ، وحلوا في كشغر في القرن التاسع الميلادى ، وفي اقليم ما وراء النهر في القرن الحادى عشر الميلادى • وكان الايرانيون هم الذين يؤلفون أساس سكان المدن ، في كشغر وسمرقند ، ولم يلبث أن اصطبغ السكـان بالصبغة التركية • والمعروف أيضـا أن جنكيزخان في منغوليا ، قد أضفى الصفة المغولية على قبائل لا شك أنها قبائل تركية ، كالنايمان بجبال التاى ، والكرايت في جوبى ، والأونجوت في تشاقهار Tchakhar

على أنه حدث قبل قيام جنكيزخان بتوحيد كـل القبائل تحـت زعامته ، أن جانبا من منغوليا كان تركيا ، بل ان قوما من الترك ، الياكوت، يسكنون ، حاليا شمال التونجوز ، في الجهـات الشمالية الشرقية من سيبريا ، في حوض انهار لينا ، وانديجيركا ، وكوليما • وما هو حادث الآن ، من نزول هذه الكتلة الضخمة من الترك ، في شمـال المغـول

والتونجوز ، وفي اتجاه مضيق بهرنج ، وعلى المحيط المتجمد الشمالي ، يوقفنا على المواطن الأولى للترك والمغول والتونجوز .

على أن انعزال هذه الأقوام الثلاثة ، الترك والمغول والتونجوز ، في الوقت الحاضر ، كل منها يعيش مستقلا عن الآخر ، يدعونا الى التفكير في أن هذه الأقوام التى خضعت مجموعة ، زمن العصور التاريخية ، لسلطان واحد ، يصح أنها كانت ، مثلما هو حادث اليوم ، تعيش متفرقة في الاستبس الغزيرة بشمال شرقى آسيا .

ولو اقتصر تاريخ الجموع التركية المغولية على ما يشنونه من غارات، وعلى ما يحدث اثناء انتقالاتهم وهجراتهم من منازعات وهجمات ، لما حوى الا شيئا قليلا . فالحقيقة الأساسية في تاريخ البشرية ، هى ما كانت تمارسه هذه الأقوام البدوية من ضغط على الأمبراطوريات المتمدينة الواقعة على الجنوب منها . وهذا الضغط تطور من اعتداءات انتقامية الى غارات للفتح والتوسع . ذلك أن هبوط الرعاة من منازلهم وارتحالهم ، كان قاعدة تكاد تكون طبيعية ، أملتها الحياة في الاستبس . ولا شك أن أولئك الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات ، حول بحيرة بايكال ونهر عامور ، ظلوا متبربرين ، يعيشون على الصيد في الغابات ، وصيد السمك من الأنهار والغدران ، ومن هذه الجموع جورشات Djurtchat حتى القرن الثانى عشر ، ومغول الغابة حتى زمن جنكيزخان ، التى ظلت قانعة بحياتها في نطاق مواطنها المنعزلة ، ولم تكن لديها فكرة عن الجهات الأخرى التى تغريها وتجذبها اليها .

غير أن الحال لم يكن كذلك مع الترك المغول بالاستبس ، حيث كانوا يعيشون على تربية الخيل والماشية والأغنام ، يلتمسون العشب ، ويسير الرجل في اثر قطعانه . وقد فرضت البيئة حتميتها على ما كان لسكان الصحراء والاستبس من عادات وتقاليد . فتوزيع المراعى واقتسام

المياه ، حدد مجال طواف البدوى وسرعته ، في فصول السنة • وهذه الحركة المنتظمة للرعاة في داخل حدود مواطنهم ، يصح أن تؤدى بأقل اثارة ، الى الغارات على البلاد المجاورة لحدودهم •

وتزايد القطعان يستلزم الحصول على مراع وآبار جديدة ، نظرا لأن المراعى لا تتجدد وتعزر الا في بطء ، بسبب أحوال الجفاف المستمرة•

وما يكفى حياة القبيلة من مساحات الأراضى لا يكفى لأن تعيش عليها القطعان ، لاضطراد زيادتها • فلم تلبث المراعى أن تضيق بالقطعان والرعاة ، وعندئذ لا بد من السعى للحصول على مراع جديدة • واذا اشتد الجفاف في فصل من الفصول ، وتضاءلت المراعى ، كان ذلك داعيا الى التوسع والغزو • واذا تعرضت المراعى للأفات ، او شحت المياه ، وكان على الراعى أن يواجه المجاعة ، فلا يسعه الا الاقدام على السرقة والنهب ، فلا يستتب السلام في مكان ، يجتمع فيه سكان الصحارى والاستبس والمشتغلون بالزراعة ، فالتاريخ حافل بما كان يقع بينهم من الغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر والغزو والفتح •

والمعروف أن البدوى كان راعيا من الناحية الاقتصادية ، وغازيا من الناحية السياسية ، ومقاتلا من الناحية التاريخية • فالحاجة الى المحافظة على المراعى ، تطلبت عادة قيام نظام حربى ثابت • فالأمة ليست الا جيشا في حالة سكون وهدوء ، كما أن الجيش ليس الا امة جرت تعبئتها ، اذ يصحب مؤنه المؤلفة من الماشية والأغنام • وما كان يمارسه الراعى من التدريب المستمر على ركوب الخيل ، والسعى لاكتشاف المراعى والمياه ، واستخدام الأسلحة ، وما يتصف به من قوة الاحتمال ، ومعاناة الجهد والتعب ، كل ذلك جعل منه جنديا بارعا • فجماعات الفرسان وما اشتهروا به من المبادرة الى الهجوم ، جعلت الخطة الحربية تقوم على الهجوم المفاجىء والارتداد السريع ، الذى لا يقابله الا الاستعداد

القوى ، والتعبئة الضخمة ، فالسيزيون في سهوب الدانوب الأدنى ،كانوا من.أبرع الناس في الرمى عن ظهور الخيل ، شأنهم في ذلك شأن البارثيين.

وحياة الجموع البدوية في مجموعها ليست الا مدرسة لخلق النظام العسكرى . اذ أن ما تصادفه هذه الجموع من العناء والمشقة أثناء سيرها ، وعند اقامة المعسكر وازالته ، وفي البحث عن العلف والمراعى ، كل ذلك يجرى يوميا اثناء حركتهم وهجرتهم المستمرة . وما درج عليه البدوى من نظام في سيره ، يضارع ما اتصفت به الجيوش من النظام . اذ يتقدم القافلة عادة ، على مسافة تتراوح بين خمسة وسبعة كيلومترات ، جماعة من الفرسان المسلحين ، يتبعهم سائر أفراد القبيلة ممتطين الأفراس والابل ، ثم يلى ذلك دواب الحمل ، والنساء والأطفال .

ويجرى الحرص عند نصب المعسكر ، على تحديد مواضع للرجال وللأسلحة وللقطعان . بل أكثر من ذلك ، ينتظم جموع الرعاة في جماعات ، لها رؤسائها ومعاونوهم .

ويتضح من ذلك أن أحوالا جغرافية معينة ، تحكمت بطريق مباشر فيما درج عليه البدو من الارتحال المنظم ،الذى أدى بطريق غير مباشر الى أن يتخذ من النظم الحربية والسياسية ، ما جعل لعناصر الرعاة رسالتهم التاريخية الشهيرة ، الداعية الى الوحدة والتماسك السياسى . فعلى الرغم من أن الزراعة يرجع اليها تقدم المدنية ، فأن أربابها يفتقرون الى ما يختص به الرعاة من الشجاعة ، والميل الى الحركة ، وحب المخاطرة ، واتساع الأفق السياسى ، بينما حاز الرعاة كل هذه الصفات . فاذا اجتمع هذان العاملان ، الراعى المتسلط ، والمزارع الذى يخلد الى السلام ويؤثر العافية ، قامت الحكومات المستقرة عند العناصر الهمجية وشبه المتمدينة .

وما يشهده البدوى الراعى من أحوال مختلفة للحياة ، لا بد أن أثار أطماعه وميوله : فما يتساقط من الثلوج في الشتاء لم يمنع الغابات

السيبرية من أن تتداخل في الاستبس ، بينما يؤدى اشتداد الحرارة في الصيف، الى جعل الاستبس امتدادا لصحراء جوبى • فكان لزاما على الراعى أن يلتمس المراعى لقطعانه ، بأن يرتقى مرتفعات جبال خنجان والتاى وترباجاتاى • والربيع وحده هو الذى يحول الاستبس الى برارى غزيرة ، تكثر بها الزهور الجميلة والأبصال الخلابة ، كالسوسن والخزامى • وهو الفصل الذى يعتبره البدوى عيدا له ولقطعانه • على حين أنه في الفصول الأخرى ، ولا سيما في الشتاء ، كان يتطلع الى ايزيك قول ، (البحيرة الساخنة) بالجنوب الغربى ، والى الأراضى الصفراء الخصيبة ، التى يرويها نهر هوانجهو ، في الجنوب الشرقى ، فضلا عن اراضى الوسط المعتدلة الحرارة • ومع ذلك ، فان هذه الأراضى المزدرعة لم تشبع هواه ، ولم ترض أطماعه • فحينما يحتل البدوى الراعى الأراضى الزراعية ، لم يلبث أن يحولها بغريزته الى أراضى جرداء ، أو الى استبس تنمو بها الأعشاب اللازمة للخيل والماشية والغنم •

كان ذلك هو اتجاه جنكيزخان وميله في القرن الثالث عشر ، فحينما تم له فتح الصين ، أراد أن يحول حقول الدخن في سهل هو باى Ho - pei الخصيب الى برارى • فلم يقدر رجل الشمال الحضارة ، الا لما يصدر عنها من منتجات صناعية ، ولما تبذله من مصادر المتعة ، ولما يغريه منها بالنهب والتخريب • فيستهويه مثلا اعتدال المناخ ، وهو أمر نسبى على كل حال • فبينما كان مناخ بكين القارس ، يعتبره جنكيزخان لطيفا ، يدعو الى الدعة ، كان يمضى الصيف بعد كل حملة بالقرب من بحيرة بايكال • وحدث أيضا بعد انتصاره على جلال الدين خوارزمشاه، ان نأى عن قصد بلاد الهند ، الممتدة أمام نظره ، نظرا لأن الهند عند هذا الرجل ، رجل جبال التاى ، ليست الا الجحيم بذاته •

والواقع أن جنكيزخان كان مصيبا في احتقار دواعى الحياة الرغدة،

فحينما أخلد أحفاده الى النعيم في قصور بكين وتوريز في البلاد المتحضرة، أدى ذلك الى تدهورهم وانحطاطهم • على أنه كلما التزم البدوى بروح البداوة ، لم يعتبر المتحضر المقيم سوى فلاح له • ولم تكن المدنية والعمل عنده سوى مزرعه له ، فالمزرعة والفلاح تخضعان لسلطانه ورحمته • فيمتطى فرسه ، ويركض الى الأمبراطوريات المثيرة الواقعة على أطراف بلاده ، يجبى منها ما تقرر عليها من اتاوة ، بعد أن آثرت هذه الأمبراطوريات العافية والسلام ، على حين ينهب المدن المفتوحة ، بعد أن يشن عليها الغارات المخربة ، اذا رفض سكان المدن أن يؤدوا الجزية • فما جرى باتنظام من غارات للنهب والتخريب ، أو ما يقابلها من الاذعان والتسليم بتأدية الاتاوة أو الجزية ، كان القاعدة العامة ، لما كان من علاقات بين الترك المغول والصينيين ، منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، حتى القرن السابع عشر الميلادى •

ويحدث في بعض الأحوال ، أن يظهر بين البدو الرعاة ، زعيم شديد البأس ، بالغ القوة ، برع في تخريب الأمبراطوريات المتحضرة ، (وهؤلاء المتبربرون المخربون كانوا على دراية تامة بما يجرى في البلاط الصينى من مؤامرات ، شأنهم في ذلك شأن الجرمان الذين وقفوا على عوامل ضعف الأمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي) • فيتم الاتفاق بين هذا الزعيم المتبربر ، وبين أحد الأحزاب الصينية لمناهضة حزب صينى آخر ، أو لمساندة مطالب مطرود من العرش ، أو يجرى التحالف مع مملكة صينية لقتال مملكة صينية أخرى مجاورة • فيخرج هذا الزعيم بجموعه وينزل على أطراف المملكة التى تحالف معها ، بعد أن يدعى حمايتها •

وهذا ما حدث لأجيال من الترك المغول ، اشتدت درايتهم وخبرتهم بالحضارة الصينية ، ثم اجتازوا الحدود ، وتربعوا ، دون معارضة ، على

عرش ابن السماء (ملك الصين) •

فلم يفعل المغامر قبيلاى خان في القرن الثالث عشر ، سوى أن كرر ما قام به ليوتسانج Lieou - Tsang في القرن الرابع الميلادى ، وتوبا في القرن الخامس الميلادى • على أن هؤلاء المتبربرين الذين اصطبغوا بالصبغة الصينية ، بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ، لم يأخذوا من الحضارة الصينية الا دعتها وطراوتها ورذاءلها ، ولم يحافظوا على ما اشتهر به الرعاة من خشونة الطباع ، والشجاعة والاقدام ، وشدة الحذر ، فاضحوا عرضة للسخرية والازدراء ، وأمست بلادهم هدفا لأطماع متبربرين آخرين ، ظلوا على بداوتهم وضراوتهم وعوزهم ، في مواطنهم الأصلية بالاستبس • وتبدأ مغامرة الغزو من جديد • ففى القرن الخامس الميلادى ، ظهر الترك، تو ـ با الذين دمروا الهون Hiong - nu ، وسيان ـ بى Sien - pei بعد تدهورهم وانحلالهم ، فحلوا مكانهم • أما الخطا Ki - tans ، وهم مغول اشتدت صبغتهم الصينية ، وسيطروا على بكين منذ القرن العاشر ، فلم يلبثوا أن أخلدوا الى الهدوء والسلام ، ثم ظهر في شمالهم في القرن الثانى عشر الميلادى قوم من التونجوز ، وهم جورتشان ، اشتهروا أول الأمر بالخشونة والهمجية ، فانتزعوا في شهور قليلة مدينة بكين العظيمة ، غير أنهم لم يلبثوا أن اصطبغوا بالصبغة الصينية ، فركنوا الى الخمول والركود ، حتى دمرهم جنكيزخان ، بعد قرن من الزمان •

هذا ما حدث فعلا في الشرق ، ووقع مثله في الغرب • اذ جرى في أوروبا ، في اقليم السهوب الروسية ، التى ليست الا امتدادا للسهوب الاسيوية ، أن توالى عليها الهون بقيادة أتيلا ، والبلغار ، والآفار ، والمجريون ، والخزر ، والبجناك ، والكومان ، ثم مغول جنكيزخان •

وهذا ما حدث في الدولة الاسلامية ، حيث لم يكن اعتناق الغزاة

الترك في ايران والأناضول ، للاسلام ، الا صورة لما حدث للغزاة الترك والمغول والتونجوز ، عند حلولهم بالصين ، واتخاذهم الصفة الصينية • وما وقع في الصين ، جرى أيضا في الغرب ، اذ صار لزاما على سلاطين الترك أن يتخلوا عن سلطانهم ، لغزاة قدموا حديثا من الاستبس • فمن بين الذين دمروا في ايران وخلفهم عناصر أخرى من البرارى ، الأتراك الغزنويون،والأتراك السلاجقة،والأتراك الخوارزمية،ومغول جنكيزخان، والترك التيموريون، والمغول الشيبانية، فضلا عن العثمانيين، الذين انطلقوا الى أقصى طرف البلاد الاسلامية غربا ، فاحتلوا مكـان السلاجقة في آسيا الصغرى ، ومنها خرجوا للاستيلاء على بيزنطة •

فشمال آسيا يشبه اسكنديناوه في أنه مستودع الأمم ، ومنـه خرجت غارات المتبربرين ، مثلما خرج الجرمان في اوروبا ، وهو الذى أمد الأمبراطوريات المتمدينة القديمة بالسلاطين والملوك • فهبوط هذه الجموع من الاستبس ، وما تبع ذلك من اقامة الخانات والسلاطين في عروش تشانج ــ نجر Tchang - ngar ، ولو ــ يانج Lo - yang وكاى ــ فونج Kai - fong (بكين) ، وسمرقند ، واصفهان ،وتوريز، وقونية ، والقسطنطينية أضحى القاعدة الجغرافية للتاريخ •

غير أن ثمة قانون آخر مخالف للقاعدة التى سبق الاشارة اليها ، وهو الذى دعا الـدول المتمدينة القديمـة ، الى أن تمتص في بطء ، هؤلاء المغيرين البدو ، ويعتبر ظاهرة مزدوجة • كانت ظاهرة سكانيـة (ديموجرافية) من ناحية ، ذلك أن الفرسان المتبربرين الذين يحلون في هذه البلاد المتمدينة ، على أنهم طبقة ارستقراطية ، لم يلبثوا أن يختفوا وينغمروا في خضم السكان ، وأن ينغمسوا في أحوالهم • أمـا الظاهرة الأخرى ، وهى الظاهرة الحضارية ، فان الحضارة الصينية ، أو الحضارة الفارسية ، المغلوبة على أمرها ، لم تلبث أن قهرت الغزاة المتبربرين ، بما

من الافتراضات والخيال والأساطير ، عوامل تاريخية . ويتطلب ذلك منه الصبر الشديد ، والدأب المتواصل . فمهما كانت الرواية تافهة ، فقد يكون لها أهمية تاريخية .

وليس من اليسير أيضا أن نصل الى تتيجة سليمة ، من الأحداث التى قد تقع فجأة ، أو الوقائع المتقطعة ، فلم يظهر في تاريخ المغول قبل جنكيزخان ، شخصيات بارزة أو زعماء مشهورون .
وهذا الظلام والغموض ، لم يقطعه الا ومضات ، يصح أنها تفيد ، ولكنها في مجموعها تزيد الموقف غموضا ، وليس في استطاعتنا أن نشرح كل الظواهر التى عرضها تاريخ المغول .

على أنه اذا كانت الأحداث التى أسهمت في تقدمهم في الداخل طارئة وليست مستمرة ، بل لعلها اعترضت السير الطبيعى لتقدمهم ، فانه هذه القبائل المتوحشة ، واجهتنا حقائق يستعصى تفسيرها . واذا كانت من ناحية أخرى، اذا حاولنا دراسة الأحداث الخارجية وفحصها ، وانتشار أهمية المغول قد تضاءلت فيما يتعلق بأحوالهم الداخلية ، فان علاقاتهم الخارجية ازدادت أهمية .

ومن هنا كان الالمام بتاريخ المغول أمرا جوهريا ، فلولا تأثيرهم على الجنس البشرى ، خارج حدودهم، لظل المغول في عزلتهم ، وغموض تاريخهم .

ومن المتاعب التى يصادفها الباحث أيضا ، امتداد واتساع الأراضى التى كانوا ينزلون بها ، ولذا كان لزاما على الدارس لتاريخهم أن يمعن النظر في مراعاة ما يجرى بين الشعوب المجاورة لهم من حركات وأفعال . فليس لتاريخ المغول حدود جغرافية ، فقد زالت الحواجز التى تحد من

الترك في ايران والأناضول ، للاسلام ، الا صورة لما حدث للغزاة الترك والمغول والتونجوز ، عند حلولهم بالصين ، واتخاذهم الصفة الصينية • وما وقع في الصين ، جرى أيضا في الغرب ، اذ صار لزاما على سلاطين الترك أن يتخلوا عن سلطانهم ، لغزاة قدموا حديثا من الاستبس • فمن بين الذين دمروا في ايران وخلفهم عناصر أخرى من البرارى ، الأتراك الغزنويون،والأتراك السلاجقة،والأتراك الخوارزمية،ومغول جنكيزخان، والترك التيموريون، والمغول الشيبانية، فضلا عن العثمانيين، الذين انطلقوا الى أقصى طرف البلاد الاسلامية غربا ، فاحتلوا مكـان السلاجقة في آسيا الصغرى ، ومنها خرجوا للاستيلاء على بيزنطة •

فشمال آسيا يشبه اسكنديناوه في أنه مستودع الأمم ، ومنـه خرجت غارات المتبربرين ، مثلما خرج الجرمان في اوروبا ، وهو الذى أمد الأمبراطوريات المتمدينة القديمة بالسلاطين والملوك • فهبوط هذه الجموع من الاستبس ، وما تبع ذلك من اقامة الخانات والسلاطين في عروش تشانج ــ نجر Tchang - ngar ، ولو ــ يانج Lo - yang وكاى ــ فونج Kai - fong (بكين) ، وسمرقند ، واصفهان ،وتوريز، وقونية ، والقسطنطينية أضحى القاعدة الجغرافية للتاريخ •

غير أن ثمة قانون آخر مخالف للقاعدة التى سبق الاشارة اليها ، وهو الذى دعا الـدول المتمدينة القديمـة ، الى أن تمتص في بطء ، هؤلاء المغيرين البدو ، ويعتبر ظاهرة مزدوجة • كانت ظاهرة سكانيـة (ديموجرافية) من ناحية ، ذلك أن الفرسان المتبربرين الذين يحلون في هذه البلاد المتمدينة ، على أنهم طبقة ارستقراطية ، لم يلبثوا أن يختفوا وينغمروا في خضم السكان ، وأن ينغمسوا في أحوالهم • أمـا الظاهرة الأخرى ، وهى الظاهرة الحضارية ، فان الحضارة الصينية ، أو الحضارة الفارسية ، المغلوبة على أمرها ، لم تلبث أن قهرت الغزاة المتبربرين ، بما

هيأته لهم من حياة الترف والنعيم ، وفي أحوال كثيرة ، يحدث بعد خمسين سنة من غزو هذه الدولة المتحضرة ، أن تعود الأمور الى ما كانت عليه قبل الغزو ، كأنه لم يحدث شيء ، فالمتبربر الذى اصطبغ بالصفة الصينية أو الايرانية ، لم يلبث أن جعل نفسه حارسا للمدنية والحضارة، ازاء الغزوات الجديدة التي يشنها المتبربرون، ففي القرن الخامس الميلادى، كان تو ــ با Tou-pa التركى ، يعتبر المدافع عن حضارة الصين واراضيها ازاء المغول امثال سيان ــ بى Sien-pei ، أو جوان جوان Jouan-Jouan الذين أرادوا تجديد الغارة على الصين . وفي القرن الثانى عشر ، كان سنجر السلطان السلجوقى هو الذى أقام على نهرى سيحون وجيحون حرسا لدرء خطر الأغوز والخطا على بحيرة آرال ، ونهر ايللى .

وليس تاريخ كلوفيس وشارلمان في أوربا الا ترديدا لصفحات تاريخ آسيا . فما حدث من أن الحضارة الرومانية ، لقيت في نشاط الفرنج بعد أن هضمتهم وتمثلتهم ، ما يجدد قوتها لمقاومة همجية السكسون والنرمان ، تكرر أيضا في الحضارة الصينية ، التى لم تجد لها في القرن الخامس سندا لها ، خيرا من هؤلاء التو ــ با Tou-pa ، لمناهضة الغزو المغولى ، كما أن الحضارة الاسلامية صادفت في سنجر بطلا لمناهضة الترك والمغول . واكثر من ذلك ، كان الترك المغول ، الذين امتصتهم الحضارة الصينية أو الحضارة الاسلامية ، هم الذين حققوا وأتموا أعمال الأكاسرة وملوك الصين . فالسلطان العثمانى هو الذى حقق في القرن الخامس عشر ما كان يطمع فيه كسرى والخليفة ، من الاستيلاء على القسطنطينية . وما كان يراود أسرة هان وأسرة تانج من حلم السيطرة

على كل آسيا ، حققه ، في القرنين الثالث عشر ، والرابع عشر الميلادى ، قوبيلاى وتيمور ، على حساب الصين القديمة ، بأن صارت بكين الحاضرة الأساسية لروسيا ، وتركستان ، وايران ، وآسيا الصغرى ، وكوريا ، والتبت ، والهند الصينية . فالتركى المغولى لم يهزم الحضارات القديمة، الا لكى يجعل آخر الأمر أسلحته في خدمة هذه الحضارات . وهذه الحقيقة ، جعلت التركى المغولى يحكم هذه الشعوب القديمة ، بما كان لهم منذ آلاف السنين من تقاليد ومطامع ، فصار يحكم الصين ، منذ زمن قوبيلاى ، كيما يحقق ما كان للصين من أغراض توسعية في آسيا ، وحكم العالم الايرانى الفارسى ، حتى يدفع آخر الأمر بالساسانيين والعباسيين ، نحو القسطنطينية .

فالترك المغول ، شأن الرومان ، كانوا من العناصر الى تنزع الى السلطة والحكم ، وتميل الى التوسع والسلطان .



الفصل الثاني

أهمية دراسة تاريخ المغول

يصادف المؤرخ عقبات عسيرة ، عند محاولته دراسة تاريخ المغول . اذ أن سيرة القبائل البدوية تبدو كأنها لن تنسق أو تنتظم ، فان أحداث تاريخها بلغت من شدة الاضطراب ، ما يجعل من المستحيل التماس خيط واحد يضم هذه القبائل باسرها . فالأحداث الداخلية ، والحروب التى نشبت دائما بين القبائل ، والتى لا بد للمؤرخ أن يتتبعها حتى يقف على ما يجرى بين هذه القبائل من محالفات ، كانت من العوامل التى تضلل المؤرخ وتعطله عن المضى في دراسته .

يضاف الى ذلك ما أحاط بالتاريخ المبكر للمغول من الغموض ، والاختلاط بالأساطير ، فضلا عن الافتقار الى السجلات والوثائق التى يصح الركون اليها .

ولا بد لمن يتصدى لدراسة التاريخ المبكر لدولة المغول أن يستخلص

من الافتراضات والخيال والأساطير ، عوامل تاريخية . ويتطلب ذلك منه الصبر الشديد ، والدأب المتواصل . فمهما كانت الرواية تافهة ، فقد يكون لها أهمية تاريخية .

وليس من اليسير أيضا أن نصل الى نتيجة سليمة ، من الأحداث التى قد تقع فجأة ، أو الوقائع المتقطعة ، فلم يظهر في تاريخ المغول قبل جنكيزخان ، شخصيات بارزة أو زعماء مشهورون .
وهذا الظلام والغموض ، لم يقطعه الا ومضات ، يصح أنها تفيد ، ولكنها في مجموعها تزيد الموقف غموضا ، وليس في استطاعتنا أن نشرح كل الظواهر التى عرضها تاريخ المغول .

على أنه اذا كانت الأحداث التى أسهمت في تقدمهم في الداخل طارئة وليست مستمرة ، بل لعلها اعترضت السير الطبيعى لتقدمهم ، فانه هذه القبائل المتوحشة ، واجهتنا حقائق يستعصى تفسيرها . واذا كانت من ناحية أخرى، اذا حاولنا دراسة الأحداث الخارجية وفحصها ، وانتشار أهمية المغول قد تضاءلت فيما يتعلق بأحوالهم الداخلية ، فان علاقاتهم الخارجية ازدادت أهمية .

ومن هنا كان الالمام بتاريخ المغول أمرا جوهريا ، فلولا تأثيرهم على الجنس البشرى ، خارج حدودهم، لظل المغول في عزلتهم ، وغموض تاريخهم .

ومن المتاعب التى يصادفها الباحث أيضا ، امتداد واتساع الأراضى التى كانوا ينزلون بها ، ولذا كان لزاما على الدارس لتاريخهم أن يمعن النظر في مراعاة ما يجرى بين الشعوب المجاورة لهم من حركات وأفعال . فليس لتاريخ المغول حدود جغرافية ، فقد زالت الحواجز التى تحد من

استقرارهم . وما اتصف به المغول من بسالة خارقة ، حملهم على أن يتغلبوا على أخطار الصحارى المترامية الأطراف ، وأن يجتازوا الجبال ، وأن يعبروا البحار والأنهار ، وأن يقهروا قسوة المناخ ، وأن يصبروا على ما تعرضوا له من الأوبئة والمجاعات . فلا يخشون المخاطر ، ولا تصدهم المعاقل ، ولا يحركهم كل توسل للرحمة والرأفة . وأينما سرح خيالهم ، سارت جموعهم . فكم من المدن الزاهرة اندثرت في ليلة واحدة ، ولم يبق لها من الأثر سوى الخرائب والتلال التى أقامتها جثث الضحايا . ومـا كان يعقب الغزوات المغولية من هدوء ، لم يكن في الواقع هو الهدوء الذى يسيطر على عالم سئم القتال والنضال ، وحرص على أن ينعم من جديد بثمار المدنية ، بل كان الأنفاس الأخيرة التى تلفظها الامم قبل أن تتوارى وتختفى نهائيـا .

وأورد المؤرخ D'Ohsson وصفا لطبيعة غارات المغول ونتائجها فيمـا يلي :

« Les conquêtes des Mongols changèrent la face de l'Asie. De grands empires s'écroulent; d'anciennes dynasties périssent; des nations disparaissent, d'autres sont presque anéantis; partout, sur les traces des Mongols, on ne voit que ruines et ossements humains. Surpassant en cruauté les peuples les plus barbares, ils égorgent de sang froid, dans les pays conquis, hommes, femmes et enfants; ils incendient les villes et les villages, détruisent les moissons, transforment en déserts des contrées florissantes; et cependant, ils ne sont animés, ni par haine ni par la vengeance; à peine connaissent-ils de nom les peuples qu'ils exterminent.

سيطر المغول على صحاريهم ، وحققوا بها السلام . واذا تتبعنا خطى المغول ، فلا بد أن ينصب تفكيرنا على القارات لا على الأقاليم . فجيوش خاناتهم اكتسحت في طريقها خريطة أوربا وآسيا كأنها السيل المنهمر .

ولا بد لدارس تاريخ المغول أن يلم بلغات عديدة ، فبالاضافة الى لغات التتر ، لا بد من الدراية بلغات الشعوب التى اتصل بها المغول . فقد انسابت الجيوش المغولية في وسط آسيا ، وانطلقت شرقا الى الصين، واندفعت غربا الى روسيا ومنها الى ألمانيا . ولذا كان لزاما على دارس تاريخهم أن يعتمد على المصادر المكتوبة بلغات عديدة ، وأن يتهيأ له من الحرية وأدوات البحث ، ما يزيد على ما يتهيأ لدارس الشعوب الأخرى .

على أنه اذا كان ترابط الأحوال وتشابكها ، يثير الصعوبات في دراسة تاريخ المغول ، فانه من ناحية أخرى يعتبر سببا قويا للمضى في هذه الدراسة .

ومن بواعث الاهتمام أيضا بدراسة تاريخ المغول ، ما كان لهم من تأثير بالغ الشدة ، والمساحات الشاسعة التى كانت مسرحا لأعمالهم ،فكل محاولة لتقدير طبيعة الدراسة وما نجم عنها من نتائج ، سوف تكون شيقة ومثمرة .

والمعروف أن المغول قاموا بغزو روسيا والمجر وسيليزيا ، وما أوجدوه ، من تغييرات ، كان من أثرها قيام الدولة العثمانية وما تلى ذلك من ظهور النهضة الأوربية ، بسبب هجرة العلماء اليونانيين ، عقب سقوط القسطنطينية في ايدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، الى ايطاليا وغرب أوربا . وهذا التغيير يعكس أيضا ما نشب من الحروب الصليبية ، بين

المسلمين والمسيحيين ، وما كان من عداء بين البابوية والأمبراطورية . وما تعذر على أورباوالشام من تدميرقوةالحشيشية ،كانأمرا بالغ السهولة عند المغول الذين دمروا معاقلهم ومواطنهم سنة ١٢٥٦ .

والواقع أن اسم المغول كان مصدرا للرعب والخوفعند الأوربيين ، فأضحوا عاجزين عن مقاومتهم ، ولو لم ينهض السلطان المملوكى قطز سنة ١٢٦٠ ، لرد الغزاة في لحظة حاسمة ، فليس ثمة أدنى شك في أن جانبا كبيرا من أوربا قد خضع لهم .

على أن ما تعرضت له أوربا من خطر المغول ، لم يبلغ من الشـــدة ما بلغه هذا الخطر في آسيا . فما حدث من تدمير بغداد وزوال الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ ، واستئصال شأفة أسرة كين ، سنة ١٢٣٤ ، وهى الأسرة التى كانت تحكم شمال الصين ، فضلا عن غزو جنــوب الصين، وخوارزم ، وفارس وسائر الأقاليم المجاورة ، واقامة حكم المغل Moguls في الهند ، (كان الأباطرة المغل المتأخرون يكرهون الانتماء الى الأصل المغولى) ، ليس الا طائفة من الأحداث التى يكفى الواحد منها للدلالة على أهمية دراسة تاريخ المغول .

ونجانب الدقة اذا اعتبرنا المغــول مجرد شعب همجى مغيــر ، فالمعروف أن هولاكو أقام مرصدا ،على الرغم من أنهاستباح بغداد وضربها، وأنشأ قوبيلاى جامعة في كامبالو (بكين) بعد الاستيلاء على شمال الصين.

ومن الظواهر الجديرة بالاهتمام ، أن كل اعتداء من المتبربرين على الحضارة والمدنية ، مهما بلغ من قوة تدميره ، كان يعقبه حركة احياء ضخمة ، تنبعث من بين أنقاض وأثار الحضارة التى دمرتها الغارات المتبربرة ، ومن الدليل على ذلك ، ما حدث في مجال الفنون والآداب ، بعد استيلاء الرومان على بلاد اليونان ، واستيلاء العثمانيين على أملاك

الدولة البيزنطية ، بأن اشتد الاقبال على دراسة كنوز المعرفة • وأدى استيلاء العرب على أسبانيا ، الى أن يصل الى أوربا في العصور الوسطى، شعاع العلم والطب والفلسفة والشعر •

هذه الأمثلة تنطبق أيضا على المغول ، اذ أن سقوط بغداد في أيديهم أدى الى انتقال مركز الدراسات الانسانية الى مصر • وفي نفس الوقت تفرق العلماء والأدباء فيأنحاء العالم الاسلامى ،فزاد ذلك من قوة الجامعات والمدارس بالجهات التى حلوا بها • يضاف الى ذلك أن انتقال مركز الجاذبية من بغداد الى القاهرة ، هيأ للعالم الغربى أن يحصل على ثقافة الشرق وعلومه •

ومن ناحية أخرى ، يعتبر ظهور المغول بالغ الأهمية لما حدث في آسيا من تطورات أخرى •

وأول هذه التطورات وأجدرها بالصدارة ، ما جرى من توحيد آسيا ، غير أنه لا يصح تفسير هذا بالمعنى المعروف لنا الآن عن الوحدة السياسية او التجانس • فالحكومة المغولية كفلت السلام والأمن فى أمبراطورية مترامية الأطراف ، فالطرق سابلة مفتوحة ، يطمئن المسافر الى اجتيازها ، ما لم يوقعه سوء الحظ في أن يصادف أثناء سيره موكب جنازة لاحد الخانات ، وعندئذ يكون مصيره الموت المحقق • (١)

ومن خصائص المغول أيضا ، ما اشتهروا به التسامح الدينى • على أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح ، بأنه يرجع الى ما اشتهر به المغول

---

(١) يحرص المغول على ان يكتموا خبر وفاة زعمائهم ، حين تحل باحدهم الوفاة بعيدا عن حاضرة ملكه ، حتى لا يقع النزاع على ولاية الحاج ، ولذا اهتموا بان خبر الوفاة لا يبلغه الا الرسميون منهم ، ومن هنا تعرض المسافر للقتل حتى لا يسبق في اذاعة نبأ الوفاة .

من عدم الاكتراث بالدين ، يعتبر حكما لا يستند الـى أساس متين ، والراجح أن هذا التسامح لم يكـن المقصود منه سوى الافادة مـن الأشخاص الاكفاء مهما اختلفت دياناتهم .

يضاف الى ذلك ما أحدثوه من تغييرات اقتصادية فازدادت خدمات البريد ، واشتد الاهتمام بالطرق التى يجتازها أصحاب البريد، على الرغم من أن العرب سبقوا الى استخدامها .

وحدث زمن قوبيلاى ، ومن بعد جايغاتو Gaikhatu أن جرى التعامل بالنقود الورقية . والواضح أنه ليس في وسع أمة من الأمم أن تتفوق في كل فروع النشاط البشرى ، وما قصر عنـه المغول في مجال الأدب ، عوضوه في مجالات أخرى .

الدولة البيزنطية ، بأن اشتد الاقبال على دراسة كنوز المعرفة • وأدى استيلاء العرب على أسبانيا ، الى أن يصل الى أوربا في العصور الوسطى، شعاع العلم والطب والفلسفة والشعر •

هذه الأمثلة تنطبق أيضا على المغول ، اذ أن سقوط بغداد في أيديهم أدى الى انتقال مركز الدراسات الانسانية الى مصر • وفي نفس الوقت تفرق العلماء والأدباء فيأنحاء العالم الاسلامى ،فزاد ذلك من قوة الجامعات والمدارس بالجهات التى حلوا بها • يضاف الى ذلك أن انتقال مركز الجاذبية من بغداد الى القاهرة ، هيأ للعالم الغربى أن يحصل على ثقافة الشرق وعلومه •

ومن ناحية أخرى ، يعتبر ظهور المغول بالغ الأهمية لما حدث في آسيا من تطورات أخرى •

وأول هذه التطورات وأجدرها بالصدارة ، ما جرى من توحيد آسيا ، غير أنه لا يصح تفسير هذا بالمعنى المعروف لنا الآن عن الوحدة السياسية او التجانس • فالحكومة المغولية كفلت السلام والأمن فى أمبراطورية مترامية الأطراف ، فالطرق سابلة مفتوحة ، يطمئن المسافر الى اجتيازها ، ما لم يوقعه سوء الحظ في أن يصادف أثناء سيره موكب جنازة لاحد الخانات ، وعندئذ يكون مصيره الموت المحقق • (١)

ومن خصائص المغول أيضا ، ما اشتهروا به التسامح الدينى • على أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح ، بأنه يرجع الى ما اشتهر به المغول

---

(١) يحرص المغول على ان يكتموا خبر وفاة زعمائهم ، حين تحل باحدهم الوفاة بعيدا عن حاضرة ملكه ، حتى لا يقع النزاع على ولاية الحاج ، ولذا اهتموا بان خبر الوفاة لا يبلغه الا الرسميون منهم ، ومن هنا تعرض المسافر للقتل حتى لا يسبق في أذاعة نبا الوفاة .

من عدم الاكتراث بالدين ، يعتبر حكما لا يستند الـى أساس متين ، والراجح أن هذا التسامح لم يكـن المقصود منه سوى الافادة مـن الأشخاص الاكفاء مهما اختلفت دياناتهم .

يضاف الى ذلك ما أحدثوه من تغييرات اقتصادية فازدادت خدمات البريد ، واشتد الاهتمام بالطرق التى يجتازها أصحاب البريد، على الرغم من أن العرب سبقوا الى استخدامها .

وحدث زمن قوبيلاى ، ومن بعد جايغاتو **Gaikhatu** أن جرى التعامل بالنقود الورقية . والواضح أنه ليس في وسع أمة من الأمم أن تتفوق في كل فروع النشاط البشرى ، وما قصر عنـه المغول في مجال الأدب ، عوضوه في مجالات أخرى .



الفصل الثالث

العالم المغولي التركي في القرن الثاني عشر

حوالى منتصف القرن الثانى عشر ، كـان ينزل شمال منشوريا ومنغوليا وتركستان ، قبائل شبه متبربرة ، تعيش على الرعى ، وتنتقل من مكان الى آخر ، وتنتمى هذه القبائل من الناحية اللغوية الى ثلاث مجموعات : المجموعة التركية، والمجموعة المغولية ، والمجموعة التونغوزية

المعروف أن لفظة ترك (في الصينية توكيو Tu-kue) وفي اليونانية Toup koi ، ظهرت لأول مـرة اسما لشعب بدوى ، في القـرن السادس الميلادى ، حين اسس الترك ويطلق عليهم أيضا الغز ، امبراطورية قوية ، امتدت من منغوليا وشمال الصين حتى البحر الأسود ، واقتسم أخوان حكم هـذه الأمبراطوريـة ، فحكم أحدهما تومين Tu-men (مات سنة ٥٥٢) أتراك الشمال ، بينما تولى أخوه Istami (مات سنة ٥٧٦) ، أمر أتراك الغرب . وفي القرن السابـع خضعت المملكتان

لأسرة تانج الصينية (٦١٨ ــ ٩٠٧) • على أن أتراك الشمال لم يلبثوا أن استقلوا ، وحافظوا على هذا الاستقلال حتى سنة ٧٤٤ ، ويرجع الى زمنهم نقوش أرخون (نسبة الى نهر أرخون في منغوليا) ألتى تعتبر اقدم النقوش التركية ، ولم ينجحوا في اخضاع أتراك الغرب •

من أشهر القبائل التركية في الغرب قبيلة توركش التى اتخذ رؤساؤها لقب خانات أواخر القرن السابع الميلادى وظلت محافظة على استقلالها حتى سنة٧٣٩(١٢١هـ)حين‌قضى‌عليها العرب بقيادة نصر بن سيار، وكان خاقان الغرب ينزل على نهر جو ، وعرف قومه باسم اونوك (السهام العشرة) •

والمعروف أن القرغيز ، وهم من الترك أيضا ، كانوا ينزلون في أعالى نهر ينيسى ، وأتخذ اميرهم لقب خاقان أيضا ، في القرن الثامن (نقوش ارخون) • على أنهم لم يشتهروا من الناحية السياسية الا حوالى سنة ٨٤٠ ، حينما انتزعوا أراضى الأويغور في منغوليا ، وامتدت بلادهم حتى المحيط ، ولم يلبث الخطا أن طردوهم من منغوليا أوائل القرن العاشر ، بينما احتفظ الجانب الأكبر منهم بمنازلهم في أعالى نهر ينيسى ، ولذا كان لزاما على الخطا أثناء طردهم من منغوليا وسيرهم نحو الغرب أن يقاتلوا القرغيز ، الذين احترفوا الزراعة ، ثم خضعوا للمغول زمن جنكيزخان سنة ١٢١٨ •

أما الاويغور ، وهم من الترك أيضا ، فكانوا ينزلون شمال منغوليا، على نهر سلنجا Selenga ، واتخذ اميرهم لقب التابير وهو أدنى مكانة من لقب خاقان . ولما انتقل اليهم الملك من منغوليا عن الأغوز حوالى سنة ٧٤٥ ، أتخذ ملكهم لقب خاقان ، وحكمت اسرته حتى سنة ٨٤٠ . وكان الاويغور يؤلفون حلفا من تسع قبائل • واعتنق الاويغور المانوية

حوالى سنة ٧٦٢ ، وحدث أيضا وقتذاك أن نشط دعاة البوذية والمسيحية النسطورية في بث الدعوة في الصين وبين الترك ، وتولى الصغد هذه الدعوة . ويرجع الى الصغد الكتابة التى اشتهرت في القرن التاسع بالكتابة الايغورية التى حلت مكان الابجدية التركية القديمة ، (التى منها النقوش الارخونية) وقد اتخذ المغول المغول في القرن الثالث عشر ابجدية الأيغور التى شاع استعمالها في جميع املاكهم الممتدة من منغوليا الى جنوب روسيا وفارس •

والمعروف أن القرغيز هم الذين طردوا الاويغور من منغوليا سنة ٨٤٠. فأقام الاويغور المطرودون مملكتين الأولى في كانسو والأخرى فى بش بالق وقره خوجا ، وانتشرت المانوية في هاتين المملكتين . وفي سنة ١٠٢٨ غزا التانجوت مملكة كانسو الاويغورية بينما بقيت المملكة الأخرى حتى أزالها المغول •

والأغوز (وفي اللغة العربية ألغز) من القبائل التركية . على أن هذا اللفظ جرى اطلاقه فيما يبدو على القبيلة الكبيرة التى وحدت فى القرن السادس الميلادى جميع القبائل في أمبراطورية واحدة ، امتدت من الصين الى البحر الأسود • ووردت الاشارة اليهم في نقوش ارخون (في القرن الثامن) باسم التغزغز (أى القبائل العشرة) أى أن الأغوز يتألفون من عشرة قبائل ، على أن لفظة تغزغز لم تذكر في الغرب بعد سنة (٢٠٥/٨٢١) عند اغارتهم على اشروسنه .

واكتفى الجغرافيون المسلمون في القرن الرابع (العاشر الميلادى) الاسلام من جرجين على بحر قزوين ، الى فاراب على نهر سرداريا (سيحون) بالاشارة الى الغز ، دون ذكر عددهم ، وكانوا ينزلون على حدود دار فكانت أملاكهم يحدها غربا بلاد الخزر والبلغار ، وشرقا بلاد القارلوق،

وشمالا بلاد الكيماك . ويفصل بين املاك الغز والكيماك المجرى الأعلى لنهر آتل . ودخل الغز الى البلاد الاسلامية في نهاية القرن العاشر الميلادى . والمعروف أن السلاجقة ينتمون الى الغز ، وقد أقاموا أمبراطورية امتدت من تركستان الصينية حتى حدود مصر . وقد ثار الغز على السلطان سنجر ٥٤٨ (١١٥٣ م) ، واستطاعوا أن يأسروه وأن ينهبوا خراسان .

وحل القبجاق بالبلاد التى جلا عنها الغز على نهر سرداريا وعبر قزوين . وكان القبجاق في سنة ٤٢١ (١٠٣٠) يجاورون خوارزم .

وفي شرق أتراك الغرب ، ومن داخل بلادهم الواقعة بين جبال التاى ، والمجرى الأعلى لنهر ارتش ، كان يعيش القارلوق ، وهم عنصر تركى أيضا . وزادت أهميتهم بعد سنة ٧٦٦ ، حينما احتلوا وادى نهر جو ، عقب سقوط أمبراطورية خاقان الترك الغربيين . ولم يتخذ امراؤهم لأنفسهم لقب خاقان انما اكتفوا باتخاذ لقب يبغوا .
ويشير الجغرافيون العرب الى أن القارلوق ، لا زالوا كفارا في القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، ويذكر ابن حوقل أن بلادهم تمتد من فرغانة مسافة يجتازها المسافر في ٣٠ يوما . ونظرا لأنهم كانوا أقرب الشعوب الى البلاد الاسلامية ، كانوا أشد تأثرا بالحضارة الفارسية . ومع ذلك فهم يختلفون من بعض الوجوه عن الأتراك الخلص .

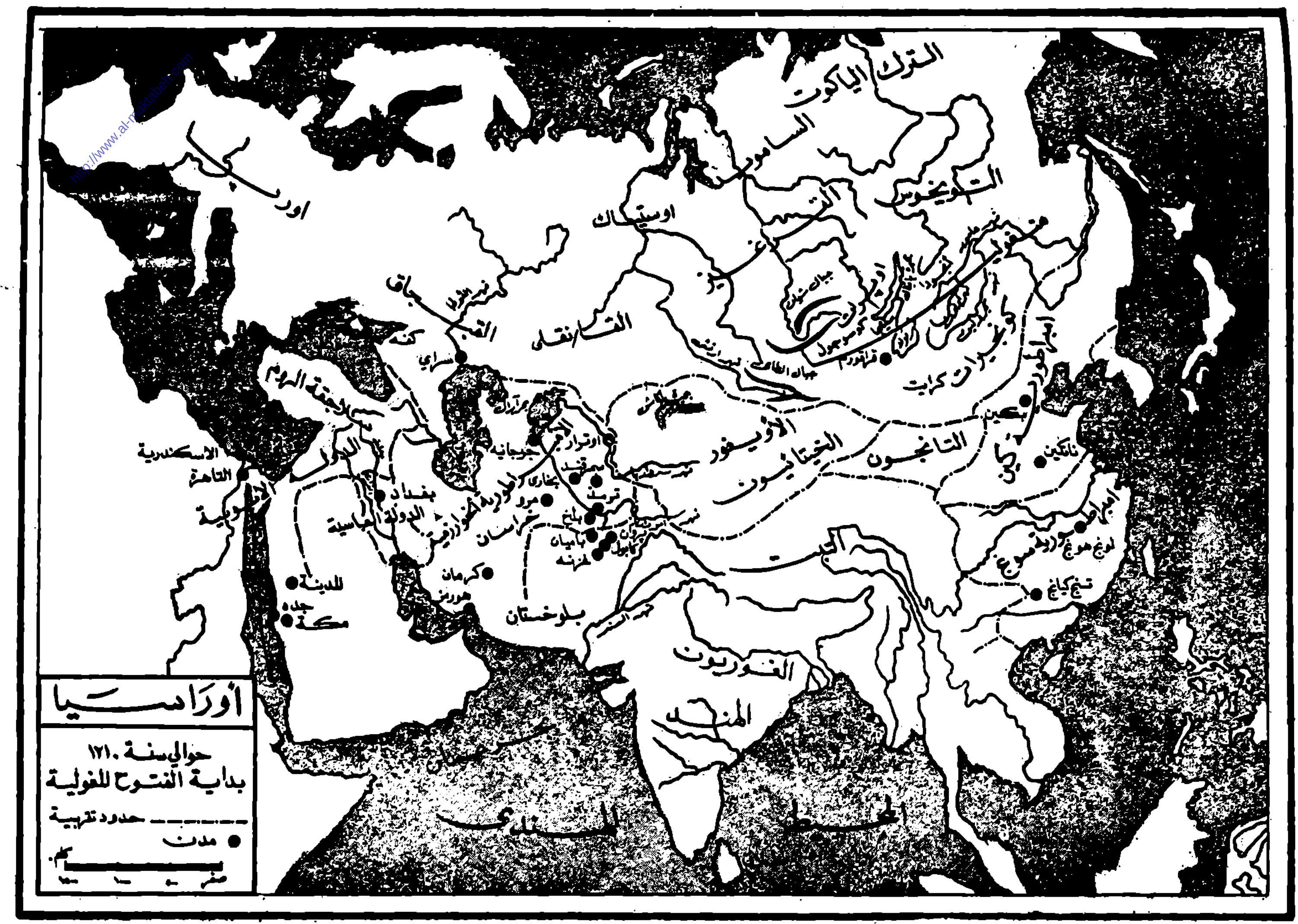
ولما قام الخطا بغزو آسيا الوسطى ، تحالفوا مع خان البلاساغن ضد القارلوق ، بينما كان الخطا في سمرقند حلفاء للقارلوق ضد السلطان سنجر السلجوقى ، ولم يلبثوا أن اشتغلوا بالزراعة ، وجرت الاشارة الى القارلوق لآخر مرة في القرن الثالث عشر .

الخطا ، قره خيتاى ، وخيتاى ، وكلها اسماء لشعب خيتاى الوارد في المصادر الصينية منذ القرن الثامن الميلادى ، والراجح أنهم من التونغوز (أو مغول حسب بعض الآراء) •

وورد في نقش أرخون ما يشير الى أن هؤلاء الخيتاى كانوا اعداء للترك ، الذين كانوا ينزلون في أقصى الشرق من المنطقة التى بلغها الأتراك في حملاتهم ، ووفقا للمصادر الصينية ، نزل الخيتاى في جنوب منشوريا . وفي بداية القرن العاشر ، قام الخيتاى بحملات حربية من أجل التوسع ، فاستولوا على شمال الصين ، وأقاموا اسرة حاكمة بأسم ليائو (٩٦٦ م) • بل ان مؤسس الأسرة ، وهو اباؤوكى Apaoki استطاع أن يخضع شمال منغوليا ، الذى سبق أن استولى القرغيز عليه وذلك سنة ٨٤٠ .

واستطاع بيت ليائو أن يوطد نفوذه في جنوب الصين ، منذ سنة ٩٦٠ بعد أن طرد الأسرة الصينية ، اسرة سونج . وظلوا بجنوب الصين حتى حوالى سنة ١١٢٥ ، حين طردهم شعب تونجوزى آخر ، جرجين ، من الصين وشرق آسيا ، وقد تأثروا بالحضارة الصينية ، بما نقلوه من عبادتهم وكتابتهم •

على أن جانبا من الخطا بقى في الصين في ظل حكم جرجين حتى واتتهم الفرصة ، فثاروا عليهم ، واستعادوا مملكتهم التى صارت من توابع المغول . ومن ارتحل منهم نحو الغرب ، اجتازوا بلاد القرغيز على نهر ينيسى ، ثم اتجهوا صوب الجنوب الغربى ، حتى بلغوا الاقليم المعروف حاليا باسم الكوجاق ، فأنشأوا مدينة اميل ، واتخذوا منهاقاعدة للهجوم على بالاساغن التى لم تبد مقاومة عنيفة لهم . ثم فتحوا كشغر وختن ، ثم اقليم ما وراء النهر وخوارزم . فامتدت مملكة قره خيتاى



أوراسيا
حوالي سنة ١٢١٠
بداية الفتوح المغولية
حدود تقريبية
مدن
كم.
اوربا
القبجاق
القانقلى
اوستياك
الترك الياكوت
الساموييد
التونغوس
المغول
كرايت
الأويغور
الختائيون
التانغوت
التبت
الغوريون
الهند
بلوخستان
خراسان
الخوارزمية
الدولة العباسية
بغداد
مرو
بخارى
سمرقند
اوترار
جرجانية
سراي
الاسكندرية
القاهرة
المدينة
جدة
مكة
كرمان
هرمز
بلخ
باميان
كابل
غزنه
نانكين
تنغ كياغ
لونغ هونغ



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

من بلاد القرغيز (على نهر ينيسى) شمالا حتى بلخ جنوبا ، ومن خوارزم غربا الى بلاد الاويغور شرقا . وكانت بالاساغن عاصمة ملكهم . واتخذ ملكهم لقب الكورخان (أى خان الخانات) وكانت بلاد امراء البالاساغن تعتبر حدود العالم الاسلامى .

ولما تحطمت مملكة قره خيتاى ، وقامت مملكة الأمير كجلك النايمانى التى حلت في جانب من أملاكها ، كان لزاما على آخر ملوك قره خيتاى أن يتخذوا العادات والملابس الاسلامية . وبقى اقليم ما وراء النهر بيد الخطا ، الى أن انتزعه منهم علاء الدين محمد خوارزمشاه سنة ٦١٢ (١٢١١) . وتداعت مملكة الخطا ١٢١١ ، بفضل نشاط الأمراء المسلمين في الغرب من جهة وبفضل طغيان المغول من الشرق من جهة أخرى .

ومن الشعوب غير التركية ، التى تكرر ورود ذكرها في نقوش أرخون ، التتار . وقد اتخذ المغول فيما بعد هذا الاسم . وكان التتار ، في القرن الثامن (نقوش ارخون)، قسمين : الأول يتألف من تسع قبائل ، والآخر ، يتألف من ثلاثين قبيلة .

عاش التتار في الجنوب الغربى من بحيرة بايكال ، وامتدت منازلهم حتى نهر كيرولين . والتتار ثلاثة أقسام : التتار البيض الذين ينزلون خارج سور الصين مباشرة ، والواضح أنهم تأثروا بالحضارة الصينية ، بينما أقام التتار السود شمال صحراء جوبى ، وكانوا يمارسون حياة البداوة والتنقل ، وأقام تتار الغابه على الروافد العليا لنهرى اونون وكيرولين ، ومارسوا حياة الصيد ، وانكروا على أقاربهم ما كانوا عليه من ذلة وضعف .

وعلى الرغم من أن الغزاة في الفتوح المغولية في القرن السابع

(الثالث عشر الميلادى) كانوا يعرفون باسم التتار في كل مكان (في الصين ، وفي العالم الاسلامى ، وفي روسيا وغرب أوربا) ، فضلا عن اطلاق هذا الاسم على أسلاف جنكيزخان ، وعلى النايمان ، فان التتار كانوا قبيلة مستقلة عن المغول ، وكانوا ينزلون على بحيرة بوير نور (جنوب شرقى كيرولين) ، بينما صار اسم مغول يطلق على الشعوب التى خضعت لجنكيزخان بعد قهرها . ولم تلبث لفظة تتار أن تغلبت عليها لا سيما في الجهات الغربية من الأمبراطورية المغولية . ومن هنا كان لفظا المغول والتتار اسمين لقبيلتين كانتا تعيشان في الشطر الشرقى من آسيا الوسطى، وفي الشمال الغربى من الصين ، على أنهار Uldza اولدزا ، وكيرولين وأرخون ، وأونون ، وسائر روافد نهر عامور .

ومن العناصر المغولية ، الاويراتية ، الذين نزلوا على الشاطىء الغربى لبحيرة بايكال ، بينما قامت في جنوب هذه البحيرة ، مملكة الكرايت التركية فاحتلت المنطقة الممتدة من نهر ارخون وجبال كنتاى حتى سور الصين . ومنذ اوائل القرن الحادى عشر حتى نهاية القرن الثانى عشر ، كان للكرايت التفوق والغلبة على سائر العناصر المغولية ، وتحولوا الى المسيحية النسطورية ، بين ١٠٠٧ ، ١٠٠٩ ، على يد أسقف نسطورى مقيم في مرو . ومنذ ذلك الحين صاروا يدينون بالنسطورية واتخذ زعماؤهم في القرن الثانى عشر اسماء مسيحية . وكان طغرل من أشهر ملوكهم ، بعد أن تغلب على عمه الذى كان ينافسه على العرش ، ونجح في طرده بمساعدة رئيس مغولى هو يسوكاى والد جنكيزخان . واستطاع طغرل أيضا أن يهزم التتار ، لارضاء بلاط أسرة كين في الصين الشمالية . وبذا صار طغرل أقوى ملك في منغوليا . ومنحه امبراطور كين تقديرا له على أعماله ، اللقب الصينى للملك ، وهو وانج Wang فاشتهر في التاريخ بلقبيه الصينى والتركى، وانج خان وكان والد جنكيزخان من أتباعه .

والى الجنوب من الاويرات ، عاش المركيت ، الذين اتصلت منازلهم بمنازل مغول جنكيزخان ، جنوب بحيرة بايكال ، في حوض نهر سلنجا • وعاشوا الى حد كبير على الصيد في الغابات • والمعروف أن والدة جنكيزخان وزوجته تنتميان الى المركيت ، والراجح أن المركيت من المغول •

وفي غرب الكرايت ، أى الى الغرب من أعالى نهر أرخون ونهر نارون ، عاش النايمان ، الذين امتدت ديارهم الى نهر ارتيش • ومع أن اسمهم يبدو أنه مغولى ، اذ أن لفظة نايمان معناها ثمان ، فان ألقابهم كانت تركية ، ولذا يصح اعتبارهم من الترك المغول •

واعتنق النايمان الشامانية شأن سائر شعوب الاستبس ، غير أن النسطورية المسيحية نفذت اليهم • وجاءتهم أسباب الحضارة من الأويغور الترك الذين يعيشون الى الجنوب منهم .

وفي اقليم جبال كنتاى ، عند منابع انهار تولا وأونون وكيرولين ، أقامت عشيرة برجقين المغولية ، التى أنجبت جنكيزخان • وحول مغول برجقين ، أى في المنطقة التى يرويها نهرا أونون ، وأنجود ، ابتداء من كيرولين شرقا ، حتى بيكال غربا ، توالى نزول القبائل المغولية •

وفي زمن جنكيزخان ، انقسمت القبائل المغولية قسمين : القسم الأول يشمل عشائر بيرون أو بورس ، واتخذت هذا الاسم لانتمائها الى بورجقين ، ويفوقون القسم الثانى في أصالة النسب ، ومن هذه العشائر : تايجيوت ، وجاجيرات ، وبرلاس ، وبارين ، ودوربان ، وسالجيوت ، وكتاكين •

أما القسم الثانى فيشمل عشائر دورلوكين Durlukin ومنهم أرلات ، وباياوت ، وقورلاس وايكراس ، يضاف اليهم جلائر ،

التى لم يعرف أصلهم على وجه التحقيق • وهذه القبائل خضعت لأجداد جنكيزخان •

وفي القرن الثاني عشر الميلادى ارتبط القنقرات بصلة المعاهدة مع التايجيوت وبورجقين ، وكانوا ينزلون على ساحل بحيرة بوير نور التى تتوسط نهر خلقا •

والمغول الأصليون ، اجداد جنكيزخان ، كانوا يمارسون الرعى من جهة ، ويعيشون على الصيد من جهة أخرى ، نظرا لأن منازلهم كانت تقع بين السهوب والغابات . والمعروف أن القبائل التى تعيش على الصيد تأنف من حياة الرعى مثلما يأنف البدوى حياة الفلاح الذى يفلح الأرض • ومن المحقق أن قوم تيموجين ، الذين ينتمون للتتار السود ، كانوا أقل حضارة من قبائل كثيرة تنتمى الى هذا القسم من التتار أمثال قبيلة الكرايت ، الذين تحولوا الى المسيحية .

ويفصل نهر سرداريا (سيحون) بين العالم التركى المغولى والعالم الاسلامى ، وهذا هو السر في أن المغول الترك ظلوا محافظين على تقاليد عنصرهم ، بأن بقوا وثنيين ، وبوذيين ونساطرة ، وأكثر ما تأثروا من الحضارات ، هى حضارة الصين •

وفي نفس الوقت حدث في الشرق الأقصى ، أن اقتسم الصين ، الأمبراطورية الصينية الوطنية بالجنوب ، وهى امبراطورية سونج وعاصمتهم هانج شو ، ومملكة التونجوز الصينية بالشمال وهى مملكة كين ، وعاصمتها بكين • والى الجنوب من هاتين الدولتين ، أقام التانجوت في سى ــ هيا Si-Hia ، امارة خاصة بهم ، في خانسو .

الفصل الرابع

تداعي المجتمع المغولي قبيل ظهور جنكيزخان

الفوضى في منغوليا

الواقع أنه باستثناء الترك الأويغور والخطاء الذين استقروا في جنوب منطقة الاستبس ، وباستثناء منغوليا الأصلية ، هوت بقية منغوليا الى حالة بالغة الشدة من الاضطراب والهمجية . فلم يكن بين التتار والمغول والكرايت والنايمان ما كان معروفا باسم مدن البلاط Ordou - baligh فليست مدن الأويغور سوى معسكرات مدورة ، تقوم حول مخيم الزعيم . والواضح أن هذا المعسكر ينقض اذا ارتحل الزعيم أو الخان . على أنه حدث عند ولادة جنكيزخان ، أنه لم يكن بالاستبس المغولى أو ما يليها من الغابات ، شيء من هذه المعسكرات .

ففى منغوليا ، في منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، لا نكاد نلتقى الا بالدساكر الصغيرة التى ينزلها جماعات قليلة من الأسرات التى تمتهن الرعى . وفي كثير من الأحيان لا نصادف الا دسكرة واحدة . وهذا المثال انما نلتمسه في نوع الحياة السائدة ، أثناء حداثة جنكيزخان

واخوته ، حينما تخلى عنهم أعمامهم ، وأضحوا مضطرين الى ممارسة الصيد ، وحياة الكفاف •

ومن الناحية النظرية لا زال المجتمع المغولى قائما على الطبقية • واستند جنكيزخان فيما يبدو على هذه الطبقية ، فكان للمجتمع المغولى نبلاؤه الذين اتخذوا ألقاب بهادر (بمعنى الباسل)، وتوبان (النبيل) وستسن (الحكيم) • ومن رجاله فئة الأحرار (نوكور) ، الذين يرتكز عليهم النظام العسكرى السياسى في منغوليا ، زمن جنكيزخان ، ويتألف منهم طبقة المحاربين والموالين له ، يضاف الى ذلك طبقة العامة ، وطبقة الأرقاء •

وكل قوم من أقوام المغول يرأسه ، من حيث المبدأ ملك (خان ، قان) أو زعماء (باكى أوبكى) • وهذا اللقب اشتهر به قبائل الغابة أمثال اويرات ، ومركيت •

يضاف الى ذلك أن بعض القبائل تقبل الانتماء لقبائل أخرى بسبب عجزها ، أو لأن قبائل أخرى تكفلت بحمايتها ، أو كيما تحظى بحماية القبائل القوية المجاورة • وهذا ما حدث لقبيلة الجلائر في علاقاتها مع أجداد جنكيزخان ، وما جرى أيضا لقبيلتى القنقرات والأويرات حينما خضعتا لجنكيزخان •

والواقع أن الروابط السياسية والاجتماعية تمزقت في منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، بسبب الفوضى التى استمرت زمنا طويلا • فلم يكن للمغول التايجيوت ولا لغيرهم خانات ، فعاشوا في فوضى شاملة ، لما حدث من التنازع بين التايجيوت وجنكيزخان ، ولما وقع من الخصومة بين جنكيزخان وجاموكا • يضاف الى ذلك ما نشب من

التشاحن بين القبائل والعشائر المغولية على مواطن الرعى ، ومواقع المعسكرات ، ومن الدليل على ذلك ما كان من محاولات جنكيزخان ، بعد وفاة أبيه ، لجمع شتات العشائر • وما درج عليه المغول من الزواج من خارج قبيلتهم ، اما عن طريق التراضى والمفاوضات واما عن طريق الاختطاف ، مثلما حدث في زواج جنكيزخان ، ووالده ، كل ذلك أدى في أحوال كثيرة الى الحروب •

ويبالغ المؤرخ رشيد الدين فيما نسبه الى جنكيزخان من صفات وسجايا ، وذلك حينما أشار الى ما حدث قبل أن يتولى جنكيزخان الزعامة : فما من طفل كان يطيع والديه ، وما كان يستجيب الصغار للكبار ، وما كان النساء ليوقرن أزواجهن • ولم يقبل الأغنياء على مساعدة رؤساء القبيلة • بل انتشر اللصوص في كل مكان ، واستفحل أمر قطاع الطرق والمتمردين • ولم يتوافر الأمن لقطعان الخيل ، واضطرب الأمن في كل مكان ، فهلكت الخيل ولما تشب وتنهض •

محاولات توحيد القبائل المغولية

جرت محاولات عديدة قبل ظهور جنكيزخان ، لتوحيد القبائل المغولية ، غير أن هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح • والواقع أن الغموض يحيط بالتاريخ المبكر للمغول وسائر القبائل التى تعيش في آسيا الوسطى ، بل ان معنى اسم المغول لا زال موضع خلاف على الرغم من التسليم بما أورده Schott من أن اللفظة مشتقة من كلمة Mong الصينية بمعنى باسل شجاع • وما وصلنا من ملاحظات عابرة عن المغول في تاريخ أسرة تانج الصينية (٦١٩ ــ ٦٩٠) ؛ وفي مصادر متفرقة عند الاشارة الى أحداث سنة ٩٨٤ ، وسنة ١١٨٠ ، يتضح منها أنه لم يكن

للمغول الا تـأثير ضئيل في العالم الخارجي حتى القرن الثـاني عشر الميلادي ، وذلك بالاضافة الى ما ورد من حكايات عن قبائلهم المختلفة، ومنها حكاية البطل الذي رضع في طفولته من الذئبة ، والواضح أن هذه القصة تقابل قصة روميلوس مؤسس مدينة روما •

وعلى الرغم من أن المغول اتخذوا اسم التتار ، وكانوا ينتمون الى التتار السود ، فالراجح أن ذلك يرجع الى ما كان للتتار من شهرة سابقة على ظهور المغول ، فقد كانوا معروفين في التاريخ منذ القرن السادس ، على حين أنه لم تبدأ شهرة المغول الا منذ القرن الثاني عشر ، يضاف الى ذلك ما كان للتتار من سلطان كان مصدر تهديد لمملكة الصين الشمالية ولما يجاورهم من أقوام ، فضلا عن الفوضى والاضطراب التي حلت بين القبائل المغولية • فيشير دوسون الىأن المغول كانوا يعبدون الشمس عند الشروق ، ولا يؤمنون بدين ، ولا يعرفون حلالا أو حراما ، فأكلوا من لحوم الحيوانات على اختلافها من الكلاب والخنازير وغيرها •

وما اشتهروا به من البسالة وشدة الاحتمال والنظام والفروسية والرماية ، يقابله ما هو معروف عنهم من الغطرسة والعناد والكبرياء ، والقذارة ، التي كانت من عاداتهم المألوفة •

والمعروف أن المنازل الأصلية للمغول امتدت على أنهار كيرولين ونوني وأرخون ، وأن جد المغول ، بوداتتسار Budenstar اشتهر بالمكر والخديعة ، واستطاع أن يفوز بالزعامة على قبيلة تعيش في الجهات المجاورة لمنازله على الشاطىء الشرقي لبحيرة بايكال ، ولم تلبث أسرات عديدة أن التمست حماية ابنه قيدو ، فتزايد عدد رعاياه ولم يلبث أن اتخذ قيدو لقب خان • هذه كانت النواة الأولى لمملكة المغول• وكان لقيدو ثلاثة أبناء ، كان أكبرهم جدا لأسرة قيات ، Kiyat

التى ينتمى اليها جنكيزخان ، بينما كان الثانى جدا لأسرة التايجيوت ؛ وشهد جنكيزخان في حداثته ما وقع بين الأسرتين من تنافس وتنازع •

وبلغت الملكية الأولى للمغول ذروتها زمن كابل حفيد قيدو ، بعد أن توطدت الصداقة بين المغول وأسرة كين التى كانت تحكم بشمال الصين ، نظرا لما تتعرض له من تهديد من جانب منغوليا ، غير أنه وقع من المشاحنات بين خان المغول (كابل) وملك الصين (تاى سونج) ، ما أدى الى نشوب الحرب بينهما سنة ١١٣٥ ، وحلت الهزيمة بجيش الصين ، سنة ١١٣٩ • ويعتبر هذا التاريخ بداية لنهوض المغول •

وعلى الرغم من سيادة أسرة كين على منشوريا ، وشمال الصين ، فانها أضحت تحس بخطر المغول بعد أن امتد سلطانهم نحو الشمال الغربى لمنغوليا ، وبعد أن أخضعوا التتار النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين • ولم يسع أمبراطور الصين الشمالية (التان خان) من أسرة كين الا أن يثير العداء بين المغول والتتار ، فنشبت معارك عديدة اشترك فيها يسوكاى من سلالة كابل والد جنكيزخان ، والذى صرع أحد زعماء التتار ، واسمه تيموجين . ولتخليد هذا الانتصار أطلق يسوكاى على ابنه عند ولادته ، اسم تيموجين ، وهو الذى صار يعرف فيما بعد باسم جنكيزخان •

وتلى ذلك فترة أضحى فيها للتتار النفوذ والسلطان بفضل مساندة أسرة كين بما بذلته لهم من الأمداد الحربية ، وبما لجأت اليه من أساليب السياسة والدهاء والمكر ، فضلا عن جيوش التتار ، كل ذلك أدى الى تداعي مملكة المغول الناشئة ، وسيطرة التتار على شرق صحراء جوبى ، بعد أن كان في حوزه المغول • وصار التتار مصدر خطر على أسرة كين ذاتها ، فلم تلبث هذه الأسرة الملكية بالصين الشمالية أن انقلبت عليهم ،

فهيأت بذلك الفرصة لأن ينتصر جنكيزخان عليهم •

على الرغم من أن يسوكاى لم يكن الا رئيس اسرة بورجقين ، من عشيرة قيات (١) فقد اشتهر يسوكاى بأنه كان محاربا شجاعا وقائدا بارعا •

وسبق الاشارة إلى ما أحرزه من انتصار على أحد زعماء التتار ، واسمه تيموجين ١١٦٧ . ثم نهض الى مساعدة طغرل زعيم الكرايت في الغرب ، لاسترداد عرشه ، وتحالف الاثنان على أن يكونا يدا واحدة ، وأفاد جنكيزخان فيما بعد من هذا التحالف •

تزوج يسوكاى بهادور (الباسل) من هوئيلون (يولون) Ho'elun من قبيلة المركيت ، وأنجب منها أربعة أبناء اكبرهم تيموجيــن، ثم جوشى قسار ، وقاتشيون ، وتيموجى فضلا عن ابنة • وكان له من زوجتين اخريين بكتر Bekter ويلجوتاى •

---

(١) المعروف ان اجداد جنكيزخان ، كانوا من اتباع اسرة كين وخرجوا على طاعتهم ، اذ قاد كابل من اجداد جنكيزخان الغارة على الجيش الصينى، واشترك في هذه الحملة يسوكاى . فانهزم الصينيون ، وحصل المغول على غنائم وفيرة .

وكان لأخ كابل ، وهو برطام بهادر ، أربعة ابناء كان ثالثهم يسوكاى هو الذى اختاروه رئيسا للقبيلة .

الفصل الخامس

جنكيز خـــان CINKHEZ KHAN

نشاته وتربيته

جرت ولادته على نهر اونون ، سنة ١١٥٥ م وفقا لروايات كثيـــر من المؤرخين ، غير أن بليو Pelliot أثبت أنها حدثت سنة ١١٦٧ • وكان ابوه ، يسوكاى غائبا وقت ولادته اذ كان يقاتل التتـــار ، وقد صرع زعيما لهم اسمه تيموجين Temuchin (١) • وعاد يسوكاى مظفرا الى منازله ، فلقى مفاجأة سعيدة ، بأن زوجته ، يولون ، أنجبت له ابنا •

وحينما فحص الطفل ، لحظ أن بداخل قبضة يده قطعة من الدم

---

(١) تيموجين لفظة صينية معناها الصلب الفائق ، ومنها تيمـورج بمعنى الحداد . ومن معانيها ايضا الفارس الكامل .

المتجمد ، كأنها حجر أحمر • فتراءى للزعيم المغولى الذى يؤمن بالأساطير أن هذا الحدث يشير الى ما أحرزه من انتصار على زعيم التتار ، ولذا أطلق على ابنه اسم هذا الزعيم تخليدا لانتصاره •

ولما بلغ تيموجين التاسعة من عمره (١١٧٦ حسبما روى بليو) صحبه ابوه يسوكاى لزيارة اخواله فالتقى أثناء الرحلة بأحد زعماء المغول القنقرات ، فتنبأ لتيموجين بمستقبل باهر ، وحرص على أن يزوجه من ابنته بورته Borte التى لم تتجاوز وقتذاك العاشرة من عمرها • ولم يلبث يسوكاى أن مات اثناء عودته الى دياره ، وترددت الشائعات أن التتار دسوا له السم فمات سنة ١١٧٦ •

قيام مملكة منغوليا •

ساءت أحوال أرملة يسوكاى وأطفاله بعد وفاته • فالمعروف أن يسوكاى استطاع أواخر أيامه أن يجمع تحت سلطانه عددا من القبائل الموالية ، فضلا عن قبيلة قيات التى يتولى زعامتها • ولم تلبث أحقاد خصومه بسبب ما أحرزه من انتصارات ، أن انطلقت بعد وفاته ، وكان من أشد القبائل عداوة وضراوة قبيلة ، التايجيوت ، التى أنكرت على تيموجين الزعامة • ولما احتج عليهم ، أجاب العصاة المتمردون ، « أن أشد الأبار عمقا قد يصيبها الجفاف ، وان أشد الحجارة صلابة قد تنكسر ، فلماذا تتعلق بك » •

كان لزاما على زوجة يسوكاى أن تبذل كل ما تستطيع من جهد ، لتحصل على الزاد الضرورى لأفراد أسرتها ، فصارت تلتقط لهم الثمار ، وما ينبت بالأرض من خضروات ، ولم يتطرق اليأس الى قلوب أفراد هذه الأسرة ، وأكبرهم لا زال حدثا صغير السن • ومع ذلك فان هذه

الجماعة احتفظت بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب ، فأخذ الصبيان يصيدون من نهـر أونون مـا يلزم لاعاشتهم ، وحرصت يولون على أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة ، فلما وقع الخصام بين أبناء يسوكاى الأشقاء وغير الاشقاء ، وأسفر هذا الشقاق عن مصرع بكتار ، ابن يسوكاى من زوجة أخرى ، انفجرت يولون في وجه ولديها تيموجين وقسار ، اللذين تسببا في هذا الحادث وقالت لهما : أيها القتلة ، فحينما ولدت يا تيموجين كنت تقبض على قطعة دم متجمدة • لستم الا نمرة تنقض على فريستها ولستم الا كالأسـد الغاضبة ، ولستم الا كالبزاة تحلق في الجوزاء فوق ظلالها ، وكالابل تقضم في أثناء غضبها ابناءها ، وكالذئاب التى تنقض على فريستها في غمرة العاصفة ، فليس لدينا ، فيما عدا ظلالنا ، رفـاق • وما تعرضنا له من الشرور على أيدى التايجيوت ، بلغ من العنف ما لا نستطيع تحمله ، فلا بد من الانتقام منهم •

وتعرض تيموجين واخوته وأمه لغارات التايجيوت ، الذين حرصوا على اذلالهم ، فلم يسع تيموجين واسرته الا أن ينتقلوا بمعسكرهم الى جبال بورقان كالدون ، الى جبل كنتاى ، الذى كان له من القـداسة عندهم ، ما حمل تيموجين على الاعتقاد بأنه هو الذى حماه وعصمه من الأعداء •

ولم يتخل البؤس عن تيموجين واخوته ، فكل ما كانوا يملكون لم يتجاوز تسع أفراس ، وقع منها ثمانى في ايدى المغيرين دفعة واحـدة ، وأصر تيموجين على أن يطارد اللصوص ، حتى التقى بعد أربعد أيام بغلام تبدو عليه سمات النبل ، اسمه بورتشو ، أحس بالميل والعـاطفة نحو تيموجين ، فاشترك معه في البحث عن الأفراس ، حتـى عثرا عليها ،

فساقاها بعد أن ظهرت براعة تيموجين في مراماة أعدائه واجبارهم على ان يتخلوا عن اللحاق به • وكان من أثر هذه المغامرة أن توطدت الصلة بين تيموجين وبورتشو ، وكانت بداية طيبة لأمجاد بورتشو المقبلة •

ونستطيع أن نستخلص ، من هذه الأفعال ما كان لتيموجين من الطباع والصفات • فما يبهرنا فعلا ، ما كان له من شخصية بلغت من القوة أنها فرضت نفسها على كل من تلتقى به • فمنذ هذه اللحظة انجذب اليه بورتشو ، وربط مصيره بمصير تيموجين • وسوف نلحظ ما يشبه ذلك ، حينما انحازت الى تيموجين القبائل الواحدة بعد الأخرى ، وقد جذبتها مواهبه في القيادة واحساسه بالعدالة ، واخلاصه لأصدقائه ، واعترافه بما يؤدى له من خدمات • أضحت محبته لأصدقائه الأوائل مضرب الأمثال • ومن طباع سكان الخيام ، المحبة الشديدة للأصدقاء التى لا يضارعها الا الكراهية البالغة للخصوم •

أنجز تيموجين من الأعمال ، ما يجعله يفكر بعدها في الزواج ، ولا سيما أن أباه عقد له الخطبة على بورته ابنة زعيم القنقرات النازلين على نهر كيرولين ، وزاد في فرح صهره وسروره ما أصبح عليه تيموجين من متانة البناء والقوة ، ولم يلبث أن انتقل تيموجين وزوجته وسائر أفراد أسرته الى منابع نهر كيرولين •

ارتفع شأن تيموجين ، بعد أن نجا من مؤامرات التايجيوت ، وأضحى الرجل القوى الذى تنشده سائر القبائل ، فصار في مقدوره أن يشترك في الأحوال السياسية ، بأن يكون من البارزين من رجال المغول الذين يتنازعون السيطرة على شرق منغوليا •

وما اشتهر به تيموجين من روح عملية ، أثارت فيه الميل الى

السلطان ، وحملته على أن يفكر في الافادة من مركزه القوي ، بأن يعقد معاهدات واتفاقيات خارج قبيلته . واذ أسهم أبوه ، يسوكاى ، في توطيد مركز طغرل زعيم الكرايت ، حتى صار من أقوى ملوك الاستبس ، حرص تيموجين على أن يسير على نهج أبيه ، فتوجه الى حيث ينزل طغرل على نهر تولا ، وبذل له يمين الولاء بأن يكون من أتباعه ، وخاطبه « سبق أن توطدت أواصر المحبة بينك وبين أبى ، فانت الآن في مقام أبى » .

واذ ارتاح طغرل لهذه التبعية ، وعد بأن يسانده في أن يجتمع تحت زعامة تيموجين من جديد ، سائر رجال العشيرة الذين هجروا منازله أثناء حداثة سنه .

والواقع أن أحوال تيموجين أخذت تستقر ، وذاع أمره ، وسعى الناس من القبائل المختلفة لكسب صداقته ، فصار جيلمى ، الذى تقدم به أبوه لأن يكون خادما له ، من اخلص الرفاق ، شأنه في ذلك شأن بورتشو .

وبفضل نصائح طغرل ملك الكرايت ، والذى دان له تيموجين بالتبعية ، انحاز اليه زعيم مغولى آخر ، اسمه جاموكا ، رئيس قبيلة جاجيرات ، فقام بينهما من المحبة والود ما جعل منهما أخوين ، غير أن النزاع لم يلبث أن دب بينهما ، فانفرط عقد التحالف ، وانحاز الى كل منهما جماعة من الموالين له . واذ جرى التنبؤ بان زعامة القوم سوف تؤول الى تيموجين ، ازداد انحياز القبائل والعشائر الى جانبه ، ومن الذين انحازوا اليه ، اربعة امراء من المغول يجرى في عروقهم الدم الملكى ، بعد أن انفصلوا عن جاموكا .

اجتمع الأمراء الأربعة ، وتشاوروا فيما بينهم ، واستقر رأيهم ، باعتبارهم يمثلون أقدم الأسرات الملكية وأعرقها نسبا ، على أن يختاروا تيموجين خانا على المغول •

والمعروف أن تيموجين ينتمي الى هذه الأسرة ، غير أنه لم يكن له من الحقوق في ولاية الحكم ما يفوق حقوق التاى الذى كان ابن قوتولا ، آخر خاقان للمغول • ومع ذلك فان ما كان من ولاء واخلاص بين تيموجين بين هؤلاء الأمراء ، تمثل فيما جرت به الرواية من أنهم خاطبوه: لقد قررنا بأن ننادى بك خانا • وسوف نكون في المقدمة عند خوض المعارك ضد عدد لا حصر له من الأعداء • فما نسبيه من النساء الجميلات ، والفتيـات الحسناوات ، وما يقع في أيدينا من الجياد الأصيلة ، سوف نبذله لك • وما نحصل عليه من الصيد ، سوف نجعله لك • فاذا حدث أن عصينا أوامرك أثناء الحرب أو برمنا بك أثناء السلم ، فلتفرق بيننـا وبيـن زوجاتنا ، وتنتزع منا متاعنـا ، ولتهجرنا ولتجعلنـا منبوذين • (١)

واذ التزموا بهذا القرار ، اختاروا تيموجين خانا ، وأطلقوا عليه اسم جنكيزخان (٢) •

والواقع أن ما حدث من اختيار جنكيزخاز ، ليتولى الحكم ، وهو

---

(١) تحدث الخان بنفس هذه القوة ، حينما تخلى عنه فيما بعد هؤلاء الناخبون الكبار ، اذ قال لقد اوفيت لكم بكل ما بذلته من وعود . فمـا ظفرت به من قطعان الخيل والأغنام ، وما سبيته من النسـاء والأطفال ، جعلته لكم . وحينما كنا نمارس الصيد في اقليم الاستبس (السهوب) ، نظمت لكم حلقة الصيد ، وسقت لكم الصيود من أعالى الجبال .

(٢) شرح المؤرخ رشيد الدين هذا اللقب الملكى المشتق من لفظـة صينية مغولية ، Tching ، ومعناها القوى . وليس في ذلك ما يشير الى الصفة العالمية التى تجعله امبراطور العالم .

الانتخاب الذى اشترك فيه التان ابن قوتولا ، والأمراء الذين يمثلون الأسرة الملكية السابقة ، لم يكن الغرض منه سوى وقف ما حدث من تفتت العشائر والقبائل المغولية ، واعادة السيادة الى أسرة قيات ، وترقب الفرصة المواتية للانتقام من التتار • فاختاره أقاربه وبنو عمومته ، لما لمسوه فيه من أنه زعيم في الحرب والصيد • فما اشتهر به الخان الجديد من العبقرية في التنظيم والشدة في التزام النظام ، يعتبر من أهم صفاته •

وحرص جنكيزخان على أن يوزع بين أنصاره الموالين له الوظائف الأساسية الحربية والمدنية : فجعل من اقرب الناس اليه ، وأشهرهم فى الرماية حرسا خاصا له ، وخص آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية واعداد العربات ، والتماس المراعى ، والاشراف على الخدام ، ورياضة الخيل ، ونقل الأوامر الملكية ، والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاى) • ولم ينس أمر بورتشو وجيلمى ، فمن المأثور عن جنكيزخان أنه قال : اننى لا أنسى انكما كنتما رفيقى حينما لم يكن لى رفاق ، ولذا جعلت لكما الرياسة على جميع هؤلاء • ثم وجه الخطاب الى رعاياه : انكم جميعا تخليتم عن جاموكا ، وحرصتم على الانحياز الى جانبى ، فانتم جميعا يا أصدقائى القدامى ، خير رفاق لى في المستقبل •

كان لزاما على تيموجين أن يتغلب على منافسيه • ففى سنة ١١٨٨ هاجم بجموعه التى يبلغ عددها حوالى ١٣ ألف رجل جموع التايجوت وكانوا نحو ٣٠ ألف مقاتل ، على نهر بالجيوتا الذى ينبع من انجودا ، فأنزل بهم هزيمة ساحقة والقى بالأسرى في أحواض امتلأت بالمياه شديدة الحرارة ، فافتتح بذلك اثارة الخوف والرعب في نفوس الخصوم ، وصار ذلك من لوازم حكومته • وترتب على هذا الصدام أن انصاع لأوامر

تيموجين القبائل التى تحالفت عليه • ومع ذلك لا زال تيموجين من أتباع ملك الكرايت ، طغرل • واستطاع تيموجين وملك الكرايت أن يقهروا القبائل التركية المغولية الخارجه على نظامهما ، ولا سيما قبيلة المركيت ، وجانب من قبائل النايمان (١١٩٥ — ١٢٠٠) ، والمعروف أن النايمان أضعفهم ما وقع من نزاع بين ملكهم تايانك خان وأخيه ، بويوروق ، الذى تعرض لهجوم تيموجين وطغرل •

وما وقع من احداث في منغوليا في النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، أثارتها سياسة الحكومة الصينية فضلا عن عوامل محلية • اذ انتهجت أسرة كين في الصين الشمالية ، السياسة التى درجت عليها أسرات صينية عديدة ، وهى سياسة الايقاع بين القبائل ، وبين الزعماء• وسبق الاشارة الى أن التتار النازلين في بوير نور ، أسهموا في مصرع كثير من الأمراء المغول ، فأضحى لهم من القوة ما أعجز الصينيين عن مناهضتهم •

وحرص ملك الصين الشمالية على أن يتخذ من الكرايت والمغول حلفاء له ، وفي سنة ١١٩٤ تقرر مصير الحرب لصالح الحلفاء • وعلى سبيل المكافأة ، حظى ملك الكرايت بلقب وانج (١) ، وظفر ابنه بترقية في سلك الجيش ، بأن صار سنجون ، وحاز تيموجين أيضا لقبا من ألقاب التشريف ، غير أنه لم يضارع في الرفعة ، الألقاب الأخرى .

على أن القبائل التى احست بالتهديد من جانب تيموجين • ألفت حلفا ، دخل فيه ، قبائل جاسيرات والمركيت والتايجيوت ، والقنقرات والتتار • ومن ملوكهم توكتا ملك المركيت ، وجاموكا ملك الجاسيرات•

---

(١) اللفظة الصينية وانج Wang, ung, ong تطلق على الملك عند المغول ، مثلما جرى اطلاقها على اتراك القرن الثامن الميلادى .

واتفق هؤلاء الحلفاء على أن يختاروا جاموكا كورخانا (امبراطورا على القبائل التركية المغولية وذلك سنة ١٢٠١ • ويصح تفسير هذه الحركة على أنها حرب تثيرها الجموع (العامة) ضد الارستقراطية • ويختلف جاموكا عن تيموجين وحلفائه في أنه لم يتخذ جانب الارستقراطية . ويختلف قطعان الجياد بل كان في جانب الفقراء والمساكين ، أصحاب قطعان الجياد • ولم يلبث الجيش الذى حشده جاموكا أن انهزم وتبدد (سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢) • غير أن جاموكا نجح فيما بعد في اكتساب ثقة سنجون ووالده اونك خان ، وفي تحولهما عن حليفهما السابق ، تيموجين • واذ تخلى عن تيموجين أتباعه ، كان لزاما عليه أن يلجأ مع من تبقى معه من فئة قليلة من الموالين له ، الى بحيرة بالديونا • وهذه الفئة القليلة التى ظلت على ولائها لتيموجين ، ظفر قوادها فيما بعد بامتيازات في الأمبراطورية التي أقامها جنكيزخان (١) • على أن ما اشتهر به تيموجين

---

(١) الملحوظ أن ثلاثة رجال من هؤلاء المخلصين كانوا من المسلمين ، وهم جعفر خوجا (ويقال انه أخ لزوجة جنكيزخان) وحسن ودانشمند الحاجب . وصحب حسن ودانشمند جنكيزخان ، بعد سنوات ، في حملته على مملكة خوازرمشاه ، وبذلا له خدمة جليلة ، بما كان لهما من دور هام في المفاوضات بين جنكيزخان وسكان هذه البلاد . ولا بد أن دانشمند كان أصغر سنا من جنكيزخان ، فقد عاش نحو ٢٥ سنة بعد وفاته . وكان مؤدبا لاحد ابناء اوكتاى بن جنكيزخان .

وهؤلاء المسلمون قدموا الى هذا الجانب من العالم على انهم تجار . والمعروف أن التجار المسلمين ، القادمين من الغرب ، هم الذين كانوا يمارسون التجارة مع منغوليا والصين . وهؤلاء التجار الذين أطلق عليهم المغول لفظة اورتك التركية ortak (ومعناها الوسطاء) ، ظفروا بعطف جنكيزخان فيما بعد . فمن الأقوال المأثورة عن جنكيزخان انه نصح قادته بأن يهيئوا لابنائهم تعلم سائر فنون الحرب ، حتى يصير لهم من الثقة بانفسهم في الحملات الحربية ، ما للتاجر من الحرص على قدر وقيمة سلعه التجارية اثناء سفره ورحيله للتجارة . وربما كان لنصائح هؤلاء الرجال (المسلمين) الذين فاقوا المغول فعلا في العلم والخبرة ، تأثير على سياسة جنكيزخان وعلى نظم أمبراطوريته .

من الدهاء والمكر ، هيأ له أن يخدع أعداءه ، ويبغتهم بهجوم مفاجىء سنة ١٢٠٣ ، فلم ينج اونك خان وابنه سنجون الا بالفرار ، غير أنهما قضيا حتفهما ، الأول في غرب منغوليا ، والآخر في المنطقة الواقعة بين كشغر وختن .

والواقع أن لهذا الانتصار أهمية كبيرة ، اذ يعتبر بداية مرحلة جديدة في حياة تيموجين ، اذ سبق الاشارة الى أن تيموجين اعتبر نفسه من اتباع طغرل ، الذى جعله في منزلة والده ، لما كان بينهما من صلات ودية قوية ، يضاف الى ذلك ما كان من مساندة طغرل لجنكيزخان في اعادة السيطرة على قبائل المغول ، والافادة من عساكر الكرايت في حروبه مع خصومه ، ولذا تعتبر المعركة التى هزم فيها طغرل سنة ١٢٠٣ اختبارا لقوته وقيادته العسكرية ، ولما ترتب عليها من نتائج أهمها خضوع الكرايت لسلطانه ، واعتراف جميع القبائل النازله في الشطر الشرقى من منغوليا بسيادته ، والانصراف الى قتال النايمان .

المعروف أن النايمان تأثروا بالمسيحية ، واخذوا عن الاويغور أبجديتهم وقد رحب ملك النايمان (تاى يانج خان) بما عرضه جاموكا من الدخول في حلف جديد ، يضم كل أعداء تيموجين ، أمثال شعوب المركيت والأويرات والتتار وغيرهم.غير أن تيموجين أنزل الهزيمة بالتاى يانج خان النايمان سنة ١٢٠٤ ، ولقى مصرعه في هذا القتال ، بينما فر ابنه كوجلك صوب الغرب واستطاع أن يصل الى بحيرة بالكاش . وكان لزاما على النايمان أن يستسلموا بعد أن فقدوا قادتهم وزعماءهم . وحلت الكارثة بسائر المتحالفين ، بل ان جماعة منهم كالتتار جرى تدميرهم ، على حين أن جماعة أخرى من المتحالفين ، كالأويرات ، التفوا حول تيموجين. ووقع جاموكا في الأسر ، ولقى مصيره بأن جرى قتله وتقطيع أوصاله وأعضاء جسمه .

ومن الذين وقعوا في أيدى تيموجين ، تاتأنجو ، وهو من الاويغوريين وكان يعمل كاتبا للملك النايمان ، فأدخله تيموجين في خدمتــه ، وقــرر استخدام الأبجدية الاويغورية ، وتولى هذا الرجل تعليم هــذه اللغــة وكتابتها لأبناء جنكيزخان وابناء الطبقة الراقية من المغول • وكان لــه نفوذ قوى على اوكتاى بن جنكيزخان وخليفته في الحكم •



الفصل السادس

حكومة جنكيزخان

لم يكتمل فتح الشطر الغربي من منغوليا ، الا سنة ١٢٠٦ ، بعد هزيمة قبيلة النايمان المسيحية القوية . وفي هذه السنة اضحى تيموجين من القوة والمكانة ، ما جعله يعقد قوريلتاى (مجلس النبلاء) عند منابع نهر اونون ، فهتف به الحاضرون ، جنكيزخان ، (اى امبراطور العالم) ، على سائر الأقوام المغولية التركية (١) .

---

(١) لم يعتبر جنكيزخان واخلافه المباشرون انفسهم اباطرة للصين بعد أن تحطمت اسرة كين ، بل اعتبروا انفسهم أمراء على مملكة البدو فحسب . واذ درج تيموجين على قاعدة من سبقه من امراء البدو ، بأن اتخذ لنفسه اسما آخر ، حين صار سلطانا ، غير أن اخلافه لم يلتزموا بهذا التقليد .

ولا يصح الركون الى ما ورد في مأثورات المغول من تفاصيل عن التاريخ الذى اتخذ فيه اسم جنكيزخان ، والمقصود بلفظة جنكيز . ففى بعض الروايات ما يشير الى أن تيموجين اتخذ هذا الاسم ، باعتباره خانا على جماعة من المغامرين . ووفقا لروايات أخرى لم يتخذ هذا الاسم الا بعد انتصاره على

واتفقت كل المصادر على ان جنكيزخان لم يعقد أول مجلس للنبلاء (قوريلتاى) الا بعد سنة ١٢٠٦ ، اى بعد توحيد منغوليا ، وأنه في هذه المناسبة اتخذ رداء السلطنة ووضعت لأول مرة نظم الأمبراطورية • وللدلالة على قوة الخان ، اقام في معسكره لواء ، يتدلى منه اذيال تسع أفراس بيضاء • ويشير الكتاب الصينيون الى أنه رسم على هذا اللواء القمر في المحاق •

والمأثور عن جنكيزخان أنه قال ان كل من يستطيع ان يحفظ الأمن والطمأنينة في داره ، في وسعه أن يقر الأمن في الامبراطورية • ومن يضبط عشرة رجال ، يستطيع ان يتولى قيادة ألف أو عشرة آلاف رجل • وهذا القول حققه جنكيزخان في حياته كما لم يحققه أحد غيره• وأجرى جنكيزخان الأمبراطور ما أجراه وهو زعيم عصابة من المغامرين ، بأن أحاط نفسه بحلقة من صفوة الأتباع الذين جعل فيهم كل الثقة ، وكان يركن اليهم في كل الأمور ، وصادفوا بعد وفاته من النجاح ما صادفوه اثناء حياته • وسبق الاشارة الى ما قام به من توزيع الوظائف المدنية والعسكرية ، على هذه الفئة المختارة من اتباعه (١) •

الكرايت سنة ١٢٠٣ . وفي رواية ثالثة انه لم يتخذ هذا الاسم الا سنة ١٢٠٦ بعد الانتصار على النايمان . ويشير المؤرخ الصينى المعاصر Meng - hung الى أن لفظة جنكيز ليست الا تحريفا للفظة الصينية Tien - tze ومعناها ابن السماء . وفي اشتقاق صينى آخر Ching - sze معناها المحارب الكامل . اما اشتقاقها المغولى ، فان المؤرخ رشيد الدين يشير الى ان Cingiz ، هى صيغة جمع للصفة Cink بمعنى قوى وباسل . ووفقا لما جرت بهالرواية من أن تيموجين تلقى لقبه ، من راهب شامانى فيصح تبعا لذلك أن تكون لفظة Cingis مستمدة من العقائد الدينية عند المغول .

(١) انظر ما سبق ص ٤٩ .

وما كـان له من أهمية خاصة فيما أحرزه المغول مـن انتصارات حربيـة ، ما جرى انشاؤه من قوات عديـدة للحرس اتخذت صورتها النهائيـة سنة ١٢٠٦ ، وتحددت بالتفصيـل الدقيق واجبـات هؤلاء الحراس ، الذين كانوا يبلغـون عشرة آلاف رجل ، اشتهروا بالحذر واليقظة وشدة البأس • واختصوا بالنظر فيما يتعلق بالتزام النظـام في معسكر الخان . وهؤلاء الحراس كـانوا يؤلفون طبقة أرستقراطيـة ممتازة ، لأن الجندى في هذا الحرس ، يفوق في الرتبة قائد الف رجل في الفرق الأخرى • وليس لقائد ان يحكم بالاعدام على أحد من الذين يخضعون لقيادته الا بعد تصديق الخان على الحكم •

ومن هذا الحرس ، تألفت كتيبة من ألف رجل ، يطلق علـى كل منهم اسم « بهادر » أى شجاع ، وهؤلاء الرجـال هم الذين يقومون فعلا بخدمة الخان ، ولا يخرجون للحرب الا حينما يخرج الخان مـع الجيش •

ويأتـي في المقدمة ، من حيث المكـانة ، طبقة الأمراء مـن أسرة جنكيزخان ، ويقال لهؤلاء « نوين » أو « نويان » بينما كان يطلق على أشراف الجنـد ، لقب ترخان (طرخان) ، وهؤلاء معفون مـن دفـع الضرائب ، ولهم ما يحصلون عليه من الغنائم في الحروب •

ولجيش المغول نظـام بسيط ، يقـوم على وحدات مؤلفة مـن عشرات ، ومئات ، وألوف العساكر • وما اشتهر به هؤلاء القـوم من سرعة التعبئـة وشدتهم التـى لا تقهر ، ملأت قلوب ضحايـاهم خوفا ورعبا ، فكانوا يبـادرون الى الهجـوم قبل ان يبلـغ العدو التحذير والانذار • يضاف الى ذلك ما اشتهر به الزعيم المغولى من استخلاص الأخبار من التجـار ، ومن استخـدام العملاء والجواسيس ومدبرى

المؤامرات • وبفضل الرعايا الذين خضعوا له قهرا ، استطاع ان ينقل كميات ضخمة من أدوات الحصار التى لم يسمع عنها أحد ، وترجع المبادرة الى الاذعان والاستسلام ، أنه لا سبيل لقوم من الاقوام الا أن يختاروا بين الاذعان او القتل والنهب المريع . وهذا يتوقف على ما اذا كان القوم رضوا بالاذعان أو أظهروا المقاومة •

على ان المغول التزموا الاتزان والتعقل في مغامراتهم ، فلم يحاولوا اقامة سلطانهم في منطقة اتخذوها قاعدة للغارات ، فاذا تراءى لهم أن الخطر يهددهم ، توقفوا عن المضى في القتال • غير أنه لم يكن لشجاعتهم واقدامهم حدود ، فلم يقع أحد منهم في الأسر ، فاما أن ينتصر او يلقى مصرعه •

ومن احسن الوسائل اللازمة للمحافظة على النظام ، وتدريب العساكر واختيارهم ، ما جرى تنظيمه واعداده على نطاق واسع من حملات الصيد • ففي هذه الحملات ، اشتد الحرص على مراعاة كل ضوابط النظام العسكري بكل دقة ، على نحو ما يحدث فعلا في الحملات الحربية •

على أنه كيف رسخت روح النظام في عساكر المغول : انما يتضح ذلك من تاريخ المغول الذي جرى تصنيفه سنة ١٢٤٠ وفقا للروايات المغولية • ويورد المؤرخ المجهول ، ما كان لامراء البيت الملكى من استقلال ضخم ، ومع ذلك فانه يذكر صراحة ما كان لهم من اخطاء ، وما ارتكبوه من جرائم • لم يحفل كثيرا بما جرى فتحه من البلاد النائية ، ولم يذكر الا أتفه التفاصيل عن حروب الفتح ، بينما اعتبر ما هو جدير بالذكر ، ما وقع في خراسان من مخالفة صغيرة للنظام العسكرى ، ذلك أن جماعة من العساكر لم يحفلوا بأمر الخان ، فتخلفوا

عنه لنهب مكان المعركة •

لم يكن لجنكيزخان ان يزعم لنفسه ما زعمه الخان التركى الذى ورد اسمه في نقش اورخون (القرن الثامن الميلادي) ، من ان ما يقوم به من حملات الفتح والتوسع ، انما يقصد بها خير شعبه ، فيزيد من عدد قومه بعد أن كانوا قلة ، وان يغنيهم بعد فقر ، وان يكسو العريان منهم ، بل ان ما يقوم به انما كان لاقرار الأمن والنظام بين السكان والجيش • اذ حدث قبل زمنه ، ان الابن لم يطع اباه ، ولم يستحب الأخ الصغير لنصيحة اخيه الكبير ، ولم تستمع زوجة الابن لنداء حماتها ، ولم تستجب الرعية للحاكم ، كما أن الحكام من جانبهم لم يوفوا بما التزموا به من واجبات للرعايا الخاضعين لهم • اما في زمن جنكيزخان ، فقد استتب الأمن بين كل الناس ، وشعر الناس بما يؤدى من أعمال •

حرص جنكيزخان على الافادة من أرباب الخبرة في الشئون الادارية والعسكرية ، فلم يعرف استخدام الأختام والكتاب الا بعد الاستيلاء على بلاد النايمان • فقد كان في خدمة خان النايمان ، كاتب ايغورى ، تاتاأونجا ، فجعله جنكيزخان في خدمته ، وصار مستشارا له ، ومعلما لأطفاله وأطفال الطبقة الراقية من المغول •

ولم تتأثر الأمبراطورية المغولية في هذه المرحلة ، فيما يبدو ، بنظام الادارة المدنية المعروف عند الصينيين • فالمعروف أنه كان للامبراطورية الصينية هيبة في نفوس أهل الاستبس • فالأميرة الصينية ، من أسرة كين ، التى اتخذها جنكيزخان زوجة ، (عاشت بعده نحو ٣٠ سنة) قبيل الاستيلاء على بكين ، لم تكن جميلة الخلقة ، ولم تنجب له أطفالا ، ومع ذلك لقيت طوال حياتها المعاملة الطيبة التي تليق بها

باعتبارها ابنة أمبراطور عظيم ، حتى بعد سقوط ملك ابيها . ولم يكن ببلاط جنكيزخان ممثل للثقافة الصينية الا بعد زمن طويل من حكمه . فقد كان يى ليوجيوتساى ، من أهالى الصين الشمالية ، من أهم الأشخاص الذين أثروا في حياة جنكيزخان . اذ اشتهر بما حصل عليه من ثقافة عالية ، بما درسه من الحكمة وعلوم الفلك والجغرافيا والأدب ، ثم تولى ادارة مدينة بكين سنة ١٢١٥ ، ولم يلبث أن وقع في اسر المغول في هذه السنة حينما سقطت المدينة في ايديهم . فأمر جنكيزخان باطلاق سراحه ، وأدخله في خدمته ، وارتفع شأنه في دولة جنكيزخان . على أن المغول لم يستخدموا الأبجدية الصينية الا بعد سنة ١٢١٩ ، وحتى وقتذاك كانت الوثائق السياسية التي ترسل الى الصين ، يجرى تحريرها باللغة الايغورية . ولم يتعلم جنكيزخان طوال حياته ، سوى لغة قومه ، بينما كان من المغول فئة من الشباب ، ألمت بثقافة الشعوب المغلوبة على أمرها ، وأجادت الحديث بلغات عديدة .

ولم يدخل في خدمة جنكيزخان موظفون من الفرس الا بعد الاستيلاء على اقليم ما وراء النهر ، ومع ذلك دخل في خدمته قبل الهجوم على أملاك الدولة الخوارزمية ، محمود يلواج (السفير او الرسول) ، وقد أنفذه جنكيزخان في سفارة الى محمد خوارزمشاه واتخذه جنكيزخان وزيرا ومستشارا له ، ثم ولاه ، بعد الاستيلاء على اقليم ما وراء النهر ، حاكما من قبله ، فقام بعمارة ما خربه المغول ، وأصلح أحوال الناس بادارته السليمة .

وفي سنة ١٢٠٦ أصدر جنكيزخان قانون الياسا (١) عقب انتخابه

---

(١) ياسا لفظة مغولية معناها الحكم أو القاعدة أو القانون ، ووردت في المصادر العربية والفارسية في صور مختلفة : ياسا ، وياسه ، ويساق ،

امبراطورا • والمعروف أنه كـان للمغول قبل جنكيزخان مجموعة من الآداب والتقاليد ، تعارفوا عليها ، فلما جاء جنكيزخان أعاد النظر فيها ، فعدلها بالحذف والاضافة ، وجعل لها صفة رسمية ، وأمر بتدوين تلك الأحكام والاحتفاظ بها في خزائن امراء المغول •

ولا شك ان التجارب التـي عاشها جنكيزخان ، والشدائد التي عاناها ، وما تعرض له من المؤامرات والخيانات ، وما صادفه في حيـاته من متاعب ، وما قام به من حروب ، كل ذلك كـان له أهمية في تقدير أحكام الياسة • اذ كـان حريصا على أن يجمع كلمة القبائل الخاضعة ، ويكبح جماح أفرادها ، ويلزمهم بالنزول على حكمه ، فلا بد أن يشتمل هذا القانـون على عقوبـات بالغة الصرامة ، حتى يقضي علـى أسباب الفوضى ، ويعيد الأمن الى نصابه • وتحقق لجنكيزخان هذا الغرض ، واستطـاع أن يحول جمـوع المغول الى جيوش منظمـة ، تسير وفقا لخطط حربية مرسومة •

وتحدد في هذا القانون علاقة الحاكم بالمحكوم ، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض ، وعلاقة الفرد بالمجتمع •

ومن نصوص هذا القانون ما يأتي :

وياساق ، ويسق . وتطلق على الحكم الذى يصدره الملك أو الأمير . ولما كان كتاب الياسا يشتمل على جانب كبير من الاحكام التى تتعلق بالجزاء والعقاب ، واذ شاع حكم الاعدام على المذنبين ، صار من معانيها القتل والموت . وهذه الاحكام تدونت بالخط الاويفورى وأقرها جنكيزخان ، وصار يطلق عليها كتاب الياسا الكبير . وكان المغول يرجعون الى نصوص الياسا ، عندما يجلس خان جديد على عرش المغول ، وحينما ينعقد مجلس عام للتشاور في السياسة العامة للدولة ، وفي حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال .

١ ــ من وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده الى صاحبه قتل •

٢ ــ من أطعم أسير قوم او كساه بغير اذنهم قتل •

٣ ــ من وقع حمله أو قوسه او شيء من متاعه وهو يكر او يفر في حالة القتال ، وكان وراءه شخص ، فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه ، فان لم ينزل ولم يناوله قتل •

٤ ــ لا يأكل احد من احد ، حتى يأكل منه المناول اولا ، ولو كان المناول أميرا ، ومن يناوله اسيرا .

٥ ــ لا يختص احد بأكل شيء وغيره يراه ، بل يشركه معه في اكله •

٦ ــ لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ، وان مر أحدهم بقوم وهم يأكلون ، فله ان ينزل ويأكل معهم ، وليس لأحد ان يمنعه •

٧ ــ منعهم من غسل ثيابهم ، بل يلبسونها حتى تبلى •

٨ ــ منع من ان يقال لشيء انه نجس ، فان جميع الاشياء طاهرة •

٩ ــ الزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب •

١٠ ــ منع من تفخيم الالفاظ وروائع الالقاب ، فلا يخاطب الشخص مهما علت مكانته الا باسمه فقط .

١١ ــ ألزم القائم بعده (النائب عنه) بعرض العساكر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال . وان يعرض كل ساقربه عسكره ، وينظر حتى الابرة والخيط ، فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج اليه عند عرضه اياه ، عاقبه •

١٢ ــ ألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال •

١٣ ـ ورتب لعساكره امراء ألوف ، وأمراء مئين ، وأمراء عشراوات •

١٤ ـ ولا بد أن يخضع اكبر الأمراء لما يصدر عليه من حكم ، ولو قام بتنفيذ هذا الحكم أخس من عنده •

١٥ ـ وأمر السلطان باقامة البريد حتى يعرف مملكته بسرعة •

١٦ ـ أمر بتنظيم حلقات الصيد ، لما لها من اهمية في التدريب على اساليب الحرب •

وورد في الياسه أيضا ، ما يدل على كراهية جنكيزخان لمن يرتكب السرقة والفحش ، وجعل العقوبة الاعدام ، وأنكر أيضا عصيان الولد لأوامر ابويه ، ومخالفة الصغير للأخ الكبير ، وامتناع الغني عن اعانة الفقير ، وعدم احترام المرءوسين للرؤساء • ونهى اتباعه عن الاسراف في شرب الخمر •

وظلت احكام الياسا موضع اهتمام الأقوام التركية المغولية حتى بعد ان زالت دولة الايلخانيين في ايران ، وسار عليها التيموريون في أمور السياسة والحكم ، وفي المواكب والحفلات • وقد تسربت بعض مبادئها وقواعدها الى نظم سلاطين المماليك والعثمانيين •

الفصل السابع

حملات جنكيزخان المبكرة

تعتبر المناداة بتيموجين امبراطورا ، على الاقوام التركية المغولية ، واتخاذه اسم جنكيزخان ، اي امبراطور العالم ، احياء للامبراطورية التركية القديمة (القرن السادس الميلادي) ، وامبراطورية الايغور في القرن التاسع الميلادي ، في نطاق ماقامت به قبيلة جنكيزخان المغولية ، بورجقين من جهود لتوحيد سائر القبائل التركية والمغولية تحت زعامة جنكيزخان سنة ١٢٠٦ ، واتخذ جنكيزخان عاصمته في قراقورم . غير ان خصومه قاموا بمحاولة أخيرة للانتقاص من هذا العمل المجيد .

لم يتوافر لدينا من الأدلة ما يثبت أن جنكيزخان أعد في الزمن المبكر لحكمه ، خططا للفتح في منغوليا . فلم يكن لحملاته الحربية الأولى التى وجهها الى البلاد المجاورة من غرض سوى النهب . ولم يستقر حكم المغول في هذه الجهات الا في زمن متأخر . أما الحملات الموجهة للغرب ، فان المقصود منها أول الأمر مطاردة الأعداء الهاربين

الى تلك الجهـات ، ولم تلبث أن تطورت الى حرب منظمـة للفتـح والتوسع •

والواقع ان الفترة الممتدة من سنة ١٢٠٦ حتى سنة ١٢٢٧ (وفاة جنكيزخان) ، تعتبر فترة فتح وتوسع •

ففى سنة ١٢٠٥ توجه جنكيزخان على رأس حملة لمهـاجمة اقليم آمن مستقر ، وهو اقليم التانجوت حيث مملكة Hsia الصينية (غرب النهر الأصفر) . وعاد جنكيزخان محملا بالغنائم . غير ان الحرب تجددت مع التانجوت ، وكان لزاما على ملك هيزيا بعـد هزيمته سنة ١٢١٠ ان يبذل لجنكيزخان ابنته ليتخذها زوجة لـه • ولم تتوقـف العداوات حتى زمن متأخر ، فلم تخضع المملكة نهـائيا الا أواخر زمن جنكيزخان •

وحرص جنكيزخان على أن يخضع له القبائل المتمردة ، والقبائل المجاورة ، قبل المضى لقتال الصين • فأحرز انتصارا باهرا على ملـوك المركيت والنايمان ، توقتا وكوجلك وبوروق عـلى نهر اميـل ، فلقى مصرعه توقتا وبوروق ، بينما فر كوجلك الى كشغر •

وفي الجنـوب الغربى ، في جوبى ، حيث نزل الايغور ، بـادر ملكهم بقطع ما يربطه بملوك قرەخيتاى مـن صلات التبعية ، واعترف بسيادة جنكيزخان سنة ١٢٠٩ وسار عـلـى نهجه أرسلان ملك القارلق (حوالى سنة ١٢١١) ، وكذا أمير المالق . ولم تلبث قبائل القرغيـز التركية النازلة على نهر ينيسى أن خضعت لجنكيزخان (١٢٠٧ ، ١٢١٨)

حملات جنكيز خان على شمال الصين

كانت الصين أول هدف لحملات جنكيزخان الحربية • والمعروف

انها انقسمت قسمين : الصين الشمالية وعاصمتها ينكين (بالقرب من بكين) ، والصين الجنوبية ، واكبر مدنها هانج شو ، أوكنساى . وتولى حكم الصين الجنوبية ، أسرة سونج ، بينما حكمت أسرة كين الصين الشمالية .

وكان لأسرة كين السيطرة والسيادة على بلاد التتار ، وخضع لهم ايضا الخيتائيون ، الذين سبق أن طردوا من البلاد التابعة للصين الشمالية . واستطاع جنكيزخان ان ينزل هزيمة ساحقة بجيش اسرة كين ، فأذعنت له البلاد الواقعة في داخل سور الصين الكبير ، وذلك سنة ١٢١١ (١) .

هذه الانتصارات مهدت الطريق لشن هجوم على نطاق واسع . ففى سنة ١٢١٣ ، تحركت ثلاثة جيوش ضخمة ، تولى قيادة الجيش الرئيسى جنكيزخان وأصغر أبنائه تولى ، واتخذ وجهته نحو الجنوب الغربى ، وأنفد أبناءه الثلاثة الآخرين ، جوجى ، وجغتاى ، واوكتاى ، على رأس جيش آخر ، ليؤلف الجناح الأيمن لجيشه ، وسارت هذه الحملة نحو الجنوب ، بينما ارسل من تبقى من القوات تحت قيادة اخوته الى الشرق ، في اتجاه المحيط . ولم تتوقف فتوح جنكيزخان الا عند مرتفعات شاتتونج . على أنه أنفذ في ربيع سنة ١٢١٤ ، الى أمبراطور كين ، رسولا اما لما شعر به من التعب ، واما لما احس به من ضرورة العودة الى الامبراطورية المغولية ، ووجه الى الأمبراطور الصيني هذه الرسالة : « كل ما تمتلكه فى شانتونج من اراضى ، وكل

---

(١) الواقع ان جنكيزخان ، افاد في انتصاره من تمرد الانجوت (التتار البيض) النازلين في جنوب منغوليا ، وبقايا اسرة ليائوتونج الخيتانية في جنوب منشوريا .

ما يقع شمال النهر الأصفر من بلاد يعتبر ملكا لى ، فيما عدا ينكنج (بكين الحالية) . فما أصبحت فيه من الضعف يقابله ما توافر لى من القوة . غير أننى أحب أن أتوقف عن المضى في القتال والفتح ، انما لا يتم ذلك الا بشرط واحد ، وهو أن تبذل من الضيافات والهبات لقادتى ورجالى ما يجعلهم يخلدون الى الهدوء والسلام » .

لم يسع أمبراطور كين ، وان ين سيون (١٢١٤ ــ ١٢٢٣) الا أن يبادر بقبول هذه الشروط التى عرضها جنكيزخان لاقرار السلام . وللاعراب عن حرصه على السلام ، اهدى جنكيزخان ابنة الامبراطور السابق ، وأميرة اخرى من البيت الأمبراطورى ، وخمسمائة من الغلمان والجوارى ، وثلاث آلاف فرس . ومع ذلك لم يكد جنكيزخان يجتاز السور الكبير ، حتى نقل امبراطور كين مقر ملكه من بكين الى كايفونج فى هونان ، حتى لا يكون قريبا من الحدود المغولية . ولم تلبث الحرب أن نشبت بعد خمسة شهور ، وكان لزاما على بكين أن تستسلم للمغول ، بعد حصار طويل ، وذلك سنة ١٢١٥

وفى سنة ١٢١٦ عاد جنكيزخان الى منغوليا ، واغتنم ملوك أسرة كين الفرصة ، فاستردوا جانبا كبيرا من مملكتهم . وكان جنكيزخان قد عهد ، قبل رحيله ، بالقيادة الى نائبه موقلى Mukuli .
ومهما تعرضت له أسرة كين من هزائم ، بين ١٢١٧ ، ١٢٢٢ ، فانه بقى لها من الأملاك ، ما لم يقض عليه الا خليفة جنكيزخان . على أن ملك كوريا اعترف بالتبعية لجنكيزخان سنة ١٢١٩ .

الحروب في الغرب

كان لزاما على جنكيزخان أن يتوقف عن مطاردة الأعداء الفارين الى الغرب ، في السنوات ١٢١١ ــ ١٢١٦ ، حينما اشتدت الحاجة الى حشد كل القوات المغولية في الصين ، وبذا كان كل ما أحرزه المغول من

انتصارات في الغرب حدث اما قبل سنة ١٢١١ ، واما بعد سنة ١٢١٦

يقع مباشرة في غرب منغوليا والصين ، مملكة كورخان قره خيتاى العظيمة ، التي شملت كل الأقاليم الممتدة من بلاد الاويغور الى بحر آرال • وتعرضت هذه المملكة للغزو لاول مرة ، على أيدى الجموع التى هربت من المغول ، ومن المطاردين لهم • وهؤلاء الغزاة دمروا مملكة الكورخان ، بعد أن زاد من ضعفها انفصال كثير من الأمراء المسلمين ، ولا سيما محمد خوارزمشاه • وخضع امير الايغور لجنكيزخان سنة ١٢٠٩ ، ولم يلبث أن جرى على منواله سنة ١٢١١ أرسلان شاه امير القارلق (وهو أول أمير مسلم أعلن ولاءه للمغول) ، ثم أمير المالق فى وادى نهر ايللى سنة ١٢١٦ • أما أملاك قرهخيتاى فى اقليم ما وراء النهر ، فغزاها محمد خوارزمشاه ، وما تبقى من مملكة قرهخيتاى ، احتله كوجلك ملك النايمان • ففى اثناء السنوات التالية ، استطاع كوجلك أن يوطد سلطانه دون منازع في هذه البلاد • والمعروف ان كوجلك ابن زعيم النايمان ، قد فر عقب الهزيمة التى لحقت بأبيه ، وتعرض اثناء فراره وجولاته للضيق والعوز ، حتى استقر به المقام آخر الأمر في بلاط الكورخان ، فلقى معاملة طيبة ، وتزوج من ابنة هذا الملك ، وعندئذ اعتنق الديانة البوذية • على انه لم يكد يوطد مركزه ، ويجمع ما تفرق من رجال قبيلته حتى تحالف مع محمد خوارزمشاه ، وعثمان أمير سمرقند من أجل التخلص من سيده وولى نعمته • ومع أنه تعرض للهزيمة في أول لقاء ، فان قوات خوارزمشاه وأمير سمرقند اكتسحت ما صادفته من قوات الكورخان ، وأسفر القتال عن وقوع الكورخان أسيرا في يد كوجلك ١٢١٢ . وحل كوجلك في عرش الكورخان، الذي اقتصرت مملكته على حوض نهر التاريم ، ومن أشهر مدنها كشغر ، ويرقند وختن واشتد في اضطهاد المسلمين بهذه الجهات ،

واتهمهم بالتمرد والتآمـر ضده . وامتـدت مملكة محمد خوارزمشاه صوب الشرق ، حتى بلغت جوف تركستان ، واتخـذ سمرقند عاصمة له ، بعد أن قتل أميرها وحليفه عثمان •



الفصل الثامن

الشرق الاسلامي عند ظهور المغول

١ ــ انتشار الاسلام بين الترك

المعروف ان الفتوح الاسلامية امتدت شرقا ، زمن الخلفاء الراشدين والأمويين حتى وصلت الى اقليم ما وراء النهر ، واكتفى العرب بصد غارات الترك الغز النازلين باطراف ملكهم ، ولم يتقدموا في بلادهم الى مقر خاقانهم الى جوار نهر جو • وما قام به الترك من غارات على العرب في حوض نهر سرداريا (سيحون) ، لم تسفر الا عن هزيمتهم وانقسام ملكهم (١) •

أحرز العرب أهم انتصاراتهم فى آسيا الوسطى ، اثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان (٧٠٥ ــ ٧١٥ م) • على أن العرب التزموا سياسة الدفاع ، طوال القرن الثامن الميلادى ، بعد ان تم لهم

(١) حل القارلوق محل الغز على نهر جو سنة ٧٦٦ .

فتـح الأماكن المتحضرة فى أحـواض جيحون وزرفشان وسيحون ، فأقاموا الأسوار وحفروا الخنادق لمنـع اعتداءات البدو . وما قـام به السامانيون فيما بعد من غارات لم تؤد الى امتداد حدود البـلاد التى انتهى اليها العرب . ومع ذلك فان المؤثرات القادمة من الغرب ، أخذت طريقها الى الترك .

بدأ المسلمون ، بعد أن وطدوا حكمهم في آسيا الوسطى ، يفيدون من طرق التجارة القديمة ، فبلغت قوافلهم التجارية ، فى القرن الثامن ، بلاد القرغيز ، فى أعالى نهر ينيسى . ومع ذلك فان المصادر الاسلامية لا تذكر شيئا عن سكان بلاد المغول ، قبل ظهور جنكيزخان .

أخذ الاسلام ينتشر بين الترك حين أمدت دولة آل سامان الايرانية نفوذها الى آسيا الوسطى في القرنين التاسع والعاشر (٨٢٠ ـ ١٠٠٠ م) ويبدو أن الحد الشمالى للاسلام فى آسيا الوسطى كـان فى وقت من الأوقات ، مطابقا لحديـن آخرين ، الحد الجنسى الذى يفصل بيـن العنصرين الايرانى والتركى ، ثم الحد الحضارى الذى يفصل بين مناطق الزراعة ، ومناطق الرعى .

أخذ السامانيون يغيرون على مناطق الاستبس ، فخضعت لهـم مدينة طلس ، وتبع هـذه الفتوح هجرات من بـلاد ما وراء النهر الى مواطن الترك ، فقامت مدن اسلامية فى القسم الأسفل من نهر سيحون، وهى جند ، وخواره ، وينعى كنت . وعلـى الرغم من أن سكان هذه المدن من المسلمين ، فانهم كانوا خاضعين للأتراك الغز الذى لم يعتنقوا الاسلام ، وكـانت هذه البـلاد مستعمرات انشأها المهـاجرون برضى الحكام الترك المحليين . واتسعت تجارتها حتى بلغت بـلاد كيماك على

نهر ارتش (١) • وما قام من علاقات تجارية بين المسلمين والبدو ، أدى آخر الأمر الى أن تأثر هؤلاء بالاسلام من الناحيتين الدينية والحضارية، فأقبـل الترك علـى اعتنـاق الاسلام ، ومن هؤلاء القراخانيون ، فى كشغر ، وجماعة من الغز النازلين عند مصب نهر سرداريا (سيحون) وذلك في القرن العاشر الميلادى • فاضحى يجاور المسلمين من الشمال والشرق ، شعوب دخلت فى الاسلام • ومع ذلك فقـد تعرض لهجوم هذه الشعوب ، البلاد الاسلامية التى نفذ اليهم منها الاسلام •

واستطاع القراخانيون ، سنة ٩٩٩ أن ينتزعوا مـن السامانيين ، بخارى وسمرقند ، ولم يقم القرخانيون في بخـارى أو سمرقند ، بل اتخذوا حاضرتهم فى مدينة صغيرة تقع الى الشرق من فرغانه ، لانهـا تاخم بلادهم الأصلية ، فيشعرون فيها بالاطمئنان •

واشتهر القرخانيون بالتقوى والصـلاح ، ولـم يكن فى نيتهم الوقوف عنـد نهر اموداريا (جيحون) ، بـل ساقوا الجيوش لقتال السلطان محمود الغزنوى ، الذى انتزع أملاك السامانيين الواقعة جنوب نهر جيحون (١) • علـى أن القرخانيين تعرضوا للهزيمـة ، واستولى محمود الغزنوى على بعض أملاكهم الواقعة في شمال نهر جيحون •

٢ ـ السلاجقة في ايران

يرجع ظهور الترك فى البلاد الواقعة جنوب نهر جيحون الى زمن أبعد من استيلائهم العسكرى على تلك البلاد فى القرن العاشر •

---

(١) ينحدر القبجاق من هؤلاء كيماك .

(١) يرجع تأليف الشاهنامة الى عهد السامانيين ، غير انها اشتهرت زمن محمود الغزنوى ، وحفلت الشاهنامة بماكان من نزاع بين الايرانيين والترك.

لم يكن للغز خان ، غير ان رئيس الأسرة التي حكمت فيما بعد في ايران (السلاجقة) ، كان يعرف باسم سوباشى أى قائد الجيش ، ومنه جاء لفظ سه لجوق ، وسالجوق ، وسالجيق ، وسالجوك •

وأسلم سلجوق ، وخلص سكان الوادى الأدنى لنهر سيحون من الجزية التى كانوا يؤدونها للغز • والمعروف أن الغز أقاموا بمنغوليا فى القرن السادس دولة بدوية بالغة الاتساع • وما تعرضت له هذه الدولة من التداعى على أيدى الصينيين حملهم على الهجرة الى الغرب ، ولم يستطع هؤلاء الغز أن يحققوا الوحدة السياسية فى الصحارى الواقعة شرقى بحر قزوين ، بل نشبت بينهم الحروب ، وقامت بعض بطونهم بفتوحات وهجرات الى جهات بعيدة • ومن هذه الشعوب السلاجقة •

وسبق الاشارة الى ما قام من المستعمرات الاسلامية على ضفاف نهر سيحون ، حيث أقام رؤساء الغز ، وقد تغلبت المدنية الاسلامية فى هذه الجهات على غيرها من المدنيات • ودخل فريق من التركمان فى خدمة السامانيين ، وتعهدوا فى مقابل المراعى التى حازوها ، أن يدافعوا عن حدود ممتلكات السامانيين ضد التركمان الذين لم يدخلوا فى الاسلام •

وحدث وقتذاك أن اتصل بالمدنية الاسلامية أيضا بعض الترك النازلين على حدود دولة السامانيين • وكان الفارابي فيلسوف العرب المشهور في القرن العاشر واحدا من هؤلاء الترك • وفى أثناء الصراع بين السامانيين والقراخانيين ، كان الغز ينحازون أحيانا الى هؤلاء ، وأحيانا الى أولئك • وفى بداية القرن الحادى عشر ، نفذوا الى بلاد محمود الغزنوى •

واستطاع أحفاد سلجوق أن ينتصروا على مسعود بن محمود الغزنوى في معركة دندنقان في خراسان ، سنة ١٠٤٠ ، واخذوا يضفون على أنفسهم حقوق الحكم ، فجرت الدعوة لهم في خطبة الجمعة ، وسكت العملة باسمهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا فى أول الأمر جمع السلطة في أيديهم •

والمعروف أن دولة السلاجقة أقامها فى القرن الحادى عشر أخوان طغرل ، وجغرى ، من أحفاد سلجوق ، واستقرت الدعوة والسكة باسم أولهما في نيسابور ، وباسم الثانى في مرو •

وأخذ السلاجقة ما كان معروفا عند الايرانيين من اساليب الحكم ، وقواعد الادارة المركزية • واذ جرى الاتفاق بين طغرل والخليفة القائم بأمر الله ، اتخذ طغرل لقب سلطان ، واعترف بالسلطة الروحية للخليفة ، وصار السلاجقة فى خدمة الخلافة العباسية ، وتحددت العلاقات بين الخلافة والسلطنة • فقد كانوا أشد دفاعا عن الاسلام وأهل السنة من القرخانيين • ولم يكتف السلاجقة باعلاء كلمة الدين داخل حدود البلاد الاسلامية ، بل كان عليهم أن يهزموا الأعداء فى الخارج ، وأن يوسعوا حدود دار الاسلام ، وكان من الطبيعى أن يحققوا هذا الغرض فى غرب آسيا ، فنشب القتال بينهم وبين البيزنطيين ، فأحرزوا نصرا باهرا في معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١ ، وكان من نتائج هذا الانتصار الاستيلاء على معظم أسيا الصغرى وتهديد عاصمة بيزنطة (القسطنطينية) ، وأقاموا لهم ملكا فى هذه الجهات • وترتب على انتصارهم في الشام ، أن انتزعوا من الفاطميين المدن الداخلية وامتد حكمهم الى بيت المقدس ، وأضحوا مصدر خطر على مصر •

وجه السلاجقة اهتمامهم الى آسيا الوسطى ، حيث يحكم القرخانيون ، فاستمرت الغارات ، زمن ألب ارسلان على امتداد نهر

سيحون وبلاد القرخانيين • وبلغت امبراطورية السلاجقة أوج عظمتها زمن ملكشاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) ، فاخضع لحكمه خان كشغر ، وبذا امتد سلطانهم من حدود بلاد الايغور شرقا الى البحر المتوسط غربا ، وخطب الغزنويون في الهند وافغانستان للسلاجقة زمن سنجر بن ملكشاه ، وعلى الرغم من انتصار السلاجقة لم يستطيعوا ان يجمعوا شمل الأتراك المسلمين فى دولة واحدة قوية • فلم يكن الغز رعايا مخلصين لسلاطين السلاجقة ، فحاربهم سنجر ووقع فى يدهم أسيرا ولم ينج الا بالفرار •

وما حدث من تجزئة الدولة السلجوقية فى الغرب ، أواخر القرن الحادى عشر ، أدى الى قيام طائفة من الامارات ، بعضها انشأه الأتابكة الذين تولوا الوصاية على الأمراء صغار السن ، وبعضها أقامه التركمان• وارتبط تمرد التركمان بما أحرزه الأغوز وقتذاك من انتصارات فى خراسان •

على أن تقدم هؤلاء الغز لم يتخذ صفة واحدة في كل مكان . فعلى طرف أذربيجان وأرمينيا ، قبلت طوائف التركمان الايوائية القوية ، أن تخدم أمراء أذربيجان والموصل ، فضلا عن الخلفاء العباسيين فى الجزيرة ، وذلك قبل أن يصيروا من ألد خصوم الخوارزمية ، الذين استأصلوا شأفتهم • وفى خوزستان اشتدت مقاومة قبائل افشار ، لكل من السلطان السلجوقى والخليفة العباسى ، غير أنها لم تلبث أن خضعت لهما نظرا لقرب مواطنها من مقر الخلافة • وقامت فى فارس امارة بفضل الاستقلال الداخلى الذى ظفر به الأمراء السلاجقة ، ثم بفضل ظهور قبيلة السلغار التركمانية ، التى حافظت على استقلال الامارة حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، بعد أن أصبحوا من أتباع المغول •

وفي الجهات الأخرى ، قامت امارات جديدة للأتابكة ، مثل امارة دمشق التى اقامها طغتكين ، وامارة الزنكيين بالموصل والشام زمن زنكى وسلالته ، ثم ظل أخلاف زنكى بالموصل حتى القرن الثالث عشر ، واستمر حكمهم بها حتى اوائل عهد المغول ، اذ ولى الموصل ، لؤلؤ ، آخر مملوك للزنكيين •

وفى الشطر الأول من القرن الثانى عشر ، استطاعت اذربيجان ان تظفر بالاستقلال الداخلى ، فحكمها أول الأمر ، أمراء سلاجقة اما على سبيل الاقطاع ، واما نتيجة التمرد والثورة ، ثم تولاها قادة عسكريون على سبيل الاقطاع ايضا • وفى منتصف هذا القرن اقام أحد الاتابكه ، واسمه ايلدكيز ، اسرة حاكمة ، سيطرت على هضبة ايران الوسطى ، واذ جرى عليها فى اوائل القرن الثالث عشر من الضعف ما جرى على سلاطين السلاجقة أنفسهم، لم تلبث أن هوت تحت ضربات الخوارزمية• وأنشأ شاه أرمن امارة مستقلة فى اخلاط على بحيرة وان ، غرب اذربيجان ، استمرت حتى بداية القرن الثالث عشر •

ولم يكن لهذه التغييرات الا تأثير سطحى على المجال السياسى • اذ ظل الأتابكة يسيرون على نهج السلاجقة فى النظم الادارية والعسكرية ، وفى المذهب الدينى وما الى ذلك •

على أن الغزو التركى أخذ من بعض النواحى يزداد عمقا على الرغم من توقفه • وكلما تضاءل عدد الترك ، أدى ضعف السلاجقة الى أن تحصل العناصر الوطنية المحلية على قدر من الاستقلال • ومن الدليل على ذلك ما كان من استقلال الأكراد بفارس وفى جبال زاجوراس ، شرق بغداد . على أن الزعماء الترك حرصوا في سائر الجهات على التخلص من الزعماء المحليين من العرب والكرد ، واحلال

الترك مكانهم . ولم تكن افاقة الخلافة مؤذنة بنهوض العرب .
والملحوظ أن ما تعرضت له الممتلكات الايرانية من تمزق سياسى ، لم يقترن بتدهور فى الثقافة • ففى هذه الفترة عاش الشاعر النظامى على الأطراف الشمالية الشرقية ، وفيها ولد السعدى ، وظهر جماعة من المتصوفة المشهورين ومنهم عبد القادر الجيلانى •

على أن أتابكة أذربيحان وجيرانهم الى الغرب منهم ، واجهوا أمرا قريب الشبه بما تعرض له زملاؤهم فى الشام من التحدى ، ذلك أن مملكة جورجيا(الكرج)المسيحية تقع عند أطراف بلادهم•وعلى الرغم من أنها دولة مسيحية قديمة ، فانها اتخذت نفس موقف امارات الفرنجة فى علاقاتها بجيرانها المسلمين ، بل جرى التنسيق بين سياستهما ازاء المسلمين ، فاذا أحست احداهما بخطر المسلمين وتهديدهم ، حرصت الأخرى على اجتذاب العدو ومنعه من تهديد الامارة الأخرى ، مثلما حدث سنة ١١٢١ من اجتذاب الكرج ايلغازي ، لمنعه من مواصلة قتال الفرنج • وعلى الرغم من تعذر وقوع الاتصال المباشر بينهما ، فان ما اشتهرا به من التماسك والصلابة ، بلغا من النمو والمتانة عند كلا الجانبين ، ما جعل القيام بعمليات مشتركة أمرا متوقعا ، في اوائل القرن الثالث عشر • يضاف الى ذلك أن الكرج استخدموا فعلا ، سنة ١١٢١ جندا مرتزقة من الفرنج ، حصلوا عليهم من أسواق القسطنطينية •

على أن الترك أسهموا الى حد ما في تزايد قوة مملكة الكرج ، بأن اكتفوا بتدمير الامارات الاقطاعية الواقعة على أطرافها ، دون أن ينفذوا الى داخل البلاد ، التى حماها الغابات والجبال ، وسهل اتصالها بالبحر • فتيسر لداود المعروف باسم مجد الدولة (١٠٨٩ ـ ١١٠٥) أن يقيم ملكية قوية ، وأن يوجه رعاياه لاستعادة أملاكهم ، وطرد المغيرين من التركمان •

واتخذ تفليس عاصمة له سنة ١١٢٢ بعد أن خضعت للمسلمين أربعة قرون ، وذلك بفضل ما أحرزه من انتصار على القوات المتحالفة من اذربيجان والأراتقة ، يضاف الى ذلك أنه عقد محالفات مع البيزنطيين ومع الأمراء المسلمين ، الذين تقع أملاكهم بين جورجيا وبحر قزوين . وما استولى عليه داود حديثا من أقاليم ، نقل اليها سكانا جددا ، وكفل لهم الحماية العسكرية بما أعده من جيش من القبجاق (١) ، ولم تلبث أرمينيا أن اعترفت بسيادته برغم مخالفته للأرمن فى المذهب الديني ، واشتهر داود بالتسامح الدينى مع رعاياه المسلمين . على أن الكرج ظلوا يقاتلون في المائة سنة التالية ، المسلمين في أرزروم ، وقارس وآنى ، وأخلاط وأذربيجان . والتزم المسلمون خطة الدفاع أثناء هذه الفترة الطويلة . واستطاع الكرج أن ينتزعوا آنى ويضيفوها الى أملاكهم في مستهل القرن الثالث عشر ، زمن ملكتهم تامار Tamar التى كانت تميل الى التوسع، وذلك لما حدث من تداعى امارة أذربيجان، ولما جرى من المنازعات على امتلاك اخلاط ، التى حازها الأيوبيون الذين كانوا يحكمون بتلك الجهات . واستمرت الحروب سجالا بين المسلمين والكرج ، حتى تعرضوا لغزو الخوارزمية ثم المغول فى القرن الثالث عشر .

وأفادت الخلافة العباسية من تداعى السلاجقة في اقليم الجزيرة ، ولا سيما في زمن الخليفة الناصر لدين الله (١١٨٠ — ١٢٢٥) الذى حكم فترة طويلة ، ويعتبر أقوى الخلفاء منذ القرن التاسع الميلادى .

وجرى الخليفة الناصر لدين الله ، على سياسة أسلافه ، بتصفية آخر من تبقى من المتمردين التركمان ، فاضحى العراق شديد الولاء للخلافة . على أنه فاق سائر الخلفاء بما اتخذه من سياسة عسكرية ودبلوماسية في ايران ازاء طغرل الثالث آخر سلاطين السلاجقة بها ، ثم ازاء الخوارزمية .

---

(١) وهم الذين ينزلون شمال سهوب القوقاز ، والمعروف ان المسلمين حصلوا على اعداد كبيرة منهم ، استخدموها في جيوشهم .

وحرص الخليفة بفضل سلطته الروحية على أن يسوى الانقسامات الدينية بين المسلمين ، بأن يخضعوا لسلطانه الادبى والروحى ، ولم يحفل بما تعرض له المسلمون وقتذاك من تفكك سياسى •

وعلى الرغم من زوال الخلافةالفاطميةفيمصرسنة ١١٧١،قبل أن يتولى الناصر لدين الله الخلافة العباسية ، فلا زال عدد الشيعة كبيرا فى الجزيرة وايران ، برغم القيود السياسية التي فرضها عليهم السلاجقة • وفكر الخليفة الناصر فى أن يجعل الشيعة يعترفون بخلافته ، غير أن هذه الفكرة لقيت من المقاومة من قبل السنيين ما جعله يعدل عنها • ومع ذلك فانه توصل الى الوفاق مع الاسماعيلية فى آلموت ، بعد أن تزايد عندهم الميل الى الوفاق والمصالحة ، فحصل من زعيم الاسماعيلية ، جلال الدين الحسن على اعتراف يجعل منه شبه زعيم لهذا المذهب • والواقع أن أهم ما اشتهر به الخليفة الناصر ، هو اعادة تنظيم الفتوة ، والفتوة مصطلح جرى اطلاقه منذ زمن بعيد على المبدأ الاخلاقى لطائفة الآخية ، الذى ارتكز على نظام الفتيان ، ومنه جرى اشتقاق اسم الفتوة •

والمعروف أن جماعات الأخية شملت أساسا قطاعات هامة من طبقة الصناع بالمدن ، الذين نظروا الى هذه المنظمات على أنها نوع من الزمالة المهنية ، وأنها جمعيات للمساعدة المتبادلة ، وأنها شبه حرس وطنى • على ان الفتيان تعرضوا للزراية من قبل ذوى المكانة من الناس ، اذ نعتوهم بصفات تجعل منهم قطاع طرق • ومع ذلك فانه صار لهم من القوة أنه حينما ضعف أمر الحكومة ، سيطر الفتيان على أحياء من بغداد ، وجذبوا الى صفوفهم رجالا ذوى أهمية بالغة •

كان الناصر يطمع فى اعادة تنظيم الفتوة ، واستخدامها فى اقرار الأمن وحفظ النظام ، فحاول أن يضم الى مشروعه الأمراء ، الذين يعتبر

تعاونهم أمرا ضروريا لنشر هذا الاصلاح وراء حدود العراق ، فصار لأربابها زى خاص ، وكـان لهم الحق المطلق فى ممـارسة التداريب الرياضية •

ولقى الناصر الاحترام والتبجيل من الأمراء المسلمين بالشام ، فكلما أحرزوا انتصارات ، بعثوا اليـه بالبشارة وأرسل اليهـم الناصر بعض المساعدات •

كان للناصر أعداء كثيرون،فلما انطلق المغول فجأة الى هذه الجهات ، جرى اتهام الناصر بأنه هو الذى دعا المغول لسحق الخوارزمية •

٣ ـ الامبراطورية الخوارزمية

ما حدث فى آسيا الوسطى من الاضطرابات العنيفة امتدت أثارها الى شواطىء البحر المتوسط • ومن هذه التأثيرات ما أدى الى احلال الغوريين مكان الغزنويين في أملاكهم بجبـال هندوكوش ، فضـلا عن امتداد سلطانهم الى الوديان العليا لنهر الكنج ، وبفضل المماليك الذين اتخذ منهم الغوريون جيوشا ، صار لهم السلطان فى الهند حتى بداية القرن السادس عشر ، حين حطمهم المغل •

ونجم أيضا التغييرات التى حدثت في آسيا الوسطى أن تعرضت ايران للضغط والاضطراب ، الذى حملها على أن تتخذ جانب الدفاع • ذلك أن قوما من المغول ، أطلق عليهم المؤرخون المسلمون قره خيتاى (اى الصينيين السود) جرى طردهم من الصين بعد ان أقاموا لهم بها مملكة كبيرة ، وذلك سنة ١١٢٥ ، فاتجهوا فى هجرتهم نحو الغرب ، فدمروا ممالك القرخانيين ، في بالاساغون ، وكشغر ، وسمرقند وبخارى،

وسائر اقليم ما وراء النهر ، ثم اقليم خوارزم (١) . وحاول القرخانيون في اقليم ما وراء النهر أن يستنجدوا بالسلطان سنجر السلجوقى ، غير أنه لم يستجب لهم • وفى سنة ١١٤١ تعرض سنجر لهزيمة ساحقة فى صحراء قطوان شمال سمرقند ، على أيدى قره خيتاى ، وبذا امتد ملكهم من بلاد القرغيز على نهر ينيسى شمالا ، حتى بلخ جنوبا ، ومن خوارزم غربا الى بلاد الأويغور شرقا ، واتخذ ملكهم لقب كورخان ، وأقام عاصمته في بالاساغون على نهر جو •

وعلى الرغم من أن الجانب الأكبر من القره خيتائيين كانوا وثنيين ،

---

(١) خوارزم ، اقليم يقع في المجرى الأسفل لنهر أموداريا (جيحون) ونظران لأن خوارزم تكون دلتا خصيبة ، كان لها اهمية كبيرة منذ قديم الزمن في تطور المدنية والحضارة بآسيا الوسطى . وظل التاريخ السياسي للخوارزمية مجهولا حتى القرن الثامن الميلادى ، ولم تكن حدودهم الجغرافية معروفة . وفتح هذا الاقليم قتيبه بن مسلم سنة ٧١٢ (٩٣ هـ) . وفي الفترة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى تأثرت خوارزم بالحضارة الايرانية القديمه . وكان بها من الديانات ، الزرادشتية والمسيحيه الارثوذكسية .

ولا بد أن الصفة التركية ادركت مبكرا المستعمرات بحوض نهر سيحون التى اقامها الخوارزميون والصغد ، وتشير المصادر الى ان تجار خوارزم زاولوا نشاطهم التجارى ونفوذهم في أماكن بآسيا الوسطى تزيد في البعد عن الأماكن التى بلغوها من قبل . والمعروف ان جنكيزخان ارسل الى محمد خوارزمشاه سنة ١٢١٨ السفير محمود الخوارزمى ، الذى كان واليا على بكين قبل الغزو المغولى .

وخضعت خوارزم سنة ١٠١٧ للغزنويين فقام على حكمها التونتاش من قبل السلطان محمود الغزنوى فظل يحكم هو واسرته خوارزم حتى سنة ١٠٤١ . ثم لم تلبث أن خضعت خوارزم لسلطان السلاجقة الذى استمر حتى وفاة سنجر ١١٥٧ ومن اشهر حكام خوارزم أتسيز الذى كان يحكمها من قبل سنجر ، وكان يؤدى في الوقت نفسه للقره خيتاى جزية سنوية قدرها ٣٠ الف دينار .

فانه كان من بين صفوفهم عدد كبير من المسيحيين النساطرة الذين كان لهم منذ زمن طويل نفوذ دينى كبير فى آسيا الوسطى ، وتوثقت علاقاتهم بالنساطرة في ايران واقليم الجزيرة ، وما أنزله الخطا (قره خيتاى) من هزيمة ساحقة بالسلطان سنجر ، الذى كان يعتبر حتى وقتذاك أقوى الأمراء المسلمين ، تردد صداها فى سائر الأرجاء . فما ذاع فى الغرب من أخبار انتصارات الكورخان ، أدى الى ظهور الأسطورة المشهورة عن برستر جون ، الذى يحكم ، فيما اعتقده الناس ، مملكة مسيحية قوية ، تقع وراء حدود الممالك الاسلامية ، والتى اعتقد الناس زمن ماركوبولو ، انها تقع وراء بلاد المغول ، ثم انتقلت فيما بعد الى الحبشة . والمعروف أن الحرب كانت دائرة وقتذاك بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام ، فكأن الكورخان ينشب حربا صليبية أخرى في اقليم ما وراء النهر ضد المسلمين .

على أن خضوع اقليم ما وراء النهر حتى خوارزم ، للخطا (قره خيتاى) لم يكن له الا تأثير ضئيل على الحياة بهذه الأقاليم . اذ أن الأمراء المحليين ظلوا يحكمون أقاليمهم على أنهم أتباع للخطا ، وهذه الأقاليم تؤلف الجانب الاكبر من أمبراطورية الخطا ، فبقى المسلمون فى اقليم ما وراء النهر يحتفظون بمراكزهم ومناصبهم في ظل حكم الخطا ، وكانت بلاد بالاساغن تعتبر حدود العالم الاسلامى . ومن الطبيعى ألا تتوقع من هؤلاء الأمراء المسلمين الا مساعدة ضئيلة لمناهضة الديانات الأخرى ، وألا يرتكن المسلمون السنيون اليهم في مناهضة المذاهب الاسلامية الأخرى .

ومن ناحية أخرى ترتب على فتوح قره خيتاى أن أعدادا من الأغوز التركمان ، الذين لا زال جانب منهم على وثنيته ، تحركوا صوب

الجنوب ، فلجأوا الى بلاد السلطـان سنجر ، غير أنهم أعلنـوا التمرد والثورة ، ونشب القتال الذى أدى الى وقوع سنجر فى قبضتهم سنة ١١٥٣ ، واستطاع آخر الأمر أن يفلت منهم سنة ١١٥٦ ، ولم يلبث أن مات ، ولم يستطع خليفته محمود خان القرخانى ، ابن أخت سنجر أن يصلح ما أفسده الأغوز التركمان ، الذين امتد تخريبهم الى كرمان ، حيث زال فرع الأسرة السلجوقية بها ، والى البلاد الواقعة فى أقصى الغرب .

ولم تتعرض خوارزم لهذه المحن ، نظرا لوقوعها في واحة خصيبة ، تحتمى وراء شريط من الصحراء ، واستطاعت أن تتحرر نهائيا من التبعية للسلطان سنجر بعد أن تداعت سلطته . وحافظ الخوارزمشاهية علـى امارتهم متماسكة غير منقسمة ، وزاد من قوتهم ما كان يرجى منهم من اعادة الأمن الى نصابه . واكتمل للخوارزمشاهية الاستقلال ، لما تعرضت له دولة الخطا من التفكك ، بسبب ضغط القبائل والشعوب في سهوب آسيا .

هذا الوضع فرض على الخوارزمشاهية أن يزيـدوا من قوتهم العسكرية . وعلى الرغم من أن الجيش يتطلب من النفقات ما يتعذر على السكان أداؤها ، فان ما تحقق من الانتصارات خارج البلاد ، وما ترتب على النشاط التجارى لخوارزم من الرخاء ، كـان كفيلا بالانفاق على الجيش .

تألف هذا الجيش مـن الترك الذين يجاورون خـوارزم من جهة الشمال الغربى ، وهم المعروفون باسم القبجاق . غير أنه لم يتهيأ لهم من الوقت ما يجعلهم يشترونهم صغار السن ، حتى ينشأوا مسلمين صادقين . وهذا هو الاجراء الذى اتخذه الأمراء عادة عند استخـدام محاربـين

من الترك • فاولئك الذين اشتهروا بالخوارزمية لم ينالوا هذا الحظ من التربية والثقافة ، بل اشتهروا فيما خاضوه من معارك حربية خارج خوارزم ، بالقسوة والعنف •

وفي هذه الأحوال ، احتل خراسان حوالى سنة ١١٩٠ خوارزمشاه تكش ، فأخضع بذلك الأغوز لسلطانه • وزاد من قوة تكش ، ما بلغته ايران وقتذاك من التفكك الشديد . ولما حاول طغرل الثالث آخر السلاطين السلاجقة في ايران أن يستعيد سلطته على حساب أبى بكر أتابك اذربيجان ، والخليفة العباسى الناصر لدين الله ، لم يسع الخليفة الا أن يستنجد بخوارزمشاه تكش الذى استولى على الرى وهمذان . وفي سنة ١١٩٤ لقى طغرل مصرعه . غير أن تكش أدرك أنه لا بد أن يرث السلاجقة ، فطلب الى الخليفة الناصر أن يعترف به سلطانا فى بغداد ، وعلى الرغم من أنه لم يكن فى وسع الخليفة أن يعترض على هذا الطلب ، فان من نتائجه أن أضحى تكش عدوا للخليفة ، والجماعات الاسلامية السنية •

وخلف محمد خوارزمشاه أباه تكش سنة ١٢٠٠ ، وأكثر ما صادفته سياسة الخوارزمشاهية من نجاح يتمثل فيما قاموا به من فتوح،فاحتلوا اقليم ما وراء النهر وأقاليم دولة الغوريين،واعترف بهم القبجاق،وأسهموا في تدمير الخطا ، واكتملت أعمالهم بانشاء أسرة مستقلة فى كرمان ، استمرت بعد الغزو المغولى تدين بالتبعية للمغول حتى القرن الرابع عشر •

والواقع أن اقليم ما وراء النهر ظل بيد الخطا ، الى أن انتزعه منهم محمد خوارزمشاه سنة ١٢١١ ، بعد ان تداعت مملكة الخطا نتيجة ضغط المسلمين من جهة الغرب ، وضغط المغول لها من جهة الشرق ، وكان الدين هو أهم العوامل فيما وقع من منازعات • ذلك أن محمد خوارزمشاه

كان يعتمد في مستهل عهده على الخطا الوثنيين ، وعلى صدور (مشايخ) بخارى في مناهضة أعدائــه ، وحاول محمد خوارزمشاه أن يفــرض سلطانه على الأمراء المسلمين الخاضعين للكورخان ، غيــر أنه ترتب على سوء سياسته ، أن خرج عليه أمير سمرقند وسكان ما وراء النهر ، واشتد خوارزمشاه في قمع هذه الفتنة ، وصارت حدود خوارزمشاه تمتــد من فرغانة الى بحيرة آرال وتشمل كل الاراضى المجاورة لنهر سيحون . أما بقية المناطق الاسلامية التي كانت خاضعة من قبل القاراخطاى ، فدانت بالولاء لزعيم النايسان كجلك ، الذى هرب من وجه جنكيزخان .

كان كجلك مسيحيا في أول الأمر ، ثم اعتنق الوثنيــة في بــلاد القراخطاى ، واستولى على بلاد الكورخان سنة ١٢١١ اى قبل سنة من خروج أمير سمرقند على طاعة محمد خوارزمشاه ، ووقعت الحرب بين كوجلك ومحمد خوارزمشاه ، ولم يحالفه التوفيق ، فانسحب من بعض البلاد ،منها طشقند والقسم الشمالى منفرغانه .وتظاهر كجلك (١) بأنه حليف للمسلمين على الكورخان (الخطا) ، وحليف لأميــر كشغر . ثم صار من ألد أعداء المسلمين ، وفــى زمنه حدث أول اضطهــاد دينى للمسلمين فى آسيا الوسطى ، فمنعهم من العبادة ، وأجبرهم عــلى أن يعتنقوا اما المسيحية واما الوثنية (البوذية) ، وأن يتخذوا ملابس الخطا ، واستمر الاضطهاد ، الى أن انهزم كجلك أمام جنكيز خان ، وخضعت

---

(١) سبق الاشارة الى ما كان من قتال جنكيزخان للنايمان ، وانتصاره على زعيمهم ، وهروب كجلك الى كشغر ، حيث رحب به كورخان الخطــا وزوجه من ابنته . غير أنه لم يكد يطمئن على نفسه ، حتى حشد مــا تبدد من رجال قبيلته ، واشترك مع محمد خوارزشاه ، وعثمان امير سمرقند ، في تدبير مؤامرة للاطاحة بسلطان الخطا . ولم يلبث ان وقع الكورخان في قبضة كجلك ١٢١٢ ، وحل مكانه في حكم المملكة التى لــم يتعد سلطانها حوض نهر التاريم ، وما يقع به من المدن ، كشغر ، يارقند ، وختــن .

بلاده لجنكيز خان ، الذي امتد سلطانه بذلك الى حدود خوارزم .

٩ ـ الايوبيـــون

حرص صلاح الدين اثناء حياته على أن يعين أبناءه وأقاربه علـى الأقاليم التى تتألف منها دولته ، وجعل لهـم مطلق السلطة فى تصريف الأمور . فكانت دمشق من نصيب أكبر أبنائه الأفضل على ، وحكم ابنه الظاهر غازى فى حلب ، بينما ولى مصر أصغر أبنائه العزيز عثمان ، ويلى ذلك فى الأهمية اقليم الجزيرة وديار بكر وعاصمته ميافارقين ، الذى تولاه العادل ، أخ صلاح الدين بعد أن أناب عنه ابنه ، المعظم عيسى ، في حكومة الكرك والأردن . وحكم حماه المنصور محمد بن تقى الديـن عمر (ابن أخ صلاح الدين) ، وولى حمص المجاهد شيركوه الثانى (من سلالة أسد الدين شيركوه) ، وحكـم بعلبك المجاهد بهـرام شاه بن فروخشاه (ابن أخ صلاح الدين) .

ولما مات صلاح الدين ، في ٤ مارس ١١٩٣ ، تمزقت الوحدة التى أقامها صلاح الدين بفضل قوة شخصيته وسلطانه ، فاستقلت كل الأقاليم باستثناء الكرك . وترتب على ذلك أن أصاب سوريا من الانقسام والتفكك ما اتصفت به قبل زمن السلاجقة . وما حدث من الاضطرابات التى أثارتها المنازعات والخصومات فى البيت الأيوبي ، وأطماع بعض افراده ، وحرص أميرى حلب ودمشق على المحافظة على استقلالهما ، وشدة حذرهما من أطماع أميرى مصر والجزيرة ، كل ذلك جعل هذه المرحلـة من تاريخ الأيوبيين التي امتدت الى نهاية عهدهم فى مصر والشام ، تتسم فى الظاهر بالفوضى والاضطراب .

والواقع أنه لم يبق على سلطان الأيوبيين فى هذه المرحلة ، الا ما اتصفت به الأسرة الأيوبية أصلا من الترابط والتماسك ، الذى زاده قوة

وصلابة ما حدث من المصاهرات التي انعقدت بين أفراد الأسرة ، وما كان للادارة المدنية التي اتسمت بالروح الدينية ، من تأثير قوى ، بفضل تمسكها بتقاليد نور الدين وصلاح الدين .

وبفضل ما التزمه أميرا حماه وحمص من الحرص على حفظ التوازن بين القوى المتنازعة ، للمحافظة على استقلالهما ، بقيت امارتاهما قائمتين بعد زوال حكم الأيوبيين فى مصر والشام .

ومن الدليل على ثبات الحكم الأيوبي واستقراره بعد صلاح الدين ما اشتهرت به مصر والشام من ازدياد الرخاء بهما ، وانتشار حضارتهما الأدبية والفنية والفكرية . والواضح أن الرخاء المادي يرجع الى السياسة الرشيدة التي اتبعها الأمراء الأيوبيين لتشجيع التنمية الزراعية والاقتصادية ، ولتوثيق العلاقات التجارية مع الامارات الايطالية ، ومن نتائج هذه السياسة ، الميل الى مهادنة امارات الفرنج فى الشام .

ومن عوامل الاستقرار أيضا ما كان يحدث فى كل جيل من الأجيال، من ظهور زعيم قوى فى الأسرة الأيوبية ، يفرض سلطانه على سائر الامراء ، برغم ما يتعرض له فى بعض الاحوال من مقاومة عنيفة .

ففى الجيل الأول ، كان العادل شقيق صلاح الدين هو المسئول الأول عن المحافظة على كيان الأيوبيين . والمعروف أن العادل كان أعظم مستشارى صلاح الدين ، وكان أقوى أفراد الأسرة وأكثرهم كفاية بعد صلاح الدين .ولم تكن مكانته راجعة فحسب الى مناهضته أبناء صلاح الدين صغار السن ، الذين افتقروا الى الخبرة والتجربة ، بل ترجع أيضا الى درايته التامة بأحوال الامارات الداخلية ، نظرا لأنه تولى ادارة حلب ومصر والكرك فى أزمنة مختلفة . وباعتباره أميرا على اقليم الجزيرة ،

كان من واجبه عقب وفاة صلاح الدين، ان يحبط محاولات الزنكيين أمثال ، عز الدين صاحب الموصل ، وعماد الدين صاحب سنجار ، اللذين اغتنما فرصة وفاة صلاح الدين ، لاسترداد أملاكهما السابقة في الجزيرة. واستطاع العادل بفضل مساعدة ولدى أخيه ، فى حلب ودمشق ، ان يحافظ على الوضع فى الاقاليم الشرقية الى حد كبير .

وفى السنوات التالية أمد العادل سلطانه الى الشام ومصر ، بفضل ما اشتهر به من الدبلوماسية وتدبير المؤامرات ، وما وقع من المخاصمات بين ابناء صلاح الدين الذين هيأوا له السبيل لاستخدامهما على نحو ما يرتضيه. فانحاز العادل الى أمراء الشام فى مقاومة العزيز صاحب مصر الذي حاول اقصاء الأفضل عن حكومة دمشق ، بسبب ما اشتهر به الأفضل من سوء الادارة وكراهية العساكر له . ولم يلبث العادل أن تحول الى جانب العزيز صاحب مصر ، فأسهما سويا فى قتال الصليبيين واجبارهم على عقد هدنة سنة ١١٩٨ لمدة خمس سنوات ، وأفاد العادل من هذه السياسة في اقصاء الأفضل عن حكومة دمشق ، وتولى العادل نيابة عن العزيز ادارتها .

على أن ما حدث من وفاة العزيز سنة ١١٩٨ ، ووقوع الشقاق بين العساكر الأيوبية ، وحرص الأفضل وغازى على منع العادل من انتزاع السلطنة في مصر ، كل ذلك أدى آخر الامر الى أن يصير العادل سلطانا على مصر والشام ، فاعترف بسلطنته سائر الأمراء الأيوبيين ، ومنهم غازى والأفضل ، وذلك سنة ١٢٠٢ .

وتقرر الابقاء على حماه وحمص في أيدى أميريهما ، بينما وزع العادل ما تبقى من الاقاليم بين ابنائه . فصارت دمشق للمعظم عيسى ، واختص الكامل محمد بمصر ، وولى الأشرف موسى اقليم الجزيرة ،وكانت ديار بكر من نصيب الأوحد الايوبى ، بينما حاز الحافظ أرسلان قلعة

جعير . ثم خضع اقليم الجزيرة للأشرف ، بعد وفاة الأوحد ، الذى هزم الكرج وأجبرهم على المحافظة على السلام لمدة ثلاثين سنة .

كل هذه المشاكل كان لها أهمية كبيرة فى تقرير سياسة الأيوبيين مع الفرنج . والواقع أن الأيوبيين لم يخشوا جانب الفرنج في الشرق الأدنى ، فالخطر الوحيد الذي يصح الخوف منه ، هو احتمال قدوم حملة صليبية جديدة من جهة البحر . وكانت مصر أهم ما شغل خاطر العادل ، شأنه في ذلك شأن صلاح الدين ، ولذا ظلت العساكر على أهبة الاستعداد في مصر . واذ كان العادل يؤثر السلامة ، تنازل للصليبيين عن يافا والناصرة سنة ١٢٠٤ ، ووطد علاقاته مع المدن الايطالية ، لما فى ذلك من أهمية مزدوجة ، تتمثل فى زيادة موارده واضطراد قوته العسكرية من جهة ، ومنع هذه المدن الايطالية من مساندة حملات صليبية جديدة . فتم التصديق على معاهدتين تجاريتين مع البندقية وبيزا سنتى ١٢٠٧ ــ ١٢٠٨ وقد بلغ عدد تجار الفرنج بالاسكندرية سنة ١٢١٢ نحو ٣٠٠٠ تاجر . وعقد العادل هدنات عديدة مع مملكة بيت المقدس (١) ، في السنوات ١١٩٨ ــ ١٢٠٤ ، ١٢٠٤ ــ ١٢١٠ ، ١٢١٢ ــ ١٢١٧ . وأفاد العادل من هذه الهدنات فى عمارة الاستحكامات ووسائل الدفاع فى بيت المقدس ودمشق . وما وقع من قتال ضد الفرنج ، كان موجها من قبل حماه وحمص ضد أملاك الاسبتارية (حصن الاكراد) ، وأمير طرابلس وأنطاكية . ولم تثمر محاولات غازى صاحب حلب في اتخاذ حلفاء من الفرنج وسلاجقة الروم والداوية والحشيشية ، لمناهضة عمه العادل . ولم يلبث غازى أن مات سنة ١٢١٦ ، وحل مكانه ابنه الطفل العزيز محمد والأتابك شهاب الدين طغرل . غير أنه حدث في الفترة الواقعة بين

---

(١) المعروف ان مملكة بيت المقدس لا زالت قائمة في المنطقة الممتدة من صور الى يافا ، وكانت عاصمتها عكا .

١٢١٦ ، ١٢١٨ ، أنه كان لزاما على الأيوبيين أن يحاربوا في ثلاث جبهات، بأن يستعيدوا ما انتزعه سلاجقة الروم وسلطانهم كيكاوس من أملاك مثل رعبان وتل باشر ، وأن ينهضوا لرد الصليبيين الذين نزلوا على دمياط سنة ١٢١٨ ، وأن يمنعوا زحف الصليبيين بالشام الى داخل البلاد . واستطاع الأشرف أن يسيطر على حلب بعد أن هزم السلاجقة ، وأن يعهد بحكومتها الى طغرل ، وأن يرسل الأمراء المتمردين ليلحقوا بجيش الكامل في مصر . وبذلك صارت السيادة لأبناء العادل فى كل أقاليم الشام فيما عدا حماه وحمص . وحينما مات العادل سنة ١٢١٨ ، اعترف جميع الأمراء الأيوبيين بسلطنة الكامل .

على أن الوضع ازداد سوءا في دمياط ، فاستنجد الكامل بالأمراء الأيوبيين فى الشام ، غير أنه انسحب من دمياط قبل قدوم الأمداد ، بعد أن اكتشف مؤامرة ترمى للاطاحة به ، دبرها الأمير المشطوب ، ابن أحد الأمراء الاكراد الذين كانوا فى خدمة صلاح الدين ، فتقرر نفيه الى الشام ، غير أنه لم يكف عن تدبير المؤامرات واثارة الاضطرابات فى شمال الشام ، بالاتفاق مع الأفضل بن صلاح الدين ، وأميرى ماردين وسنجار . على أن الأشرف نجح في اعادة الامن الى اقليم الجزيرة سنة ١٢٢١ فترك حكومة أخلاط دياربكر بيد أخيه المظفر شهاب الدين غازى ، ثم صحب اخاه المعظم عيسى وسائر أمراء الشام الى مصر حيث لحقوا بالسلطان الكامل عند المنصورة .

على أن ما حدث من النزاع بين قادة الحملة الصليبية الخامسة ، وما تلقاه الكامل من نجدات من سائر بلاد الأمبراطورية الأيوبية ، وما كان من فيضان النيل الذي أعاق الصليبيين عن الزحف ، فضلا عن ميل الكامل للصلح ، بعد أن تأخر قدوم الأمداد ، وتبرم الجيش بالحرب ،

على الرغم من استبسال الأهالى في قتال الصليبيين بالمنصورة ، كل ذلك حمل الكامل على الصلح ، الذى انعقد فى أغسطس ١٢٢١ ، على أن يستمر لمدة ثمانى سنوات ، وقضى باطلاق سراح الأسرى ، وتمّ الجلاء عن دمياط سنة ١٢٢١ ٠

وبزوال الخطر الصليبي ، ظهرت من جديد عوامل الاحتكاك بين الأمراء الأيوبيين ، فخرج المعظم عيسى على طاعة أخيه الكامل ،وألب عليه العناصر الساخطة في الجيش ، واستعدى الأمراء المجاورين من الأراتقة فضلا عن الخليفة الناصر لدين الله ٠ وفى علاقته بالاشرف ، حرص المعظم عيسى على دعوة جلال الدين خوارزمشاه للاستيلاء على ديار بكر ، وحرض حلفاءه على مهاجمة الموصل وحمص ، وكان لزاما على الأشرف أن يخضع للمعظم عيسى ، بعد أن تعرضت أخلاط لهجمات الخوارزمية الذين اعترف المعظم بسيادتهم ٠

وزاد الأمر سوء ما علمه السلطان الكامل من استعداد الأمبراطور فردريك الثانى لحرب صليبية جديدة ، سنة ١٢٢٧ فلم يسعه الا أن يعرض على فردريك ما سبق أن عرضه على الصليبيين فى دمياط فى الحملة الخامسة ، بان يسلم له بيت المقدس وجانبا من فلسطين ٠

وفى وسط هذه الأحداث مات المعظم أمير دمشق سنة ١٢٢٧ قبل قدوم حملة فردريك ، وخلفه ابنه الناصر داود ، وأقر الكامل ولايته ٠ ولم تلبث أن اندلعت الفتن بين الأمراء الأيوبيين ، واستقر الرأي أخيرا بين الكامل والأشرف ، على أن يتولى الأشرف حكومة دمشق ، ويحتل الكامل فلسطين ٠ على أن ما حدث من اتفاق الكامل مع فردريك سنة ١٢٢٩ ، لقى السخط من سائر المسلمين ، وسبب المقاومة للأشراف في دمشق ، غير أنه استطاع ان ينتزعها ٠

وترتب على ذلك ان توزعت الأقاليم من جديد ، فاحتفظ الأشرف بأخلاط وديار بكر ، فضلا عن سيادته على حلب ، وتنازل عن الجزيرة للسلطان الكامل ،الذي أضاف أيضا الى ممتلكاته الشطر الغربي من فلسطين وطبرية . ويتضح من ذلك،ان هذا التوزيع كفل لكل من الأميرين الاطمئنان من جهة الواحد منهما نحو الاخر . على أنه من الناحية الواقعية تهيأت للكامل السيادة التامة ، اذ احتل اقليم الجزيرة ، وخضع لسلطانه حماه ، وحينما استولى الخوارزمية على أخلاط ١٢٣٠ ، نهض لقتالهم الكامل والأشرف ، فحلت بالخوارزمية هزيمة ساحقة ، وهرب جلال الدين الى تبريز ، بينما احتل الأشرف خرائب أخلاط .

استطاع الكامل والأشرف أن يواصلا جهودهما لتوطيد السيادة الأيوبية على الجزيرة وديار بكر ، اللتين تعرضتا لتهديد الجيوش المغولية في فارس وما وراء القوقاز ، وتم انتزاع حصني آمد وكيفا من الاراتقة ، فجعل الكامل حصن كيفا لابنه الصالح أيوب .

أضحى الكامل في ذروة قوته ، يسعى اليه الأمراء والسفراء ، من كل جانب ، حتى من الهند واسبانيا . على أنه حدث أيضا ان سلطنة سلاجقة الروم بلغت قمة مجدها زمن السلطان كيقباذ ، وأضحت أملاكها تتاخم بلاد الأيوبيين . وكيما يستخدم كيقباذ الخوارزمية ، الذين طردهم المغول بعد وفاة جلال الدين خوارزمشاه ، الى آسيا الصغرى ، لم يسعه الا أن يستولى على أخلاط سنة ١٢٣٣ . واستجاب كل الأمراء الأيوبيين لدعوة السلطان الكامل سنة ١٢٣٤ لمساندته ، غير أن جيوشهم لم تستطع ان تشق لنفسها طريقا في دروب جبال طوروس كيما تهاجم استحكامات السلاجقة ، فتراجعت ، واستولت القوات السلجوقية على خربوت ، ولم يلق كيقباذ ، بعد عودة الكامل الى مصر ، مقاومة فى الاستيلاء على ممتلكات الكامل بالجزيرة . غير أن هذه الأملاك لم تستمر طويلا فى أيدى

كيقباذ ، اذ لم تلبث أن عادت الى حوزة الكامل بفضل مساعدة الأشرف وسائر الأمراء الايوبيين سنة ١٢٣٦ ، وتولى حكومة الجزيرة والمشرق الصالح أيوب بن الكامل .

على أن ما حدث من وفاة الأشرف سنة ١٢٣٧ ، وموت الكامل سنة ١٢٣٨ ، أدى الى وقوع المنازعات بين الأمراء الأيوبيين ، اذ أن أمراء الشام ، حلب ، ودمشق ، وحمص ، حرصوا على منع سلطان مصر ، العادل الثانى ، وأمير الجزيرة والمشرق ، الصالح ايوب ، من التدخل فى شئون الشام ، وتجدد تحالفهم مع كيخسرو سلطان سلاجقة الروم ، والأراتقة في ماردين ، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، فضلا عن الخوارزمية ، الذين تركوا خدمة كيخسرو ، والتحقوا بخدمة أرسلان الأرتقى صاحب ماردين • على أن الصالح أيوب استمال الخوارزمية الى جانبه ، فانقلبوا على سادتهم في سنجار وماردين ، وطردوا جيشا سلجوقيا كان يحاصر آمد ، واستولوا باسم الصالح أيوب ، على حصن نصيبين واقليم الخابور ، في مقابل أنه جعل لهم بلاد مضر (في غرب الجزيرة) .

وعلى الرغم من الانتصارات التى حققها الأيوبيون على الصليبيين في فلسطين بعد انقضاء أمد معاهدة الكامل مع فردريك لمدة عشر سنوات وخمسة شهور ابتدا من ١٨ فبراير ١٢٢٩ ، فان الأيوبيين لم يكونوا مستعدين للمضى في قتال الفرنج .

ازدادت الأمور سوء في مصر زمن العادل الثانى الذى اشتهر بالاسراف ، فبدد كل ما ادخره الكامل من أموال ، وانبعثت العداوة بين الترك والكرد فى الجيش المصرى ، ونزع المماليك الى التمرد والثورة • واذ استعان الصالح أيوب بالمظفر تقى الدين صاحب حماه ، والناصر داود صاحب الكرك ، والخوارزمية للتغلب على خصومه واستخلاص مصر ،

وقعت في مصر فتنة اطاحت بالعادل الثاني ، وتقرر تنصيب الصالح أيوب سلطانا على مصر في مايو سنة ١٢٤٠ .

انصرف الصالح أيوب الى تنظيم مملكته وجيشه ، ذلك أن تجربته مع الاكراد الذين تخلوا عنه فى فلسطين فى السنة الماضية وما غلب على القوات الأيوبية بمصر من سوء النظام ، وخياتهم لأبيه وأخيه ، كل ذلك جعله يقتنع أنه لا يستطيع الركون اليهم والثقة فيهم .

ولما انتهى من قمع ثورات العرب في الصعيد ، وقام باصلاح المالية ، ألف كتيبة من خيرة المماليك الترك ، وخصهم بالاقطاعات والوظائف ، وشيد لهم قلعة جديدة وثكنات فى جزيرة الروضة بالقرب من القاهرة . وقام الخوارزمية حلفاء الصالح أيوب في الشام بمهاجمة أملاك أعـدائه أمراء حلب ، وحمص ، ودمشق وحلفائهم من السلاجقة بالأناضول ، وظلوا منذ ١٢٤١ ، حتى ١٢٤٣ يعيثون فسادا في الجزيرة ، ولما تعرض السلطان السلجوقي للتهديد بغزو آسيا الصغرى من قبل المغول سنة ١٢٤٣ ، بادر بعقد اتفاق مع الخوارزمية ، فتنازل لهم عن خربوت ، وصارت اخلاط من نصيب المظفر غازى (صاحب ميافارقين)

على ان الوضع في الشمال قد تغير بعد أن انزل المغول هزيمة ساحقة بالسلطان السلجوقى ، كيخسرو الثانى ، في يوليه ١٢٤٣ ، فاحتل المغول آمد وأخلاط ، وهددوا كل اقليم الجزيرة الذى يخضع للأيوبيين .

وعلى الرغم من أن انتصار المغول على السلاجقة حمل الأيوبيين على المبادرة الى تسوية منازعاتهم ، فان المفاوضات بينهم قد حبطت ، لارتياب الصالح اسماعيل أمير دمشق في موقف الصالح ايوب .

وفي سنة ١٢٤٤ جعل الصالح اسماعيل للصليبيين الملكية الكاملة

لبيت المقدس ، فكأن ما ارتكبه الكامل من حماقة منذ خمس عشرة سنة صار امرا مسلما به ، بل ان الصالح اسماعيل تجاوز الحد بان سلم لهم قبة الصخرة ، غير أن الخوارزمية بزعامة بركة خان ، وكان يزيد عددهم على عشرة آلاف رجل انسابوا في البقاع واستولوا على بيت المقدس في أغسطس سنة ١٢٤٤ ، واحتلوا فلسطين ، وانحازوا الى القوات المصرية في غزه . ولما حاول الأمراء الأيوبيون (امراء حمص ودمشق والكرك) وحلفاؤهم من الفرنج (عكا) مهاجمة المصريين والخوارزمية في غزه ، تعرضوا لهزيمة ساحقة ، ولقى معظمهم مصرعه في اكتوبر سنة ١٢٤٤ .ولم تلبث دمشق أن وقعت في أيدى قائد الصالح ايوب ، بمساعدة الخوارزمية ، غير أن هؤلاء الخوارزمية الذين ساءهم حرمانهم من نهب دمشق ، أخذوا يدمرون ويخربون كل ما يصادفهم في طريقهم حتى تعرضوا آخر الامر لهزيمة ساحقة خارج حمص في مايو ١٢٤٦ فتبدد شملهم ، وزالت أهميتهم باعتبارهم قوة مقاتلة .

ولم يلبث الصالح أيوب ان استولى على معظم أملاك الأمراء الأيوبيين بالشام ، ولم يعارضه الا الناصر يوسف صاحب حلب الذى تحالف مع أمير الموصل (بدر الدين لؤلؤ) ، فطاف الصالح أيوب باملاكه في الشام ، ثم استجاب آخر الأمر لرغبة الخليفة المستعصم بالصلح مع الناصر يوسف صاحب حلب ، وذلك بعد أن اشتد عليه المرض ، وعلم باحتشاد القوات الصليبية (حملة لويس التاسع) في قبرص ، لغزو مصر .

وما حدث من نزول القوات الصليبية على دمياط ، وتراجع القوات المصرية الى المنصورة ، التي صارت قاعدة للعمليات الحربية ضد الصليبيين ، ثم وفاة الصالح أيوب في نوفمبر سنة ١٢٤٩ ، كل ذلك تطلب ادارة حازمة للمضى في القتال ، فتولت شجر الدر تسيير الأمور حتى قدم توران شاه من حصن كيفا في فبراير ١٢٥٠ .

وفي تلك الأثناء دارت معركة حامية في المنصورة اشتـــرك فيها الى جانب القوات النظامية ، المتطوعون من المصريين ، وازداد التعــاون بين الفئتين ، واستطاعت هذه الحشود بقيادة بيبرس البندقــدارى ، الحاق الهزيمة بالفرنسيين ، ومطاردتهم الى فارسكور حيث تـم تدمير الجيش الصليبى في ابريل سنة ١٢٥٠ .

ولم يلبث النزاع أن دب بين المماليك وبين توران شاه الذى أراد أن يحل اتباعه ومماليكه القادمين معه من الجزيرة مكان المماليك الصالحية ، وانحازت شجر الدر الى المماليك الصالحية ، ولقى توران شاه مصرعه على أيديهم في مايو ١٢٥٠ ، واستــرد المسلمون دمياط في مــايو ١٢٥٠ بعد المفاوضات التى دارت بين نائب الصالح أيوب ، وهو الهدبانى ، وبين الملك لويس التاسع .

على أن نهاية البيت الأيوبي في مصر بمصرع توران شاه ، ليست الا الذروة لما حدث من تطور جرى زمن الصالح أيوب . ذلك ان الصالح أيوب تخلى نهائيا عن مبادىء نظام الحكم الأيوبى ، فما افتقر اليــه من صفات أسلافه التى ابقت على متانة وصلابة البيت الأيوبى ، حمله على أن يقيم أداة عسكرية يفرض بها ارادته وسلطانه . فلم يعامل سائر الأمراء الايوبيين على أنهم أقاربه ، بل على أنهــم خصومه ، فاستهل بذلــك نظام الحكم الشخصى الذى لا يختلف عن حكم المماليك الذين جاءوا من بعده . على أن قادة القوات المملوكية وعساكرهم لم يدينوا بالولاء للبيت الأيوبى بل لسادتهم فحسب . فلم يكد مركزهم يتعرض للتحدى (من قبل توران شاه) ، حتى فرضوا انفسهم ، وتخلصوا من السلطة الملكية ، من أجل مصالحهم .

ومن الطبيعي ألا يذعن الأيوبيون بالشام ، وأنصارهم من الكرد ؛

لما حدث بمصر من اطاحة المماليك بأقاربهم ، فتقرر تنصيب المغيث عمر بن العادل الثانى سلطانا على شرق الأردن ، بينما دعت القوات الكـردية ، الناصر يوسف أمير حلب ، ليحكم دمشق ، فدخلها في ١١ يوليه سنة ١٢٥٠ .

على ان شجر الدر تزوجت من أتابك العساكر ، أيبك ، وتنازلت له عن الحكم ، فاعترف به عساكره سلطانا ، واتخذ لنفسه لقب المعز .

واذ خشى أمراء المماليك ما ينجم عن ذلك من رد فعل سىء عند الأمراء الأيوبيين بالشام ، تقرر ان يشترك مع السلطان المملوكى في الحكم ، أمير أيوبى ، هو الأشرف موسى الثالث حفيد الملك الكامل ، الذى لم يتجاوز وقتذاك السادسة من عمره ، غير انه لم يلبث أن جرى استبعاده .

ألف الأيوبيون بالشام حلفا بزعامة الناصر يوسف لاستعادة مصر من المماليك ، وتأهبت قواتهم الى المسير الى مصر في ديسمبر ١٢٥٠ ، والواضح ان عواطف السكان ومعظم الجيش كانت معه . غير أنه حدث في فبراير سنة ١٢٥١ ، أثناء محاولته اجتياز الحدود المصرية ، ان تعرض للهزيمة ، ثم الارتداد الى الشام ، ووقع في ايدى المماليك كثير من الأمراء الأيوبيين ، منهم الصالح اسماعيل ، وتوران شاه بن صلاح الدين وغيرهما ، فلقى الأول مصرعه ، بينما تقرر اطلاق سراح الآخرين .

وما قام به الناصر يوسف من محاولة جديدة في سنة ١٢٥١ لغزو مصر ، بالتوجه الى غزه واحتلال الدارون ، لقيت مقاومة شديدة من قبل المماليك (١) ، الذين حشدوا قواتهم قبالة جيش الناصر يوسف ، واستمرت

---

(١) تشير المصادر الغربية الى ان الناصر يوسف لم يقصد في هذه الحملة غزو مصر ، بل كان يهدف الى منع اتصال الجيش المملوكى بالملك لويس التاسع في فلسطين ، بعد ان رفض ما عرضه الناصر من تسليم بيت المقدس له ، مقابل التحالف معه ، على حين ان لويس التاسع ارتاح لموقف أيبك الذى اطلق سراح جميع الاسرى المسيحيين بناء على طلبه . ولم تشر المصادر العربية لنشاط لويس في فلسطين اثناء هذه السنوات (١٢٥٠ ـ ١٢٥٣) . واذ انه مضى في عمارة الاستحكامات ، ثم عقد قبل عودته الى فرنسا معاهدة الصلح مع دمشق لمدة عشر سنوات وستة شهور ، واربعين يوما .

المجابهة ما يزيد على سنة دارت اثناءها المفاوضات بين الجانبين ، واستقر الرأى آخر الأمر ، في مارس سنة ١٢٥٣ ، على ان يتنازل الناصر يوسف عن بيت المقدس للسلطان أيبك ، وتقرر الصلح بينهما .

ولم يلبث أن تجدد التوتر والعداء بين أيبك والناصر يوسف ، سنة ١٢٥٥ ، بعد هروب معظم المماليك البحرية الى دمشق ، وترحيب الناصر بهم ، واتخاذهم حلفاء لمناوءة أيبك ، الذى قتل زعيمهم أقطاى ، ثم عاد السلام من جديد بين الناصر وايبك سنة ١٢٥٦ ، وتنازل عن فلسطين لايبك وتجددت المعاهدة مع الفرنج ، بعد أن دخلت فيها مصر .

وظلت السيادة والزعامة في الشام لبيت صلاح الدين ، الذى يمثله حفيده الناصر يوسف ، ما يزيد على اربع سنوات أخرى . فلما طلب اليه هولاكو الذى استولى على بغداد سنة ١٢٥٦ ، ان يقدم اليه ، أرسل بدلا منه ابنه العزيز محمد . ولما توجه هولاكو بحملته نحو الغرب سنة ١٢٥٩، غادر الناصر مدينة حلب ، ونزل في موضع خارج دمشق ، وأرسل الى السلطان المملوكى الجديد ، قطز يستنجد به .

وبعد أن تعرضت حلب في يناير سنة ١٢٦٠ للنهب من قبل المغول ، لحق المنصور الثانى صاحب حماه بجيش قطز ، واستولى المغول على دمشق ، وبانياس ، وعجلون ونابلس وسائر الحصون ، ووقع الناصر يوسف أسيرا في يد القائد المغولى كتبغا .

على ان المغول بقيادة كتبغا تعرضوا لهزيمة ساحقة في معركة عين جالوت في سبتمبر ١٢٦٠ ، التى أبلى فيها قطز والمنصور بلاء حسنا .

وعاد المغول في السنة التالية الى الشام ، فاستولوا على حلب في

نوفمبر سنة ١٢٦١ ، على أن الأميرين الأيوبيين المنصور صاحب حماه ، والأشرف صاحب حمص ، انزلا بهم الهزيمة خارج حمص ، في ديسمبر سنة ١٢٦١ ، وظلا يطاردان المغول الى ما وراء الفرات .

وبهذا العمل المجيد ، اختتم التاريخ الايوبي الحافل بالأمجاد ، ففى سنة ١٢٦٣ انتزع السلطان بيبرس الكرك من يد المغيث بعد ان أمر بقتله ، وبوفاة الأشرف في نفس السنة ، زالت امارة حمص ، ولم يتول أحد من الأيوبيين حكم حلب بعد الناصر يوسف . أما المنصور صاحب حماه ، فهو وحده الذى احتفظ بامارته التى ظل أفراد أسرته ، من بيت تقى الدين عمر ، يحكمونها حتى سنة ١٣٤١ حينما آلت الى المماليك .

٥ ــ سلاجقة الروم قبيل الغزو المغولى

المعروف أن السلاجقة انثالوا في آسيا الصغرى منذ معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١ ، التى لقى فيها البيزنطيون هزيمة ساحقة ، فاستقروا في هضبة آسيا الوسطى (الأناضول) ، التى منعتهم من الامتداد الى السواحل ، وعزلتهم عن العالم العربى ، غير أنهم ظلوا على اتصال وثيق بالبلاد الايرانية . وانقسم السلاجقة الى فئتين : التركمان الخلص الذين حرصوا على الاغارة على المسيحيين وانكروا كل فكرة ترمى الى اقامة حكومة نظامية . أما الفئة الثانية فكانت السلاجقة ، الذين سعوا الى أن يقيموا في آسيا الصغرى حكومة نظامية شبيهة بالتى أقامها بنو عمومتهم في ايران .

واختلفت الفئتان في سياستهما الخارجية ، فبينما حرص السلاجقة على اتخاذ سياسة الحياد مع البيزنطيين ، حتى يتيسر لهم فرض سيادتهم على سائر المسلمين ،كان التركمان يميلون الى أسرة الدانشمنديين الذين استقلوا في سيواس ، وسيطروا على كل الطرق التي تجتاز شمال آسيا الصغرى .

استمر النضال بين السلاجقة والدانشمند معظم القرن الثانى عشر الميلادى ، واتخذ هذا النضال مرحلتين .

ففى الشطر الأكبر من عهد السلطان السلجوقى مسعود بن قلج ارسلان (١١١٦ ــ ١١٥٥) ، ألف الدانشمنديون جبهة متحدة تحت زعامة جمشتكين غازى (١١٠٥ ــ ١١٣٥) ومحمد (المتوفى ١١٤٠) ، فصارت لهم السلطة المطلقة في وسط الأناضول . على أنه منذ البداية لم ينقطع العداء مع الصليبيين والارمن في الجنوب ، ومع البيزنطيين في الغرب ، ومع اليونانيين في اطرابزون في الشمال الشرقى . وما حدث بعدئذ من الثورات الداخلية والحروب الأهلية ، هيأ الفرصة للامبراطور يوحنا كومنين (١١١٨ ــ ١١٤٣) ، لان يطهر الطرق التى تجتاز الأناضول قبل المضى الى الشام ، وذلك بتوطيد سلطانه في الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى ، وفي الطرف الداخلى الذى يتجه صوب الشمال الشرقى .

وأفاد الامبراطور البيزنطى ، مانويل (١١٤٣ ــ ١١٨٠) من المنازعات التي نشبت بين السلاجقة والتركمان ، ومن اقتراب قدوم الحملة الصليبية الثانية ، فانعقد الصلح بين البيزنطيين والسلاجقة ، الذى ادى الى نهوض السلاجقة لمساندة البيزنطيين ضد خصومهم من الأرمن ، وقيام البيزنطيين بقتال الدانشمنديين على البحر الاسود .

ثم تكفل السلطان قلج ارسلان الثانى بحماية الحدود البيزنطية وبمساندة الأمبراطور في قتال خصومه بأوروبا ، ولاثبات نواياه الطيبة ، قام بزيارة القسطنطينية سنة ١١٦٢ ، فرحب به الأمبراطور ، وبذلك امتد أجل السلام بين السلاجقة والبيزنطيين فترة أربع عشرة سنة أخرى .

وهذه السياسة أتاحت للسلطان قلج ارسلان الثانى الفرصة للتدخل في منازعات الدانشمنديين ، وادت آخر الأمر الى اعتراف الدانشمند ذى القرنين

صاحب ملطية بسلطانه ، وتيسر له أيضا استعادة انقره ، والتـدخـل في كل ما يجرى من الأحداث على حدود مملكته من جهتى الشام والفرات. يضاف الى ذلك أن قلج ارسلان أفاد من انتصارات نور الديـن على الصليبيين ، والتى سانده فيها بالضغط من جهته على الفرنج ، فطلب من نور الدين أن يتنازل له عن رقعة من الأرض في سهل شمال سوريا ، تجاور جبال الأناضول ، بالاضافة الى المواضع الشمالية التى كانت من أملاك كونتية الرها .

على أن نور الدين ، بما لهمن سلطان في البلاد التى اعتبرها ملكـا له ، لم يستجب لطلب قلج ارسلان الثانى ، فلم تلبث العلاقات بينهما أن فترت ، بل انه أنكر على سلطان السلاجقة صداقته للبيزنطيين واتهمه انه لم يسانده في حركة الجهـاد ضد الصليبيين ، ومن الطبيعـى أن يلجأ الدانشمنديون ، خصوم قلج ارسلان ، الى نور الدين يلتمسون منه العون والمساعدة .

وزاد من مكانة نور الدين وقتذاك ، استيلاؤه على مصر وانتزاعهامن أيدى الفاطميين ، وحصوله على امتيازات اقليمية ضخمة في أطراف مملكته الشمالية ، فضلا عن الأمداد التى تدفقت عليه من أتباعه وحلفائه فـى الجزيرة وقليقية ، فتعرضت أملاك السلاجقة بآسيا الصغرى للغزو ثلاث مرات ، بين ١١٧١ ، ١١٧٣ ، بل ان نور الدين أغار علىهذهالجهات، وكان لزاما على قلج ارسلان أن يقر ذا النون في سيواس ، وأن يكون معه ممثل لمصالح نور الدين ، وقبل كل ذلك ، اعرابا عن رغبته في الاشتراك في حركة الجهاد ضد الصليبيين والبيزنطيين .

وما انعقد بين هذه القوى الاسلامية من معاهـدة ، سنة ١١٧٣ ، لمواصلة حركة الجهاد ،أثارت شكوكالأمبراطور البيزنطى ، مانويل ،وأحس بما يتعرض له من الخطر .

على أن ما حدث من وفاة نور الـدين سنة ١١٧٤ ، وما قامت به بيزنطة من توطيد مركزها في غرب الأناضول ، فضلا عن الهدوء الذى ساد أوروبا وقتذاك ، كل هذه العوامل حملت مانويل كومنين على أن يعد حملة بالغة القوة لمهاجمة أملاك السلاجقة سنة ١١٧٦ . غير أن الجيش البيزنطى حلت به الهزيمة في درب ميريوكيفالون ، وهى التى تضارع في شـدتها ونتائجها ما حل بالبيزنطيين قبل قرن من الـزمان ، من هزيمة في معركة مانزيكزت سنة ١٠٧١ م . اذ أن هذه المعركة (ميريوكيفالون) تعتبر نهاية دعاوى البيزنطيين في السيطرة على الأناضول ، وبـداية سيادة سلاجقة الروم . ولم يعد السلطان قلج أرسلان الثانى في حاجة الى السيطرة على الشطر الغربى لآسيا الصغرى بعد ان حل به الخراب والدمار نتيجة هذه المعركة ، على حين أنه أمد سلطاته الى الشرق ، فأضاف الى أملاكه ملطية ، وتطلع الى امتلاك الأقاليم الفراتية . يضاف الى ذلك أن ما ساد من الفوضى والاضطراب في بيزنطة بعد وفاة الأمبراطور مانويل سنة ١١٨٠ ، منعهـا من مقاومة ضغط العناصر التركية التى تنزل على أطرافها .

ولم تكن لمعركة ميريوكيفالون أهمية عسكرية وسياسية فحسب ،بل ان الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى شرعت وقتذاك في اعداد نظم ادارية ، وفي تنمية مظاهر الحضارة الاسلامية ، وفي اثارة النشاط الاقتصادي الذى اكتمل تطوره في القرن التالى .

وفي الفترة الواقعة بين ١١٨٥ ، ١٢٠٤ ، وقع في بلاد سلاجقة الروم من الأحداث ، ما اضعف أحوالها ، فمن ذلك هجرة التركمان التي بدأت من أعالى الجزيرة ، وامتدت الى أرمينية ، والى حدود جورجيا (الكرج) وقبادوقيا ، والافادة من هؤلاء التركمان فيما نشب بين قلج ارسلان الثانى وأبنائه وأقاربه من حروب داخلية ، وما كان من موقفهم من حملة فردريك

بربروسة ، صديق قلج أرسلان وحرصهم على نهب الجيش الألماني ، وما تلي وفاة قلج ارسلان ١١٩٢ من تنازع بين أولاده على الحكم ثم استقرار كيخسرو الأول في السلطنة سنة ١٢٠٤ بفضل مساعدة التركمان والدانشمند فأضحت السلطنة له ولأبنائه من بعده .

ومع أن هذه الأزمة تدل على ضعف نظام الملكية ، فانما لم توقف توسع السلاجقة أو التركمان . اذ وصل التركمان الى ساحل آسيا الصغرى الممتد من الشاطىء المواجه لجزيرة رودس حتى أطراف أضاليا (أنطاليا) . وما حدث في الدولة البيزنطية زمن بيت انجيلوس من اضطرابات أدت الى تمرد وعصيان سادة الحدود ، فبذلوا ولاءهم للترك كيما يحصلوا على أمداد عسكرية . واستطاع الترك بذلك أن يهددوا منطقة نهر المايندر ، وخرجت دورليوم (اسكى شهر) من حوزة البيزنطيين ، وانحسر سلطان البيزنطيين حتى أضحى قاصرا على ساحل البحـر الأسود ، دون أن يسيطروا على شيء من الأراضي الداخلية ، بـل ان الترك احتلـوا سمسون ، ومنعوا الاتصال بين اطرابزون والقسطنطينية . وترتب على الاستيلاء على أرزروم ، أن تهدد مركز المسيحيين في جورجيا واطرابزون ، يضاف الى ذلك أن ارزبخان أضحت من توابع سلطنة سلاجقة الروم . ولم يتعرض الطرف الغربى ، لنحو نصف قرن ، لشيء من التهديد .

ويتضح من كل ذلك أن بيزنطة (في نيقيه) اعترفت باطلاق أيدى السلاجقة في الشرق ، بما في ذلك بلاد اليونانيين بتلك الجهات ، وهم الذين كانوا يكرهون اباطرة بيزنطة في نيقية ، والمعروف أنه لم يجتاز الأناضول حملة صليبية كبيرة بعد حملة فردريك بربروسه ، فكان ذلك من عوامل الاستقرار والهدوء .

واذ توطد سلطان السلاجقة على السواحل في الشمال والجنوب من

آسيا الصغرى ، استطاع كيخسرو (١٢٠٢ ـ ١٢١١) أن يضيف الى أملاكه أضاليا(أنطاليا)، دون أن يثير عداء نيقيه ، فظفر بذلك بقاعدة للتجارة مع مصر ، وأضاف ابنه عز الدين كيكاوس الاول(١٢١١ ـ ١٢٢٠) سينوب على البحر الاسود ، فأضحت قاعدة حربية ومركزا تجاريا للسلاجقة .

وفي زمن كيقباذ الأول (١٢٢٠ ـ ١٢٣٧) ، الذى يعتبر أزهى عصور سلاجقة الروم ، امتدت الممتلكات السلجوقية على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى حتى الساحل المواجه لجزيرة قبرص والى دروب قليقية ، واتخذ كيقباذ مقرا له في علايا (علائية حاليا) . وتم أيضا الاستيلاء على مدن ساحل شبه جزيرة القرم ، التى انضمت الى اطرابزون ، بعد سقوط القسطنطينية في أيدى اللاتين سنة ١٢٠٤ ؛ والمعروف ان هذه المدن منعت التجار من الوصول الى البلاد السلجوقية .

وانصرف كيخسرو الأول ، وكيكاوس الأول ، وكيقباذ الاول الى تأمين حدود طوروس المواجهة لمملكة قليقية ، التى كانت وقتذاك في قمة مجدها وسلطانها .

انحاز هؤلاء السلاطين السلاجقة الى الفرنج بانطاكية لمناوءة قليقية ، واتخذوا جانب اللاتين والبنادقة بالقسطنطينية لمناهضة البيزنطيين في نيقية . وجرت المراسلات بينهم وبين البابوية ، ورحبوا بالبعثات التبشيرية اللاتينية ، وحاولوا بذلك انتزاع رعاياهم اليونانيين من كل ما يربطهم ببيزنطة من صلات .

وكان هؤلاء السلاطين وأخلافهم ، الذين خدموا المغول ، على علاقات ودية مع الفرنج ، وقد التزموا الحياد مع اليونانيين ، وأظهروا العداء لاخوانهم المسلمين . وأفادوا من الفتن الناشبة بين أمراء الشام والجزيرة .

وتفصيل ذلك أن كلا من كيخسرو وكيطاوس اتخذ سياسة التحالف مع الظاهر غازي الأيوبي صاحب حلب ، لمناوءة ليو الثانى ملـك قليقية (أرمينية الصغرى) . وكان غازى يأمل من وراء هذا التحالف ان يجد فيه الحماية من أطماع عمه العادل الأول . ولما مات غازى سنة ١٢١٦ ، أراد كيكاوس أن يساند ابنا آخر لصلاح الدين وهو الأفضل ، الذى كان يتولى سموساط منذ ١٢٠٣ ، اقطاعا من السلاجقة،وكان يرشحه لأن يتولى حكومة حلب ، غير أنه لم يستطع الى ذلك سبيلا ، بسبب ظهور الأشرف بن العادل في حلب ، فلم يسعه الا التحالف مع الأشرف . وبفضل هذا التحالف انتزع من مودود الأرتقى صاحب آمد وحصن كيفا ، كل ما يملك من الحصون الواقعة وراء الفرات والتى تمتد الى حدود ارزنجان . وفي سنة ١٢٢٨ استولى على ارزنجان بعد ثلاث سنوات مضت على وفاة أميرها بهرام شاه وفي وسط هذه الأحداث ، ظهـر عـامل جديد في سياسة غرب آسيا ، وهو الخوارزمية بقيادة جلال الدين منكوبرت .

لم يظهر السلطان السلجـوقي شيئا من الـكراهية لجلال الـدين خوارزمشاه ، الذى لم يهدد سوى ارزروم التى يعادى صاحبها ، السلطان كيقباذ السلجوقى ، فضلا عن أملاك الأشرف الشمالية الشرقية مثل أخلاط على بحيرة وان . غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت حينما تبين أن جلال الدين يستعد لغزو الأناضول بعد أن استولى على أخـلاط ، ولقى التأييد من صاحب ارزروم الذى صار من اتباعه .

على أن كيقباذ حث الأشرف ، وحكومة حلب ، والسلطان الكامل الايوبي ، على أرسال الأمداد العسكرية ، فأنزلت القوات المتحالفة الهزيمة بالخوارزمية في سنة ١٢٣٠ ، في غرب ارزنجان ، وترتب على هذه الهزيمة أن أضاف كيقباذ أرزروم الى بلاده ، فأضحت أملاكه تتاخم ارزنجان .وكان

لزاما على جورجيا واطرابزون ، اللتين ساندتا الخوارزمية اتخاد سياسة المسالمة والولاء للسلطان كيقباذ .

ولم يلبث الحلفاء ان تبدد شملهم ، فلم يعد الأشرف يحفل باماراته النائية بسبب انصرافه الى تسوية المشاكل والمنازعات في الامارات الأيوبية بالشام ، على الرغم من أن هذه الامارات تعرضت لتهديد المغول الزاحفين نحوها .

وحرص كيقباذ على أن يستخدم الخوارزمية ، الذين لم يعد لهم زعيم أو بلاد ، في الاستيلاء على اخلاط ، لما لها من أهمية استراتيجية ، باعتبارها قاعدة تنطلق منها الغارات والغزوات . واستطاع السلطان الكامل من جهة أخرى ، أن ينتزع آمد وحصن كيفا ، من الأمير الأرتقى ، مودود ، سنة ١٢٣٢ ، نظرا لانحيازه للخوارزمية .

ولما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين الأيوبيين والسلاجقة ، تصادمت أطماعهم . ففى سنة ١٢٣٣ ، كان السلطان الكامل يأمل في أن يغزو بلاد السلاجقة ، بعد أن أنهى اليه السوريون القادمون منها سنة ١٢٣١ ، بما كانت عليه بلادهم من ضعف .

استجاب الكامل لطلب الأمير الخضر الأرتقى صاحب خربوت لمساندته ضد السلاجقة ، غير أنهما تعرضا لهزيمة ساحقة على يد كيقباذ ، الذى استولى على خربوت ، فامتدت بذلك أملاكه الى ما وراء نهر الفرات ، بل انه أقام له حامية في حران في جوف بلاد الأيوبيين ، ثم حاصر آمد .

ولما مات كيقباذ الأول سنة ١٢٣٧ ، وقع النزاع بين ابنه غياث الدين والخوارزمية ، الذين فروا الى الجزيرة . وما حدث من وفاة الأشرف ، ثم وفاة الكامل ، هيأ له الفرصة للاشتراك في التحالف مع أمراء الشام والجزيرة ، ضد الصالح أيوب (بن الكامل) والخوارزمية ، فدخل آمد

نفسها ، التي تعتبر أمنع المعاقل في دياربكر ، ثم حاصر ميافارقين الواقعة وراء نهر دجلة ، فامتدت أملاك السلاجقة الى ما كان للدولة البيزنطية في الشرق من حدود ، بل انها تجاوزت في اتجاهها نحو الجزيرة حدود بيزنطة السابقة ، وأضحت حدودها تطابق منازل التركمان .

وعلى الرغم من تزايد الخطر المغولى في مستهل حكم كيخسرو الأول ، بلغت الدولة السلجوقية ، زمن كيقباذ الأول ، الذروة في القوة العسكرية وفي التوسع الاقليمي ، وأحاط بها المسلمون في حلب ، والمسيحيون في قليقية واطرابزون ونيقية وقبرص ، التى كانت ترسل أمدادا كلما طلب اليها ذلك .وهذه الفترة هى التى اكتملت فيها نظم الدولة ،وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية والحضارية .

على أن الدولة السلجوقية ، كانت تخفى وراء واجهتها القوية عوامل الضعف ، حينما أخذ الخطر المغولى يلوح في الشرق . ذلك أن المغول توغلوا في أملاك السلاجقة اواخر ايام كيقباذ الأول . على أن ما حدث من مشاكل داخلية عند المغول هيأ للسلطان كيخسرو الأول فترة من الراحة استغرقت بضع سنوات .

ثم سقطت أرزروم في ايدى المغول سنة ١٢٤٢ ، ثم وقعت الطامة الكبرى سنة ١٢٤٣ ، بينما كان كيخسرو منصرفا الى القتال في دياربكر . فبادر الى حشد اكبر ما يستطيع من قوة ، تألفت أساسا من فصائل تنتمى لأصول مختلفة ، منها المغول . والتقى كيخسرو بالمغول في معركة Kôse Dagh على الطريق بين سيواس وأرزنجان ، فحلت بالسلاجقة الهزيمة الساحقة ، وتحطم الجيش السلجوقى ، ومضى المغول في نهب سيواس وقيصرية . واذ اشتد الرعب بالسلطان كيخسرو ، لم يسعه الا أن يلوذ بالفرار الى أضاليا ومنها الى الحدود اليونانية ، بعد أن تخلى

عن كل كنوزه وثروته . أما وزيره ، مهذب الدين ، فانه انحاز الى المغول ، وتوجه الى باطوخان ، حيث عقد معه معاهدة تقضى باستمرار بقاء دولة السلاجقة ، على أن تؤدى الجزية وترسل الأمداد عند الطلب . ثم عاد كيخسرو فيما بعد الى قونية .

وعلى الرغم من أن الأمور كانت تجرى على ما كانت عليه قبل سنة ١٢٤٣ ، فالواقع أن هذه المعركة كانت ايذانا بنهاية الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى ، اذ ازدادت سيطرة المغول الادارية ، واشتد تداعى السلاجقة .



الفصل التاسع

جنكيزخان وخوارزمشاه

سبق الاشارة الى انتصار جنكيزخان سنة ١٢٠٩ على الأويغور ، وكانوا حتى وقتذاك خاضعين لسلطان الخطا . وفي سنة ١٢١١ ، وصلت القوات المغولية الى ما هو معروف الآن باسم تركستان الروسية Semiryechye فدخل أرسلان خان ، حاكم القارلوق المسلم بسمرقند في طاعة جنكيزخان ، بعد أن كان خاضعا لكورخان الخطا . والمعروف أن محمد خوارزمشاه انتصر على الخطا سنة ١٢١٠ ، وكان يعلن دائما انه منقذ المسلمين من الكفار .

وما حدث سنة ١٢١٢ من تدهور العلاقات بينه وبين خان سمرقند ، وما ترتب على ذلك من انحياز هذا الأمير الى الخطا من جديد ، دل على تداعي نفوذ خوارزمشاه عند المسلمين في آسيا الوسطى ، فلم يستطع ان يكبح جماح عساكره ، وأن يمنع اعتداءاتهم على سلطان البلاد التي فتحها ، فلم يتيسر له أن يخمد حركة العصيان في سمرقند الا بعد معارك دامية ،

فأضحت حدود مملكة خوارزمشاه تمتد من فرغانة الـى بحيرة آرال ، وأضحت الضفة اليمنى لنهر سيحون ، داخلة في نطـاق الأمبراطوريـة الخوارزمية . أما بقية المناطق الاسلامية ، التي اعترفت بسيادة الخطا ، فانما خضعت لزعيم النايمان ، كوجلك ، سنة ١٢١١ ، أى قبل أن يخرج خان سمرقند على طاعة خوارزمشاه .

ووقع الصدام بين محمد خوارزمشاه وكوجلك ، على ما تبقى من أملاك الخطا وأتباعهم في كشغر وغيرها من المواضع . اذ ان كوجلك ظل يواصل حروبه في تركستان الشرقية ، منذ ١٢١١ حتى سنة ١٢١٤ ، فكان يغير عليها زمن حصاد المحصولات ، بينما اكتفى خوارزمشاه بـارسال عساكره من وقت الى آخر الى هذه الجهات ، فتعرضت البلاد للخراب ، واندلعت فيها المجاعة ، ولم يسع سكانها آخر الأمر الا الإذعان لكوجلك ، الذى أمعن في اضطهادهم ، بأن أمرهم بارتداء زى الخطا ، ومنعهم من العبادة ، وقتل اماما من ختن ، وأسكن عساكر النايمان في بيوت المسلمين ، الذين لم يتلقوا المساعدة من خوارزمشاه ، ولم ينقذهم الا قدوم المغول سنة ١٢١٨ .

كان خوارزمشاه وقتذاك منصرفا الى قتال القبجاق بالمنطقة الشمالية من سيحون ، حيث كانوا ينزلون استبس القرغيز . وحدث في حملة من الحملات الموجهة الى قتال القبجاق ، أن وقع الصدام مع جيوش جنكيزخان وذلك سنة ٦١٢(١) هـ (١٢١٥ ــ ١٢١٦) . ذلك أن المركيت الذين طردهم

---

(١) اختلفت الروايات في تحديد زمن اول ما وقع من الصدام بين جيوش جنكيزخان ، وعساكر خوارزمشاه ، فمن هذه الروايات ما يشير الى ان المغول لم يشتبكوا في قتال العساكر الخوارزمية الا سنة ٦١٥ (١٢١٨)، اى بعد الانتصار على كوجلك . والمعروف ان كوجلك كان وقتذاك في تركستان الشرقية ، وهرب منها الى ساريقول ، بينما وقع الصدام بين المغـــول والخوارزمية في اقليم تورغاى في غرب سهوب القرغيز .
انظر Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion p. 369.

جنكيزخان من منغوليا ، ظهروا بزعامة توق تغان في بلاد القبجاق ، وعندئذ توجه لقتالهم السلطان محمد خوارزمشاه ، فسار الى جند ، غير أنه حينما تبين له أن المغول جاءوا بقيادة جوجى لمطاردة المركيت في بلاد القرغيز ، لم يسعه الا أن يعود الى سمرقند ، كيما يحشد ما تبقى بها من العساكر ، ثم يعود الى جند فتتهيأ له الفرصة للتخلص من عدوين في ضربة واحدة .

على أن المغول بددوا شمل المركيت ، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة . وحرص السلطان محمد خوارزمشاه على ان يطارد المغول،فلحق بهم، ولم يكن قادة الجيش المغولى راغبين في القتال ، لأنهم لم يتلقوا من جنكيزخان من الأوامر الا بقتال المركيت . غير أن السلطان أعلن أنه يعتبر كل الكفار خصوما له ، وأجبر المغول على أن يخوضوا معركة ، لم تؤد الى نتيجة حاسمة . وكان من المقرر أن يستأنف الجانبان القتال في اليوم التالى ، غير أن المغول انسحبوا في جنح الظلام ، بعد أن تركوا نيران المعسكر متقدة حتى يخدعوا المسلمين الذين لم يكتشفوا هذا الأمر الا في صبيحة اليوم التالى . على أن بسالة المغول بلغت من قوة التأثير عند خوارزمشاه ، انها أصبحت من العوامل التى جعلت السلطان يتجنب لقاء المغول في معركة حاسمة . وليس معروفا كيف ومتى تلقى جنكيزخان أنباء هذا الهجوم . وكيفما كان الأمر لم يؤثر هذا الهجوم على ما كان من علاقات بين الدولتين، فاعتبر الجانبان ان ما حدث من القتال بينهما ، نجم عن سوء تفاهم يدعو للأسف .

والواقع أنه لم يكن للسلطان محمد خوارزمشاه من بين الأمراء المسلمين من ينازعه السلطان . فالمعروف أنه أضاف الى أملاكه حوالى ١٢١٥ ، ما كان للغوريين من بلاد (افغانستان) : وجعلها اقطاعا لابنه جلال الدين . واستطاع قادته ان يخضعوا لسلطانه كل فارس تقريبا ، بل جرت الخطبة باسمه في عمان .

على أن ما تعرض له خوارزمشاه من خيبة أمل في الغرب ، انما حدث حينما طلب من الخليفة الناصر لدين الله ، بأن تجرى له الخطبة في بغداد ، وأن يتنازل له الخليفة عن السلطة الدنيوية مثلما حدث زمن البويهيين والسلاجقة . على أن حرص الخليفة الناصر على توطيد سلطانه أدى الى اتخاذ كل ما يكفل له تحقيق غرضه من وسائل، فأفاد من زعماء الاسماعيلية في التخلص من خصومه الذين يخدمون خوارزمشاه ، أمثال نائبه في العراق ، وأمير مكة ، غير ان خوارزمشاه أذاع ان الخليفة حرض الغوريين في غزنة على مهاجمته ، واستطاع خوارزمشاه أن يحصل على فتوى من الأئمة بأن تصرفات الخليفة لا تليق بامام المسلمين ، فما لجأ اليه الخليفة من مناهضة السلطان والتآمر عليه ، برغم ما يبذله السلطان من خدمة جليلة للدين ، اتخذه خوارزمشاه مبررا لأن يقرر عزل الخليفة ، وأن يختار خليفة آخر من العلويين ، ولا سيما ان العباسيين انتزعوا الخلافة من العلويين ، من سلالة الحسين بن على . فأعلن خوارزمشاه عزل الناصر ، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة والنقود ، وقرر الزحف على بغداد ، بعد أن اختار السيد علاء الملك الترمذى ليكون خليفة . وفي سنة ١٢١٧ ، أعاد سلطانه على فارس ، ثم عزم على المسير الى بغداد ، فأنفذ اليها من همذان جيشا كبيرا ، غير انه تعرض لعواصف ثلجية في كردستان ، وحلت به خسائر فادحة ، ومن تبقى منه ، تخطفه الاكراد ، فلم يرجع منهم الى خوارزم الا عدد قليل .

وتعرضت بذلك هيبة خوارزمشاه لمحنة شديدة ، اذ رأى الناس في ذلك عقابا سماويا لاجترائه على الخليفة ، والى ذلك ليشير ابن الأثير « بأن من سعادة هذا البيت الشريف العباسى ، أنه لم يقصده احد بأذى ، الا لقيه فعله وخبث نيته » . على أنه كان لزاما على خوارزمشاه ان يعود الى الشرق لما كان يخشاه من غزو المغول لاقليم ما وراء النهر .

الواقع أنه لا بد من مراعـاة اعتبارات بالغة الأهمية ، في وضع خوارزمشاه ، قبيل التحامه مع قوات جنكيزخان . ومن هذه الاعتبارات ، أنه بينما كان سكان منغوليا مؤلفين من المغول والترك ، الـذين تسود بينهم الديانات الشامانية والبوذية والنسطورية ، فضلا عن كشغر التى يدين أهلها بالاسلام والتى تغلـب عليها الصفة التركيـة ، كان محمد خوارزمشاه على رأس أسرة تركية مسلمة ، تستند الى أساس ايرانى .ففى اقليم ما وراء النهر ، تزداد الصفة الايرانية التركية بين السكان ، على حين غلبت الصفة الإيرانية على أملاكه في خـراسان ، وافغانستان والعراق العجمى .

وعلى الرغم من ان خوارزمشاه كان فارسا شجاعا ، فـانه اشتهر ايضا بالخفة والطيش والرعونة ، فما حـازه من انتصارات على الخطا والغوريين أثار فيه الكبرياء والتعالى ، على ان هزائمه اضعفت من روحه المعنوية ، وكادت تحرمه من كل اسباب القوة في أملاكه وتجعل من هـذا البطل جبانا رعديدا .

والمعروف أن الأمبراطورية الخوارزمية لم يرجع تاريخها الى أبعد من سنة ١١٩٤ ، ولم يتخذ محمد خوارزمشاه حاضرته في سمرقند الا سنة ١٢١٢ بعد ان تخلص من خصمه عثمان صاحب سمرقند . فما فرضته هذه الدولة من سيادة ، وما حققته من انتصارات أدت الى امتداد ملكها ، تحت سلطان سيد يفتقر الى التجربة ، ولم يكن لهذه السيادة من الدعائـم مثلما كان لسيادة دولة جنكيزخان التى ارتكنت الى اليسق (الياسة) . ومن الناحية العنصرية لم تكن العلاقة وثيقة بين التاجيك الذين يسكنون المدن والذين تغلب على حضارتهم الصفة الايرانية ، وبين الترك الذيـن يتألف منهم الجيش . فلم تستند الأمبراطورية الخوارزمية ، مثلما استند السلاجقة الى عشيرة تركية واحدة ، اعتنقت الاسلام ، واستطاعت أن

تقيم اقطاعا حربيا . فأسرة خوارزمشاه تنتمى الى بيت كان يعمل أفراده في خدمة السلاجقة ، وليس وراءها عشيرة تساندها . بل ان خوارزم ذاتها وهي اقليم خيوة ، كانت من ضآلة المساحة ما يجعلها لا تؤلف الا اقطاعا تركمانيا واحدا . ونجم عن ذلك أن الجيش لم يتـألف الا من عساكر مأجورة مستمدة من قبائل الغز أو القانقلى التى تنزل باستبس القرغيز ، وليس لهم ولاء الا لمن يؤجرهم، ولم يكن لدى معظمهم الا فكرة واحدة، هيَ أن يرتكبوا الخيانة ، كيما يلحقوا بجيش جنكيزخان . ولذا حرص محمد خوارزمشاه على ألا يثير سخطهم وغضبهم .

واذ كانت الطبقة العاملة تتألف في القرن الثانى عشر ، مـن سواد الناس ، فقد اشتد الحرص على ضبطهم واخضاعهم. فاذا تهيأ لهذه‌الجموع أن تفلت من هذا الخضوع ، اضطربت الامور وانتقضت الأحوال ، وصار في وسع العامة ان يضطلعوا بواجبات السادة ، بينما لا يستطيع السادة ان يمارسوا أعمال العمال . والخلاصة أن العامة ارادت ان تعيش حياة الارستقراطية ، وما من أحد سواهم يستطيع أن يؤدى اعمال الطبقة العاملة ، وما وصل الينا من وثائق عن عصر سنجر ، عن الصناع والزراع ، تشير الى أن هؤلاء لا يدرون شيئا من لغة الملوك ، ولم يكن لديهم أية فكرة عن الوفاق مع أمرائهم أو الخروج على طاعتهم ، فما يبذلونه من جهد انما يقصدون به تحقيق هدف واحد ، هو أن يحصلوا على ما يكفل لهم العيش ، وان يوفروا أسباب الحياة لزوجاتهم وأطفالهم ، والواضح انه لا يصح توجيه اللوم لهم على هذا السلوك ، وعلى حرصهم على ان ينعموا بالسلام .

واذا كان جيش المرتزقة يؤلف الدعامة الوحيدة للعرش ، حرص السلطان على أن يخصهم بكل المناصب العالية في الدولة ، مثلما كان جاريا في الدولة السلجوقية ، فيتخذ منهم الوزراء والقضاء والمستوفين .

وما كان معروفا زمن السلاجقة من نظام الاقطاعات الحربية ظل مستمرا في الأمبراطورية الخوارزمية .

على ان الانقسام في أسرة السلطان ، كان مصدره ما ساد من أحقاد وعداوات مريرة بين أفراد الأسرة . وكان خوارزمشاه يحرص على أن يستجيب لرغبات أمه ، توركان خاتون ، لما كان لها من سلطان ونفوذ كبير بين رجال الدين ، ورجـال الجيش . فما اضمرته من كراهية ، وما أذاعته من افتراءات على جلال الدين ، أصدق أبناء محمد خوارزمشاه وأقربهم الى قلبه أدت الى أن يتحطم كيانه ، ويخرج من القصر ، ليتولى أمر غزنة . يضاف الى ذلك أن ما أقدم عليـه السلطان خوارزمشاه من قتل مجد الدين البغدادى ، من كبار المتصوفة وقتذاك اغضب رجال الدين الذين كان في أشد الحاجة لمساندتهم ضد الخليفة الناصر .

لقد فسد النظام الاداري ، بعد أن استعاض خوارزمشاه عن الوزير بهيئة مؤلفة من ستة وكلاء ، لا بد أن تصدر قراراتهم باجماع الآراء ، حتى يتحقق تنفيذها ، ومع ذلك فان هذا الاجراء زاد من تعقيد الامور ، واظهر الناس أساهم وأسفهم لما حدث من عزل الوزير ، برغم ما اشتهر به من الأعمال التعسفية وذلك لان ارضاء الوزير في أمر من الامور ، لأيسر لهم من ارضاء ستة وكلاء .

والخلاصة أن الكيان السياسى للشرق الاسلامى ، الذى أقـامه العباسيون وازداد نموا وتطورا زمن السامانيين تعرض للدمار ، فتجرد الجهاز الاداري من كل أهمية ، وزاد العداء بـين الجيش الذى يدين بالولاء لأم السلطان ، وبين صاحب السلطة العليا في البلاد (خوارزمشاه). يضاف الى ذلك ما حدث من الثورات التى اندلعت في البلاد التى كانت خاضعة للخطا ، وحررها خوارزمشاه ، فلم تخمد هذه الحركات الا باراقة

الدماء . ولم يعد في وسع السلطان أن يركن الى مساعدة عنصر واحد سليم من العناصر التى يتألف منها الجهاز الادارى ، أو أن يثق في طبقة من طبقات السكان . وبذا نستطيع أن ندرك النتيجة الحتمية للنضال الذى سوف ينشب بين هذه القوة ، وبين قوات البدو الفتية التى اتحدت تحت قيادة اشهر الموهوبين من رجال عصره ، وهو جنكيزخان .

سبق الاشارة الى ما حدث من الصدام بين قوات المغول بقيادة جوجى ، وجيوش خوارزمشاه أثناء القتال مع القبجاق ، ولم يؤثر هذا الصدام فيما كان من علاقات بين الجانبين ، اذ ان جنكيزخان لم يفكر وقتذاك في قتال خوارزمشاه .

وما تردد من أن الخليفة الناصر أرسل الى جنكيزخان يستنجد به على خصمه خوارزمشاه ، أضحى حقيقة تاريخية ، غير ان السفارة التى استقبلها جنكيزخان في بكين سنة ١٢١٥ أو ١٢١٦ لم ينفذها الخليفة انما وجهها خوارزمشاه . ذلك أن انتصارات المغول في الصين ، ذاعت أنباؤها في آسيا الوسطى ، واضفت هذه الانتصارات على جنكيزخان من الشهرة ما لم يضفه توحيد القبائل المغولية ، وزاد في اهتمام المسلمين ، ولا سيما خوارزمشاه الذى جعل من نفسه بطل الجهاد ضد الكفار ، وما اشتهرت به الصين من الثروة كان دائما يجذب انتباه المسلمين . ولعل الانتصار الذى ظفر به خوارزمشاه على كوجلك ، أثار فيه الرغبة في المضى الى الصين . غير ان ما ترامى اليه من أنباء بان الغازى المغولى سبقه الى ذلك، جعلته يحرص على ان يتحقق من صحة هذه الانباء ، وأن يتعرف الى ما كان لدى جنكيزخان من قوات عسكرية ، فبادر بارسال سفارة الى جنكيزخان ، وكان رئيسها بهاء الدين الرازى الذى استمد منه المؤرخ الجوزجانى روايته ، عن كل ما شاهده من مظاهر الخراب والدمار والمذابح

والنهب في كل مكان توجه اليه بالصين .

استقبل جنكيزخان رسل خوارزمشاه بكـل مظـاهر الترحيب ، وأخبرهم بأنه يعتبر خوارزمشاه سلطانا على الغرب ، مثلما يعتبر نفسه اميرا على الشرق ، فلا بد أن تقوم بينهما الصداقة والمودة ، وأن يتهيأ للتجار الحرية في الانتقال من اقليم الى آخـر (١) . ليس ثمة ما يدعو للارتياب في هذه العبارات ، فلم يكن جنكيزخان وقتذاك يحلم بالسيادة على العالم . والمعروف أن ممالك الرعاة ، كالهون والترك ، لم تمتد الى الغرب الا بعد طرد هؤلاء من منغوليا ، وان للتجارة مع الشعوب المستقرة أهمية بالغة عند هؤلاء البدو . وحدث في اعقاب حملات جنكيزخان على شمال الصين ، وما ترتب عليها من الخراب والدمار ، أن كانت الحبوب ترد الى منغوليا ، من شواطىء نهر ينيسى ، حيث كثرت المدن والقرى . وتولى نقل هذه المحصولات ، تجار قادمون من الغرب ، ينتمون الى الاويغور والمسلمين . وبذا اتفقت المصالح التجارية عند كل من جنكيزخان والتجار المسلمين .

لم يتحقق هذا التوافق بين اطماع خوارزمشاه السياسية ومصالح التجار بمملكته . فالمعروف أن التجارة مع البلاد النائية ، كالصين وروسيا كانت تحقق أرباحا وفيرة للتجار ، بشرط الا تتعرض للتوقف ، نظرا لان السلع تشترى في الشرق عادة بالاجل والدين ، فاذا لم يجر التصرف فيها ، تعرض التجار لخسائر فادحة . على أن التجارة البرية مع الصين لم تتوقف في بداية القرن الثالث عشر ، ولا سيما بعد أن تعرضت التجارة البحرية للضرر بسبب المنازعات بين أميرى هورمز وكش على الخليج

---

(١) يبدو ان قافلة للتجار قدمت من بلاد خوارزمشاه وقتذاك ، وفى ذلك دليل على استمرار التجارة بين الصين والبلاد الاسلامية .

العربي ، وبعد ان اندمج في مملكة المغول الشطر الشمالي من تركستان الروسية ، وبعد انتصار خوارزمشاه على القبجاق ، كل ذلك شجع تجار خوارزم على اتخاذ الطريق الشمال المؤدي الى منغوليا ، وبذلك يتجنبون اجتياز تركستان الشرقية التي لا زالت في يد كوجلك .

وتولى زعامة القافلة القادمة من آسيا الـوسطى ، ثلاثة من كبار التجـار ، وهم احمد خوجندي ، وأحمد بلخس ، وابن الأمير حسين (حسن) ، وقد حملوا معهـم منسوجات حريرية مـوشاة بالذهب ، ومنسوجات قطنية ، وثياب زندانية (بخارى) . والراجح أن التجار أفادوا من سفارة بهاء الدين ، فساروا بصحبته . ورد جنكيـزخان على هذه السفـارة ، بأن انفذ سفارة سنة ١٢١٨ ، لتعزيـز العلاقـات التجارية والسياسية مع خوارزمشاه ، وترأس هذه السفارة ، محمود الخوارزمي ، وعلى الخواجا من بخارى ، ويوسف خانجا من اوترار ، وحملت الـى خوارزمشاه هدايا ثمينة من الذهب والأحجار الكريمة والمسك ، وأثواب التورجو المصنوعة من وبر الإبل والتي لا تهدى الا للسلاطين . واستقبل خوارزمشاه هذه السفارة في بخارى .

وجاء في الرسالة التي حملها السفراء الى خوارزمشاه :

« لا يخفى على عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطان . وقد علمت باتساع ملكك ، ونفاذ حكمك في اكثر أقاليم الأرض .واني لأرى أن مسالمتك من جملة الواجبات . وأنت عندي مثل أعز أولادي. ولا يخفى عليك ايضا انني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لي قبائـلهم ، وأنت اخبر الناس بان بلادي مثارات العساكر ومواطن معادن الفضة، وان فيها ما يغني عن طلب غيرها . فان رأيت ان تهيىء للتجار في الجهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد » .

على أن خوارزمشاه لم يوافق على عقد معاهدة مع جنكيزخان الا بعد ان شرح له محمود الخوارزمى، الذى انفرد به خوارزمشاه، ما حدث من استيلاء جنكيزخان على الصين وبكين ، وما لدى جنكيزخان من قوات ضخمة ، على أن خوارزمشاه أحس بالإهانــة التى لحقته ، بأن اعتبره جنكيزخان من أبنائه ، نظرا لما هو معروف عند أمراء الشرق الأقصى ، والأمراء المسلمين ، من ان لفظة ابن أوولد تدل على العلاقة بين التابع والسيد . غير أن هذا الحادث لم يؤد الى الشقاق بين الملكين بفضل لباقة محمود الخوارزمى ، فرضى خوارزمشاه آخر الامر بعقد معــاهدة مع جنكيزخان .

والراجح أن جنكيزخان أرسل القافلة في نفس الوقت الذى ارتحلت فيه السفارة ، اذ أنها وصلت سنة ١٢١٨ الى أوترار الواقعة على حدود البلاد الخوارزمية ، بعد أن غادر السفراء هذه البلاد في طريق العودة الى منغوليا .

تألفت القــافلة التي بعث بها جنكيزخان ، من ٤٥٠ رجــل كلهم مسلمون ، ومن ٥٠٠ جمل تحمل سلعــا تجــارية من الذهب والفضة والمنسوجات الحريرية ، ومنسوجات التورجو ، وفراء السمور والقندس وغيرها من المتاجر . ورأس هذه القافلة أربعة تجــار ، هم عمر خوجا الاوترارى ، وجمال المراغى (مــن مراغة بأذربيجان) ، وفخر الديــن الديزكى البخارى ، وامين الدين الهيراتى . على أن والى اوترار من قبل خوارزمشاه وهو ينالجك المعروف باسم قادرخان ، احتجز كل رجال القافلة ، ولم يلبث أن أمر بقتلهم جميعا ، بتهمة أنهم جواسيس ، وصادر متاجرهم . واقر السلطان تصرف والى أوترار ، ووزع السلع على تجار بخارى وسمرقند ، وحاز اثمانها لنفسه . ودل تصرف جنكيزخان في هذا الحادث على ما اتصف به من الاتزان والتعقل ، اذ ارسل الى خوارزمشاه سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال ، كيما تحتج عند السلطان على الغدر برجال

القافلة ومبعوثيه ، وتطلب اليه تسليم حاكم اوترار . فلم يسع خوارزمشاه الا أن أمر بقتل أحد افراد هذه السفارة ، ولم يطلق سراح زميليه ، وهما من التتار ، الا بعد حلق لحيتيهما . وكان لزاما على جنكيزخان ان يوجه حملة لقتال خوارزمشاه (١) . لم يكن جنكيزخان وقتذاك عالما بما انتاب خوارزم من ضعف داخلى ، بل ان ما اتخذه من تدابير لاعداد الحملة ، دل على أنه جعل لقوة خوارزمشاه حسابا كبيرا . ولعل هذه الأحوال هى التى حملت المغول على أن يكتفوا في الوقت الراهن باقامة علاقات تجارية ، لو أن السلطان محمد خوارزمشاه قبل ذلـك ، بعد أن انسد الطريق التجارى في تركستان ، أثنا حروبه مع كوجلك .

---

(١) تشير بعض الروايات الى ان من اسباب اثارة خوارزمشاه ، وحمله على اساءة معاملة رسل جنكيزخان ، ما وجهه جنكيزخان من رسالة الى خوارزمشاه ، نعته فيها بانه من اعز اولاده ، فزعم انه يقصد بذلك انه من اتباعه ، على أن هذه العبارة الطارئة لم تكن عند خوارزمشاه نفسه موجبة للحرب . ومنها أيضا ان الخليفة الناصر لدين الله هو الذى دعا المغول لقتال خوارزمشاه ، لما كان بينهما من عداوة مريرة . والواقع ان الخليفة كان يلتمس الحلفاء بين الشعوب التى تنزل الى الشرق من املاك خوارزمشاه ولهذا الغرض ارسل السفراء أولا الى الغوريين ، ثم الى كوجلك ، ويشير ابن الاثير الكامل(ج ٩ ، ص ٣٦١)الى ان ما اتصف به الخليفة الناصر ، من الظلم والاستبداد والسيرة القبيحة ، أدى الى خراب العراق ، وتغرق أهله في البلاد ، واخذ اموالهم واملاكهم ، وكان سبب ما ينسبه اليه العجم صحيحا ، من انه هو الذى أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك ـ انظـر ايضا : المقريزى السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢١٨ .

وكيفما كان الامر ، فان ما اقدم عليه خوارزمشاه من اجراء مذبحة اوترار كان كافيا لأن يعلن جنكيزخان عليه الحرب . والواضح ان جنكيزخان لقى التأييد من التجار المسلمين ، الذين حققت لهم انتصارات جنكيزخان من الفـائدة ما لم يتحقق لغيرهم . يضاف الى ذلك ان المغول وقفوا على ما تعانيه دولة خوارزمشاه من ضعف داخلى ، بعد ان استقروا في السهوب المتاخمة لها ، وكان لا بد للشعوب البدوية عندئذ ان تغزو الشعوب المتمدنية النازلة بالاراضى الخصيبة .

انظـر Barthold : op. cit. p. 400

كان لزاما على جنكيزخان ان يفرغ من قتال كوجلك قبل ان يبادر للانتقام من خوارزمشاه ، وذلك سنة ١٢١٨ . فأرسل جيشا كثيفا بقيادة جيبى ـ نويون Jebe - noyon ، استطاع أن يفوز بمملكة كوجلك دون مقاومة ، فسقطت في أيديهم البلاساغن ، والماليق ، وكشغر ، وأصدر جيبى قرارا يجيز فيه للمسلمين حرية العبادة التي حرمهم منها كوجلك . ووقع كوجلك في قبضة المغول فتقرر اعدامه ، وما حصل عليه المغول من الغنائم بلغ من الوفرة أن أرسل القائد ألف فرس الى جنكيزخان .

ومن الدليل على أهميـة الاستيلاء على مملـكة كوجلك ، ان جنكيزخان خشى تمرد قائده بعد ان تحقق له هذا النصر الباهر .

ولا ريب ان أنباء فتح تركستان الشرقية بلغت رعايا السلطـان خوارزمشاه وكان وقعها عليهم بالغ الشدة . ذلك أن القائد المغولى لم يجد صعوبة في تدمير قوة كوجلك الحربية ، التى دعت خوارزمشاه منذ زمن قصير الى أن يجلو عن الأقاليم الآهلة بالسكان والمعروفة بخصوبتها، بل انه نجح فيما فشل خوارزمشاه، بان انقذ المسلمين من استبداد كوجلك. فلم يعد في وسع خوارزمشاه أن يطلق صفة الحرب الدينية على النزاع الذى وقع بينه وبين جنكيزخان ، بعد أن أمر بقتل المسلمين الذين تألفت منهم قافلة جنكيزخان .

والواضح أن جنكيزخان حرص على أن يتولى بنفسه قيادة الحملة، وبصحبته ابناؤه وكل جيوشه الأساسية ، بعد أن ورد له من تقـارير مستشاريه المسلمين ما يشير الى ما توافر عند خوارزمشاه من قـوات وما أعده من خطط لقتال المغول .

أمضى جنكيزخان صيف سنة ١٢١٩ ، على نهر ارتش ، ثم تقدم

بجيوشه في الخريف الى قاياليق ، حيث انحاز اليه قوات الأمراء المسلمين في آلماليق وقاياليق ، فضلا عن ارسلان خان أمير القارلوق ، وايديقوت الاويغور . وصحب جنكيزخان أيضا التجار المسلمون ، الذين استخدمهم وسطاء بين المغول والسكان الأصليين نظرا لدرايتهم باحوالهم الداخلية ، ومن المحقق أنه كان بين أولئك التجار جماعة من الأتراك . وتفاوت عدد قوات جنكيزخان بين ١٥٠ ألف ، ٢٠٠ ألف رجل .

وعلى الرغم من أن جيوش خوارزمشاه تفوق في العدد قوات جنكيزخان ، فانه لم يفد من هذه الميزه ، لما كان بينه وبين قادته من علاقات عدائية ، اذ بلغ عدد جيش خوارزمشاه نحو ٤٠٠ ألف مقاتل ، غير أنه وزع هذه الجيوش في الأماكن والمواضع الحصينة الواقعة بين نهر سيحون وداخل اقليم ما وراء النهر[1] . على أن خوارزمشاه أقام حاميات كبيرة العدد في مدن ما وراء النهر ، فجعل في بخارى عشرين ألف فارس، وفي سمرقند خمسين ألفا ، وقرر المسير الى خوارزم وخراسان كيما يجمع العساكر ويستنجد بالمسلمين ؛ على أنه أمر بتشييد سور حول سمرقند وأرباضها ، وأخذ يعد الجيش في بلخ . ولو ان الوفاق ساد بين قادة السلطان وتولى القيادة ، رجل كفء ، وثق فيه جميع القادة والجند ، لتحقق لهم رد المغول ، على أنه اذا تحقق لهم النصر فالراجح أنهم ينقلبون

---

(١) اراد خوارزمشاه ان يستأنس بآراء الموالين له فيما يتبع من الخطط لملاقاة جنكيزخان ، فمنهم من اشار بتركيز الجيش الخوارزمى على نهر سيحون ، والمبادرة الى لقاء المغول ، ولما يتهيأوا للقتال بعد رحيل استمر زمنا طويلا . وقرر آخرون بالسماح للمغول بأن ينفذوا الى اقليم ما وراء النهر ، ثم الانقضاض عليهم بفضل دراية المدافعين بطبيعة الاقليم . ونصح فريق آخر بالتخلى عن اقليم ما وراء النهر ، والاكتفاء بالدفاع عن معابر نهر جيحون . ومنهم من اشار بالتراجع الى ما وراء جبال هندوكوش ، والانسحاب الى الهند اذا اقتضت الأحوال ذلك .

على السلطان وأسرته .

لم يجتمع شمل القوات العسكرية حتى ربيع ١٢٢٠ ، ولم يلـــق السلطان التأييد من العساكر الترك . بل ان ما كان من علاقات سيئة بين السلطان وقادته شجع على انبعاث الفتن بين عناصر الجيش المختلفـة من الترك والايرانيين والغوريين والتاجيك .

ولما اقترب جنكيزخان من اوترار قسَّم جيوشه على النحو الآتى :

قسم مؤلف من عدة طومانات (عشرات الألوف) وفيهم الاويغوريون ويتولى قيادته جغتاى ، ويقوم بحصار مدينة أوترار ، بينما تقرر ارسال قسم آخر بقيادة جوجى الى نهر سيحون ، ويتوجه قسم صغيـر الى خوقند ، بطريق نهر سيحون . أما جنكيزخان وابنه الأصغر تولى فتوجها بمعظم الجيش الى بخارى ، لقطع طريق الاتصال بين السلطان وجيشه .

أفاد جنكيزخان من كل العناصر الساخطه على خوارزمشاه ، فى التعرف الى الأحوال السياسية ، والى العداء بين السلطان وبين امـه والحزب العسكرى ، والى الوقوف على الأحوال الداخلية ، بفضل التجار الذين صحبهم فيهذه الحملة. وما اتخذه جنكيزخان منخطط استراتيجية، وما كان من براعته في تنفيذها دلَّ على درايته التامة بالأحوال الجغرافية.

ولم تختلف طبيعة ما يستخدمه المغول من أعمال حربية في كل البلاد الحضرية (الصين ، غرب آسيا ، ثم روسيا فيما بعد) . ففى كل مكـان كان يساق سكان القرى العزل ، في أعداد ضخمة ، لمساعدة المغول في حصار المدن الحصينة . وعند مهاجمة الاستحكامات ، درج المغول على أن يسوقوا أمامهم أولئك التعساء ، حتى يدرأوا عنهم ما ينهمر مـن السهام ، وكيما يمهدوا الطريق للجيش الذى يسير في اثرهم . وفي بعض

الأحوال، يجرى توزيع الأعلام عليهم ، حتى يظن العدو أن عدد الجيش كبيـــر .

وصل جنكيزخان الى بخارى في فبراير سنة ١٢٢٠ ، واختلفت المصادر التاريخية في تقدير عدد حامية بخارى ، فجعلتها ١٢ ألف ، أو ٢٠ ألف أو ٣٠ ألف . واذ تخلى عن المدينة قادة الحامية ، لم يسع سكانها الا أن يستسلموا وناب عنهم في المفاوضات قاضى المدينة ، ودخل المغول المدينة في ١٠ فبراير سنة ١٢٢٠ . والتزم سكان المدينة بان يسلموا للمغول كل ما أعدوه من مؤن لجيش السلطان خوارزمشاه ، وأن يطموا خندق القلعة . وتقرر بعد سقوط المدينة قتل المدافعين عنها ، وعددهم نحو ٤٠٠ فارس . ثم جرى بعدئذ ارغام التجار الأغنياء على أن يردوا ما اشتروه من الفضة وسائـــر السلع التجارية ، بعد كارثة اوترار . وتحتم على سكان المدينة أن يجلـــوا عنها ، وألا يحتفظوا الا بما يرتدونه من الملابس . واستباح المغول المدينة، وكل من خالف ما صدر من الأوامر تعرض للقتل . على أن ما أظهـــره المسلمون من البسالة والاقدام والبطولة والاستماتة في القتال ، فاق في أحوال كثيرة ما اشتهر به المغول من الصبر في الحرب ، وما أحرزه المغول من النصر انما يرجع الى ما توافر لديهم من النظام والتنظيم والقيـــادة السليمة .

ويشير ابن الأثير الى أن فئة من الفقهاء راعها ما ارتكبه المغول من جرائم مع الأسرى ، واساءة معاملة النساء ، فلم يسعهم الا قتال المغول ، فلقوا مصرعهم . وبعد أن تم نهب المدينة ، تقرر احراقها فلم يفلت مـــن الدمار الا المسجد الجامع ، وبعض القصور المشيدة بالحجارة .

وارتحل المغول الى سمرقند ، واستصحبوا معهم من سلم مـــن أهل

بخارى أسارى ، فساروا بهم مشاة ، وكل من عجز عن المشى قتل . وهذه الأعداد الضخمة لم تشتمل فحسب على سكان المدينة بل انحاز اليهـا سكان القرى . وفي كل البلاد التى يجرى القتال بها أكره المغول الفلاحين بالقرى المجاورة على أن يشتركوا في أعمال الحصار . وصل جنكيزخان الى سمرقند في مارس ١٢٢٠ ، وانحاز اليه بها ، ولداه جغتاى وأوكتاى ، بعد الاستيلا عليها واستباحتها والتنكيل بأهلها ، وقتل المدافعين عن قلعها.

وما قام به المدافعون عن سمرقند من هجوم ، انتهى بكارثة اذ أن المغول كمنوا للمسلمين ، خارج البلد ، ثم انقضوا عليهم ، وقتلوهم عـن آخرهم ، ومن انحاز من الترك من حامية المدينة الى المغول ، بعـد أن طلبوا الأمان ، وسلموا اليهم أسلحتهم ، تعرضوا لنفس المصير ، اذ وضع المغول فيهم سيوفهم . ومن بقى من الحامية اجتمعوا بالمسجد الجامع ، فتقرر قتلهم واحراق الجامع .

وجرى ارسال الصناع الى منغوليا ، ومن تبقى من السكان تقرر تسخيره في أعمال الحصار ، ثم أذن بالعودة الى المدينة كل من يؤدى فدية كبيرة ، غير أنه تكرر بعد ذلك اخراج السكان من المدينة ، التى اضحت خرابـا .

وأمر جنكيزخان بعد الاستيلاء على سمرقند بأن يتوقف زحـف عساكره . والمعروف أن جنكيزخان أرسل جيشا بقيادة جوجى من اوترار، الى جند [1] ، في ابريل ١٢٢٠ (٦١٧ هـ) ، فاستولى المغول عليها ونهبوها، وتعين حاكما عليها على خواجه البخارى ، وهو الرسول الذى سبق أن

---

(١) الواضح ان اخضاع هذا الجانب من مملكة خوارزم ، كان موكولا الى جوجى ، لأن الاقاليم الواقعة الى الشمال الغربى من الامبراطورية ، صارت تؤلف جانبا من اقطاعه .

أنفذه جنكيزخان الى محمد خوارزمشاه . وظل جوجي نحو سنة في جند، توجه بعدها الى خوارزم . وأذعنت بناكات بعد حصار استمر أربعة أيام. وقتل المغول حامية المدينة ، وحملوا من سكانها أرباب الصنائع ، وجماعة من شبانها للافادة منهم في أعمال الحصار . وتعرضت خوقند لما تعرضت له بناكات من اعمال التخريب . والملحوظ أن الجيش المغولى الذى اشترك في المعركة لم يتجاوز عشرين الف مقاتل ، بينما أربى عدد الأسرى الذين صحبوهم على خمسين ألف .

وما نلحظه من أعمال البطولة التى قام بها المسلمون، يقابلها عجز السلطان عن اعداد جيوش ضخمة ، والارتداد المستمر أمام قوات جنكيزخان ، بينما لم نصادف عند المغول أمثلة من البطولة الشخصية كالتى شهدناها عند المسلمين . غير أن قادتهم لم يكونوا سوى رجال مهرة ، مطيعين لتنفيذ رغبة سيدهم، الذى يجتزىء من جيشه أو يضيف اليه من الفصائل ما تقتضيه دواعى القتال ، ولا يلبث أن يتخذ من الاجراءات ما يمنع حلول الهزيمة . فما خضع له الجند المغول من نظام صارم ، لم يهىء الفرصة الى ظهور المواهب الفردية ، فكلهم ينفذون بدقة أوامر سيدهم ، أو من يعينهم من القادة عليهم .

أفاد جنكيزخان من النصائح التى حصل عليها من حاكم اوترار من قبل خوارزمشاه ، بعد أن وقف على سوء أحواله السياسية ، وعلى ما يكنه الحزب العسكري وتوركان خاتون من الكراهية للسلطان ، فزوّر رسائل ادعى انها وصلت اليه من قادة خوارزمشاه ، فبعث بها اليه فازدار ارتياب السلطان في قادته ، ولم تجد محاولاته نفعا في منع المغول من اجتياز نهر جيحون . ذلك أن محمد اخوارزمشاه حينما ادرك ما يتعرض له من الخطر ، هرب الى بلخ ، ووطّد العزم على أن يلجأ الى

غزنه ، غير أنــه لم يلبث أن عدل عن هــذه الفكرة ، وقرر المسير الى نيسابور (ابريل ١٢٢٠) ، اعتقــادا منه أن المغول سوف يعودون الى بلادهم ، بعــد أن امتلأت أيديهم بالغنائــم والأسرى . والواقــع أن جنكيزخان ، بعد وقعة بخارى وسمرقند ، ارسل ثلاثة جيوش لمواصلة القتــال . فتوجه الجيش الأول الــى الطالقان وكلا ّنه ، بينما اجتــاز الجيش الثاني بقيادة جيب وسوبوداى وتوقشار نهر جيحون لمطــاردة خوارزمشاه ، وقــد طلب اليــه جنكيزخان ألا يتعرض بأذى للسكان الآمنين ، ولا يحاصر المدن ، نظرا لما وقف عليــه جنكيزخان من ضعف جيش خوارزمشاه ، بينما قصد الجيش الثالث خوقند وفرغانه .

على أن السلطان استبد به الخوف والجزع ، فلم تطل وقفاته فى مدن خراسان ، حتى بلــغ قزوين ، وتهيأت لــه الفرصة لان يعد جيشا مؤلفا من ثلاثين ألف رجل للقاء المغول ، غير أن ما حدث من الاختلاف بينه وبين قادته ، بدّد هذا الجيش وتفرق قادته .

وأصدر جنكيزخان أوامره الى قادته وجيوشه بألا يكون لديهم سوى اللباد والخيل والسلاح ، فلا ينهبون شيئا ، ولا يحرقون المساكن ولا يقتلون الحيوان ، اثناء مطاردة خوارزمشاه ، فنفذت هذه الاوامر ، فلم يتعرضوا فيمسيرهم لشيء بنهب ولا قتل، بل صاروا يجدون السير في طلبه ، لا يمهلونه حتى يجمع لهم الجند. غير أن المغول فقدوا أثر السلطان عند همذان ، التــى غادرها فى نفر يسير حتى يكتم خبره ، ومضى فى طريقه حتى بلغ بحر قزوين والجزيرة التى بلغ من اقترابها من الشاطىء أن كل ما احتاج اليه السلطان من المؤن كان يرد اليه بانتظام .

ولما افتقد المغول أثر السلطان ، أغاروا علــى أذربيجان ، فنهبوا أردبيل ، ثم انسحبوا الى شاطىء بحر قزوين ، واشتبكوا اثناء سيرهم

فى القتال مع الكرج ، على أن السلطان قضى نحبه فى ديسمبر ١٢٢٠ (٦١٧ هـ) ، بعد أن عهد بالحكم من بعده الى ابنه جلال الدين .

كانت هذه هى نهاية السلطان الذى وحد تحت سلطانه معظم البلاد التى كانت خاضعة للدولة السلجوقية ، ومع ذلك لم يستطع أن يفيد من القوة البشرية الضخمة التى خضعت لسلطانه ، فى صد المغول ، برغم ما تهيأت له من أحوال عديدة اجتمعت فيها العساكر وأظهرت من البلاء والاقدام والبطولة ما فاقوا فيها المغول ، ومع ذلك فان ما ساد من عوامل الضعف بين المسلمين أفاد منه المغول بعد أن وقفوا على أحوالهم ، كالنزاع بين خوارزمشاه والقادة العسكريين الذين تساندهم توركان خاتون ، والاختلاف بين عناصر الجيش ، وانحياز الترك الى المغول أو امتناعهم عن قتالهم . يضاف الى ذلك ما لجأ اليه خوارزمشاه من استخدام العنف والشدة مع رجال الدين المسلمين ، فنفروا منه ، وما كان من عدائه مع الخليفة العباسى ، فضلا عن الشقاق الذى وقع بين أفراد الأسرة الحاكمة ، ويشير ابن الأثير الى ما تعرض له المسلمون من محنة على يد التتار والصليبيين فى وقت واحد (عند استيلائهم على دمياط) ، وينكر على ملوك المسلمين تخاذلهم فيقول « جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه ، طائفة تخرج من حدود الصين ، لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد أرمينية من هذه الناحية ، ويجاورون العراق من ناحية همذان . وتالله لا أشك ان من يجىء بعدنا ، اذا بعد العهد ، ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها ، والحق بيده . فمتى استبعد ذلك ، فلينظر انا سطرنا نحن ، وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه ، في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة ، استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها ، يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو الى

عظيم ، ومن الملوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه .. ولم ينل المسلمين أذى وشدة مذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت ، مثلما دفعوا اليه الآن . هذا العدو الكافر ، التتر ، قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها . وناهيك به سعة بلاده وتعدت طائفة منهم النهر الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ، ثم الى الرى وبلد الجبل واذربيجان . وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم . والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم فى أقصى بلاد الروم ، بين الغرب والشمال ، ووصلوا الى مصر، فملكوا مثل دمياط ، واقاموا فيها ، ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها ، وباقى ديار مصر على خطر » .

واذا كان من العسير القاء اللوم على خوارزمشاه ، لما لجأ اليه من الفرار من عدو لا قبل له بمقاومته ، فلم يكن بوسعه ان يواجه المغول على أنه مغامر ، اذ لم يكن ذلك من صفاته ، بل كانت المغامرة من صفات ابنه جلال الدين .

وفي ربيع سنة ١٢٢٠ ، اضحى اقليم ما وراء النهر من أملاك جنكيزخان ، الذى اتخذ من الاجراء ما يكفل اعادة الهدوء والسلام الى هذه الجهات ، فارسل الى بخارى حاكما ، عهد اليه بتنظيم الاقليم وادارته . ثم زحف جنكيزخان على ترمذ التى استسلمت بعد حصار استمر أحد عشر يوما ، وتقرر تدمير البلد وقتل سكانها . وطاب لجنكيزخان أن يمضى شتاء ١٢٢٠ ـ ١٢٢١ على شاطىء نهر جيحون ، والمعروف ان شواطىء الأنهار الكبيرة كانت تلائم البدو ، ولذا أنشأ جغتاى على هذا النهر مدينة سالى سراى لتكون حاضرة له فيما بعد .

والواضح أن العمليات الحربية لم تجر وقتذاك الا في الأقاليم التى

انضمت الى مملكة خوارزم زمن تكش ومحمد ، ولـم تمس خوارزم ذاتها . وما وقع من التنازع على الحكم في خـوارزم ، برغـم اختيـار جلال الدين سلطانا ، لم يتوقف الا بعد أن غادر المتنازعون خوارزم حينما اقترب التتار منها .

ولما اشتهرت به جرجانية عاصمة خوارزم من المناعة ، ولما عرف به عساكرها من الأتراك القنقلى من الشجاعة والبأس ، كـان لزاما علـى جنكيزخان أن يوجه لقتال هذه المدينة الضخمة مـن العساكر ما يفوق في العـدد ، القوات التى وجهها الى المدن الأخرى . فأمر ابنيه جغتاى واوكتاى بالتحرك بقواتهما ، التى كانت تؤلف الجناح الأيمن لجيشه ، الى خوارزم ، بينما جاء جوجى من جند ، بالشمال الشرقى ، وتجـاوز عدد العساكر المغول ١٠٠ ألف جندى .

وعلى الرغم من أن الدفـاع عن جرجانية يعتبر من أشهر الوقائع التى وقعت بين المغول والمسلمين ، والتى اتسمت بالبطولة والاقدام من قبل سكان المدينة ، الذين أنزلوا بالمغول الهزائم الخطيرة ، فكلما امتلك المغول محلة ، قاتلهـم المسلمون في المحلة التى تليهم ، فظل الرجـال والنساء والصبيان يقاتلون ، حتى ملك المغول البلد جميعه وقتلوا كـل من فيه ، ونهبوا كل ما فيه ، ونقلوا ما يزيد على ١٠٠ الف من الصناع وارباب الحرف ، الى المناطق الشرقية ، وسبوا الاطفال والنساء . وحطم المغول السد الذى يمنع ماء جيحون عن البلد ، فانسابت المياه الى داخل البلد ، فتهدمت الأبنية وظل موضع المدينة زمنا طويـلا مغمورا بالماء . ومن أفلت من السكان من القتل ، غرق في خضم الماء ، أو هلك بـين الأنقاض . سقطت جرجانية فى ابريل سنة ١٢٢١ ، بعـد حصار استمر سبعة شهور ، وأضحت خوارزم مـن ممتلكات جوجى . وعاد جغتاى

وأوكتاى الى والدهما جنكيزخان ، الذى كان وقتذاك يحاصر الطالقان .

كان لزاما على الأمراء الخوارزميين ، بعد خروجهم من جرجانية ، ان يجتازوا خراسان ، التى كان يحتلها وقتذاك قوات طغاجارنويان زوج ابنة جنكيزخان ، واستطاع جلال الدين واتباعه أن يصلوا الى نيسابور ، ثم الى اقطاعه بغزنه ، بينما لقى اخواه مصرعهما على أيدى المغول .

كان جنكيزخان حريصا على استكمال فتح خراسان، التى لم يكن بها الا حاميات قليلة العدد للمغول . فبعد أن استولى على ترمذ على نهر جيحون اجتاز النهر في ربيع ١٢٢١ (٦١٧) للاستيلاء على بلخ فاستسلمت بعد أن استجاب جنكيزخان لطلب الأمان، فلم يقم المغول، كما هي عادتهم، بنهبها أو قتل سكانها ، بل جعلوا فيها حامية، غير انهم لم يلبثوا ان نقضوا عهدهم فقتلوهم ، ثم مضوا الى الاستيلاء على بعض مواضع ، أذعنت لهم، فكانوا يأخذون الرجال منها ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا الى الطالقان. وعهد جنكيزخان الى ابنه تولوى المضي الى اتمام فتح خراسان. وكان جيش تولوى مؤلفا من عشرة آلاف مقاتل ، فضلا عن الرجال الذين حشدهم من المدن التى سقطت في يده ، ويزيد عددهم على ٧٠ ألف رجل . وحدث في خراسان ، ما حدث في خوارزم وغرفه ، اذ صارت الأمور فى أيدى المغامرين ، ومنهم من كان يتطلع الى العرش ، وافاد تولوى من هذه الاحوال ، فاخضع أهم مدن خراسان .

توجه تولوى الى مرو ، عاصمة خراسان ، وقد اشتهرت بالرفاء والثروة ، وكانت مقرا لسلاطين السلاجقة . ويصف ابن الأثير ما اتخذه المغول من أساليب ، عند الاستيلاء على مرو . اذ حدث بعد حصار استمر خمسة ايام ، وبعد ان اشتد المغول فى قتال المدافعين عن المدينة ، أن أرسل التتار (المغول) الى حاكم المدينة يطلبون منه الاذعان والتسليم ، على أن يبذلوا الأمان له ولأهل المدينة ، فلما قدم الى حضرة

تولوى ، خلع عليه واحترمه وقال له : « اريد أن تعرض على اصحابك حتى ننظر مـن يصلح لخدمتنا وأعطيناه اقطاعا ، ويكـون معنا . فلما حضروا عنده ، وتمكن منهم ، قبض عليهم وعلى أميرهم . ثم قـال لهم اكتبوا الى تجار البلد ورؤساءه وأرباب الأموال فى جريدة ، واكتبوا الى أرباب الصناعات والحرف فى نسخة أخـرى ، وأعرضوا ذلك علينا . ففعلوا ما أمرهم ، فلما وقف على النسخ ، أمر أن يخرج أهل البلد منه ، فخرجوا كلهم ولم يبق فيه احد . ثم أمر بضرب أعنـاق الجند ، وأما العامة ، فانهم قسموا الرجال والنساء والأطفال ، فاشتد عويلهم ، وأخذوا أرباب الأمـوال فضربوهم وعذبوهم فى طلب الأمـوال . وربما مات أحدهم من شدة الضرب . ثم انهم أحرقوا البلد ، وأحرقوا تربة السلطان سنجر ، ونبشوا القبر طلبا للمال . ثـم أمر آخر الأمر بقتل أهل البلد كافة ، وأمر باحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل » ولم يبق الا على اربعمائة من الصناع . ويشير ياقوت الى ما اشتهرت به مرو من المكتبات الزاخرة بالكتب ، وكثرة علمائها وكتّابها ، ثم يستثيره الحماس الى القول « بان أطفالهم كانوا رجـالا ، وان شبابهم لأبطـال ، وان شيوخهم لاولياء الله » . ثم يمضى ياقوت فينعى المدينـة « بأن أهل الكفر والخيانة أخذوا يجوسون ديارها ، وان هذه الفئة الباغية (المغول) صار لها من السلطة والسيادة ما أدى الى أن يمحو من الوجود ما قام بها من قصور ودور ، مثلما تنمحى الكتابة من الورق ، وأضحت الدور موطنا للبوم والغربان ، فلا تسمع بها الا ما يتردد في جنباتها من نعيـق البوم ، وما يصفر فى قاعاتها من رياح السموم » .

ثم سار تولوى بجيشه الى نيسابور ، فحصروها خمسة أيام ، ملكوا بعدها المدينة ، فى ابريل ١٢٢١ ، وأخرجوا أهلها الى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم ، وأقامـوا خمسة عشر يوما ، يخربون ويفتشون عن

الأموال ، ثم أمروا بقتل كل سكان نيسابور انتقاما ، لما حدث سنة ١٢٢٠ من قتل توقشار ، صهر جنكيزخان بسهام المسلمين ، ولم ينج من القتل الا ٤٠٠ من الصناع وأرباب الحرف . ولم يسلم مشهد على بن موسى الرضى في طوس من التدمير ، أثناء مسيرهم الى هراة ، التى لم يختلف مصيرها عن مصير مرو ونيسابور ، الا في الاكتفاء بقتل حامية المدينة ، واحلال حامية مغولية بها ، وتعيين حاكمين على المدينة ، أحدهما مسلم والآخر مغولي . وبذلك استقر الامر للمغول فى اقليم ما وراء النهر ، وخمدت ما نشب من الثورات والاضطرابات .

سبق الاشارة الى ما تعرض له المغول من هزيمة فى خراسان ، وتعتبر أول هزيمة لحقت بالمغول فى فارس ، زمن جلال الدين خوارزمشاه ، الذى توجه الى نيسابور ، ثم الى غزنه ، بعد أن أفلت من مطاردة المغول له .

وعلى الرغم من الفوضى التى سادت اقليم غزته ، انضوى الى لواء جلال الدين عدد كبير من الرجال ، استطاع ان يؤلف منهم جيشا تولى قيادته سنة ١٢٢١ (٦١٨ هـ) ، ومضى به صوب الشمال الى الجهات المجاورة لباميان .

كان جنكيزخان قد وجه جيشا الى المعاقل الواقعة فى الأطراف الشمالية من جبال هندوكوش ، بينما تولى جنكيزخان نفسه محاصرة حصن نصرة كوه ، بالجهات المجاورة لمدينة طالقان ، بينما كان المعسكر المغولى ينزل الاستبس ، بين طالقان وبلخ . واستمر الحصار نحو عشرة شهور ، قدم اثناءها تولوى ، وجغتاى واوكتاى على والدهم جنكيزخان ، بعد أن أتموا ما عهد به اليهم من أعمال. ولم يفد جلال الدين

مـن المقاومة التى بذلها المسلمون في نصرة كوه ، نظرا لما نشب مـن المنازعات بين الغور والترك قبيل وصوله الى غزنه .

ولما أنزل جلال الدين الهزيمـة بالمغول بالقرب من بروان شمال كابل ، وجه اليه جنكيزخان جيشا آخر مؤلفا مـن ثلاثين ألف مقاتل بقيـادة شيكى ـ كوتوكو ـ نويون ، وظلت المعركـة مستعرة بـين الجانبين ، مدة يومـين ، وانتهت آخر الأمر بما أحرزه جلال الدين من انتصار باهر على المغول ، وعاد شيكى ـ كوتوكو بفلـول جيشه الى جنكيزخان .

ولهذه المعركة أهمية خاصة ، اذ أنهـا ألحقت بالمغول أشد مـا تعرضوا له من الخسائر ، على ان قادة الجيش الخوارزمى تنازعوا فيما بينهم على اقتسام الغنائـم ، وأدى ذلـك الى انبعـاث روح العصبية العنصرية بـين الغور والترك ، وتخلى عـن جلال الدين معظم قـادة الغوريين ، ولم يبق معه الا أمين الملك فى أتراكه .

واذ سقطت الطالقان وقتذاك فى أيدى المغول ، أضحى فى استطاعة جنكيزخان أن يزحف بكل قواته لمواجهة جلال الدين خوارزمشاه . وما حدث من تخلى القادة عن جلال الدين ، قد يمنعه من ان يلتقى في معركة حاسمة مع خصومه ، غير انه كـان بوسعه ان يعوق سيرهم فى دروب جبال هندوكوش . ومع ذلك لم يلجأ الى اتخاذ هذه الخطة ، بل اكتفى بالارتداد أمام المغول حتى بلغ شاطىء نهر السند .

وبعد أن أمر جنكيزخان بتدمير طالقان ، اجتاز جبال هندوكوش وتقدم لحصار باميان ، وحدث اثناء الحصار أن لقى مصرعه تيموجين ابن جغتاى، وحفيد جنكيزخان، الذى كان يؤثره ويحبه، وهو الذى أنهى

خبر مصرعه لأبيه ، واذا كان جنكيزخان هو الذي نصّ فى اليسق على ألا يجوز البكاء على الميت ، فانه أقام جنائز دامية بألا تمتد الأيدى الى الغنائم ، بل لا بد من تدمير كل شىء ، ولا يجوز الابقاء على حياة الأسرى ، وأطلق على موضع المدينة ، اسم موباليق أى المدينة اللعينة .

توجه جنكيزخان من الطالقان لقتال جلال الدين في غزنة ذاتها ، ولم يلق مقاومة من جيش جلال الدين ، فاحتل المدينة وقد علم أن جلال الدين غادرها قبل خمسة عشر يوما على قدومه ، ثم عين جنكيزخان ، مابا يلواج (وليس محمود يلواج) حاكما على المدينة . على ان جنكيزخان ارجأ تدمير المدينة حتى يفرغ من أمر جلال الدين الذى تراجع الى نهر السند ، وكان يأمل فى ان تقدم اليه العساكر ، غير أن جنكيزخان كان يقتفى أثره ، فلم يستطع جلال الدين اجتياز النهر . فدارت معركة حاسمة فى ٢٤ نوفمبر ١٢٢١ ، واشتد القتال بين الفريقين، واظهر جلال الدين من البطولة والاقدام، ما هيأ له أن يشق طريقه، بين عساكر المغول ، ويلقى بنفسه الى النهر ، فاجتازه ممتطيا حصانه ، ولم يسع جنكيزخان الا أن يظهر اعجابه بهذه البطولة ، فمنع المغول من قذفه بالسهام ، وأشاد به عند ابنائه ، على أنه مثل للبطولة . ولحق بجلال الدين نحو أربعة آلاف جندى من رجاله . ثم لجأ آخر الأمر الى التوتميس سلطان دلهى فأجاره .

أرسل جنكيزخان جماعة من المغول لاقتفاء أثر جلال الدين ، غير أنهم باءوا بالفشل . وفى ربيع السنة التالية أمر جنكيزخان لأسباب حربية ، تدمير غزنه وقتل جميع سكانها باستثناء الصناع وأرباب الحرف الذين اعتبرهم أسرى .

وما أحرزه جلال الدين من انتصارات على المغول فى الجهات

المجاورة لمدينة باميان ، حمل هراة على التمرد ، ووثب أهلها على الوالى الذى عينه المغول عليها ، فسير اليها جنكيزخان عسكرا ، فدخلوا البلد عنوة وقتلوا كل من فيه ونهبوا الأموال وسبوا الحريم ، وخربوا المدينة جميعها ثم احرقوها . وتعرض للقتل كل سكانها ، الذين يبلغ عددهم نحو مليون ونصف مليون ، حسبما تشير بعض الروايات ، وذلك سنة ١٢٢١ (٦١٧ هـ) .

ولا بد من الاشارة الى ما تعرضت له من تخريب الجهات الغربية والشمالية الغربية من فارس . سبق الاشارة الى أن الجيوش المغولية بقيادة جيب وسبوتاى ، استولت على الرى ، وواصلت مطاردة محمد خوارزمشاه حتى بحر قزوين ، ولما وصلوا الى همذان ، خرج رئيسها يطلب الآمان لأهل البلد بعد أن أخذوا ما قدمه لهم الوالى من الأموال والثياب والدواب . أما زنجان وقزوين ، فتعرضتا لما ألفه المغول من قتل السكان بعد المقاومة العنيفة التى بذلوها . وتقدم أتابك أذربيجان ، ومقره تبريز ، يطلب الأمان بعد أن صالحهم على مال وثياب ودواب ، فساروا من عنده ومضى المغول فى طريقهم الى سهل موقان ، في جنوب غربي بحر قزوين ، وكان متوقعا أن يمضوا الشتاء فى هذه الجهات لما توافر بها من المراعى لدوابهم ، غير أنهم ساروا الى بلاد الكرج (جورجيا) . فالتمس الكرج المساعدة من اتابك اذربيجان والملك الأشرف بن العادل أيوب ، صاحب اخلاط وديار الجزيرة ، واتفقوا جميعا على قتال المغول عند حلول الربيع . واذ انحاز الى المغول جماعات من التركمان والاكراد ، خربوا بلاد الكرج ، حتى بلغوا تفليس . على أن الأشرف اعتذر عن الاستجابة لرغبة الكرج وقتذاك ، بأنه لا بد له من التوجه الى مصر ، وقد نزل الصليبيون فى دمياط ، فاذا سقطت مصر فى ايديهم ، « لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لأحد » ، كما ان

الصليبيين في رأيه أشد شكيمة مــن المغول ، واكثر حرصا منهم علــى امتلاك البــلاد ، فاذا ملكوا قرية لا يفارقونها الا بعــد ان يعجزوا عن حفظها ، يضــاف الى ذلــك تطلع الصليبيين لأنتزاع مصر مــن ايدي الأيوبيين ، بينما لم يصل التتار اليها ، ولم يتطرقوا الى بلاد الأيوبيين ، وليسوا أيضا ممن يريد المنازعة في الملك ، وما غرضهم الا النهب والقتل وتخريب البلاد ، والانتقال من بلد لآخر ، واشار الى أنه أناب عنه أخاه ، غازى ، في اخلاط ، فاذا اقتضت الأحوال دعوته ، نهض للاشتراك في رد المغول . ثم عاد المغول ، سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٢) الىمراغةفحصروها . ودرج المغول على أنهم اذا قاتلوا مدينة، قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين ايديهم ، يزحفون ويقاتلون ، حتى اذا أتموا عملهم ، انقض عليهم المغول فقتلوهم . وسقطت مراغة فى ايديهم ، وقتلوا من أهلها ما تجاوز الحد والاحصاء ، ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم ، وأضحى الناس من المهانة والذلة ، ما جعلهم لا يدفعون عن نفوسهم شيئا . ولا شك ان قــادة المغول أرادوا أن يزحفوا على بغداد ، بعد أن وصلوا الى اربل ، وأدرك الخليفة الناصر أنهم قد يعدلون عن جبال اربل لصعوبتها، وعندئذ يطرقون العراق . واستنجد الخليفة ، بمظفر الدين صاحب اربل وبالأشرف بن العادل ، على أن الأشرف اعتذر بما حدث مــن نزول الصليبيين علــى دمياط ، وبالحرص على النهوض لدفعهم عن دمياط . ولم ينقذ بغداد من هجوم المغول الا صعوبة اجتياز دروب الجبال الضيقة ، فلا يعبرها الا الفارس بعد الفارس ، فعادوا الى همذان ، التى نهبوها وقتلــوا معظم أهلها ، ولم يكن نصيب أردبيل وتبريز يختلف عن نصيب همذان ، وذلك سنة ٦١٨هـ (١٢٢٢) . ولم يثبتالكرج للمغول، بل ولوا منهزمين،ولميسلم منهم الا الشريد ، اذ بلغ عــدد القتلى نحو ثلاثين ألفا ، وخرب المغول بلادهم ، ومضى المغول الى بحر قزوين ، واتجهوا الى دربند (الدروب) ، فاجتازوها الى بلاد القوقاز ، حيث أنزلوا الهزيمة بالقبجاق ، الذيــن

استبد بهم الخوف والجزع ، فهربوا الى جهات متفرقة ، ومنهم من لحق ببلاد الروس . فأعد الأمراء الروس جيشا لرد المغيرين ، غير أنهم تعرضوا للهزيمة عند بحر أزوف ، وذلك فى مايو سنة ١٢٢٢ ، ثم نهبـوا الحى الجنوى في سوداق على بحر أزوف بالقرم ، ثم ساروا صوب الشرق ، فاجتازوا نهر الفلجا فهزموا جيشا بلغاريا ، واذ دانت لهم جميع ما يقـع حول بحر قزوين من بـلاد ، لحقـوا بمعسكر جنكيزخان فى البرارى شمال نهر سيحون .

والملحوظ أن جيشا مغوليا آخر ، توجه سنة ٦٢١ (١٢٢٤) لقتال الرى وساوه ، وقم ، وقاشان ، وهمذان ، وأنزل الهزائم بسكان هـذه البلاد ، وأمعن في قتل أهلها ، ونهب كل ما يقـع فى ايديهم من اموال وثياب ودواب . على أن جنوب ايران لم يتعرض لما صبه التتر من عذاب وفوضى على سائر البلاد ، ولعل هذا هو السر في أن جنوب ايران سبق فى الانتعاش سائر الجهات .

والملحوظ ان المغول لم يلقوا في شرق ايران ما لقوه في الصين من مقاومة عند الاستيلاء على المدن المنيعة، فما أثاروه من رعب في البلاد الاسلامية ، باعتبارهم كفارا ووثنيين يفوق ما يصح أن يجرى فى بلاد الصين ، نظرا لما ألفه الصينيون منهم أزمنة عديدة ، باعتبارهم جيرانا لهم . يضاف الى ذلك أن ما لجأوا اليه فى الشرق الاسلامى من الافادة من سكان الاقاليم يزيد كثيرا على ما فعلوه فى الصين . فعند الاستيلاء علـى مدينة من المدن ، قدموا من معهم من أسارى المسلمين بـين أيديهم ، يزحفـون ويقاتلون ، ويطمون الخنـادق ويهاجمون الاسوار ، على حين أنهـم يقاتلـون وراء المسلمين ، فيتعرض المسلمون الأسارى للقتل مـن كلا الجانبين . وحدث فى بعض الحـالات ، انهم جعلـوا هؤلاء الأسرى

يتخذون ثياب المغول ، ويجتمع كل عشرة منهم تحت علم مغولى ، فاذا شهد رجال الحامية ، هذه الطوابير العديدة التى تجتاز السهل ، اعتقدوا أن المغول يحشدون جيشا ضخما . وبفضل هـذه الحيلة تهيأ للجيش المغولى الضعيف أن يحمل المدينة علـى الاذعـان ، حتى اذا تم لهـم الاستيلاء على الموضع ، انقضوا على هؤلاء السكان ، فقتلوهم . وهذا الاجراء البغيض ، الذى صار أمرا شائعا ، والذى اسهم في اكتماله مـا اشتهر به المغول من النظم الصارمة ، أضحى من خططهم المألوفة . فمن سلم من القتل من أهل بخارى ، اتخذهم المغول أسارى ، أفادوا منهم فى القاء الحصار على سمرقند . واستخدموا أسارى سمرقند في حصار جرجانية . وبهذه الوسيلة ايضا استولى تولوى على مرو . فما أثاروه من الرعب ، وما فرضوه مـن الذلة علـى السكان ، أضعف المقاومـة الاسلامية . فحينما استولى المغول على نسا ، حشدوا السكان في السهل، وأمروهم بأن يجعلـوا أيديهم وراء ظهورهـم ، ويشير محمد النسوى مؤلف سيرة جلال الدين منكوبرت ، الى أن السكان استجابوا لهـذا الأمر ، ولو أنهم تفرقوا فى الجبال المجاورة ، كان فى ذلك نجاة معظم السكان . غير أن ما حدث من أنهم كانوا مكتوفى الأيدى ، جعل المغول يطوقونهم ويرمونهم بالنشاب ، رجالا ونساء واطفالا ، دون تمييز بينهم.

على أن ما اشتهر به المغول من النزعة الادارية والتزام النظـام ، كان كفيلا بالمحافظة على كل ما تقتضيانه من أمور . فاينما سار المغول لقى السكان مصرعهم ، وتحولت الأراضى الى صحارى ، وبرغم ما هو ملحوظ من المبالغة فيما ورد فى جهانجشاه ، من أنه لم يفلت من أيدى المغول سوى شخص واحد من كـل ألف انسان ، ومهما تزايد عـدد السكان منذ زمنه حتى يوم القيامة ، فلن تبلغ هذه الزيـادة عشر عدد السكان المعروفين قبل الغزو المغولى ، ففى هذا القول ما يدل على مـا

حاق بالناس من البؤس والشقاء .

وحرص المغول ، بعد كل مذبحة تجرى فى السكان ، على أن يقيموا لمن تبقى من السكان حكومة يرأسها موظف ، كان عادة من الأويغور أو الايرانيين ، يستخدم جماعة من الكتاب الذين يجيدون اللغتين الفارسية والاويغورية ، ولهم دراية بالسجلات . وما حلّ بالبلاد التى وطأتها أقدام جنكيزخان وجنده من الخراب والدمار ، ظلت آثاره باقية قرونا عديدة بعده ، فوصفه المؤرخون المسلمين بالجاحد اللعين ، لما دمره من الحضارة العربية الاسلامية ولم يكن ذلك عن كراهية للدين الاسلامى . فما اصدره من أوامر بمنع الوضوء والاغتسال ، وبمنع استخدام طريقة المسلمين فى ذبح الحيوان ، لأن فى ذلك مخالفة لما هو معروف عند المغول من عادات وخرافات . فاذا كان قد دمَّر فى شرق ايران من المدن الزاهرة ، التى أنجبت أمثال الفردوسى وابن سينا ، فانه أمدّ الى الأطراف الجنوبية الغربية ، من البرارى ما أفادت منه امبراطوريته ، ولتحقيق هذا الغرض ، أجهز على الأرض . فباعتباره رجل ادارة وحكومة ، لا يقر الحرب الدينية ، وباعتباره بدويا ، ينفر من الحياة المستقرة المتحضرة ، كان ينزع الى تدمير حضارة المدن ، والى التخلص من المحصولات الزراعية (فحينما غادر شرق ايران ، أمر بتدمير بيادر الحبوب) . ويميل أيضا الى أن يحول الأراضى التى يجرى فلاحتها لتهيأتها للزراعة ، الى برارى ، لأن البرارى تتفق مع نوع حياته، ولا تسبب ضررا عند ادارتها .

لم يجد جنكيزخان ما يدعوه الى عبور نهر السند لاقتفاء أثر جلال الدين خوارزمشاه . وما جرى سنة ١٢٢٢ من أعمال حربية ، كان قاصرا على مهاجمة المعاقل الجبلية ، وتحطيم فلول جيش جلال الدين .

وأراد جنكيزخان أن يعود الى بلاده عن طريق الهند وهملايا والتبت ، غير ان الطريق الذى يخترق هذه الجبال ، اغلقته الثلوج ، كما أن جنكيزخان تلقى من الأنباء ما يشير الى ثورة ملك التانجوت وتمرده، وعندئذ عزم على أن يعود بالطريق الذى جاء منه . يضاف الى ذلك أن المنجمين نصحوا جنكيزخان بألا يسير الى الهند[1] .

---

(١) ما وقع من ثورات فى مدن اقليم ما وراء النهر ، بعد سقوطها فى ايدى المغول ووصف احوال هذه الجهات ، والطريق الذى اتخذه جنكيزخان اثناء عودته من اقليم السند ، وصفه بالتفصيل الزاهد الصينى شانج شون (Bretschneider : Medieval Researches I.p. 35 ff.

فالمعروف ان شهرة شانج شون بلغت جنكيزخان سنة ١٢١٩ ، وهو لا يزال على شاطىء نهر ارتش . فاستدعاه اليه ، وطلب منه ان يمنحه دواء الخلود (حجر الفلاسفة) . ويتضح من تصريحات شانج شون ، انه اراد من وراء استجابته لجنكيزخان ، أن يمنعه من سفك الدماء . وسلك فى رحلته من منغوليا الطريق الذى يجتاز بلاد الاويغور وكولجه الى نهر سيحون ، الذى بلغه فى نوفمبر سنة ١٢٢١ . ويشير في وصفه الى أن ما تخرب من البلاد شمال نهر سيحون اثناء قتال خوارزمشاه عمر بالسكان ، والى الموظفين الوطنيين ، والى أنه لم يجد اثرا لحكام وحاميات مغولية في موضع من المواضع ، ويذكر ما شهده من مظاهر الحياة السائرة ، كالاحتفال بعيد الفطر المبارك ، وما لقيه المسافرون من الترحيب من قبل السلطات الاسلامية ، اثناء السير الى سمرقند . ويشرح ما حدث من تضاؤل عدد سكان سمرقند بعد المذبحة التى تعرض لها سكانها على أيدى المغول ، وما كان من اشتراك الصينيين والخطائيين وغيرهم ، مع المسلمين ، في فلاحة الأرض والحدائق ، وما جرى من تعيين الرؤسا من العناصر المختلفة . فكان حاكم سمرقند من الخطائيين وكان ملما بالثقافة الصينية ، واستخدمه شانج شون مترجماله عند التحدث الى جنكيزخان . واقام شانج شون في سمرقند حتى ابريل ١٢٢٢ غير انه عاد اليها مرتين فى نفس السنة ، ولذا تتسم رواياته كلها بالصدق والدقة . وتصف ما شهده من وفرة السلع التجارية والاوانى النحاسية بها . وفى ابريل سنة ١٢٢٢ ، ارتحل شانج شون من سمرقند ، واتخذ طريقه الى جنكيزخان ، الذى لا زال وقتذاك ينزل الى الجنوب من جبال هندوكوش . وفي مايو وصل الى معسكر جنكيزخان ، بعد أن عبر نهر جيحون . وحينما سأله جنكيزخان عن دواء الخلود ، اجابه انه لا دواء

ابتدأت رحلةالعودة في مارس سنة ١٢٢٢ ، فاجتاز جنكيزخان جبال باميان، ثم امضى الصيف فيبرارى هذهالمنطقة، وعبر نهر حيجون فيخريف سنة ١٢٢٢ ، وأمضى الشتاء في سمرقند . وكان ولداه جغتاى واوكيتاى وقتذاك ينزلان في قرهقول بالقرب من مصب نهر زرفشان حيث انصرفا الى صيد الطيور ، التى ارسلا منها كميات كبيرة الى جنكيزخان . وفى طريق العودة ، جرت حملة ضخمة للصيد ، اشترك فيها كل الأمراء ، وتلقى جوجى الأمر ، بأن يسوق الى حلقة الصيد ، الحمر الوحشية من بلاد القبجاق . وفي ربيع سنة ١٢٢٣ استأنف جنكيزخان سيره ، واجتمع على نهر سيحون بجغتاى واوكيتاى ، وعقد قوريلتاى (مجلس الأعيان) ، ثم اجتمع بابنه جوجى في سهل قولان باشى . وأمضى المغول صيف سنة ١٢٢٣ فى هذه البرارى ، ثم انعقد مجلس آخر للنظر فيما صدر من حكم الاعدام على بعض الأمراء الاويغوريين .

وما هو جدير بالذكر هنا ، أن جنكيزخان سقط عن ظهر جواده أثناء الصيد ، وكاد يلقى مصرعه ، حين هاجمه خنزير برى . واغتنم الفيلسوف الصينى هذه الفرصة ، فنصح جنكيزخان بأن يمتنع عن ممارسة الصيد ، بعد أن تقدم به العمر ، فانقطع عن الصيد بعد هذا الحادث ، نحو شهرين . واستأذن شانج شون فى الرحيل ، دون أن ينتظر قدوم أمراء المغول ، وذلك في ابريل ١٢٢٣ . على أن جنكيزخان لم يعد الى منغوليا الا فى سنة ١٢٢٥ ، والراجح أنه امضى صيف سنة

للخلود ، بل ان فيه من الوسائل ما يحفظ الصحة . ولم يظهر جنكيزخان ما يدل على خيبة امله ، بل صار يمتدح الحكيم الصينى على اخلاصه . وارسل جنكيزخان الى الحكيم الصينى من العساكر من يصحبه فى عودته ، حتى بلغ المعسكر المغولى المنصوب ، شرقى بلخ ، في سبتمبر ١٢٢٢ ، وظل فى صحبة جنكيزخان فترة قبل عودته الى منغوليا .
انظر Barthold : op. cit. pp. 450 - 453

١٢٢٤ على ضفاف نهر ارتش . وغادر جنكيزخان الأقاليم الغربية ، دون أن يخضعها نهائيا ، غير ان حكم المغول فى اقاليم ما وراء النهر وخوارزم استقر نهائيا منذ سنة ١٢٢٣ ، ويشير ابن الأثير ، الـى أن مدن اقليـم ما وراء النهر قد انتعشت قبل غيرها مـن المدن فى خراسان والعراق ، التى بقيت خرابا لا يجسر أحد من المسلمين أن يسكنها .

والمعروف أنـه لما تم فتح خوارزم ، تعين جوجى أميرا عليهـا ، وشملت ولايتـه أيضا خراسان ومازندران . وحينما ارتحل جنكيزخان صحبه ابناؤه ، مـا عدا جوجى ، الذى أقـام في ممتلكاته الشاسعة . والواضح أن محاولته اقامة مملكة مستقلة عن حاضره الأمبراطورية كان سببا لما وقع من النزاع بينه وبين أبيه . ومن الروايات التى ذاعت عـن وفاة جوجى في فبراير سنة ١٢٢٧ ، ما كان من حرصه على امتـلاك بلاد القبجاق ومحاولته انقاذها من الخراب والدمار ، وانكاره ما درج عليه المغول من سياسة التدمير والتخريب والقتل ، فضلا عن ميله الى الاتفاق مع المسلمين ، كـل ذلك أثار جنكيزخان ، فدس له السم فمات . وفى رواية أخرى ، أنه حينما اعتذر جوجى بمرضه وامتنع عن العودة الـى ابيه ، لم يقبل جنكيزخان العذر ، بل عزم على ان يمضى لقتاله ، غير أن الأنباء جاءت بوفاته . وكان جوجى اكبر ابناء جنكيزخان .

امضى جنكيزخان شـتاء ١٢٢٥ ــ ١٢٢٦ والصيف التالـــى فى معسكراته على نهر تولا ، من روافد نهر اورخون . تجـاوز عمره وقتئذ سبعين سنة ، وخضعت له البلاد الممتدة من بكين الى نهر الفلجا . على أن جنكيزخان توجه على رأس حملة حربية لقتال مملكة سى ــ هيا Si-Hia التانجوتية فى اقليم كان سو بالصين ، نظرا لأن ملكها ، الذى كـان من أتباع جنكيزخان ، رفض أن يرسل مـن قبله كتيبة للاشتراك فى قتال

خوارزمشاه ، وتشير رواية الى أن أحد كبار الموظفين التانجوت قال فى حديث له مع سيده ملك التانجوت ، اذا لم يكن لدى جنكيزخان ما يكفيه من العساكر ، فليس جديرا بما له من سلطة عليا . ولا يستطيع جنكيزخان أن ينسى هذه العبارات التى تنم عن التحدى والاستهانة به . فلما فرغ جنكيزخان من تنظيم أمور خوارزم ، مضى للانتقام لما تعرض له من اهانة . يضاف الى ذلك أن جنكيزخان أدرك أنه لا بد للمغول أن يمتلكوا فعلا أقاليم ، كانسو ، وآلاشان ، واوردو ، بعد أن اكتمل لهم الاستيلاء على مملكة كين بالصين الشمالية على يد قائده موقللى الذى مات أثناء قيامه بهذا الفتح . وفى ربيع سنة ١٢٢٧ ، شرع فى القاء الحصار على العاصمة سى هيا (ننج ـ هيا الحالية) . وما جرى عليه المغول من سياسة بث الخوف والرعب فى نفوس الأهالى ، أثناء حروبهم فى افغانستان ، اتبعوها في هذه المعركة « وما لجأ اليه السكان من الاختفاء فى الجبال والكهوف ، لم ينقذهم من أسلحة المغول ، اذ أن جثث القتلى غطت الحقول » . وفى أثناء الحصار المفروض على ننج ـ هيا ، توجه جنكيزخان في صيف سنة ١٢٢٧ الى منطقة لونج ـ تو ، الواقعة الى الشمال الغربى من بنج ـ ليانج الحالية . وفي الموضع الواقع غربى بنج ـ ليانج قريبا من نهر تسنج ـ جو ، مات جنكيزخان ، في ١٨ أغسطس ١٢٢٧ وقد تجاوز السبعين من عمره على اعتبار انه ولد سنة ١١٥٥ . وحدث بعد فترة قصيرة من وفاة جنكيزخان ، أن سقطت فى أيدى المغول العاصمة ننج هيا ، فتقرر قتل سكانها ، استجابة لمشيئة الغازى الراحل . على أن جانبا من التانجوت ، جرى بذلهم للأمبراطوره يسوى ، وهى احا ى زوجات جنكيزخان ، وقد كانت تصحبه فى هذه الحملة .

جرت مواراة جثمان جنكيزخان بالقرب من جبل بوركان كالدون ، وهو جبل كنتاى ، الذى يقع عند منابع نهرى اونون وكيرولين . وفي

سنة ١٢٢٩ ، احتفل خليفته بذكراه على الطريقة المغولية ، بتقديم الضحايا، اذ أمر بتقديم الطعام لروح والده (جنكيزخان) لمدة ثلاثة أيـام ، وان يجرى اختيار أربعـين فتاة مـن أجمل بنات الأسرات النبيلة والقـادة العسكريين ، وقد ارتدين أفخر ما لديهن من الثياب ، وتزين بأثمن مـا عندهن من الحلى ، وارسالهن ليخدمن جنكيزخان فى الآخرة . يضاف الى ذلك التضحية بعدد من الجياد الأصيلة .

وعلى مسافة بعيدة الى الجنوب ، وفى الأوردو الواقـع على نهر جمخق ، بين سور الصين وهوانج هو ، قامت خيمتان (يورت) ،احتويتا على عظام جنكيزخان فى صندوق من نحاس أو فضة حسبما تشير بعض الروايات ، وسرج حصانه ، وكأس شرابه ، وتقـدم لروحه الضحايا فى أيام معينة ، ولا شك أن هذه العقيدة ، وتلك المخلفات ، ترجع الى زمن متأخر وليس من السهل تحديد هذه الفترة .



الفصل العاشر

تقدير أعمال جنكيزخان

كان جنكيزخان يعتبر المطرقة ، التي ابتليت بها البشرية ، فما تعرضت له الحضارات القديمة من غزوات شعوب الاستبس ، مدة اثنى عشر قرنا ، اجتمعت كلها في جنكيزخان . والواقع أن ما من أحد من أسلاف جنكيزخان يضارعه فيما اتسمت به شهرته من الرعب والعنف . اذ جعل الرعب من خصائص نظام الحكومة ، وأقام من المذابح نظاما ثابتا مشروعا . فما أجراه من التخريب والتدمير فى شرق ايران (خراسان) أثار من الرعب والخوف ما لم يشتهر به أتيلا في أوربا . على أن قسوته وصرامته لم تكن صفة طبيعية فيه ، انما اقتضتها قسوة البيئة ، وما يعانيه العنصر التركى المغولى من الحرمان . وما لجأ اليه جنكيزخان من المذابح الجماعية ، يعتبر جانبا من سياسته الحربية ، اذ شن البدو الحرب على المتحضرين ، الذين لم يخضعوا لهم فى الوقت المناسب ، واذا خضعوا لم يلبثوا أن يعلنوا الثورة والتمرد على غزاتهم . وما يؤسف له أن للبدوى

لم يدرك مطلقا أهمية ما للحضارة الزراعية أو المدينية من اقتصاد . فحينما غزا شرق ايران ، واستولى على شمال الصين ، أعتبر من الأمور الطبيعية ان يدمر المدن ، وان يخرب المحصولات الزراعية ، ويحوّل هذه البلاد الى براري (استبس) ، اذ أن آلاف السنين من البداوة المتوارثة ، ومن الغارات المخربة على المدنيات ، وعلى البلاد التى تمتهن الفلاحة والزراعة تهتف كلما أنتهى القتال « فلتقطع أوصال الأعداء ، ولتطاردهم ، ولتمتلك أمتعتهم ، ولتشهد في دموع الناس أعزاء هم الذين أفتقدوهم ، ولتحتضن بين ذراعيك نساءهم وفتياتهم ». على أن هذه الصورة الحزينة (الكئيبة)، هى التي حول بها احفاد جنكيزخان حياة البرارى القاسية الى حياة الحضر الوادعة . « فسوف يأتى من بعدنا من جنسنا من يرفل في الثياب الموشاة بالذهب ، ومن يتناول أطيب الأطعمة وأشهاها ، ومن يمتطى أجود الخيول ومن يضم بين ذراعيه أجمل الفتيات ، وسوف ينسون أن كل ذلك يدينون به لنا . »

وعلى شاهد قبر مؤرخ في ١٢١٩ ، نقش أمر بحفره الراهب لى تشو ــ تشانج ، وهو الذى صحب الفيلسوف الصينى كيو تشانج ــ تشو عند زيارة جنكيزخان في ١٢٢٠ ــ ١٢٢٣ ، ورد فيه عبارات من فلسفة تاو ، عما تركه امبراطور البدو (جنكيزخان) من طابع على أهل الصين ، وعن اسلوب حياته ، وعن أعماله . اذ جاء على لسان جنكيزخان « لقد برمت السماء بما ساد الصين من ترف زائد ؛ أما أنا فانى أعيش في أقليم الشمال القاسى ، سأعود الى البساطة والسذاجة ؛ وأرجع الى حياة الاعتدال والقناعة . فما أرتديه من ملابس ، وما أتناوله من طعام ،لا يتعدى ما يتدثر به رعاة البقر وسياس الخيل من الخرق ، وما يتخذونه من طعام . لقد عاملت العساكر على أنهم اخوتى ، وما شهدته من مئات المعارك كنت دائما في المقدمة . وفي غضون سبعة أعوام حققت عملا مجيدا ، وفي جميع

جهات الفضاء الستة ، خضع الجميع لقاعدة واحدة » .

فمن ناحية اسلوب حياته وبيئته وعنصره ، اتصف جنكيزخان بروح العدالة ، وبالادراك الصادق السليم ، وبالاتـزان الشديد ، وبالمحبـة الاكيدة ، وبالسخاء والمودة ، وتجرده مـن التهور والاندفاع في كـل الأحوال والظروف .

وأدرك الرحالة الاختلاف الشاسع بين ما اتصف به جنكيزخان من النشاط والحيوية الطبيعية ، وعواطف الرجل المتبربر واحساساته ، وبين محاولته ألا يظهر فى حضور الغرباء من الانفعالات والعواطف ما يحط من مكانته ووقاره ، وعلى الرغم من أن جنكيزخان ، سحق كل مشيئة تخالف ارادته ، فأخضع جيشه لنظام بلغ من الصرامة والشدة ، ما أدى الى منع الكذب والسرقة ، فلم تعد معروفة فيه ، فانه كان مثاليا في سخائه . فمن الروايات ما يشير الى أن هذا الأمير تيموجين قد يخلع كل ما يرتديه من ملابس ويجود بها ، وقـد يبذل لشخص مـن الأشخاص الجواد الذى يمتطيه . وما رواه الجوزجانى عن اللقاء الذى تم بين جنكيزخان والقاضى وحيد الدين البوشنجى ، يدل على ان جنكيزخان عرف كيف يكظم غيظه الذى أثاره ما سمعه من الحديث . شارك جنكيزخان قومه في شدة الميل الى الشراب ، ولذا لـم يرد فى مرسوماته وتعليماته ما يدل على انكاره للخمر ، على أنه كان اكثر اعتدالا من سائر سلالته فى شهواته وملذاته .

وما اشتهر به جنكيزخان من قدرة علـى التنظيم والادارة ، جدير بالاهتمام . فالمعروف أنه ظل حتى آخر أيام حياته ، بعيدا عن كل ثقافة ، فلم يتحـدث الا بلغـة المغول . والواضح أن مـا اهتم به من تنظيـم لأمبراطوريته ، يرجع الى وجهة نظر الغزاة البدو ، وسيطرتهم على الشعوب المتمدنة التى خضعت لهم ، كيما ينتزعوا من كد هؤلاء المغلوبين مواردهم

وأموالهم ، على أن يتكفلوا بحمايتهم والدفاع عنهم . اذ أن جنكيزخان ، شأن قادة البدو ، لم يدرك أهمية اقتصاد أهل الحضر .

وكيفما كان الأمر ، فان الياسة أو اليسق ، ظلت مرجعا في هـذه الناحية حتى القرن الرابع عشر . فالفلاحون والصناع يؤلفون المادة الخام، التي يفيد منها سادتهم من المغول ، أو بالأحرى قـادة المغول . فما فعله جنكيزخان انما يقصد به مصلحته ، ومصلحة أسرته ، والموالين له . وما من دليل يشير الى فكرة العمل من أجل صالح الأمة بأسرها ، حتى في صورة ما ورد عن هذه الفكرة مـن نقوش أورخون . ومن ناحية أخرى تعتبر الثقافة الفكرية قوة لا ينبغي تركها بأيدي الرعايا . وما لجأ اليه من محاولة التوفيق بين أمرين متناقضين ، الحياة البدوية والثقافة الفكريـة ، يعتبر أضعف نقطة فى نظام جنكيزخان ، وكان سببا أساسيا لانهياره وسقوطه . غير أن ما بذله للأمبراطورية من نظام ، دلّ على كفايته في المحافظة على وحدة الامبراطورية لمدة أربعين سنة بعد وفاته ، وفى تحقيـق السيادة لأسرته أجيالا عديدة فى الامارات والممالك التى انقسمت اليها الأمبراطورية

والى جانب ما اشتهر به من الهمجية والعنف ، نلمس فيه من الصفات النبيلة ما حمل الكتاب المسلمين على أن يجعلوا لهذا الطـاغية مكـانا في الانسانية . فمن أهم ما اتصف به من الخلال الكريمة ، ارتياعه الفطرى من الخونة . فاولئك الذين اعتقدوا أنهم يظفرون عنـده بالمكانة ، بأن يخونوا سادتهم وأولياء نعمتهم ، وبأن يتنكروا لأوطانهم ، ليس لهم جزاء عنده الا الاعدام . وعلى العكس من ذلك ، حدث فى أحوال كثيرة ، ولا سيما بعد احرازه الانتصار علـى خصومه ، أن كافأ أو أدخل فى خدمته أولئك الذين أخلصوا حتى النهاية لسادتهم الذين كانوا خصوما ألداء له. وأورد رشيد الدين أمثلة عديدة للدلالة على ما تتسم به حكومته من روح

خلقية صادقة ، فضلا عن تقديره للشجاعة والبسالة ، وان جانبها التوفيق .

وتشير الروايات الى أنه متى تعهد بحماية الضعفاء ، التزم بالدفاع عنهم دائما ، وظل طوال حياته صادق الاخلاص لهم . ومن الدليل على ذلك أنه حينما لقى زعيم التانجوت مصرعه ، لانحيازه الى جانب جنكيزخان أثناء القتال ضد زعيم النايمان ، تكفل جنكيزخان بتوفير أسباب العيش لأسرته ، واختص ابنه برعايته فزوجه من ابنته ، وحفظ السلطان في بيته . كما أن المنهزمين في الحروب السابقة ، من الأويغور والخطا ، لم يصادفوا حاميا صادقا لهم الا في جنكيزخان ، مثلما كان أحفاده حماة أوفياء للمسيحيين من الأرمن والسريان . وكان من أتباعه في مستهل حياته ، الأمير الخيتائى ، يليو ليوكو ، وقد لقى مصرعه في الحرب الخوارزمية . فأخذت أرملته تسعى للالتقاء بجنكيزخان ، حتى تم لها ذلك ، بعد أن فرغ من حملته فى كانسو ، فأحسن استقبالها ، وبذل رعايته الأبوية لابنيها . وفى كل الأحوال التى تشبه ما سبق الاشارة اليه من أمثلة ، نلحظ ، فى هذا البدوى الذى يرتدى جلود الحيوانات ، والذى أباد الشعوب ، من السمو الطبيعى ، والمروءة الرفيعة ، ومن السمات النبيلة ، ما أدهش الصينيين أنفسهم .

وبرغم ما أشتهر به جنكيزخان من الصلابة والعناد في سياسته فانه لم يغفل الافادة من تجارب المتحضرين . اذ تلقى المساعدة من أرباب الخبرة والمرشدين وذوى الاطلاع ، فيما يتعلق بالشئون الادارية والمخابرات التى تساعده على القيام بأعماله الحربية . والمعروف أن تنظيم الادارة المدنية عند جنكيزخان فى مستهل حكمه كان أمرا بالغ الصعوبة ، فلا شك أن المغول وقتذاك لم يبلغوا من المستوى الحضارى ما بلغته القبائل التى خضعت لهم كالكرايت والنايمان . ولذا أضحت الحاجة ماسة الى الافادة من الشعوب الخاضعة الموالية له عقب توحيد منغوليا . وكان التجار

المسلمون أول من ظهر فى بلاط المغول من أرباب الحضارات . بل أن ثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصا لتيموجين (جنكيزخان) فى الأيام الحالكة التى صادفها فى حياته المبكرة . وهؤلاء هم جعفر خوجا ، وحسن ، ودانشمند الحاجب . وأفاد جنكيزخان من حسن ودانشمند فى حملته على مملكة خوارزمشاه ، بما قاما به من مفاوضات باسم سيدهما مع السكان الأصليين . بل حدث حينما عزم جنكيزخان على مهاجمة الصين الشمالية ، أن أنفذ الى الملك التون خان ، رسولا اسمه جعفر ، ولم يلبث أن نقل الى جنكيزخان أحوال البلاد ، ووصف الطريق الذى سلكه ، فأفاد جنكيزخان من هذه المعلومات ، فى حملته التى انتصر فيها على التون خان .

واتخذ جنكيزخان له مستشارين من الموالين له ، على اختلاف عناصرهم ، ومن هؤلاء : محمود يلواج من المسلمين ، وتا ـ تا ـ تونجا من الأويغوريين ، ولى ليوتشوتساى ، من الصينيين ، وهو الذى خدم آخر ملوك النايمان ، وعلّم ابناء جنكيزخان الكتابة الأويغورية .

والراجح أن محمود يلواج ، هو محمود الخوارزمى ، أحد السفراء الثلاثة الذين وجههم جنكيزخان الى محمد خوارزمشاه ، سنة ١٢١٨ ، ومنذئذ ظل يعمل مستشارا لجنكيزخان ، فعينه حاكما على اقليم ما وراء النهر ، بعد سقوطه فى أيدى المغول فأحسن ادارته .

اما يى ـ ليوتشوتساى ، الخيتائى الصينى ، فكان من أهالى الصين الشمالية ، وقد شغل أبوه منصب الوزارة لأسرة كين . واشتهر يى ليو تشوتساى بثقافته العالية ، ودراسته الشاملة ، اذ درس الحكمة ، والفلك ، والجغرافيا والأدب ، وصنف فى هذه الفنون كتبا عديدة ، ثم صار حاكما على مدينة بكين سنة ١٢١٥ . فلما سقطت هذه المدينة بأيدى

المغول ووقع في أسرهم .

وحينما وقف جنكيزخان على كفاية يى ليو تشوتساى ومقدرته أطلق سراحه ، وقلده احدى الوظائف العالية ، وارتفع بذلك شأنه عند جنكيزخان . فقد صحبه في حملاته على البلاد الاسلامية وسائر البلاد ، وتعتبر كتابته عن فتوحات جنكيزخان من أدق المصادر وأوثقها . ويرجع اليه الفضل فيما كان للمدنية الصينية من تأثير على جنكيزخان ، وفي الحد من المذابح التى كان يجريها المغول في السكان بعد الاستيلاء على بلادهم ، وفي انقاذ الكتب من النهب والحريق الذى تعرضت له المدن على أيدى المغول . ومن مظاهر اهتمامه أيضا ، ما أجراه من ابحاث لاستخلاص عقاقير طبية ، لمكافحة ما يصدر عن جثث الضحايا من أوبئة .

وعلى الرغم من اخلاص يى ليوتشوتساى لدولة المغول ، ولأسرة جنكيزخان ، فانه لم يستطع أن يخفى شعوره وعاطفته حينما يطلب الرأفة بمدينة أو باقليم ، حل به قضاء المغول وحكمهم . ويشير الى ذلك اوكيتاى ابن جنكيزخان بقوله « ألا تزال تبكى على هؤلاء القوم » . ومع ذلك كان لوساطته الفطنة الحكيمة أهمية في وقف اجراءات يتعذر تلافيها أو اصلاحها . فنظرا لأنه ينتمى أصلا للعنصر المغولى ، ولأنه تشبع بالحضارة الصينية يعتبر وسيطا طبيعيا بين عنصر المغلوبين على أمرهم ، وبين عنصر الطغاة . على أنه ما كان ليسعى مباشرة عند المغول للدفاع عن قضية انسانية ، خوفا من أنه لا يجرى الاستماع اليه . بل حرص على أن يثبت لهم أن الرأفة من دواعى السياسة السليمة ، وبذلك كان يحقق غرضه ، فما كان يرتكبه المغول من همجية ووحشية ، يرجع الى ما اشتهروا به من الجهل .

وحدث في أثناء الحملة الأخيرة التى قادها جنكيزخان على كانسو ، أن

أشار قائد مغولي الى أنه لا جدوى مـن الرعايا الصينيين الجدد ، لأنهم ليسوا صالحين لاستخدامهم في الحروب ، ولذا يحسن استئصال شأفة كل هؤلاء السكان ، الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين نسمة ، حتى يصح تحويل جانب من الأرض الى مراعى لخيل العساكر . وأعرب جنكيزخان عن تقديره لهذه النصيحة . على أن يى ليو تشوتساى لم يلبث أن أعلن للمغول الذين لا يرتابون فى اخلاصه مطلقا ، ما يعود عليهم من المزايا ، باستغلال الأراضى الخصيبة والافادة من هؤلاء الرعايا المجدين . وشرح أن ما يفرض من الضرائب على الأرض ، ومن مكوس على المتاجر ، سوف يتحصل منها كل سنة ، نحو ٥٠٠ ألف أوقية من الفضة ، و ٨٠ ألف ثوب من الحرير ، و ٤٠٠ ألف غرارة من الحبوب . فكسب بذلك المعركة ، وعهد اليه جنكيزخان أن يضع على هذه القواعد مقدار ما يتحصل من الضريبة .

وبفضل يى ليو تشوتساى وسائـر المستشاريـن مـن الأويغور والمسلمين ، أقام جنكيزخان ، في غمرة ما يجرى مـن المذابح ، أصول الادارة المغولية . وما كان يصدر عن جنكيزخان من أفضال انما يدل على ميله وتقديره للمتحضرين والمثقفين . اذ أفـاد من التجار المسلمين فيما أحرزه من انتصارات فى حملاته المختلفـة ، وفيما ادخلـه المسلمون في منغوليا ، فوق الأنهار والبحيرات ، من مشروعات لرى الأراضى . يضاف الى ذلك ما أحرزه التجار المسلمون فى منغوليا من نجاح ، في معاملاتهم التجارية ، وفيما أنشأوه فيما بعد مـن مدارس وخانات . وأفاد مـن لي ليو تشوتساى في الوقوف على الحضارة الصينيـة ، كما أفـاد من الاويغوريين فى التعرف الى ما كـان سائدا في اورخون وتورفان مـن حضارة تركية قديمة ، وبما تنطوى عليـه من تراث يستند الى مؤثرات سريانية ، ونسطورية ومانوية وبوذية . والمعروف أن جنكيزخان وخلفاءه الأوائل طلبوا الى الأويغوريين وضع قواعد الادارة المدنية ، فيما يتعلق

بما يتبع في دواوينهم من اللغة والكتابة . والواقع أن ما يعرف بالأبجدية الأويغورية ، ليست الا تعديلا لأبجدية الصغد الايرانيين ، التى انتقلت من الصغد الى الترك ، فنشرها الأويغوريون في منغوليا ، ثم جاء بها المغول ، بعد أن أصبحت الابجدية القومية عندهم ، الى الغرب ، ثم انتقلت الى المغول والى المانشو ، وهكذا نرى كيف وصلت الأبجدية السامية الأصل الى المحيط الهادى ، على أيدى الصغد والأويغور والمغول.

واذ جرى نسيان مذابح المغول ، بقى النظام الادارى الذى يرجع الى ما أقامه جنكيزخان من قاعدة ، وما أنشأه الاويغور من دواوين . وهذا النظام الادارى هو وحده الذى أسهم به جنكيزخان في المدنية ، بعد مظاهر التدمير والتحطيم التى قام بها . ومن هذه الزاوية وحدها ، نعرض جنكيزخان لحكم المعاصرين له . اذ قال عنه ماركوبولو : انه مات، فيا للخسارة ، كان رجلا شهما عاقلا . وقال عنه جوانقيل : هيأ السلام لقومه . وليس فى هذا الكلام شىء من التناقض الا في ظاهره . فبفضل ما قام به جنكيزخان من توحيد جميع الأقوام والأمم المغولية التركية فى امبراطورية متحدة ، وما أجراه من سيادة النظام الصارم فى الأمبراطورية من بكين الى بحر قزوين ، قضى على ما كان ينشب دائما من الحروب بين القبائل ، بعضها مع بعض ، وحقق للقوافل من الأمن ما لم تعرفه من قبل. وكتب أحد المؤرخين[1] : انه حدث فيزمن جنكيزخان أن ساد الهدوء والسلام في البلاد الواقعة بين ايران وتوران ، فأضحى بوسع الانسان ، أن يرتحل من ساحل البحر المتوسط الى كوتشان ، وقد حمل فوق رأسه صفحة من الذهب الخالص ، دون أن يتعرض لأدنى أذى . فاقرت اليسق

---

(١) هو ابن الغازى بهادور ، الذى الف كتابا عن المغول ، ترجمه Desmaison بعنوان : Histoire des Mongols et desTartares

سلام جنكيزخان ابتداء من منغوليا حتى تركستان . وما اتصفت به اليسق من الصرامة في زمنه ، لم تلبث أن تهذبت زمن خلفائه ، ويسَّرت أمر كبار الرحالة في القرن الرابع عشر ، فجعل جنكيزخان للحضارة والمدنية آفاقا جديدة مثلما فعل الاسكندر من قبله .

توافرت الروايات عن المظهر الخارجي لجنكيزخان ، فالسنوات العشرة الأخيرة من حياته ، وصفها المؤرخ الصيني منج هونج والمؤرخ الفارسي الجوزجاني ، وجاء في وصفهما لجنكيزخان أنه امتاز على سائر رجال قوله ، بقامته المرتفعة ، وبجبهته العريضة ، ولحيته الطويلة ، ويشير الجوزجاني الى قوة بدنه ، والى أن عينيه تشبهان عيني الهرة ، والى أنه لم يكن برأسه الا شعرات قليلة امتد اليها الشيب .

ووجه الاختلاف بين جنكيزخان وسلالته في الطباع والصفات ، أنه على الرغم مما تهيأ لأبنائه من كل المباهج ، وخضوع الناس لهم ، فانهم انقادوا الى أقصى النقيضين ، في الاستمتاع بالحياة من جهة ، وفي شدة الحرص على المحافظة على وقارهم واتزانهم . فمنهم من لم يبتسم مطلقا ، انما يثير الرعب في نفوس رعاياه ، ومن هذه الفئة ، جغتاي ، وكيوك ، بينما درج آخرون على سجية البدو من الحيوية والنشاط ، يريد أحدهم أن ينعم بالحياة ، ويهيىء لغيره أن يفعل ذلك ، فيقبل عليه الناس ، وبفضل هذه السجايا فضلا عن السخاء ، تعلقت بهم القلوب . ومنهم من اشتد عنده الميل الى المرح ، حتى بلغ حد الابتذال ، وامتهان كرامة العرش ؛ ومن هذه الفئة اوكيتاي ، وتاراماشيرين ابن جغتاي . وسبق الاشارة الى أن جنكيزخان لم يكن من هذين الفئتين . وما جرى من احتفاظ جنكيزخان بكامل قواه العقلية بعد أن تقدم في العمر ، يدل على أنه كان اكثر من سائر سلالته ميلا الى الاستمتاع باسباب الحياة . وما من أحد من أبنائه وأحفاده ورث ما اتصف به من مواهب نادرة .

اختار جنكيزخان أثناء حياته خليفته ، ودل هذا الاختيار على حكمته واتساع افقه وقوة فكره ونفاذبصيرته . فلم يغتر بما اشتهر به تولوى من مواهب عسكرية ، أو بما اتصف به جغتاى من صرامة ،يستطيع أن يفيد منها فى تحقيق المبادىء الأساسية التى ينطوى عليها نظام جنكيزخان ، بل ركز اهتمامه فى اوكتاى ، الذى تعلقت به القلوب ، لما اشتهر به من طلاقة الوجه والسخاء . ونظرا لأن ما اشتهر به جنكيزخان من قوة الارادة، التىلم يرثها أحدمن أبنائه، كان لا بد أن يشترك جميعأفراد الأسرة بعد وفاته فى ادارة البلاد . اذ أن وحدة الأمبراطورية لا يحفظها الا رجل يتصف بقوة الارادة ، والتفكير السليم ، ويتحلى بخلال خلقية تجعله مقبولا عند الناس .

من العسير أن نقول كيف أدرك جنكيزخان أهمية هذه الاعتبارات . وكيفما كان الأمر ، جرت المناداة ، أثناء حياة جنكيزخان ، باوكيتاى خليفة له . وما حدث زمن اوكيتاى من الوفاق التام بين أفراد الأسرة ، أثناء ممارسة حقوقهم ، وما أصاب الرعايا من الرخاء النسبى ، كل ذلك يثبت أن اوكيتاى ، حقق آمال أبيه .

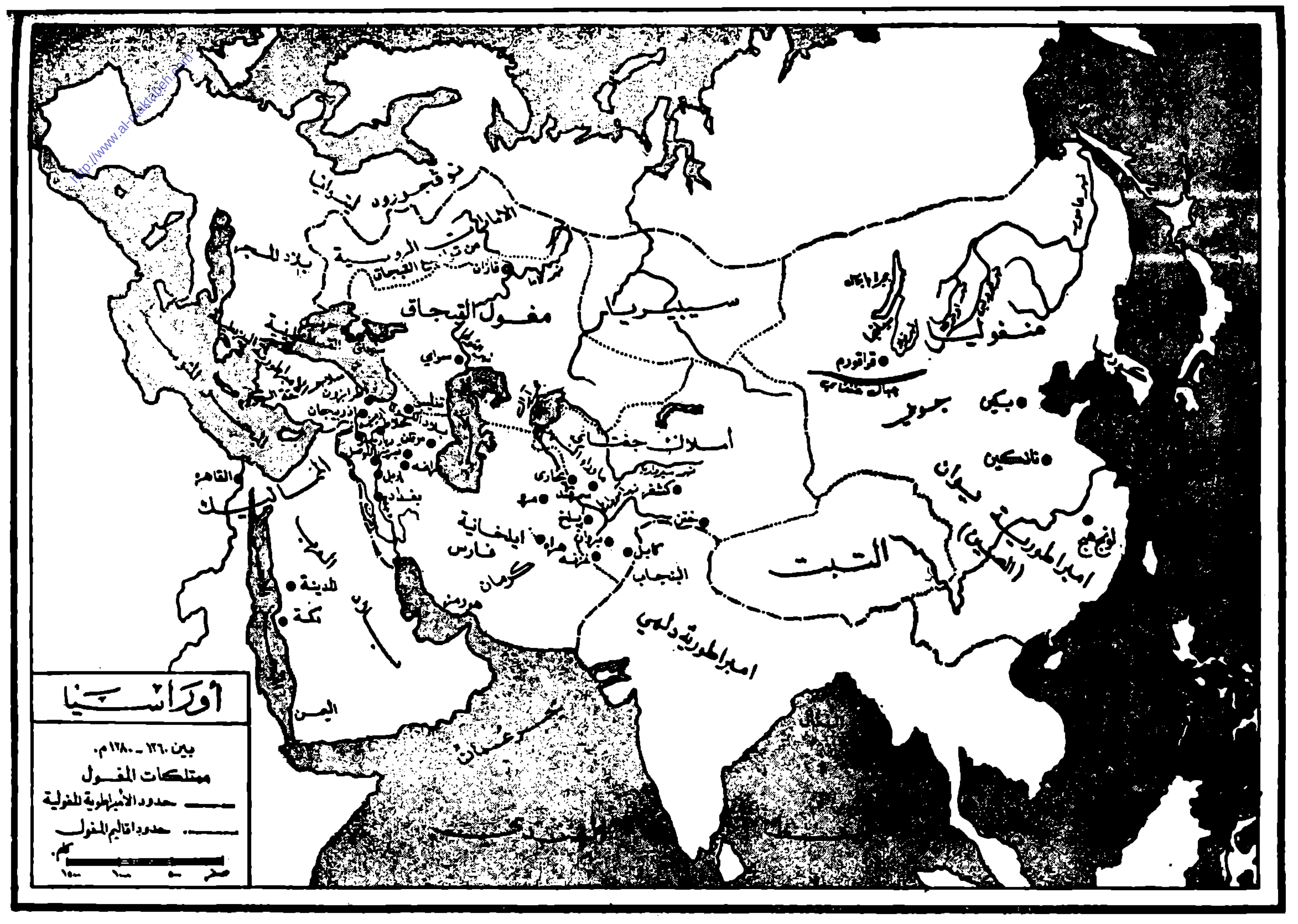
الفصل الحادي عشر

خلفاء جنكيزخان

تقسيم ممالك جنكيزخان

ما أقامه جنكيزخان من أمبراطورية ، خضعت للمبدأ السائد عند الشعوب البدوية ، الذى يعتبر أن ما يجرى امتلاكه من بلاد وأقاليم ، ليس ملكا للحاكم ، بل للأسرة الحاكمة ، وأن لكل فرد من أفراد الأسرة أن يختص بعدد من القبائل (أولوس) ، وأن يكون له يورت (اقطاع) ، أى مساحة من البرارى اللازمة لأن تمارس فيها هذه القبائل حياة الرعى ، وأن يتوافر له من الخراج (اندجو) ما يكفى للانفاق على بلاطه وعساكره ، وهذا الخراج تؤديه الشعوب التى خضعت فى الصين وتركستان ، وايران .

هذا المبدأ التزم به جنكيزخان ، اذ أن أصغر أبنائه الأربعة سنا وهو تولوى ، اختص بموطن أبيه ، أى املاكه الأصلية (الشطر الشرقى من منغوليا) ، وتولى الرياسة على ١٠١ ألف من الجند ، (كان عدد الجيش النظامى يبلغ ١٢٩ ألف جندى ، وفى هذا دليل على قلة من هاجر


أوراسيا
بين ١٢٦٠ ـ ١٢٨٠ م.
ممتلكات المغول
حدود الأمبراطورية المغولية
حدود أقاليم المغول
كلم.
مغول القبجاق
سيبريا
منغوليا
التبت
امبراطورية دلهي
ايلخانية
فارس
كرمان
الجزيرة
مكة
المدينة
اليمن
القاهرة
بغداد
سراي
قازان
قراقورم
بكين
نانكين
كابل
البنجاب
هرمز
عمان
بلخ
بخارى
كاشغر
ختن


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

من المغول بالنسبة لما بقى منهم فى منغوليا) . واختص كل ولد من الأبناء الباقين ببلاد محددة ، وصار لكل منهم أيضا أربعة آلاف رجل من الجيش النظامي ، ومن تبقى جرى توزيعهم على سائر أفراد الأسرة .

واذا كانت القواعد تجعل الوطن الأصلى ملكا للابن الأصغر ، فانها خصت أيضا الابن الأكبر ، جوجى ، بما جرى فتحه من البلاد النائية ، وبذا أضحى نصيب جوجى من البلاد يمتد صوب الغرب ، بامتداد فتوح جنكيزخان[1] . اذ حاز ما يقع غربى نهر سيلنجا من البلاد ، التى شملت استبس القبجاق في غرب نهر ارتش ، وبلاد المركيت ، حتى حدود بلغار نهر الفلجا ؛ فضلا عن كل الامارات الروسية، وما كان يدعيه أبناء جوجى لأنفسهم من حقوق في أراضى جنوب القوقاز وغرب بحر قزوين ، على الرغم من أنه لم تتوافر الأدلة على أن هذه الأراضى جرت اضافتها الى أملاك جوجى أثنا الغارات على بلاد الخطا والخوارزميين ، والتى بدأت من نهر ارتش الى ما وراء نهر جيحون . أما خوارزم والمدن الواقعة في الوادى الأدنى لنهر سيحون ، فكان جوجى ينوى أن يضيفها الى أملاكه ، حين حاول أن يجنب مدينة جرجانية (اوركندى) عاصمة خوارزم ، ما تنتظره من خراب فى سنة ١٢٢١ . ولا شك أن الاتحاد بين مناطق حوض القلجا والمناطق المجاورة للمجرى الأدنى لنهر جيحون ، تحت ادارة حكومة واحدة ، كان أمرا بالغ الأهمية ، نظرا لما كان بين هذه المناطق من علاقات حضارية وثيقة ، على الرغم من انها لم تخضع لحكومة واحدة .

واذ أدرك جنكيزخان ما يدور بخاطر ابنه جوجى من الحرص على

---

(١) كانت املاك جوجى وسلالته تضم في أول الامر المناطق الشمالية من بلاد الخطا ، ومدينة قاياليق ، اى الاراضى الممتدة من نهر ارتش الى بحيرة الاكول ، الى نهرى ايلى وسيحون .

الاستقلال بهذه الأقاليم ، بعث في استدعائه ، ولما امتنع جوجى عن الاستجابة لهذه الدعوة ، قرر جنكيزخان أن يمضى لقتاله ، لولا أن ورد من الأنباء ما يشير الى وفاة جوجى ، ومن الروايات ما يشير الى أن جنكيزخان أمر بدس السم له ، فمات متأثرا بذلك .

وخلف جوجى في ممتلكاته ابنه باطو ، الذى اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث ، وشدة التعقل ، وأضحى رأس بيت جنكيزخان ، وقام بدور حاسم فيما نشب من المنازعات على ولاية عرش الأمبراطورية .

وحصل جغتاى ، وهو الأبن الثانى لجنكيزخان ، على منطقة البرارى التى كانت تحتلها امبراطورية الخطا ، وامتدت من بلاد الأويغور شرقا ، حتى بخارى وسمرقند غربا ، فشملت بذلك منطقة نهر ايللى ، وايسيق كول ، وأعالى نهر جو ، وطلس ، فضلا عن بخارى وسمرقند . واتخذ جغتاى مقره في جنوب نهر ايللى .

أما اوكيتاى ، الابن الثالث لجنكيزخان ، فحصل على ما يقع الى الشمال ، والشمال الشرقى من بحيرة بالكاش من أقاليم ايميل ، وتارباجاى ، وارتش ، وأورنوجو (الممتد صوب بلاد النايمان) .

على أنه ينبغى الاشارة هنا الى ما كان من نصيب اسرتى أخوى جنكيزخان قسّار وتيموجى اوتجيكين ، اذ شمل أقطاع قسّار الأراضى الواقعة على نهرى ارخون وخايلر ، بينما حاز تيموجى الطرف الشرقى من منغوليا ، بالقرب من بلاد جورشات السابقة ، وهى المعروفة الآن باسم جيرين . وطالما عاش جنكيزخان ، وبقيت ارادته هى القانون ، لم تتعرض وحدة الدولة لشىء من الاضطراب ، بسبب هذه الاعتبارات التى جرى اتباعها فى توزيع الأراضى . اذ أن أبناءه لم يظهروا على أنهم أمراء يحكمون بلادا مستقلة ، بل كانوا معتبرين اتباعا مخلصين لوالدهم .

اذ سبق أن عهد لكل منهم بفرع من ادارة الدولة ، فكان لجوجي مطلق السلطة فيما يتعلق بشئون الصيد ، وصار جغتاى مسئولا عن تنفيذ قانون المغول (الياسا) ، واختص تولوى بشئون القتال والحرب .

ووفقا لقانــون المغــول ، ونظرا لأن تولوى يتولى شئون الوطن الأصلى للأسرة ، صارت له بعد وفــاة جنكيزخان الوصاية على الحكم (١٢٢٧ ــ ١٢٢٩) ، حتى يتم اختيار خان جديد . وعلى هذا الأساس ، حاز ما كان لأبيه من المخيمات ، التى تعتبر مقرا للحكم ، فضلا عن الجانب الأكبر من الجيش[١] .

اوكتاى (١٢٢٩ – ١٢٤١)

احتياره خانا

يعتبر اوكيتاى ، الذى اختاره جنكيزخان ليخلفه في الحكم ، أذكى اخوته ، ولم يقع اختيار جنكيزخان عليــه لما اشتهر به فحسب من العبقرية والنشاط ، وشدة العاطفــة ، بل لما ورثه عنه أيضا مــن الادراك السليم ، والصلابة . ومــن صفاته أيضا البساطة والادمان علــى الشراب ، والمرح الشديد ، ولين الجانب ، والسخاء المطلق ، والخلاصة أنه أفرط في الشراب والاستمتاع بالحياة . أما شئون الأمبراطورية المغولية فسيَّرها قوة القانون المغولى ، وهو اليسق .

سبق الإشارة الى أن تولوى تولى الوصاية على عرش الأمبراطورية باعتباره أصغر أبنــاء جنكيزخان سنا ، ووفقا للعرف المغولى . واستمرت وصايته نحو سنتين (١٢٢٧ ــ ١٢٢٩) . والراجح أن السر في طــول أمد

---

(١) جرى توزيــع الجيش الذى يبلــغ عدده سنة ١٢٢٧ ، نحو ١٢٩ الف جندى على النحو الآتى :
١٠١ الف رجل ، نصيب تولوى .
٤ آلاف رجل لكل من ابنــاء جنكيزخان الآخرين (جغتاى ، جوجــى ، اوكيتاى) .
٥ آلاف رجل لاخ لجنكيزخان ، وهو تيموجيه .
٣ آلاف رجل لأبناء اخ آخر لجنكيزخان ، وهو كاتشيون .
١ الف رجل لأبناء اخ ثالث لجنكيزخان وهو قسار .
٣ آلاف رجل لأسرة امه ، يولون .

هذه الوصاية يرجع الى ما جرى من تدبير مؤامرات لاقصاء اوكتاى عن حقه في الحكم . اذ أن تقاليد المغول لم تجعل في يد تولوى فحسب الوصاية على العرش ، بل حققت له أيضا امتـلاك الموطن الأصلى للأسرة ، على نهرى اونون وكيرولين وأعالى نهر تولا ، فضلا عن غالبية عساكر الجيش ، وميل النبلاء اليه . والواقع أن اختيار اوكتاى يرجع الى تأييد تولوى ومساندته له ، وتدخل يى ليو تشوتساى لتنفيذ رغبة جنكيزخان ولمنع وقوع الانقسام بين أفراد الأسرة . فكان لزاما علـى تولوى أن يستجيب لهذه الرغبة وأن يعمل على تحقيقها .

وكيفما كان الأمر ، انعقد في ربيع سنة ١٢٢٩ قوريلتاى ، المؤلف من الأمراء المغول ، على ضفاف نهر كيرولين لاختيار الخان الأعظم ، وطلب الأمراء الى اوكيتاى أن يقبل اعتلاء العرش . على أن اوكيتاى تردد طويلا وأشار الى أن تولوى ظل يلازم أباهم حتى آخر أيامـه ، وأنه على دراية تامـة بمشروعات وخطط جنكيزخان ، فمن الخير أن يمضى في تحقيقها . ولم يلبث اوكتاى أن نزل علـى رأى الأمراء ، فقـاده الى العرش أخوه الأكبر ، جغتاى ، وأقبل الأمراء على اعلان الولاء له ، والمنـاداة به خانا أعظم ، وذلك في ١٣ سبتمبر ١٢٢٩ .

انشاء العاصمة قراقورم

الواضح أن يى ليو تشوتساى استخدم نفـوذه ومكانته في اختيار أوكتاى ، ولذا كان تأثيره قويا علـى حكومته ، فأدخل في حكومة المغول ما كان معروفا في الادارة الصينية من نظام ترتيب الوظائف . وكـان يردد القول « اذا كانت الأمبراطورية قد قـامت على الحصان ، فلا يجـوز أن تجرى ادارتها ، على الحصان » .

وبفضل نصائح يى ليو تشوتساى ، أنشأ اوكتاى سنة ١٢٣٥ حاضرة له ، في الموضع الذى اقترحه جنكيزخان ، والذى كان معروفا عنـد الترك

المغول باسم مدينة البلاط (اوردو باليق) ، ثم صار معروفا باسم قراقورم . والواقع أن لاختيار الموقع أهمية تاريخية ، ففي منطقة أعالي نهر أورخون ، اتخذت معظم الأمبراطوريات التركية المغولية حواضرها ، ابتداء من دولة هيونج في العصر القديم ، الى دولة الترك الشرقيين (تو ــ كيو) في العصور الوسطى (في القرون ٦ ــ ٨) . فبالقرب من هذا الموضع أقام خان الأويغور في القرن الثامن حاضرته (مدينة البلاط) في قره بالاغاسن ، وهذا الاسم هو الذي جرى اطلاقه أول الأمر على حاضرة بيت جنكيزخان .فالمعروف أنه حدث منــذ سنة ١٢٢٠ ، زمن جنكيزخان ، أن وقع الاختيــار علــى قراقورم ، أو على مكان قريب منها ، ليكــون مقرا لحاضرته ، من الناحية الاسمية ، غير أن تحقيق ذلك جرى زمن اوكيتاى ، اذ أنشأ سنة ١٢٣٥ ، مدينة قراقورم ، وأدار حولها سورا . ولموقع قراقورم ، الى جانب الأهمية التاريخية ، ما يصح الافادة منه في ادارة منغوليا ، التى يقع في وسطها ، وفي توثيق الصلة بين الموطن الأصلى لأسرة جنكيزخان عند منابع اونون وكيرولين وبين اقطاع اوكيتاى على نهرى ارتش واميل .

النظم الاداريه والماليه

المعروف أن أوكيتاى جعل كل ثقته في يى ليو تشو تساوى الخطائى الصينى ، وهو الذى أدخل النظام الاداري في الأمبراطورية المغولية ، التى غلبت عليها الصفة العسكرية ، واهتدى في ذلك بما كان معروفا في الصين من النظم . غير أن أوكتاى لم يقدم على تحقيق الأصلاحات الا بعد موافقة قوريلتاى الذى انعقد سنة ١٢٣٥ ، وبعد موافقة أخيه جغتاى[1] .

وجرى تنظيم دواوين المغول على أساس ما هو معروف عند الصينيين والتانجوت، والأويغور، والايرانيين من النظم، على أنه كان للأويغور المكانة

---

(١) لم يكن تولوى على قيد الحياة وقتذاك ، اذ انه مات سنة ١٢٣٢

الأولى لفترة طويلة من الزمن. وبادر المغول لاقامة نظام‌البريد، لسد حاجة الأمبراطورية مـن الناحية العسكرية ، وتولى يى ليو تشوتساى ورفاقه ، انشاء محطات للبريد على امتداد الطرق المعروفة ، وحرصوا على أن يتوافر لكل محطة ما تحتاج اليه من المركبات ، والسواقين ، والأفراس ، والمؤونة ، من الحبوب والأغنام ، وأشاد ماركوبولو بهذا النظام ، الذى يرجع الفضل فيه الى تفكير تشاناى ، وبولقادار . واقتضى هذا النظام أن تربط الطرق الرئيسية بين ديار اوكتاى، وجغتاى وباطو. على أن أساس‌هذا النظام يرجع أيضا الى جنكيزخان، وما فعله أوكيتاى لم يتجاوز توحيدالطريقة وتجنب العيوب . وفكر أوكتاى أيضا في حفر الآبار على امتداد دروب الصحراء في آسيا الوسطى ، وحقق هذا المشروع أيضا ، تشاناى ، وأورتاى Oui-Ourtai

على أن يى ليو تشوتساى هو الذى جعل لأمبراطورية المغول ميزانية ثابتة ، بأن ألزم الصينيين بأن يؤدوا الضرائب نقدا ونوعا ، بما يجرى تقديره من اثواب الحرير وكميات الحبوب ، على حين يبذل المغولى عشرة في المائة مما يحوزه من قطعان الخيل والماشية والغنم . وعلى هذا الاساس ، ما جرى فتحه من بلاد الصين ، ويعتبر أراضى مستباحة ، تقرر تقسيمه منذ سنة ١٢٣٠ بين عشرة دواوين ، يتولى ادارتها موظفون من المغول والصينيين المثقفين . وحينما تم الاستيلاء على بكين ، أنشأ يى ليو تشوتساى بها وبمدينة بنج يانج المدارس كيما يدرس بها السادة المغول الشبان تعاليم كونفوشيوس ، ومن ناحية أخرى أدخل في الادارة المغولية عددا كبيرا من الصينيين ، وبذلك تحقق قوله لأوكتاى : بأن الأمبراطورية قد قامت على الحصان ، غير أنه لا تجرى ادارتها على الحصان

«L'Empire a été crée à cheval, mais il ne peut être gouverné à cheval».

ومن الذين كانوا أيضا موطن ثقة اوكيتاى ، تشنكاى Chinqai

الكرايتي النسطوري، الذي حظى أيضا بثقة جنكيزخان والذي نعته الراهب بلان كاربين Plan Carpin بأنه مستشار الأمبراطورية ، فما من مرسوم يصدر في الصين الشمالية الا مقترنا بخط تشنكاى ، بالكتابة الاويغورية .

حروب اوكيتاي

أتم المغول في عهده ، فتح الصين الشمالية وبلاد فارس ، وجنوب روسيا .

١ ـ تدمير مملكة كين بشمال الصين

كان لا بد من بذل مجهود آخر في الصين ، فما حدث من وفاة موقلى نائب جنكيزخان بالصين ، وانصراف جنكيزخان الى القتال في الغرب ، أدى الى أن تستعيد أسرة كين أملاكها . اذ أن قوم جورتشات Djurtchat الذين ينزلون بهذه الجهات ، والذين تجرى في عروقهم دماء التونجوز ، لم تفارقهم حيويتهم ونشاطهم . فلم تكتف أسرة كين بالمحافظة على عاصمتها كاى فونج في هونان، بل استردت أيضا من المغول كل حوض الواى Wei في شن سى الوسطى ، بما احتوى عليه من معقل تونج كوان الذى يقع على مدخل هونان ، وحصن هوـ تشونج ، على النهر الأصفر ، في جنوب غربى شانس . وانتعش امل نن ـ كيا ـ سو (١٢٢٣ ـ ١٢٣٤) آخر ملوك أسرة كين .

واستهل المغول الأعمال الحربية ، بأن استولوا سنة ١٢٣١ على المدن الواقعة في حوض نهر الواى . أما الحملة التى أعدوها سنة ١٢٣٢ ، فقد وضع لها المغول خطة رائعة . فنظرا لأنه لم يكن بوسعهم أن يتخذوا الطريق المباشر الى تونج كوان ، ساروا اليها من جهة الشمال الشرقى والجنوب الغربى .وبينما بادر اوكيتاى بجيشه الضخم وأدوات الحصار ،الى الاستيلاء على هو ـ تشونج ، فيتهيأ له بذلك اجتياز النهر الأصفر ، قام أخوه تولوى ، بفرسانه البالغ عددهم ٣٠ ألفا ، بالتوجه صوب الجنوب الغربي

الى هونان التى بلغها في ٣١ يناير ١٢٣٢ . أما أوكيتاى فانه بعد أن استولى على هو ــ تشونج ، اجتاز النهر الأصفر ، وأغار على هونان من جهة الشمال في فبراير ١٢٣٢ ، واشترك الجيشان المغوليان في الأعمال الحربية ، عند كيون ــ تشو ، في وسط هونان حيث حطم تولوى أسرة كين .

وبرغم ما أظهره الصينيون من البسالة في القتال ، غير أن موقفهم كان بالغ السوء . واستطاع المغول أن يستولوا آخر الأمر ، على تونج كوان (في مارس ١٢٣٢) . وعهد اوكيتاى الى القائد المغولى المعروف بخبرته في وضع الخطط العسكرية، وهو سبوتاى ، الذى اشترك من قبل في الحملات الموجهة الى فارس وروسيا، بأن يحاصر كاى ــ فونج ــ فو ، عاصمة أسرة كين . وسقطت المدينة في مايو ١٢٣٢ ، بعد حصار استمر زمنا طويلا . على أن يى ليو تشوتساى تقدم الى أوكيتاى بألا يأمر بتدميرها بل يلحقها بالأملاك المغولية ، فاستجاب لرأيه .

على أنه حدث قبيل نهاية الحرب ، أن حاول نن ــ كيا ــ سو آخر ملوك أسرة كين ، بعد أن غادر كاى ــ فونج ، تنظيم المقاومة في الاقليم . فلجأ أول الأمر الى كوييه ــ تو Keveil-to ثم الى تساى ــ تشو ، غير أنه حينما علم بأن المغول قاموا بهجومهم النهائى ، عمد الى الانتحار (فبراير ــ مارس ١٢٣٤) . غير أن أسرة سونج التى تحكم الصين الجنوبية ، دفعها عداؤها القديم لأسرة كين الى أن تساعد المغول بكتائب للاستيلاء على تساى تشو التى لجأ اليها آخر ملوك أسرة كين .

على أن سقوط تساى تشو واضافة مملكة أسرة كين الى الأمبراطورية المغول ، جعل المغول يتاخمون امبراطورية أسرة سونج بالصين الجنوبية . وكافأ اوكيتاى أسرة سونج على ما بذلته من مساعدة في المعركة الأخيرة

ضد أسرة كين، بأن تنازل لأسرة سونج عن بعض المناطق الواقعة الى الجنوب الشرقي من هونان . على أن امبراطور الصين الجنوبية ، واسمه لى ـ تسونج (١٢٢٥ ــ ١٢٦٤) لم يقنع بهذا الجزاء ، بل طمع في أن يحصل على هونان بأكملها ، فبادر بمهاجمة المغول . واستطاعت قوات الصين الجنوبية ان تظفر، بدون قتال ، بالاستيلاء على كاى ــ فونج ، ولو ــ يانج (يوليه ــ أغسطس ١٢٣٤) . ومن الطبيعى أن ينهض المغول لرد هؤلاء المعتدين ، فتقرر في مجلس الأمراء (قوريلتاى) الذى انعقد في قراقورم ، سنة ١٢٣٥ ، المضى الى غزو أمبراطورية سونج (الصين الجنوبية) .

توجهت ثلاثة جيوش مغولية لغزو أمبراطورية سونج ، قاد الأول جودان ، الابن الثانى لأوكيتاى ، واستولى على تشينج ــ تو (اكتوبر ١٢٣٦) وقاد الجيش الثانى ابن آخر لاوكيتاى ، اسمه كوتشو Koutchou والقائد تيموتاى Temutai ، ونجح هذا الجيش في الاستيلاء على سيانج ــ يانج (مارس ١٢٣٦) . أما الجيش الثالث الذى تولى رئاسته الأمير كون بوقا Kun-bouga والقائد تشاغان Chaghan فانه هبط الى هوانج ــ تشو على نهر يانج تسى ، غير أنها صمدت لهم ، كما أن أسرة سونج لم تلبث أن استردت سيانج يانج ، سنة ١٢٣٩ . والواقع أن الحروب مع أسرة سونج استمرت نحو أربعين سنة (١٢٣٤ ــ ١٢٧٩)، ولم يشهد أوكيتاى الا مراحلها الأولى .

وسار جيش رابع لاخضاع كوريا ، فاستولى المغول في ديسمبر سنة ١٢٣١ على كاى ــ سينج ، عاصمة كوريا ، وهى التى تقع الى الشمال الغربى من سيول الحالية ، فأضحت كوريا تحت حماية المغول ، الذين أقاموا بها أثنين وسبعين نائبا عنهم Darukhachi لادارة البلاد ، غير أن ملك كوريا أمر في السنة التالية بالاجهاز على النزلاء المغول ، وذلك

بعد أن لجأ الى جزيرة كانج ـ هوا الصغيرة الواقعة الى الغرب من سيول ، في يوليه سنة ١٢٣٢ . على ان أوكيتاى أنقذ جيشا آخر ، استطاع سنة ١٢٣٦ أن يعيد السيطرة على كوريا .

٢ ـ الحروب في فارس

سبق الاشارة الى أن جنكيزخان ، أرغم جلال الدين منكوبرتى ، الذى خلف أباه محمد خوارزمشاه في الامارة ، على الالتجاء الى الهند ، فاجاره الطميش ملك دلهى ، وهو ينتمى الى فئة من المماليك ظلت تحكم هذه البلاد حتى القرن السادس عشر الميلادى . تزوج جلال الدين ابنةهذا الأمير ، غير أن ما لجأ اليه من التآمر عليه ، وما توافر لديه من العساكر ، فضلا عما اشتهر به من البسالة ، أثار شكوك الطميش ، الذى تحالف مع أمراء الهند ، لطرد جلال الدين ، فلم يسعه الا أن يغادرها الى كرمان ، التى بلغها في أربعة آلاف مقاتل ، في ١٢٢٣ (٦٢٠ هـ) ، ووافق قدومه ما كان من مصرع أميرها على يد بوراق الحاجب واستيلائه على العاصمة ، واظهار المودة أول الأمر لجلال الدين ، غير أنه لم يلبث أن تنكر لجلال الدين ودبّر من المؤامرات ما حمل جلال الدين على مغادرة البلاد ، الى فارس . والمعروف أن أخاه غياث الدين بن خوارزمشاه اعتصم باصفهان أثناء غزو المغول ، وحينما توجه المغول الى بلاد القبجاق ، تهيأت له الفرصة لتوطيد سلطانه في خراسان ومازندران والعراق ، في سنة ١٢٢٣، واستطاع ، بعد الاتفاق مع الأتابك[١] سعد صاحب فارس (١١٩٥ ـ

---

(١) هو الاتابك سعد بن زنكى (١١٩٥ ـ ١٢٢٦) الذى ينتمى الى اسرة السلغوريين في فارس. اما الحاجب بوراق فهومؤسس اسرة كتلغ خان في كرمان. وكان اصلا في خدمة الخطا ، ثم خدم خوارزمشاه ، ولم يلبث ان استقر في كرمان ، الى ان قدم المغول زمن اوكيتاى ، فاظهر من الولاء والاخلاص ، ما جعلهم يقرونه في امارته ، ويمنحونه لقب كتلغ خان .

١٢٢٦)، أن يفوز بجانب كبير من بلدانها ، ومنها شيراز التى اتخذها مقرا لملكه ، سنة ١٢٢٤ (٦٢١) ، وتوطد سلطانه في فارس ، بعـد أن علم أن المغول عادوا الى الرى والبلادالتى كان يملكها (اصفهان ، وهمذان والرى) وخربوها . وكان لزاما على غياث الدين أن يعلن ولاءه لأخيه جلال الدين ، فليس في وسعه أن يسترد ما انتزعه وخربه المغول من البلاد ، يضاف الـى ذلك أن الجيش أعلن ولاءه لجلال الدين ، الذى أضحى بذلك سيدا على شمال فارس . على أن الخوارزمية عاثوا في الأرض فسادا ، فنهبوا البلاد ، واكثروا من أخذ الخيل والبغال نظرا لشدة الحاجة اليها ، بعد أن تعرضوا أثناء سيرهم من الهند الى هذه البلاد ، لأضرار كثيرة ، اذ هلك عدد كبير من رجال جلال الدين ومن دوابه .

ولم ينس جلال الدين ما كـان من العداء المستحكم بـين الخليفة الناصر لدين الله ، وبين أبيه محمد خوارزمشاه. فكتب الى المعظم عيسى الأيوبى صاحب دمشق وقتذاك يطلب مساندته في قتال الخليفة « لأنه كان السبب في هلاك المسلمين ، وفي هلاك أبى ، وفي مجيء الكفار الى البلاد ، ووجدنا كتبه الى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل » . غير أن المعظم عيسى رد عليه ، بأنه معه على كل أحد الا على الخليفة فانه « امام المسلمين » . والمعروف أن المعظم انما أقدم على مكاتبة جلال الدين ، معاندة لأخيه الكامل ، ولأخيه الاشرف صاحب البلاد الشرقية .

عزم جلال الدين على المضى الى بغداد لقتال الخليفة ، فلما وصل الى يعقوبا التى لا تبعد عن بغداد الا سبعة فراسخ ، تجهز الخليفة للحصار وحرص على أن يوفر ما يلزم للقتال مـن « الجروخ والقسى والنشاب والنفط » . ثم مضى جلال الدين الى دقوقا ، فصعد أهلها الـى السور وأمضوا في قتاله ، وأنكروا عليه اقدامه على مهاجمة الخليفة ، وأكثروا من

التكبير ، فشق ذلك عليه ، وجدّ في قتالهم ، حتى استولى على المدينة عنوة سنة ١٢٢٤ ، فنهبتها العساكر وقتلوا كثيراً من أهلها ، وتظاهر جلال الدين بأنواع الفسوق، وأضحى الطريق أمامه مفتوحا الى بغداد. على أن ما قام به جلال الدين والخوارزمية من أعمال العنف زاد على أفعال المغول ، فأثار الرعب في البلاد المجاورة ، واغتنم العرب بالعراق هذه الفرصة ، فقطعوا الطريق ونهبوا القرى ، وأنزلوا الأذى بالتجار والمسافرين من بغداد الى الموصل وكان لزاما على مظفر الدين صاحب اربل أن يصانعه ، وطلب أهل البوازيج من أمير الموصل أن يرسل من القوات ما يدفع عنها ما يتعرضون له من خطر من قبل جلال الدين .

لم يحاول جلال الدين المضى الى بغداد لقتال الخليفة ، بل توجه شمالا لمهاجمة اتابك أذربيجان ، اوزبك (١٢١٠ — ١٢٢٥) الذى ينتمى لأسرة تركية حازت هذا الاقليم اقطاعا منذ سنة ١١٣٦ ، واستطاع أوزبك بما بذله من اتاوة للمغول، أثناء حملة جيبى وسبوتاى، أن يحتفظ بامارته. غير أنه توقع الشر من جلال الدين ، ولما لم يكن بوسع اوزبك مقاومة جلال الدين غادر تبريز ، فلم يسع سكانها الا أن يذعنوا بالطاعة لجلال الدين وأرسلوا يطلبون منه الأمان ، اذ خشوا أن ينتقم منهم ، لما قاموا به من مساندة التتر سنة ١٢٢٣ فاستجاب لرجائهم ، وملك المدينة سنة ١٢٢٥ ، التى اتخذها قاعدة للوثوب منها على جورجيا (بلاد الكرج) .

والمعروف أن هذه المملكة المسيحية (الكرج) تعرضت قبل أربع سنوات لغزو المغول بقيادة جيبى وسبوتاى ، ولم تكد تنهض من غارة المغول ، أثناء حكم الملكة الشهيرة روسودان Roussoudan (١٢٢٣ — ١٢٤٧) أخت جورجى الرابع ووريثة ملكه ، حتى تعرضت من جديد لغارة جلال الدين .

وسبق الاشارة الى ما جرت عليه سياسة الكرج من مساندة الفرنج على الأمراء المسلمين المجاورين ، ويشير ابن الأثير الـى انصراف اوزبك صاحب أذربيجان الى اللهو والفجور ، والى حرص الأمراء المجاورين على أن يؤثروا العافية ، فتطلع الناس الى قائد يوحد كلمتهم ، فيسّر الله لهم جلال الدين ، فانتقم لهم من الكرج . اذ توجه لقتالهم سنة ١٢٢٥ ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، غير أن الكرج أعدوا جيشا ضخما ، دخل فيه كثير من الشعوب المجاورة ، من اللان واللكز والقبجاق ، فتعرضوا سنة ١٢٢٦ ، لهزيمة فاقت السابقة شدة وعنفا ، اذ لم تزل العساكر تتبعهم وتستقصى في طلبهم حتى كادوا يفنونهم ، فاستولوا على العاصمة تفليس واستباحوها، فخضع لهم بذلك وادى نهر كور (نهر الكرج) . وحينما حاول الكرج سنة ١٢٢٨ استعادة أملاكهم ، حلّ بهم من الهزائم ما أدى الى أن يفقدوا كل املاكهم ، فيما عدا ما يجاور منها البحر الأسود . ولم تعد لمملكة الكرج أهمية ، باعتبارها المعقل الذى يقـع في الطرف الشمال الشرقى من العالم المسيحى ، وباعتبارها دولة تستطيع أن تتحدى سيطرة القوى الاسلامية في آسيا الصغرى ، يضاف الى ذلك ما حدث من توطيد سلطان جلال الدين في أذربيجان .

أضحى جلال الدين سيدا على كل غرب ايران ، اذ خضع له كرمان ، وفارس ، والعراق العجمي ، واذربيجان ، واتخـذ عاصمته في اصفهـان وتبريز . والواقع أنه استعاد الجانب الغربى من الأمبراطورية الخوارزمية . على أن هذا الفارس الباسل اللامع ، افتقر الى الروح السياسية . فلا زال يجرى على نهج الفارس المغامر ، فلم يحاول أن يقيم لمملكته الجديدة نظاما بالغ المتانة والصلابة ، حتى يتهيأ له الاستعداد للقاء المغول من جديد ، بل انه وقع في عداء وخصام مع حلفائه الطبيعيين في غرب آسيا ، فتوجه بحملة لتهديد بغداد سنة ١٢٢٤ ، وأفاد من النزاع الواقع بين الأمراء الأيوبيين في

الشام والجزيرة ومصر . اذ انه حدث بعد زوال الخطر الصليبي عن مصر سنة ١٢٢١ ، أن ظل الأشرف مع الكامل في مصر ، وأحس المعظم صاحب دمشق بأنه يقع تحت ضغط أخويه في مصر والجزيرة فحرص على أن يثير لهما المتاعب في الشام والجزيرة ، فهاجم حماه وحمص ، وتحالف مع كوكبورى صاحب اربل (بموافقة الخليفة الناصر لدين الله) وأميرى ماردين وكيفا الارتقيين ، لمناهضة الأشرف ، وشجع أخاه الغازى ، الذى ينوب عن الأشرف في ادارة اخلاط ، على بحيرة وان ، على اعلان التمرد. على أن الأشرف قمع حركة التمرد بفضل مساعدة العساكر الحلبية . فلم يسع الغازى الا الالتجاء الى دعوة جلال الدين خوارزمشاه للاستيلاء على ديار بكر[1] . واستنجد الأشرف بالسلطان السلجوقى كيقباذ الأول لقتال الأراتقة ، غير أنه لم يلبث أن اشتبك معه في نضال مرير. واذ استبد اليأس بالأشرف ، أعلن خضوعه لأخيه المعظم عيسى ، بعد أن أدرك ما تتعرض له أخلاط من التهديد من قبل جلال الدين ، وتعذر قدوم الأمداد من مصر ، نظرا لموقف المعظم العدائى من الأشرف والكامل ، على أن ذلك لم يمنع جلال الدين خوارزمشاه من مهاجمة أخلاط (سنة ١٢٢٦) ، ومع ذلك لم تكتف حامية أخلاط بالمحافظة على المدينة ، بل انها انتقمت لنفسها بالاستيلاء على خوى وبعض المواضع في أذربيجان ، بعد انسحاب جلال الدين .على أن خوارزمشاه جلال الدين عاد الى مهاجمة أخلاط ، ولما لم تتلق حاميتها المساعدة من أميرها الأشرف ، الذى كان وقتذاك يحاصر بعلبك ، ولم تصلها الا مساعدة ضئيلة من السلطان الكامل ، لم يسعها الا التسليم فى ابريل ١٢٣٠ ، بعد حصار استمر مدة سبعة شهور ، وتعرض كل سكانها اما للقتل واما للأسر . وأدّى ذلك الى أن يتحالف على جلال الدين ، السلطان

(١) ترتب على اتصال المعظم عيسى صاحب دمشق بجلال الدين خوارزمشاه ودعوته لقتال اخويه الاشرف والكامل ، ان لجأ الكامل الى الاستعانة بالامبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٢٧ (٦٢٤) ، المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ ١ ، ص ٢٢١

علا الدين كيقباذ الأول بن كيخسرو ، صاحب بلاد الروم (قونية) والملك الأشرف صاحب دمشق (التى صارت له بعد وفاة المعظم ١٢٢٧) والجزيرة وأخلاط . واجتمعت العساكر المتحالفة في سيو اس ، ومنها توجهوا الى أخلاط ودارت المعركة مع جلال الدين وعساكره بالقرب من اذربيجان فحلت بالخوارزمية هزيمة ساحقة ، في اغسطس ١٢٣٠ . ولاذ جلال الدين بالفرار الى أذربيجان ، واستعاد الأشرف أخلاط ، ولم يلبث الصلح أن استقر بينهما ، على أن يحتفظ كل منهما بما في يده من البلاد ، وتم التحالف بينهما .

ولم تكد أملاك الأيوبيين تتخلص من تهديد جلال الدين خوارزمشاه، حتى ظهر من جديد خطر المغول . واذ عاد جلال الدين الى تبريز بأذربيجان، علم بمطاردة المغول له . ويشير ابن الأثير[1] الى ما تعرض له جلال الدين من عداء الأمراء المسلمين المجاورين ، أمثال أوزبك صاحب أذربيجان ، والأشرف صاحب أخلاط ، وكيقباذ الأول صاحب بلاد الروم ، والاسماعيلية[1] ، فضلا عن الخليفة العباسى ، لما شنه من الحروب لانتزاع البلاد من أيديهم ، فتخلوا عن مساعدته حينما دهمه المغول .

على أن أوكيتاى قرر بعد أن علم بحركة جلال الدين لاستعادة الأملاك الخوارزمية ، أن ينفذ جيشا بقيادة تشورماجون Tshurmaghun يبلغ عدده نحو ٣٠ ألف مقاتل ، لقتال جلال الدين وذلك سنة ١٢٣١ . وأفاد مما خلفه المغول في حروبهم السابقة في خراسان من الخراب والخوف، فالبلاد خاوية على عروشها ، لا يجسر أحد من المسلمين يسكنها ، فلم يلق

(١) ابن الاثير ! الكامل ج ٩ ص ٢٨٣ ، يشير ابن الاثير الى ان الاسماعيلية استدعوا المغول لقتال جلال الدين ، وكشفوا لهم عن نواحى ضعفه .

مقاومة أثناء سيره . ففي أثناء شتاء ١٢٣٠ ـ ١٢٣١ بادر المغول بالمضي الى بلاد جلال الدين، فاستولوا على الري وهمذان ومابينهما من البلاد، ثم قصدوا أذربيجان ، ولم يستكمل جلال الدين حشد عساكره . فأنزلوا الخراب والدمار بكل أرجاء البلاد ، ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها ، وجلال الدين « لا يقدم على أن يلقاهم ولا يقدر على منعهم من البلاد ، فقد ملىء رعبا وخوفا » ، يضاف الى ذلك أن عساكره اختلفوا عليه ، وخرج وزيره على طاعته . ولم يسعه الا أن يغادر تبريز ، ويفر الى سهول مراغه وموقان، عندمصب نهرى الرس والكرج (الكور) ، واذ أحس جلال الدين بتعقب المغول له ، توجه الى أخلاط يلتمس الالتجاء اليها ، وأخذ يطلب المساعدة من سائر الأمراء المسلمين والخليفة العباسى ، ويحذرهم عاقبة اهمالهم ، فلم ينهض لمساعدته أحد منهم ، ولم يلبث أن غادر أخلاط الى آمد ، على أنه انهزم امام المغول ، وتفرق عنه العسكر ، فقصدت طائفة منهم حران، فأوقع بهم مقدم جيوش السلطان الكامل، وأخذوا ما معهم من مال وسلاح ودواب ، وتوجهت طائفة الى نصيبين والموصل وسنجار واربل ، فتخطفهم « الملوك والرعايا ، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردى والبدوى وغيرهم ، وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم وقبيح فعلهم في أخلاط وغيرها، وبما سعوا في الأرض فسادا، فازداد جلال الدين ضعفا الى ضعف ، بعد أن تفرق عسكره » . واذ لم يعلم المغول الموضع الذى قصده جلال الدين ، أو الطريق الذى سلكه ، دخلوا ديار بكر ، ففعلوا بها وبالجزيرة واربل وأخلاط ما شاء لهم أن يفعلوا، ولم يمنعهم أحد،ولا وقف في وجههم فارس ، ولم ينهض لقتالهم أحد من أمراء المسلمين . يضاف الى ذلك أن ما حدث من انقطاع أخبار جلال الدين ، حمل سكان هذه البلاد على الاذعان للتتر بالطاعة .

أما جلال الدين ، فانه بعد أن حلت به الهزائم على أيدى المغول ، في

بعض قرى ميافارتين قتله بعض الاكراد في أغسطس سنة ١٢٣١ (٦٢٨ هـ) . ولما قتل دخل جماعة على الأشرف موسى فهنأوه بموته فقال « تهنئونى به وتفرحون ، سوف ترون غبّه ! والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار الى بلاد الاسلام . ما كان الخوارزمى الا مثل السد الذى بيننا وبين ياجوج وماجوج . فكان كما قال الأشرف . كان الخوارزمى يقاتل التتار عشرة أيام بلياليها بعساكره ، يترجلون عن خيولهم ويلتقون بالسيوف ويبقى الرجل منهم يأكل ، وهو يقاتل » على قول ابن تغرى بردى[1] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

على ان الخوارزمية لم يتحطموا بعد نهائيا . اذ ان زعماءهم وقادتهم الذين لم يعد لهم منذئذ قواعد ثابتة ، اخذوا يعرضون خدماتهم على كل امير يبذل لهم المأوى والمستقر في بلاده على ان يكونوا شبه مستقلين . وصادفوا من الامراء من يقبل هذا العرض ، حتى يتجنب ما يقومون به من تخريب ونهب ، وحتى لا يدخلوا في خدمة خصومه ومنافسيه . فخدموا في وقت من الاوقات الاشرف ، غير أنهم لم يلبثوا ان انحازوا الى كيقباذ الذى كان يأمل في استخدامهم لحماية حدوده مع ارمينيا ، من المغول . ثم اندمجوا في بقية عساكره في آسيا الصغرى ، واشتركوا في قتال الايوبيين بآسيا الصغرى واعالى الجزيرة . ولما ضجر منه كيخسرو الثانى الذى خلف كيقباذ على السلطنة ، انسحبوا الى الجزيرة ، فانغمسوا في تدبير المؤامرات ، حتى انحازوا آخر الامر الى جانب الصالح ايوب امير الأقاليم الشرقية ، لمناهضته سائر امراء الشام واعالى الجزيرة ، فاستقروا بديار مضر عند ثنية نهر الفرات الكبرى . واسهموا في مساعدة الصالح ايوب للتخلص من بعض المواقف فيالجزيرة والشام، ثم قاتلوا امارة حلب، غير أنهم ارتدوا آخر الأمر الى الفرات ، الذى يعتبر حد املاك الخليفة في العراق . ثم استدعاهم أمير ايوبى آخر ، غازى ، صاحب ميافارتين ، ليحاربوا حلب والموصل وسلاجقة آسيا الصغرى . ولم يلبث الصالح ايوب ان استعان بهم لانتزاع الشام من اقاربه وعدويه بالكرك ودمشق . وتجاوزوا الحد في العنف ، حين انقضوا على الشام وانتزعوا بيت المقدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ ، وانزلوا الهزيمة بالأيوبيين وحلفائهم من الصليبيين بالقرب من غزه سنة ١٢٤٤ . وخشى الصالح ايوب شرورهم ، فانقلب عليهم، وتعرضوا لهزيمة ساحقة تحت اسوار حمص ١٢٤٦ . فتبدد شملهم ، وتضاءل عددهم ، وهلك كثير من زعمائهم . فاستأجر المغول جماعة منهم ، ودخل فريق منهم في خدمة الناصر داود صاحب الكرك ، كما خدم جماعة منهم في الجيش

وأقام القائد المغولى تشورماجان بمن معه من العساكر ، بالطرف الشمال الغربى لاقليم ايران ، نحو عشر سنوات (١٢٣١ ــ ١٢٤١) . واتخذ منازله في سهول موقان وآران ، في المجرى الأدنى لنهرى الرس وكور ، نظرا لأن ما توافر بها من البرارى الغزيرة يسد حاجة الخيول[1] .

واذا اختفى جلال الدين ، أقبل جيشه على نهب المواضع الواقعة على أطراف الجزيرة وايران . وقتلوا سكان بدليس وأرجيش بارمينية . واستولى المغول على مراغة في اذربيجان وقتلوا من شاءوا من السكان ، واذ يئس سكان تبريز من نهوض احد لمساعدتهم ، أعلنوا اذعانهم ، والمعروف أن تبريز كانت حاضرة اذربيجان . فلما نزل المغول بالقرب منها ، أرسل قائدهم الى أهلها يدعوهم الى طاعته ، ويتهددهم ان امتنعوا عليه ، فارسلوا اليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب والابريسم وبذلوا له الطاعة . فطلب منهم أن يحضروا من صناع الثياب الخطائى وغيرها ، ما يستعمل لملكهم الأعظم (أوكيتاى) ، ثم طلب منهم خركاه للملك أيضا ، فعملوا له خركاه لم يعمل مثلها ، اذ عملوا غشاءها من الأطلس الجيد المزركش وعملوا من داخلها السمور والقندر ، وقرر عليهم من المال كل سنة شيئا كثيرا ، ومن الثياب كذلك وذلك سنة ١٢٣٣ .

الذى اقامه الصالح ايوب بمصر . وآخر من تبقى منهم ، نصادفه في معركة عين حالوت سنة ١٢٦٠ ، حين اشتركوا مع المصريين في قتال المغول . أما خوارزم ، قاعدة انطلاقهم ، فقد أضحت منذ اربعين سنة من توابع المغول، على ان انثيالهم في البلاد لم يؤد فحسب الى تخريب هذه الجهات ، بل يسروا أيضا استمرار الفتوح المغولية التى جاءت في اعقابهم .

(١) الملحوظ أن خانات المغول في فارس ، اتخذوا لهم منازل في موقان واران أيضا منذ سنة ١٢٥٦ ، بل انهم من البرارى الواقعة في الشمال الشرقى من أذربيجان ، حكموا لنحو قرن من الزمان أقليم ايران المشهور بما كان له من حضارة قديمة رفيعة .

وفي الجنوب ، قدمت طائفة من المغول من أذربيجان الى ديار بكر وبلاد اربل ، فقتلوا من ظفروا به من أهل تلك البلاد . ويصف ابن الأثير ما ارتكبوه من أعمال وحشية ، وما أثاروه من الخوف في قلوب الناس ، حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب ، وبه جمع كثير من الناس؛ فلا يزال يقتلهم واحدا بعدواحد، لا يتجاسر أحد يمد يده الي ذلك الفارس ، ولقد بلغنى ان انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع رأسه على الأرض ، ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به[1] ولما لم يلق المغول مقاومة ، خضعت لهم أقاليم فارس ، فمنذ سنة ١٢٣١ حتى سنة ١٢٤١ ، صار للمغول السيطرة على أذربيجان (١٢٣١) ، وأران (سنة ١٢٣٥) وحانى وقارس عاصمتى ارمينيا (سنة ١٢٣٩) . وما حدث من ظهور المغول في أعالى الفرات أثار الذعر والخوف في بلاد الشام ، فبعد أن أضحت كل فارس في قبضة أيديهم ، صار متوقعا من لحظة الى أخرى ، إقدامهم على غزو بلاد الخليفة العباسى في العراق العربى ، واقليم الجزيرة التابع للأيوبيين، وآسيا الصغرى الخاضعة للسلاجقة. وحينما علم الخليفة المستنصر بالله ، أن المغول يقصدون مهاجمة بغداد ، وذلك سنة ١٢٣٧ بعث الى السلطان الكامل ، يطلب منه اعداد جيش للخليفة فأمر بأن يجند من عساكر مصر والشام عشرة آلاف نجدة للخليفة[1] . وعلى الرغم مما أثاره المغول من الخوف والرعب في نفوس الأمراء المسلمين ، لم يؤد ذلك الى اتحادهم . فالسلطان السلجوقى في قونيه علاء الدين كيقباذ الأول (١٢١٩ ــ ١٢٣٧) ، لم يكد يتخلص من خطر جلال الدين خوارزمشاه ، حتى نازع الأيوبيين على الرها وحران (١٢٣٣ ، ١٢٣٥) ، وأدخل في

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣٨٥ .
(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

جيشه الخوارزمية ، اذ اغتنم ما نشب من تخاصم بين السلطان الكامل والأمراء الأيوبيين بالشام ، فاستولى على الرها وحران ، وحاز ما بهما من الأموال وعاد الى بلاده وذلك سنة ١٢٣٤ ، فأمر الكامل العساكر أن تتجهز للمسير الى الشرق ، ولم يلبث أن استرد الرها وحران في نفس السنة (١٢٣٥) وأسر من كان بحرّان من أجناد السلطان السلجوقى وأمرائه ومقدميه . ثم عين ابنه الصالح أيوب نائبا عنه في الشرق . واذ انصرف الكامل الى القتال مع القوى الاسلامية بالشمال ، كان لزاما عليه أن يحافظ على السلام مع الفرنج في بلاد الشام .

٣ ـ الحرب مع الكرج

وحدث سنة ١٢٣٦ أن مضى المغول لقتال الكرج ، بعد أن عادت ملكتهم الى استرداد تفليس ، عقب سقوط جلال الدين خوارزمشاه ، غير أنها فرت أمام المغول الى قوتيس ، وخضع الشطر الشرقى من بلادها للمغول . وعلى الرغم من الأساليب الوحشية التى جرى عليها المغول في معاملة الكرج ، فان الكرج أعلنوا اذعانهم للمغول وارتضوهم سادة لهم ، فعادت ملكتهم الى حكم البلاد كلها ، على أن تعترف بسيادة المغول . والملحوظ أن القائد المغولى تشورماجان لم يظهر شيئا من العداء للمسيحيين ، نظرا لأن من أجداده من كانوا نساطرة مسيحيين . وفي أثناء قيادته العسكرية للقوات المغولية في الفترة بين ١٢٣٣ ، ١٢٤١ ، أنفذ اليه في اذربيجان الخان الكبير اوكيتاى ، سمعان المسيحى السريانى ، ليتولى أمور المسيحيين . ويقوم على حماية الأرمن .

٤ ـ الحروب مع السلاجقة ببلاد الروم «آسيا الصغرى»

وخلف تشورماجان على قيادة الجيش المغولى في موقان والران نويون بيجو ، الذى ظل محتفظا بهذا المنصب من ١٢٤٢ حتى سنة ١٢٥٦ . ومن أهم ما أسداه بيجو للفتوح المغولية من نشاط ، هو ما أجراه من القتال مع

السلاجقة بآسيا الصغرى .

لم يظهر السلطان السلجوقى ، كيقباذ الأول ، أول الأمر ، شيئا من الكراهية لجلال الدين خوارزمشاه ، الذى لم يهدد الا ارزروم التى كان صاحبها عدوا للسلطان السلجوقى ، فضلا عن تهديد أملاك الأشرف الأيوبى على الأطراف الشمالية الشرقية لامارته ،مثل أخلاط على بحيرة وان. غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت حينما ظهر أن جلال الدين يستعد لغزو الأناضول ، بعد أن سقطت أخلاط في يده ، ولقى التأييد من صاحب ارزروم الذى صار من اتباعه . واستطاع كيقباذ أن يحث الأشرف ،وأمير حلب والسلطان الكامل ، على ارسال الأمداد لمساندته واستطاعت القوات المتحالفة أن تنزل الهزيمة بالخوارزمية سنة ١٢٣٠ في غرب اذربيجان ، وترتب على ذلك أن أضاف كيقباذ الأول ارزروم الى بلاده ، فأصبحت أملاكه تتاخم أطراف أذربيجان ، والتزم الكرج بمصالحة كيقباذ .

غير أن هذا التحالف لم يلبث أن انفرط عقده ، اذ أن الأشرف انصرف الى معالجة أمور الأيوبيين بالشام ، فلم يحفل بما تتعرض له اماراته النائية من تهديد من قبل المغول . وفكر كيقباذ في أن يستخدم الخوارزمية الذين فقدوا زعيمهم وقائدهم جلال الدين ، في الاستيلاء على أخلاط ، التى تتحكم في طرق الغزوات والغارات . واستطاع السلطان الكامل أن ينتزع آمد وحصن كيفا من الأمير الأرتقى مودود سنة١٢٣٢، بعد أن انحاز الى الخوارزمية .والمعروف أنهما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين الأيوبيين والسلاجقة ، تصادمت أطماعهم . ففى سنة ١٢٣٣ (٦٣١ هـ) كان السلطان الكامل يأمل في أن يغزو بلاد السلاجقة بآسيا الصغرى، بعد أن أنهى اليه السوريون القادمون منها بما كانت عليه هذه البلاد من الضعف الشديد . على أن الكامل توقف عند الجبال الواقعة شمال الشام ، ولم يستطع أن يجتاز دروبها الى بلاد الروم ، وقلت الأقوات عند عساكره ، وانصرف

عنه الأمراء الأيوبيون ، فتوجه صوب الشمال الشرقى ، لمساندة صاحب خرتبرت الأرتقى . غير أن الكامل وصاحب خرتبرت تعرضا لهزيمة ساحقة على يد كيقباذ ، الذى أضاف خرتبرت الى بلاده ، فامتدت أملاكه الى ما وراء نهر الفرات ، بل انه أقام حامية في حران (التى لم تلبث أن استردها الكامل) ، ثم حاصر آمد .

ولما مات كيقباذ الأول سنة ١٢٣٧ ، وقع النزاع بين غياث الدين (كيخسرو الثانى) وكيكاوس والخوارزمية ، الذين فروا الى الجزيرة . غير أن ما حدث من وفاة الأشرف ثم الكامل ١٢٣٨ (٦٣٥ هـ) ، هيأ له أن يتحالف مع أمراء الشام والجزيرة ضد الصالح أيوب والخوارزمية ، فدخل آمد ، التى تعتبر أمنع المعاقل في ديار بكر ، وحاصر ميافارقين الواقعة وراء نهر دجلة ، فامتدت أملاك سلاجقة آسيا الصغرى الى ما كان للدولة البيزنطية من حدود ، بل انها تجاوزت حدود بيزنطة في اقليم الجزيرة ، انما طابقت منازل التركمان .

وبلغت دولة السلاجقة بآسيا الصغرى ذروة سلطانها زمن كيقباذ الأول ، برغم ما تعرضت له من تهديد المغول في مستهل حكم كيخسرو الثانى (١٢٣٧ ــ ١٢٤٥) ، اذ أحاط بها من كل جانب الحلفاء والأتباع ، أمثال المسلمين في حلب والجزيرة ، والمسيحيين في قليقية واطرابزون ونيقية وقبرص ، وفي هذه المرحلة اكتملت نظم الدولة ونعمت بالرخاء والحضارة.

على ان الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى ، كانت تخفى وراء واجهتها القوية ، ما كان ينخر في داخلها من عوامل الضعف ، بينما لاح الخطر المغولى في الشرق . اذ أن المغول توغلوا في أملاك السلاجقة أواخر أيام كيقباذ الأول . وما حدث من مشاكل داخلية بين المغول هيأ لكيخسرو

الثانى فترة مـن الراحة لبضع سنوات . غير أنـه حدث في سنة ١٢٤٢ أن سقطت في أيديهم ارزروم ، ثم جرت الغارة الكبرى سنة ١٢٤٣ ، التى لم يستعد لها كيخسرو الثانى ، نظرا لانصرافه الى القتال في ديـار بكر فبادر الى حشد أضخم ما يستطيع من القوة ، التى تألفت أساسا من عناصر شتى ، منها الفرنج ، غير أن المغول بقيادة بيجو حطموا جيش السلطان في كوزاداغ Kosadagh بالقرب مـن ارزنجان (في ٢٦ يونيه ١٢٤٣) ، وترتب على انتصار المغول أنهم استولوا علـى سيواس ، واكتفوا بنهبها ، بينما تعرضت توقات وقيصرية للتخريب والنهب ، لما بدى من مقاومتهما للمغول وفرضوا على سيواس وقيصرية في كل سنة أربعمائة ألف دينار . وهرب كيخسرو الـى الحدود البيزنطية ، بينما توجه وزيره الـى الأمير المغولى باطوخان بصحبة بيجو ، فحصل من الأمير المغولى على معاهدة تقضى باستمرار بقاء الدولة السلجوقية ، مقابل أن تؤدى ما هو مقرر عليها من الجزية ، وترسل الأمداد اللازمة كلما طلب اليها ذلك .

وكانت هذه الصدمة ايذانا بنهاية الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى، اذ يعتبر هذا التاريخ ١٢٤٣ ، بداية لعملية طويلـة الأمد ، حرص أثناءها المغول على أن يزيدوا من سيطرتهم وسلطانهم ، بينما اشتد ضعف ما تبقى من الدولة السلجوقية ، فلم تلبث أن تمزقت تحت ضغط القوى التى تعرضت لها دولـة السلاجقة ولـم يحفل المغول بردها عنهـا ، وبذلـك امتدت الأمبراطورية المغولية حتى أضحت تتاخم الدولة البيزنطية . وأضحى بايجو الذى أقام منازله بـين القوقاز وأذربيجان ، يمثـل السيادة المغولية علـى سلاجقة آسيا الصغرى وأتابكة فارس وملوك الكرج . ولم يلبث هيثوم الأول ، ملك أرمينيـة الصغرى (١٢٢٦ ــ ١٢٦٩) ، أن استجاب لطلب بايجو ، فأعاد الى كيخسرو الثانى ، زوجته وابنته اللتين التجآ الى البلاط الأرمنى أثناء هجوم المغول على قونية . وما استولى عليه كيخسرو الثانى

من حصون في أرمينية الصغرى ، أعادها الى هيثوم فيما بعد بناء على تدخل المغول . واذ أدرك هيثوم ما تتعرض له بلاده من تهديد من القوى المجاورة، لم يسعه الا أن يعترف بسيادة المغول (١٢٤٤) ، واتهج أخلافه هذه السياسة التى جعلت من المغول حماة للأرمن من السلاجقة والمماليك .

حروب المغول في اوروبا

في سنة ١٢٣٥ أعد اوكتاى ثلاثة جيوش ، وجه الثالث منها الذى يتألف من ١٥ ألف مقاتل ، لمواصلة الحرب في أوربا . وخضع هذا الجيش من الناحية الاسمية لقيادة باطو ، خان استبس الآرال والأورال ، والذى يلتف حوله ممثلون عن كل فروع أسرة جنكيزخان : أمثال أوردا ، وبركة وشيبان اخوة باطو بن جوجى ، وكيوك وقدان ولدى اوكتاى وقايدو حفيد اوكتاى ، بن تولوى ، وبايدار وبورى ابن وحفيد جغتاى[1] . على أن القائد الذى تولى القيادة الفعلية ، كان سبوتاى الذى سبق أن اشترك في العمليات الحربية في فارس وروسيا والصين ، وقد بلغ وقتذاك الستين من عمره . استهلت الحملة أعمالها الحربية في خريف سنة ١٢٣٦ ، بتدمير مملكة البلغار التركية الواقعة على نهر قاما ، وأمر سبوتاى بنهب وتدمير حاضرة هذه الدولة ، وهى بلغار ، المدينة التجارية الواقعة بالقرب من نهر الفلجا ، في الجهة الجنوبية عند التقائه بنهر قاما .

وفي ربيع سنة ١٢٣٧ هاجم المغول الترك الوثنيين ، الذين ينزلون البرارى الروسية وعرفهم المسلمون باسم القبجاق ، وأطلق عليهم المجريون والبيزنطيون اسم الكومان ، بينما اشتهروا عند الروس باسم بولفتسي Polovtzy . وأعلن جانب من هؤلاء القبجاق الخضوع والاذعان ، وهذا هو العنصر التركى الذى أضحى أساس سكان خانية المغول ، المعروفة

---

(١) تشير احدى الروايات التاريخية الى ان باطو توجه الى أوربا سنة ١٢٣٤ ، على حين أن مونكو لم يلحقه الا سنة ١٢٣٥ .

باسم خانية القبجاق ، والتى صارت معروفة أيضا باسم القبيلـة الذهبية ، التي خضعت لسلطان أحد فروع بيت جوجي . وتوجهت حملـة أخرى في سنة ١٢٣٨ بقيادة بركه ، أكملت خضوع القبجاق.وحدثوقتذاكأنالزعيم القبجاقى ، كوتان ، ارتحل مع أربع آلاف خيمـة ، والتجأوا الى المجر ، حيث اعتنق المسيحية . وفي شتاء ١٢٣٩ ــ ١٢٤٠ ، (في ديسمبر ١٢٣٩) ، اكتمل للمغول اخضاع البرارى بجنوب روسيا ، بعد أن تم الاستيلاء على مدينة مغاص (منقاص ، ومنقاص) التى كانت وقتذاك حاضرة اللان .

وحدث في الفترة الواقعة بين الحملتين التى توجهتا الى برارى الروس الجنوبية ، أن تقرر تسيير حملة لقتـال الامارات الروسية ذاتهـا ، ويسَّر للمغول عملهم ما كان من تجزئة الأراضى بـين الأمراء الروس . فالاخوان يورى ، ورومان ، انفرد الأول بامارة ريضان ، بينما اختص الثانى بامارة كولومنا ، فسقطت امارة ريضان ، ولقى أميرها يورى مصرعه ، وهلك كل سكانها في ديسمبر سنة ١٢٣٧ فلم يبق منهم من يذرف الدمع على القتلى أو يروى خبر ما وقع من كارثة . وعلى الرغم من أن يورى الثانى ، دوق سوزدالى الذى يعتبر أقوى الأمراء الروس ، أرسل الأمداد الى كولومنا ، فقد تعرض أميرها رومان لهزيمة قاصمة ، ولقى مصرعه ، وسقطت الامارة في أيدى المغول . وتعرضت موسكو للنهب والتدمير في فبراير ١٢٣٨ ولم يستطع يورى الثانى أن يمنع المغول من تدمير مدينتى سوزدال وفلاديمير ، فاشتعلت النيران في سوزدال ، بينما شهدت فلاديمير عند سقوطها عنوة في ١٤ فبراير ١٢٣٨ ، أفجع المناظر ، اذ دارت المذبحة في كـل السكان الذين لجأوا الى الكنيسة ، وسط لهيب النار . ودارت المعركة الفاصلة فيمارس ١٢٣٨ ،على نهر سيتا أو سيتى من روافد مولوقا ، وحلت الهزيمة بالأمير يورى الثانى ، الذى لقى مصرعه بها . ولم ينقذ نوفجورود الا ما حدث من ذوبان الجليد ، فتحولت الأرض الى مستنقعات يتعذر اجتيازها .

وفي نهـاية السنة التاليـة (١٢٤٠) ، مضى المغول في زحفهم الـى أوكرانيا ، ولم يلبثوا أن استولوا علـى كييف وأن يدمروها في ديسمبر سنة ١٢٤٠ ، ثم نهبوا امارة غاليسيا الروسية فهرب أميرها دانيال الى المجر.

انقسمت الجيوش المغولية قسمين ، توجه أحدهما لقتـال بولندا ، بينما مضى القسم الآخر للزحف على المجر . وفي أثنـاء الشتاء (١٢٤٠ ــ ١٢٤١) اجتاز المغول نهر إلفستولا ، وقد تجمدت مياهه ، وذلك في فبراير ١٢٤١ ، ومضوا في زحفهم حتى بلغـوا كراكاو Cracoire ، فهرب قدامهم الأمير البولندى بولسلاس الرابع ولجأ الى مورافيا ، واذ فر السكان من كراكاو ، أشعل المغول بها النيران . ثـم اوغلوا في سيليزيا ، يقودهم بايدار ، فاجتازوا نهر الأودر ، وأسرعوا للقاء الدوق البولندى ، هنرى صاحب سيليزيا ، الذى كان يقـود جيشا مؤلفا مـن ٣٠ ألف مقـاتل من البولونيين ومن صليبيين ألمان ومن فرسان تيوتون ، غـير أن هذا الجيش تحطم في ابريل ١٢٤١ ولقى قائده مصرعه عند ليجنتز . وأعقب هـذا الانتصار ، أن أخذ المغول يعيثون فسادا في مورافيا ، ثم لحقوا بالجيوش المغولية الأخرى التى توجهت لقتال المجريين .

وفي تلك الأثناء كانت الجيوش المغولية الأخرى ، التى يتولى قيادتها باطو وسبوتاى ، قد توغلت في بلاد المجر ، اذ نفذت اليها في ثلاثة جيوش، الأول بقيادة شيبان ، نفذ اليها مـن جهة الشمال ، بين بولونيا ومورافيا ، وجاء الثاني بقيادة باطو ، من غاليسيا ، وأنزل الهزيمة بكونت بلاتين ، في ١٢ مارس سنة ١٢٤١ أثناء محاولته الدفاع عن ممرات جبال الكربات ، أما الجيش الثالث الذى يقوده قدان فقدم من مولدافيا ، واستولى علـى فارادين وزاناد ، ودمرهما وقتل سكانهما . وتجمعت الجيوش الثلاثـة في ابريل سنة ١٢٤١ أمام بست التى حشد فيها ملك المجر ، بيلا الرابع جيشه .

وأحرز سبوتاى نصره الباهر على القوات المجرية في جنوب موهى على نهر تيس Theiss في ابريل ١٢٤١ ، فسقطت بست بأيدى المغول فأحرقوها ، بينما هرب بيلا الرابع والتجأ الى ساحل بحر الأدرياتيك . وهلك النـاس بعد أن دارت فيهم المذابح . ودان للمغول كل البلاد حتى نهن الدانوب ، باستثناء بعض القـلاع الصغيرة التى استمرت علـى مقاومتهم مثل جران Gran ، غير أنها لم تلبث أن سقطت في يد باطو بعد أن اجتاز الدانوب في ٢٥ ديسمبر ١٢٤١ ، وقد تجمدت مياهه .

واذ اكتشف المغول من البرارى ما يماثل سهوب بلادهم ، أمضوا بها الصيف والخريف سنة ١٢٤١ ، ولم يجر من القتال الا ما حدث مـن نهوض قدان في مستهل سنة ١٢٤٢ لمطاردة بيلا الذى لجأ الى كرواتيا ،ولم يلبث أن غادرها الى الأرخبيل الدالماشى حينما اقتربت منه القوات المغولية ، وأنـزل قدان الخراب والدمار في مدينتى سبالاتو وكتارو على بحـر الأدرياتيك ، ثم عاد الى بـلاد المجر في مارس سنة ١٢٤٢ ، فلم يعد ثمـة حدود للمنطقة التى انتشر فيهـا المغول ، ولم تتوافر الطمأنينة لمدينة مـن المدن . اذ ركعت اوربا للمغول ، ولم ينقذها الا ما حدث مـن وفاة الخان الكبير اوكتاى ، والبابا جريجورى التاسع في سنة واحدة (١٢٤١) . اذ استوجب ذلك عودة باطو الـى قراقورم ، كيما يشترك في انتخاب الخان الكبير ، ونجا بذلك الشطر الغربى من اوربا من خطر المغول .

وسلك باطو الطريق الـى البحر الأسود ، مجتازا بلغاريا ، في ربيـع سنة ١٢٤٢ ، ومضى في سيره حتى بلغ منازله سنة ١٢٤٣ في الحوض الأدنى لنهر الفولجا .

وترتب على حملات المغول التى استمرت منذ ١٢٣٦ حتى سنة ١٢٤٢

تقاتل في اوربا ، أن امتد سلطان بيت جوجى في غرب نهر الفولجا . وهذه المواطن (اولوس) وفقا لوصية جنكيزخان تشمل كل ما وطأته أقدام افراس المغول ، الى الغرب من نهر ارتش ، والواضح أن آثار اقدام الفرسان أضحت منقوشة على طريق الفرسان ابتداء من نهر ارتش حتى نهر دنيستر ، ومصبات الدانوب ، هذه الأملاك الشاسعة صارت من الناحية القانونية من أملاك باطو الذى تولى ، من الناحية الرسمية قيادة الحملات ، بين ١٢٣٦ ، ١٢٤٢ ، فاضحت هذه الجهات معروفة في التاريخ باسم خانية القبجاق .

على أن قدوم المغول الى أوربا جاء في وقت لم تكن فيه مستعدة له ، بل انها لم تحفل بـه . فما حدث سنة ١٢٢٢ زمن جنكيزخان من اجتياز الجيوش المغولية جبال القوقاز لأول مرة ، وانسيابها في بعض المناطق الروسية ، لم يجذب الاهتمام في غرب اوربا . على أنه وقع في السنوات بين ١٢٣٥ ، ١٢٣٨ ، حادثان ارتبطا سويا ، ونبها الملوك المسيحيين الى أن يدركوا ما ينتظرهم من الأخطار . الحادث الأول هو ما أوفده الاسماعيلية من سفارة الى غرب أوربا ، أما الحادث الثانى فهو انثيال الجيوش المغولية بقيادة باطو ورفاقه في جوف أوربا .

والمعروف أن هؤلاء الاسماعيلية[1] أو **الشيعة** ، كانوا يعتبرون

---

(١) هذه الطائفة من الشيعية ، تنتمى الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، من سلالة الحسين بن على . واشتهر مذهبهم بالتماسك وقوة التنظيم والنضوج الفكرى . والعقائد الاسماعيلية هى عقائد انتقائية تقارب الافلاطونية الحديثة ، اذ ادخلوا في الاسلام افكارا غريبة ، منها تأويل الباطن ، الذى يعتبر من اهم خصائص المذهب ، ومنه جاء المصطلح المعروف بالباطنية الذى اشتهروا به . فالقرآن والأحاديث تنطوى في نظرهم على معنيين ، المعنى الحرفى ، والمعنى الرمزى ، الذى لا يدركه الا الامام . ويشير مذهبهم الى ان تاريخ البشرية يقع في سلسلة من الدورات ، تستهل كل دوره بالامام او النبى ، يتلوه أئمة مستترون . وهذه الدورات

أنفسهم فريسة للمغول ، والواقع أنهم لم يلفتوا نظر المغول اليهم الا زمن هولاكو . واذ أثارهم مصير جيرانهم ، حاولوا أن يؤلفوا من جميع الشعوب التى تعرضت لخطر المغول ، (ومنها من يبادلون الاسماعيلية العداء) حلفا لمواجهة المغول . ولم تقتصر جهود الحشيشية على اثارة الأمراء المجاورين لهم مباشرة ، بل انهم أنفذوا سنة ١٢٣٨ رسلا الى ملكى

تتصل بما تتعرض له العقيدة من الاضطهاد او بما تحرزه من الانتصار . فالائمة المنحدرون من اسماعيل من سلالة على بن ابى طالب يعتبرون معصومين ، ويلتزمون الطاعة من أتباعهم . وما اصرت عليه الاسماعيلية من العدالة الاجتماعية ، والاصلاح الاجتماعى ، وما كان من اعتقادها في المهدى باعتباره قائدا ثائرا ، ينتظر اللحظة التي يظهر فيها ، ويملأ الأرض عدلا ومساواة ، بعد أن سادها الظلم والطغيان ، كل ذلك استهوى سكان المدن . واتصل الاسماعيلية بأرباب الحرف والصنائع ، واستخدموهم اداة لنظامهم ودعوتهم . يضاف الى ذلك أن اقبل على اعتناق دعوتهم القبائل العربية التى تنزل على اطراف الشام والجزيرة ، بعد أن فقدت في القرن التاسع ما كان لها من سلطان ونفوذ وتفوق في الدولة الاسلامية . وتحقق للدعوة الاسماعيلية آخر الأمر غرضها بقيام الدولة الفاطمية بشمال افريقية سنة ٩٠٩ ، وظهور الامام المختفى ، ثم انتقال مقر الخلافة الى القاهرة سنة ٩٧٣ ، وما تلى ذلك من اتساع املاك الفاطميين ، وامتداد نفوذهم الى الجهات التى كان يسيطر عليها العباسيون وتهديدهم لبغداد . وما حدث من الانشقاق في الاسماعيلية بعد وفاة المستنصر الفاطمى ١٠٩٤ وما كان من افاقتهم في الشرق ، بعد ظهور حسن بن الصباح وخدمته للأئمة النزارية ، واستخدام الاغتيال في التخلص من خصومهم ، كل ذلك جعل للاسماعيلية في الشرق قوة رهيبة . ومن قلعة آلموت ، جنوب بحر قزوين ، امتد سلطانهم الى البلاد المجاورة وجرى اتخاذ طائفة الفداوية ، الذين يعتبرون اداة طيعة لأرهاب خصومهم . ولم ينته القرن الثانى عشر حتى صار للحسن الصباح شبكة من المعاقل والحصون في جميع أرجاء فارس والعراق ، وطائفة من السفاكين المجرمين ، وطابور خامس في كل معسكرات العدو ومدنه . وفشلت كل محاولات السلاجقة في انتزاع الموت ، ولم تلبث خناجر الفداوية أن امتدت الى حكام وأمراء السلاجقة ثم الى أمراء الشام من الأيوبيين والصليبيين .
انظر

Setton : History of the Crusades. Vol. I. pp. 99-128.

انجلترا وفرنسا ، يطلبون مساندتهما ، بعد أن شرحوا لهما ما اشتهر به المغول من اثارة الرعب والخوف ، غير أن التحذير والانذار لم يجدا أذنا صاغية . ومع ذلك فان الأمبراطور فردريك الثانى أدرك فعلا خطورة الموقف ، فكتب الى هنرى الثالث ملك انجلترا رسالة بالغة الأهمية ، حثه فيها على القيام بعمل مشترك ، بعد أن أحاطه علما بحقيقة الخطر المغولى ؛ وتأثر أيضا أمراء آخرون . ففى سنة ١٢٤١ ، وقبل أسابيع من وقوع معركة ليجنتز ، طلب كونت ثورنجيا من دوق برابانت المساعدة ، وأسهمت الكنيسة في اذاعة ما تتعرض له أوربا من الخطر المغولى ، بما أعلنته من الالتجاء الى الصوم والتماس الرحمة . أشار المؤرخ ماتيو الباريسى ، الى أنه حدث سنة ١٢٣٨ ، أن الخوف من هجمات المغول واغاراتهم ، منع صيادى السمك في فريزلند وجوتلند من القدوم الى انجلترا ، جريا على عادتهم ، لصيد التونة في يرموث Yarmouth حيث كانت توسق سفنهم بالسمك ، وترتب على ذلك أن انخفضت أسعار السمك الى حد كبير .

وعلى الرغم من تزايد أحساس الناس بخطر المغول ، لم يجر اتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهتهم . فلم يحصل السفراء الا على اجابات جوفاء . اذ لم يشغل تفكير الناس وقتذاك سوى ما وقع من النزاع بين الأمبراطور والبابا . وزعم البعض أن الأمبراطور فردريك الثانى استغل هذا الأمر لمساندة قضيته ازاء البابا . وزعم فريق آخر ، اشتهر بضيق الأفق السياسى ، والجهل بأمر المغول ، أنه اذا لم تتحرك أوربا ، نشب القتال بين المسلمين والمغول ، وتحطم الجانبان ، وبذلك يتم النصر آخر الأمر للمسيحيين . أما جماهير المسيحيين ، فقد بلغ بهم الاستخفاف والغفلة ، أنه لا يثيرهم الا ما يتعلق بالحروب الصليبية من أفكار . وعلى الرغم من أن البابا جريجورى التاسع أرسل كتبا يعرب فيها عن عطفه

على مملكة الكرج (جورجيا) وملك المجر ، اللذيـن تعرضا لضربات المغول ، فان فكره تركز على ما نشب من نزاع بينه وبين الأمبراطور . ومات البابا قبيل نشوب معركة ليجنتز سنة ١٢٤١ ، ولم تتنفس أوربا الا بعد وفاة اوكيتاى ، خان المغول ، وانسحاب المغول الى روسيا سنة ١٢٤٢ . على أن البابا انوسنت الرابع الذى خلف جريجورى التاسع ، كان يختلف عن سائر من سبقه من البابوات ، اذ أدرك حقيقة الخطر المغولى ، وفكر في خطتين أساسيتين لانقـاذ العـالم المسيحى ، وهما : المبادرة الى قتال المغول ، والدعوة الى حشد الجيوش لحربهم . ولتحقيق هـذه الخطة الأولى ، أمر بحشد كل القوات وتوجيهها لقتالهم ، وجعل للحملة مـن المكانة والهيبة ما كان للحملات الصليبية ، بأن منح المحاربين مـن الامتيازات الدينية والروحية ، ما يماثل ما كان يمنح للصليبيين . غير أن هذه الجهود لم تسفر عن شيء له أهمية .

أما الخطة الثانية فعلى الرغم من انها لم تتحقق من الناحية العملية فقد كانت بالغة الأهمية للأزمنة التاليـة ، بما اجتمع لها مـن الدراية بأحوال المغول . اذ تصور البابا أنـه لو تحول المغول الـى المسيحية ، فسوف يكفون عن مهاجمة أوربا ، لأن الدين يمنعهم من ذلك . زخرت أوربا وقتذاك بالقصص عن برستر يوحنا ، ولعله كان للمغول ، صلة بهذا الملك الغريب . ومن الروايات التى ترتبط بالأصل السامى للمغول ، ما يشير الى أنهم ليسوا الا القبائـل العشرة ، التى حبسها الاسكندر في داخل جبال منيعة فانطلقوا منها لاثارة الخراب في العالم . على أن الفرصة أصبحت سانحة لأن ينجح الراهب فيما فشل فيه الفارس .

وهذا الأمل المرتجى ، أدى الى انفاذ سفارة الراهبين John of Pian di Carpini وبنيدكت البولندى سنـة ١٢٤٥ ، التـى

أرسلها البابا سنة ١٢٤٥ ، بينما أرسل لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٥٣ السفارة الأخرى ، برياسة الراهب روبروق William of Rubruck. على أن هاتين السفارتين توجهتا الى بلاد المغول بعد وفاة اوكيتاى سنة ١٢٤١ . ومع أن خان المغول قد لا يكون مسيحيا، أو يكون برستريوحنا، فان الأمل كان معقودا بأنه سوف يساند العقائد المسيحية ضد المسلمين ، بما أنشبه ضد المسلمين من حروب ، ولأن من افراد الأسرة المغولية الحاكمة من تزوج بأميرات مسيحيات . واذ تراءى للمسيحيين في الغرب، أن لهم حليفا قويا في الشرق ، أصبحت الفرصة سانحة ، للدعوة الى حملة صليبية جديدة ، كان في انتظارها محارب صليبى ، نذر أن يشترك في الحروب الصليبية ، وهو لويس التاسع .

كيوك خان (١٢٤٦ – ١٢٤٨)

لما توفى أوكيتاى في ديسمبر سنة ١٢٤١ ، تولى الوصاية على العرش أرملته ، توراكيناخاتون ، التى اشتهرت بالنشاط والمهارة ، وظلت تدير شئون الأمبراطورية المغولية منذ ١٢٤٢ حتى ١٢٤٦ . كان اوكيتاى قد جعل ولاية العهد لابنه الثالث كوجو ، غير أنه لقى مصرعه سنة ١٢٣٦ في القتال ضد أسرة سونج في الصين ، فجعل اوكيتاى الملك لحفيده شيرامون بن كوجو الذى كان وقتذاك صبيا . غير أن توراكيناخاتون حرصت على أن تجعل ابنها كيوك خانا للمغول ، واذ مات اوكيتاى ، بينما كان ابنه كيوك يقاتل في روسيا ، قامت توراكينا بادارة شئون البلاد ، وحرصت على أن يطول أمد وصايتها ، حتى يتم الاستعداد لانتخاب كيوك .

وحدث أثناء وصايتها على الحكم ، أن جرى التخلص من عدد كبير من مستشارى أوكيتاى ، أمثال تشنكاى النسطورى الكرايتى ويى ليو تشوتساى الصينى ، ومسعود يلواج المسلم حاكم تركستان

واقليم ما وراء النهر ، وقورغز الاويغورى ، حاكم الشطر الشرقى من ايران (خراسان) ، الذى حل مكانه ارغـون اغا الاويراتى . ونازع كيوك السلطان كل من باطو وتيموجيه أخ جنكيزخان .

تبادل الرسل مع المغول

انعقد قوريلتاى في صيف سنة ١٢٤٦ عند منابع نهر أرخون .وشهد الاجتمـاع كـل امراء أسرة جنكيزخان ، باستثناء باطو الذى اعتذر بمرضه ، فضلا عن عدد كبير من حكام الاقاليم والملوك التوابع للخان . ومن الذين حضروا الاجتماع أيضا المطالبان بعرش مملكة الكرج ، داودناريـن ، وداود لاجا ، وياروسلاف دوق روسيا ، وكندسطبل سمباد شقيق هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى ، وقلج ارسلان الرابع سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى (منذ ١٢٤٩) ، ومندوبون عن أتابكه كرمان وفارس والموصل ، وسفارة مـن قبل الخليفة العباسى ببغداد . واختار قوريلتاى خانا على المغول ، بناء على طلب توراكينا ، ابنها من اوكيتاى ، كيوك ، فتولى العرش في أغسطس سنة ١٢٤٦ . ولم يقبل الخان الجديد الحكم الا بشرط أن يبقى الحكم وراثيا في سلالته . ثم تلقى منهم يمين الولاء والخضوع . وما حدث في قوريلتاى سنة ١٢٤٦ ، أورد وصفـه باسهاب الراهب جان بلان كاربينى فيما دونه عن سفارته الى خان المغول، من قبل البابا انوسنت الرابع . والمعروف ان البابوية كانت تستهدف من سفاراتها ابعاد الخطر المغولى عن أوربا ، واقناع المغول باعتناق المسيحية، والأفادة منهم في قتال المسلمين . فقد أنفذ البابا انوسنت الرابع سفارتين الاولى قادها الراهب الفرنسسكانى يوحنا بيان ديل كاربينى الذى غادر ليون في ابريل سنة ١٢٤٥ ، واجتاز روسيا وبرارى آسيا الوسطى ، حتى بلغ معسكر الخان بالقرب من قراقورم في أغسطس سنة ١٢٤٦ ، فشهد مجلس الأمراء (قوريلتاى) الذى انتخب كيوك خانا على كل المغول . والمعروف أن كيوك استعـان في حكمه بمستشارين مـن النساطرة ،

فاستقبل مبعوث البابا بما يليق به من الاحترام . غير أنه حينما تبين له أن البابا يدعوه الى اعتناق المسيحية ، لم يسعه الا أن يرد عليه ، طالبا منه أن يعترف بسيادته ، وأن يقدم عليه مع سائر أمراء الغرب ، لبذل يمين الولاء له . فلما عاد يوحنا بيان كاربينى الى المقر البابوى ، في نهاية سنة ١٢٤٧ ، قدم للبابا رسالة خان الترك ، ورفع اليه تقريرا مسهبا أشار فيه الى أن المغول لا يخرجون الا للفتح . غير أن انوسنت لم يشأ أن تتحطم أوهامه ، فوجه سفارة أخرى برئاسة راهب دومنيكانى اسمه اسكلين Ascelin فاجتاز الشام ، ومضى الى تبريز حيث التقى بالقائد المغولى بيجو ، في مايو سنة ١٢٤٧ . على أن بيجو أبدى الاستعداد لعقد تحالف ضد الأيوبيين . اذ أعد خطة لمهاجمة بغداد ، ولذا كان من مصلحته أن يلهى المسلمين بالشام عنه ، ارسال حملة صليبية لقتالهم . فأرسل مع أسكلين الى روما ، مبعوثين ، هما أيبك وسركيس ، ومن المحقق أن سركيس كان مسيحيا نسطوريا ، وعلى الرغم من أنهما لم يحملا شيئا من سلطات التفويض ، فان آمال الغرب ، انتعشت مرة أخرى ، اذ أقاما في روما نحو سنة ، ثم عادا في نوفمبر سنة ١٢٤٨ ، يحملان رسالة من البابا يعلن فيها أسفه لما جرى من تعطيل التحالف المغولى المسيحى .

وبينما كان لويس التاسع ملك فرنسا في جزيرة قبرص ، في طريقه بحملته على مصر ، قدم الى نيقوسيا في ديسمبر ١٢٤٨ مرقص وداود ، وهما مسيحيان نسطوريان ايضا ، وأعلنا أنهما جاءا من قبل القائد المغولى بالموصل ، الجيغداى Aljighidai ، وقدما اليه رسالة تنطوى على ما يكنه المغول من عطف وميل للمسيحية . واذ فرح لويس بهذه الرسالة ، بادر بارسال سفارة من الرهبان الدومنيكان ، برئاسة اندريا لونجيمو Longjumeau واخيه وكلاهما يجيد الحديث باللغة العربية . والواقع أن اندريا كان ينوب عن البابا فيما دار حديثا من مفاوضات مع

المونوفيتوثيين ، وحملا معهما كنيسة صغيرة متنقله ، على أنها هدية تليق بالخان عند اعتناقه المسيحية ، وبعض المقدسان الـدينية اللازمة لهيكل الكنيسة ، فضلا عن بعض الهدايا والتحف . فغادرت السفارة جزيرة قبرص في يناير ١٢٤٩ ، ومضت الى حيث مقر قيادة الجيغداى ، فوجهها الى منغوليا . وحينما وصلت السفارة الى قراقورم ، تبين لها أن كيوك قد مات ، وان أرملته أوغول قيميش Ogul Gaimis ، تقوم بالوصاية على العرش . فاستقبلت السفارة بالترحاب والايناس ،غيرانهااعتبرت ما أرسله الملك لويس التاسع من الهدايا ، جزية يؤديها التابع للسلطان . على أن ما وقع من مشاكل بين افراد الأسرة المغولية الحاكمة ، يمنعها اذا صحت نيتها من أن ترسل حملة ضخمة الى الغرب . ولما عاد اندريا من منغوليا ، بعد ان مكث بها نحو ثلاث سنوات ، لم يحمل معه سوى رسالة أعربت فيها الوصية على العرش ، عن شكرها لتابعها (لويس التاسع) على ما يبديه من اهتمام نحوها ، وطلبت منه أن يواظب على أن يرسل الهدايا كل سنة . وعلى الرغم من ارتياع لويس لهذه الصدمة ، لم ييأس مطلقا ، وتوقع أنه سوف يحل الوقت الذى يتم فيه عقد محالفة مع المغول . ولم تلبث الوصية على العرش المغولى أن ماتت سنة ١٢٥٢ .

أما الكندسطبل سمباد الأرمنى الذى بعث به أخوه هيثوم الاول ملك أرمينية الصغرى ، الى كيوك ، واستغرقت رحلته الفترة بين ١٢٤٧ ، ١٢٥٠ ، فانه فاق بيان كاربينى في ادراك ما يعود على المسيحية من مزايا اذا تم التحالف مع المغول . استقبله كيوك في حفاوة بالغة ، ومنحه براءة تكفل للملك هيثوم الاول الحماية والمحبة . وفي الرسالة التى بعث بها سمباد ، في فبراير سنة ١٢٤٨ من سمرقند ، الى صهره هنرى الأول ملك قبرص ، ما يشير الى أهمية النساطرة في بلاط المغول وامبراطوريتهم ، اذ عاشوا في حماية الخان ، وحظوا منه بالتشاريف ، وجعل لهم الامتيازات ، وأعلن

حمايته لهم من كل من يحاول الحاق الأذى بهم .

التنظيمات الحكومية

ولما اشتهر به كيوك من النشاط الوافر ، والميل الى التسلط ، والاعتزاز بسلطانه ، ولادراكه لما حدث زمن أبيه اوكيتاى المعروف بدماثة الخلق ، وزمن وصاية أمه ، ان تجاوزت الولايات والسلطات ما تعين لها من حدود ، تقرر ان يلتزم الخان الكبير والامراء بما كان جاريا زمن جده جنكيزخان من قواعد . فأجرى التحقيق مع عمه تيموجيه الذى فكر في مهاجمة الوصية ، وأمر بانزال العقاب بحاشيته . واذ نقل جغتاى ، خان ايللى سلطاته ، قبيل وفاته سنة ١٢٤٢ ، الى حفيده قره هولاكو (ابن ميتوجين الذى لقى مصرعه سنة ١٢٢١ ، أثناء حصار باميان) ، تدخل كيوك في أمر هذا التراث فأقام مكان هذا الصبى ابنا آخر لجغتاى ، وهو يسو منجو سنة ١٢٤٧ ، كان من أصدقائه الشخصيين . وجعل على فارس مندوبا ساميا ، يعتبر موطن ثقته ، وهو ايلجيغداى Eldjigidai فصار له السلطان على القائد المغولى بيجو في الفترة بين ١٢٤٧ ، ١٢٥١ ، الذى اتخذ مقره في موقان . وأقام محمود يلواج حاكما على الأقاليم الصينية التى تم فتحها . أما شنقاى النسطورى الكرايتى فقد عاد من جديد مستشارا للامبراطورية وهذه الوظائف هى التى أشار اليها كاربينى . وفي البلاد التى أصبحت من توابع الأمبراطورية المغولية ، عمد كيوك الى أن يقتسم الحكم في بلاد الكرج (جورجيا) ، الأميران المتنازعان ، داود لاشا ، وداود نارين ، وجعل حكم دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى لقلج ارسلان الثانى بدلا من أخيه كيكاوس الثانى الذى كان يحكم البلاد وقتذاك .

واذ حرص كيوك على أن يوقف ما حدث من ازدياد الميل الى الاستغلال عند سائر فروع بيت جنكيزخان ، كان لا بد له أن يصطدم

بزعيم بيت جوجى ، وهو باطو أكبر أبناء جنكيزخان .

وحدث في مستهل ١٢٤٦ أن أصاب العلاقات بينهما من التوتر ما كاد يؤدى الى القتال ، غير أن كيوك مات في ابريل سنة ١٢٤٨ ، اثناء سيره لمواجهة باطو ، قبل أن يبلغ سمرقند . وكيفما كانت نوايا كيوك ، في المضى صوب الغرب ، لاخضاع باطو خان القبجاق واوروبا المسيحية ، فالمعروف أنه حينما اعتلى عرش الأمبراطورية المغولية الأمراء الذين ينتمون لبيت تولى ، أمثال مونكو Mongka ، وقوبيلاى ، اتجهت الفتوح المغولية صوب الشرق الأقصى .

صارت الوصاية لأرملته اوغول قيميش ، التى استقبلت سنة ١٢٥٠، في ترباجاتاى ، بأملاك أسرة أوكيتاى ، رسل القديس لويس التاسع الذين سبق الاشارة اليهم ، والذين عادوا في ابريل ١٢٥١ للالتقاء بالقديس لويس في قيسارية .

أضحى لباطو الزعامة على بيت جنكيزخان ، فجعل نصب عينيه استبعاد أسرة اوكيتاى من ولاية عرش المغول ، واذ توافر في بيت تولوى من الاستقامة والنزاهة والأمانة ما كان ينشده كيوك في امراء أسرة جنكيزخان ، كان مونكو اكبر أبناء تولوى ، خير من يتولى الحكم ، فرشحه باطو خانا أعظم ، وعلى الرغم من اعتراض أسرتى اوكيتاى وجغتاى ، فقد اقر مجلس الأمراء ، قوريلتاى ، انتخابه في يوليه ١٢٥١ ، وبذا انتقلت ولاية عرش الامبراطورية من بيت اوكيتاى الى بيت تولوى[١].

---

(١) على ان هذا الانقلاب لقى مقاومة من امراء بيت اوكيتاى وجغتاى ، واتباعهم فحاولوا استخدام ما توافر لديهم من العساكر ، للاطاحة بالخان الجديد ، غير أن خطتهم لم تلبث أن انكشفت ، وتعرض القائمون بها للانتقام الشديد بالقتل والتشريد والنفى والحبس ، ومنهم شنقاى واوغول قيميش وبورى . انظر Grousset : L'Empire des Steppes pp. 340-341

منكو
(١٢٥١ – ١٢٥٩)

كان في الثالثة والأربعين من عمره حينما تولى العرش ، ويعتبر أشهر خانات المغول بعد جنكيزخان . اشتهر بأنه يكره الترف وينكر المباذل ، وليس له هواية سوى الصيد ، وحرص على التعلق والتمسك باليسق وبما أصدره جده جنكيزخان من قوانين . ومن صفاته أيضا أنه كان بالغ النشاط ، بارعا في تسيير الادارة ، شديد التمسك بالعدالة ، متوقد الذكاء ، جنديا باسلا ، وسياسيا ماهرا ، فاعاد بذلك القوة والنشاط الى ما أقامه جنكيزخان من نظم ، ووهب الأمبراطورية المغولية ، دون أن يتخلى عن خصائص عنصره ، أساليب ادارية قوية ، وجعل منها دولة بالغة القوة . فحينما تولى العرش نفذ ما التزم به ، لدى باطو ، من شروط ، باقتسام السلطة .

أضحى باطو مستقلا بادارة الأقاليم الواقعة غرب بحيرة بالكاش ، على أن ما حدث من وفاة باطو سنة ١٢٥٥ ، جعل منكو ينفرد بالحكم في الامبراطورية المغولية . على أن الأمراء المقطعين تمسكوا بحقهم في الإعفاء من الضرائب أو اقتسام ما يتحصل من ضرائب من الاقليم مع موظفي الحكومة المركزية . غير أن مونكو منع هذه الاجراءات . ولو اتبع اخلافه هذه السياسة لبقيت الأمبراطويية المغولية متحدة ، بدلا من انقسامها الى خانات : الشرق الأقصى ، وتركستان ، وفارس ، وروسيا .

تأثر مونكو في نشأته بأمه النسطورية السكرايتية ، سورجكتاني Sorgagtani ، ولذا اكتسبت المسيحية النسطورية عطفه ومحبته ، فكان

رئيس ديوانه من النساطرة، على ان البوذية والتاوزيه لقيتامنه أيضا العطف والتأييد . وفي حديثه الى الراهب روبروق ما يدل على تسامحه مع سائر الديانات ، اذ قال ، ليست الديانات الا كالأصابع الخمسة ليد واحدة ، غير أنه جعل البوذية راحة اليد ، وجعل الديانات الأخرى أصابع في هذه الراحة . وكيفما كان الامر استخدم خان المغول كل الديانات لتحقيق سياسته . اذ اعتقد مونكو بانه ثمة اله واحد ، يعبده كل فرد كيفما اراد، وعلى الرغم من تعلق أمه بالنسطورية ، فان ما اشتهرت به من رجاحة العقل حملها على أن تبذل أوقافا لمدرسة اسلامية في بخارى . على أن روبروق ارتاع لما صار اليه رجال الكنيسة النسطورية من الجهل والانحلال ، وأنكر اغراقهم في المباذل والسكر والعربدة .

سفارة روبروق

سبق الاشارة الى حرص لويس التاسع على التحالف مع المغول ، برغم ما تعرضت له سفاراته السابقة من الفشل ، وشجعه على المضى في التماس مساعدتهم ، ما سمعه عن سارتاق بن باطو خان القبجاق (في جنوب روسيا) من تقديره للمسيحية . فقرر ان يبعث بسفارة برئاسة الراهب الفرنسكانى وليم روبروق ، وكان بصحبته راهب آخر اسمه بارثلميو الكريمونى . وغادرت هذه السفارة أرض فلسطين في مستهل سنة ١٢٥٣ ، وتوجهت الى القسطنطينية ، ومنها أبحرت في مايو ١٢٥٣ ، فبلغت سوداق بشبه جزيرة القرم في ٢١ مايو سنة ١٢٥٣ . واذ اجتازت السفارة جنوب روسيا ، وصلت الى معسكر سارتاق (في ٣١يوليه ١٢٥٣) على مسيرة ثلاثة أيام من نهر الفولجا . وعلى الرغم من ان المسيحيين النساطرة كانوا يحيطون بسارتاق ، بل انه كان في حاشيته احد الداوية من قبرص ، وكان يعمل مترجما له ، فانه اعلن أنه ليس بوسعه أن يتحدث الى روبروق فسيره الى أبيه ، باطو ، الذى تقع منازله على الضفة الشرقية لنهر الفولجا . فاحتفى به باطو . وأشار روبروق عند الحديث عن علاقته

بالملك لويس التاسع ، الى ما للحروب الصليبية من أهمية عند المغول ، وذلك حينما قال له باطو بأنه سمع أن جلالة الملك (لويس التاسع) خرج من بلاده على رأس جيش للقتال . على ان باطو أرسله هو وصحبه الى مونكو الخان الكبير الذى حل في عرش الأمبراطورية مكان الوصية أوغول قيميش .

واتخذ روبروق طريقه من المجرى الأدنى لنهر الفولجا ، متوجها نحو الشرق ، فسار الى الشمال من بحر آرال ، واجتاز اقليم طلس ، الى طقمان ، وقيالج ، ووادى نهر ايللى حتى بلغ في ٢٧ ديسمبر سنة ١٢٥٣ معسكر مونكو الذى يقع على مسافة مراحل قليلة من جنوب قراقورم .

استقبل مونكو مبعوث لويس التاسع ، روبروق ، في يناير سنة ١٢٥٤ ، والمعروف أن أمراء أسرة جنكيزخان ، تسامحوا مع الديانات المسيحية والشامانية والبوذية والاسلامية وقد حظيت كلها برعايتهم ، وشهد روبروق في البلاط المغولى ، عددا كبيرا من ممثلى العالم المسيحى، منهم سفراء من قبل الأمبراطور البيزنطى في نيقيه ،يوحنا الثالث فاتانزيس، ومبعوث من قبل الملك الأيوبى (المغيث عمر)على شرق الاردن (الكرك) ، وكان هذا المبعوث مسيحيا سريانيا من دمشق ، وراهب ارمنى اسمه سيرج قدم من فلسطين ، وأدى خدمات جليلة للراهب الفرنسكانى المصاحب له ، والتقى أيضا برجل من متز باللورين اسمه باكيت ، تزوج من روسية ، ودخل في خدمة زوجة نسطورية للخان الكبير .

وكان بالبلاط المغولى أيضا مواطن باريسى اسمه وليم بوشيز يشتغل بصناعة الحلى ، صار من اقرب الناس عند مونكو ، وكان قد تزوج من هنغارية تجيد الحديث بالفرنسية والكومانية . والتقى روبروق في

قراقورم بعدد كبير من المسيحيين من مختلف الاقوام ، من المجريين واللان والروس والكرج والأرمن .

وأقام روبروق في البلاط المغولى في قراقورم نحو خمسة شهور . ومن أهم الوقائع التى حدثت ما جرى في مايــو سنة ١٢٥٤ من مناظرة فلسفية دينية بين المسلمين والمسيحيين والبوذيين ، حول العقل واصل الشر .

أدرك روبروق أن مونكو يعتبر كل الدول الاسلامية معادية له ، وبرغم ما وفد على بلاطه من رسل من قبل خليفة بغداد ، وسلطان دلهى ، وسلطان سلاجقة قونية ، فان الخان وطد العزم على أن يــوجه شقيقه الأصغر هولاكو ، الى فارس والعــراق للقضاء على قــوة الحشيشية والخلافة . وعلى الرغم من استعداده للحديث حول القيام بعمل مشترك، فان المشكلة التى تعترض سبيل الوصول ال ىالاتفاق ، هي أن الخان الكبير لا يقبل أن يكون بالعالم سلطان حاكم سواه ، وسياسته الخارجية تتلخص بايجاز في أن أصدقاءه هم الذين يدينون له بالتبعية ولا بد من استئصال شأفة خصومة أو الزامهم بقبول التبعية له . وكل ما تحصل عليه وليم من مونكو، هو ان يعد مونكو ببذل المساعدة للمسيحيين طالما أقدم أمراؤهم على أن يؤدوا يمين التبعية له باعتباره سيد العالم . ولم يعرض مونكو شيئا عن تبادل السفارات الرسمية ، ولم يشر الــى أن يقوم بينهما عمل مشترك في قتال العدو المشترك للمغول والمسيحيين ، وهــم المسلمون ببغداد والشام .

واذ تبين لروبروق أن ملك فرنسا لا يقبل هذه الشروط ، لم يسعه ا لاأن يغادر قراقورم في١٨أغسطس سنة ١٢٥٤. وقدم على خان القبجاق، باطو ، في سبتمبر ١٢٥٤ ، في عاصمته الجديدة ، سراى ، على المجرى

الأدنى لنهر الفولجا ، ثم اجتاز جبال القوقاز من ممرات الدربند ، ومضى في طريقه الى موقان مقر قيادة بيجو ، الذى اجتمع به في نوفمبر ١٢٥٤ . ثم واصل روبروق سيره ، فاخترق ارمينية الى ارزنخان ، ثم الى سلطنة السلاجقة بقونية التى أضحت خاضعة لحماية المغول .

ولم يلبث أن وصل الى ميناء أياس بأرمينيا الصغرى ، فأبحر منه الى قبرص ، ومنها أبحر الى عكا ، بعد أن اجتاز في طريقه انطاكيـة وطرابلس (أغسطس سنة ١٢٥٥) . على أن لويس التاسع لم يكن وقتذاك بالشام ، اذ أنه أبحر من عكا في ابريل سنة ١٢٥٤ ، الى فرنسا بعد وفاة والدته الملكة بلانش القشتالية ، فأرسل اليه روبروق تقريرا عن رحلته ، وأرفق به رسالة الخان مونكو .

سفارة الارمن الى بلاط المغول

وما لم يظفر به روبـروق ، حققه ملك أرمينية الصغـرى هيثوم الأول[١] . وسبق الاشارة الى ما تهدده من خطر المغول ، بعد انثيالهم في أرمينيا وبلاد الكرج وبلاد الأناضول ، فأدرك هيثوم أنه لا يعصم مملكته سوى قيام تحالف مع المغول ، ولذا أرسل اخاه سمباد في سفارة الى قراقرم سنة ١٢٤٧ ، وعاد سنة ١٢٥٠ بعد أن حصل على (براءة) تضمن له وحدة

---

(١) اقام هيثوم الاول محالفات مع كثير من امراء الفرنج ، بما أجـراه من مصاهرات ، اذ تزوجت اخته ستيفانى من هنرى الاول ملك قبـرص ، وتزوجت اخته ماريا من يوحنا ابلين كونت يافا ، كما أن بناته تزوجن مـن امراء من اللاتين ، فتزوجت سبيل من بوهمند السادس امير انطاكية ،بينما كانت ايفيميا من نصيب يوليان ، كونت صيدا ، وتزوجت ماريا من جاى ابلين ابن بلدوين صنجيل قبرص . اما ابنته ريتا فتزوجها أرمنى ، كان يتولى أمر حصن سارونتيكار .
انظر Setton : op. cit. II. p. 652 note 3.

مملكته، والوعد ببذل المساعدة لاسترجاع ما استولى عليه السلاجقة من حصون .

وفي سنة ١٢٥٣ قام هيثوم ملك أرمينية الصغرى بزيارة مونكو ، في قراقورم . ويعتبر هيثوم أول ملك يقدم من تلقاء نفسه الى قراقورم ، (اذ أن الزائرين الاخرين كانوا اما اتباعا للخان ، واما ممثلين عن الملوك)، ولقى كل حفاوة من الخان . وما بذله الخان السابق ، كيوك من ضمانات ، تجددت واتسع نطاقها . ذلك أن مونكو وعد بـالا تحصل ضرائب من الكنائس والاديرة الأرمنية في أملاك المغول . ولم تكن الفكرة المسيطرة على هيثوم قاصرة على المحافظة على مملكته وتحقيق الحماية للمسيحيين الخاضعين لسلطان المغول ، بل شملت أيضا الحرص على الحصول على مساعدة الخان لاستعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين . وعلم أيضا من الخان ، أنه عهد الى أخيه هولاكو بالاستيلاء على بغداد ، وتدمير سلطة الخلافة . وعاد هيثوم في نوفمبر سنة ١٢٥٤ ، بعد أن غمره الخان بالهدايا ،وقد فرح لما تكللت بهجهوده من نجاح .اتخذ هيثوم طريق تركستان وفارس اثناء عودته ، وزار هولاكو في فارس،وبلغ أرمينيا في يوليه ١٢٥٥ .

على أن هيثوم تجاوز فيما يبدو الحدود في تفاؤله . فمن المحقق ان المغول حرصوا على ازالة الخلافة ، اذ أضحى رعاياها المسلمون من الوفرة ما يحتم عليهم المغول السيطرة على أهم نظام دينى في العالم الاسلامى .على أن المغول لا يكنون العداء للدين الاسلامى ، وعلى الرغم من أنهم يبذلون للمسيحية من العطف والرعاية مـا لم تحظ به ديانة أخـرى ، فانهم لا يجيزون قيام مملكة مسيحية مستقلة . فاذا عادت بيت المقدس للمسيحيين ، فلا يجرى ذلك الا بعد خضوعها لسلطان المغول . فما كان يحلم به القديس لويس التاسع من حمل المغول على اعتناق المسيحية على مذهب كنيسة روما لم يفكر فيه المغول ، ولو أن امارات مسيحية قامت في غرب آسيا فلن

تكون مستقلة ، بل لا بد أن تخضع لسلطان المغول . على أن انتصار المغول قد يفيد مصالح العالم المسيحى بوجه عام ، غير ان الفرنج في الشرق الأدنى لا شك أنهم يؤثرون المسلمين الذين عرفوهم ، على ذلك الشعب الغريب ، القادم من الصحارى النائية ، والذى لم يغب عن شرق أوربا ما ارتكبه من العنف والشدة والمذابح فضلا عن جبروته وغطرسته . وما حاوله هيثوم من اقامة حلف مسيحى كبير لمساعدة المغول ، لقى القبول عند المسيحيين الوطنيين . فاعلن بوهمند السادس كونت انطاكية ،وصهر هيثوم ،موافقته، غير أن الفرنج بسائر جهات آسيا نفروا منه . على أن هيثوم ظل مخلصا لما جرى التفاهم عليه مع المغول . فتردد كثيرا على بلاط الايلخانات ، وبذل المساعدة العسكرية كلما دعت الحاجة اليها . وحارب العساكر الأرمن ، جنبا الى جنب ، مع العساكر المغول في آسيا الصغرى ، والشام ، وما أحرزه المغول من انتصارات لم يهيىء لهيثوم ان يسترد فحسب ما انتزعه السلاجقة في قونية من حصون ، بل يستعيد أيضا ممتلكات كانت تابعة لكواسيل، فضلا عما حصل عليه فيما بعد من بلاد، بعد اغارة المغول على بلاد الشام .



الفصل الثاني عشر

المغول في فارس

بيت هولاكو

ظلت فارس تخضع لحكم مؤقت ، بعد أن أتم المغول فتحها ، وقضوا على مملكة جلال الدين خوارزمشاه سنة ١٢٣١ . فالجيش المغولى المرابط في الغرب ، على ضفاف نهرى كور والرس ، باقليم البرارى في الران وموقان ، لا زال يخضع لقادة كانت بايديهم سلطات مطلقة ، أمثال تشورماجا نالذى حطم دولة جلال الدين (١٢٣١ ــ ١٢٤١) ثم بيجو الذى قضى على استقلال السلاجقة في آسيا الصغرى (١٢٤٢ ــ ١٢٥٦) . وهذه الادارة الحربية التى أقامها المغول في أطراف ملكهم ، يرجع اليها أتباع المغول في الغرب ، أمثال امراء الكرج ، وسلاطين السلاجقة بآسيا الصغرى ، وملوك أرمينية الصغرى ، واتابكة الموصل ، فضلا عن أهميتها فيما يجرى من علاقات مع العالم اللاتينى .

وفي زمن قيادة تشورماجان المعروف بميوله المسيحية ، قدم من قبل أوكيتاى الى تبريز ، بين ١٢٣١ ، ١٢٤١ سمعان المسيحى السريانى ،الذى

عهد اليه الخان ، كيوك ، بالنظر في أمور الديانة المسيحية ، فمنع قتل المسيحيين العزل الذين ارتضوا السيادة المغولية .

ثم أضحت القيادة الحربية لبيجو منذ سنة ١٢٤٢ ، بعد أن تخلى عنها تشورماجان بسبب اصابته بالشلل . والمعروف أن بيجو هو الذى استقبل سفارة البابا انوسنت الرابع سنة ١٢٤٧ ، برئاسة الراهب الدومنيكانى أسكلين . واذ رفض بيجو ما طلبه المندوب البابوى بأن يخضع المغول للسلطة الروحية للبابا عهد اليه بان يحمل الى البابا الرد ، الذى سبق أن تلقاه بلان كاربينى من الخان كيوك ، والذى يقضى بأن المغول يصرون على التمسك بما للامبراطورية العالمية من قانون سماوى ، ويطلب الى البابا القدوم لبذل يمين التبعية للخان ، والا جرى اعتباره عدوا . وحينما ارتحل اسكلين في يوليه ١٢٤٧ ، أنفذ بيجو معه رسولين مغولين ، وهما أيبك (الايغورى) ، وسركيس النسطورى فاستقبلهما البابا في نوفمبر ١٢٤٨ ، على أن هذه السفارة لم تسفر عن نتيجة ايجابية .

أرسل ايلجيغداى نائب الخان في حكم فارس ، في مايو ١٢٤٨ سفارة الى لويس التاسع ، مؤلفة من مسيحيين ، داود ومرقص يحملان رسالة موجهة من الخان الى « ابنه » ملك فرنسا ، وتنطوي على عزم المغول على حماية المسيحيين اللاتين واليونانيين والأرمن ، والنساطرة واليعاقبة على اختلاف مذاهبهم . وتلقى لويس التاسع هذه الرسالة ، اثناء نزوله بجزيرة قبرص في ديسمبر ١٢٤٨ . وجرى تفسير محتويات هذه الرسالة ، بأن نائب الخان في فارس فكر سنة ١٢٤٨ في شن الهجوم على بغداد ، (الذى حققه بعد عشر سنوات هولاكو)،وان يرتبط هذا الهجوم بما أعده لويس التاسع من حملة صليبية لمهاجمة العالم العربى ، في مصر . وأرسل لويس التاسع سفاره من قبله سنة ١٢٤٩ ، الى البلاط المغولى ،

زمن وصاية اوغول قيميش . وعادت سنة ١٢٥١ ، بعد أن تلقت ردا عنيفا ، سبق الاشارة اليه . واذ تقرر اعدام ايلجيغداى لولائه لبيت اوكيتاى سنة ١٢٥٢ ، صار بيجو مطلق التصرف في حكومة الأطراف العسكرية حتى قدوم هولاكو سنة ١٢٥٥ .

ومن أهم أعمال بيجو ، أنه تقرر أن يقتسم الحكم في بلاد الكرج داود لاشا ، ابن اخت الملكة روسودان ، وداود نارين ابنها .

وهذا الاجراء اتخذه بيجو ايضافي سلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى . ففى سنة ١٢٤٦ عهد الخان كيوك بالسلطنة الى قلج ارسلان الرابع الذى قدم الى بلاط المغول لمساندته على أخيه الاكبر كيكاوس الثانى ، وحدد كيوك مقادير الجزية السنوية التى تؤديها سلطنة السلاجقة ، وتشمل ١،٢٠٠،٠٠٠ دينار ، ٥٠٠ من الثياب الحريرية الموشاة بالذهب،٥٠٠حصان، ٥٠٠ جمل ، ٥٠٠٠ رأس من الغنم ، فضلا عن مقادير ضخمة من الهدايا تضارع في القيمة ، هذه المقادير . وحدث ١٢٥٤ أن قرر الخان مونكو أن يحكم كيكاوس في الشطر الغربى للسلطنة،على أن يحكم قلج أرسلان مايقع الى الشرق من كزل أرمق من بلاد . ومع ذلك وقع من القتال بين الأميرين ما أدى آخر الأمر الى انتصار كيكاوس وحبس قلج ارسلان . وغضب بيجو على كيكاوس ، لانه تأخر سنة ١٢٥٦ في تأدية الجزية المقررة ، فأنزل به الهزيمة عند اقصراى ، ولاذ كيكاوس بالهروب الى الدولة البيزنطية في نيقية ، وتقرر اعادة قلج ارسلان الى الحكم . ثم حدث بعدئذ أن عاد كيكاوس واقتسم السلطنة مع أخيه ، وفقا لما قرره مونكو من قواعد . واذ اشتدت وطأة تشورماجان وبيجو على توابع الامبراطورية المغولية ، كان لا بد لهما من الرجوع الى البلاط في قراقورم ، فتتعطل القرارات بضعة أشهر ، نظرا لبعد المسافة ، كما أنه قد يحدث أن يقدم عليهما الأمراء الموالون للمغول

والسفراء ، أثناء وقوع ثورات واضطرابات في بيت جنكيزخان .

وفي تلك الأثناء قام نوع من نظام الادارة المدنية في خراسان والعراق العجمى . اذ أن القائد المغولى تشنتيمور Tchintimour ، اتم سنة ١٢٣١ تدمير ما تبقى من مراكز المقاومة الخوارزمية في خراسان ، بينما كان تشورماجان يقاتل جلال الدين في الشمال الغربى . وحدث في سنة ١٢٣٣ أن الخان اوكيتاى جعل تشنتيمور واليا على خراسان ومازندران .

على أنه جرى وقتذاك أن تضاءلت الموارد المالية . فالضرائب التى كان يقتسمها الخان الكبير مع زعماء الاقطاعات الجنكيزخانية الثلاثة الكبرى ، استخدم الجباه كل أساليب الوحشية لانتزاعها من هذا الاقليم ، نظرا لما ترتب على المذابح وأعمال الدمار التى حدثت في السنوات السابقة ، من خراب في الأراضى .

ومع ذلك فان تشنتيمور شرع في اتخاذ الموظفين من الايرانيين المتعلمين ، اذ كان والد الجوينى المؤرخ المشهور ، صاحب الديوان ، أى متولى بيت المال[1] .

وتولى حكم فارس ، بعد وفاة تشنتيمور سنة ١٢٣٥ ، كورجز (جرجس) الاويغورى ، (١٢٣٥ ــ ١٢٤٢) ، وكان بوذيا على الرغم من اسمه المسيحى (جورج) . وكان موطنه الأصلى في ضواحى بشبالق ، واشتهر بين الاويغور بأنه من المثقفين ، وبفضل جوجى ، لمع اسمه أثناء

---

(١) كان بهاء الدين محمد والد الجوينى من بين الاسرى الذى أمر الحاكم المغولى بسجنهم في طوس . فامر تشنتيمور باطلاق سراحه وعينه رئيسا للديوان ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى مات في اصفهان سنة ١٢٥٣ .

حياة جنكيزخان ، الذى عهد اليه بأن يتولى تعليم الخط الاويغورى لاطفال بيته . واذ لقى الرعاية من تشنكاى ، عهد اليه اوكيتاى باجراء احصاء للسكان وتقرير الضريبة على خراسان . اذ أن كل نويان (أمير)،وكل موظف نصب نفسه حاكما مطلقا في الاقليم الذى يخضع لقيـادته ، واستخدم الجانب الأكبر مما يتحصل من الضرائب فيما يتفق بالاقليم . على أن قورغز ألغى هذا النظام ، فوفر للسكان الحياة الرغدة ، بأن قام على حماية جباة الايرانيين وأملاكهم من طغيان الموظفين المغول ،فلم يعد بوسعهم أن يقتلوا الناس كيفما شاءوا . ومع أنه كان بوذيا ، فانه تولى حماية المسلمين ، بل انه اعتنق الاسلام آخر الأمر . واذ استقـر في طوس ، استطـاع هذا الاويغورى النشيط الذكى ، أن يقيم نظاما ثابتا وادارة مدنية ، أفاد منه السكان الايرانيون والخزانة المغولية سواء . وبناء على نصيحته أمر الخان أوكيتاى في سنة ١٢٣٦ باعادة العمران الى خراسان . فتكاثر عدد سكان هراة . على أنه حينما توفى اوكيتاى ، حرص الموظفون المغول الذين منعهم من التخريب والنهب ، على أن يقدموه للمحاكمة لدى الوصية توراكينا ثم جرى تسليمه الى قره هولاكو ، حفيد جغتاى ، فقرر ادانته وحكم عليه بالاعدام سنة ١٢٤٢ .

جعلت توراكينا ادارة خراسان والعراق العجمى في يد ارغون أغا الاويراتى ، نظرا لدرايته بالكتابة الاويغورية وعلى هذا الأساس تولى رئاسة الديوان زمن أوكيتاى . وحرص أرغون أثناء حكومته (١٢٤٣ — ١٢٥٥) على أن يسير على نهج قورغز ، بأن يحمى السكان الايرانيين من عيوب النظام المالى ، ومن مظالم الموظفين المغول الذين يبتزون أموالهم . وبموافقة الخان الكبير كيوك أبطل الاعفاءات الكثيرة التى حازها أفراد أسرة جنكيزخان في هذا الاقليم ، وعلى أساسها تصرفوا في موارد بيت المال ، ولقى تأييدا قويا من مونكو ، حينما قدم الى بلاطه سنة ١٢٥١ .وبناء

على طلب الخان مونكو ، امتد الى فارس النظام المالى الذى أقامه محمود ومسعود يلواج في اقليم ما وراء النهر ، بدلا من النظام المالى المضطرب الذى جرى اتخاذه في بداية الفتح . وهذا النظام الذى اتخذه يلواج يتمثل في ان تتقرر ضريبة الرأس بحسب قدرة المولين ، وما يتحصل من هذه الضريبة ينفق على الجيش وعلى البريد الأمبراطورى ، ومات أرغون في سنة ١٢٧٨ ، بالقرب من مدينة طوس ، بعد أن صار ابنه الأمير نوروز نائبا للامبراطور على خراسان .

وعهد الخان مونكو باقليم هراة ، بعد أن تجددت عمارته ونهض من بين الخرائب والأطلال ، الى شمس الدين محمد كرت من سادة اقليم الغور ، الذى ينتمى الى العنصر الافغانى ، ويدين بالمذهب السنى ، والذى استقر في منغوليا . وكان شمس الدين حفيدا لموظف كبير ، كان في خدمة آخر سلطان للغوريين في شرق افغانستان ، وقد آل اليه سنة ١٢٤٥ اقليم الغور . وبفضل ما اشتهر به امراء كرت من الفطانة والتعقل ، وقد اتخذوا لقب ملك ، استطاعوا أن يكونوا موضع رضى السادة المغـول ، وأن يلتمسوا الطريق السليم وسط ما وقع من حروب بـين الجنكيزخانيين ، فاستطاعوا آخر الأمر أن يحافظوا على امارتهم الصغيرة (١٢٥١ ــ ١٣٨٩) التى استمرت الى ما بعد السيادة المغولية . وحرص شمس الدين طوال مدة حكمه (١٢٥١ ــ ١٢٧٨) على توطيد سلطان بيته في هذا الاقليم ، وما أحدثه الغوريون من عمارة وتجديد ، تحقق في ظل الادارة المغولية وكان مطابقا لها .

وأظهر المغول أيضا التسامح مع أتابكة كرمان من بيت قتلغ شاه ، ومع أتابكة فارس من السلغوريين ، باعتبارهم من اتباعهم . والمعروف أن بيت قتلغ شاه أنشأه براق حـاجب (١٢٢٣ ــ ١٢٣٥) ، الـذى أشتهر

بالدهاء والمكر ، فاستطاع ان يجتاز ما تعرض له من قبل جلال الدين خوارزمشاه من ضغط . وقدم ابنه ركن الدين خوجا (١٢٣٥ ــ ١٢٥٢) على الخان الكبير اوكيتاى في منغوليا ، سنة ١٢٣٥ ، أما قطب الدين الذى خلفه في الحكم ، (١٢٥٢ ــ ١٢٥٧) فانه خدم في الجيش المغولى في الصين ، ثم عهد اليه مونكو خان بامارة كرمان . واستطاع أبو بكر أمير شيراز أن يحتفظ بسلطانه وملكه (١٢٣١ ــ ١٢٦٠) بعد أن ظفر برضى اوكيتاى وأخلافه .

حكومة هولاكو .

لم يفكر المغول في تغيير ما وضعوه من نظام مؤقت لحكم فارس الا بعد عشرين سنة ،وبذا انتهى أمر الحكومةالمزدوجة ،الادارة العسكرية في آران وموقان ، والادارة المالية في خراسان والعراق العجمى ، وتقرر أن يسيطر على الادارتين المالية والعسكرية ، سلطة سياسية دائمة . ففى مجلس الأمراء (قوريلتاى) ، الذي انعقد سنة ١٢٥١ ، قرر مونكو أن يتولى أخوه الأصغر ، هولاكو ، النيابة عنه في ادارة حكومة فارس . وتلقى هولاكو أيضا من مونكو رسالة تقضى بالتخلص نهائيا من السلطتين الروحيتين في فارس ، وهما امارة الاسماعيلية في مازندران والخلافة العباسية في بغداد فضلا عن فتح الشام . وجاء في هذه الرسالة « فلتقم ما كان لجنكيزخان من تقاليد وعادات وقوانين في كل الجهات الممتدة من نهر اموداريا (جيحون) حتى أطراف مصر . وكل من يعلن الخضوع والطاعة لاوامرك ، فليلق منك المعاملة الطيبة ، ولتغمره بكل مظاهر العطف، وكل من يعصى أوامرك ، فلتشتد في اذلاله » . والواضح أن القرار كان في صالح الأمراء المسيحيين ، أمثال هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى ، وبوهمند السادس أمير أنطاكية ،اللذين بفضل قبولهما السيادة المغولية،

جعلا من التتار حماة وحلفاء لهما .

ومن النصائح التي بذلها مونكو الى أخيه هولاكو ، أن يحرص على الاستئناس برأي زوجته طقز خاتون ، وأن يقبل نصيحتها . والمعروف أن طقز خاتون ، زوجة هولاكو الأولى ،هي حفيدة وانج خان ملك الكرايت، في شرق منغوليا ، وهو برستر يوحنا في الاسطورة،ولم تختلف عن قومها في تعلقها بالمسيحية النسطورية . واذ اعتنق الكرايت المسيحية منذ زمن بعيد ، حرصت طقز خاتون على حماية المسيحيين الذين صار لهم أثناء حياتها وضع ممتاز . ولارضاء هذه الأميرة ، غمر هولاكو المسيحيين بأفضاله ، وبكل مظاهر التقدير . فقامت كنائس جديدة في جميع أنحاء الامبراطورية (خانية فارس) ، وانشأ عند مدخل دار طقز خاتون كنيسة ، تقرع بها الأجراس . وصارت القداسات والصلوات يؤديها بانتظام القسس والشمامسة . ونشأت مدارس يتردد اليها الأطفال بكامل حريتهم . وكل من قدم من قبل المسيحيين على اختلاف لغاتهم ، من رجال الكنيسة نعموا في حياتهم بالهدوء والامن . وكل من التمس السلام والامن ، حصل عليه وعاد مثقلا بالهدايا . واعتنقت المسيحية أيضا على المذهب النسطوري ابنة اخت طقز خاتون ، وهي توقتي خاتون من زوجات هولاكو أيضا .

حروب هولاكو في فارس والعراق

وحرص مونكو على أن يتوافر لحملة هولاكو كل ما يكفل لها النصر ، اذ تقرر اصلاح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس ، واقامة الجسور ، وتوفير العربات اللازمة لنقل ادوات الحصار من الصين . وجرى توفير المراعي لخيول العساكر ، باجلاء الرعاة من البراري . وصحب هولاكو في حملته ، الى جانب طقز خاتون ، زوجتان آخريان ، وولداه الكبيران . أما بيت جغتاى فكان يمثله نجودار حفيد جغتاى . وأرسل باطو ثلاثة من أبناء أخوته ، ساروا على الشاطىء الغربى لبحر قزوين ، وانحازوا الى

الجيش في فارس . وبعثت كل قبيلة من القبائل التى يتألف منها الاتحاد المغولى ، الخمس من رجالها المقاتلين ، وكان بالحملة أيضا ألف رجل صيني من الرماة المشهورين ، الذين برعوا في أن يرموا عن أقواسهم قـاذفات اللهب . على أن جيشا آخر جرى انفاذه قبل ثلاث سنوات ، لتمهيـد الطريق ، يتولاه أخلص قادة هولاكو ، وأقربهم الى نفسه ، وقد اختصه بثقة بالغة ، وهو كتبغا النسطورى الذى ينتمى للنايمان ، بـل جرت الرواية بأنه ينحدر من الملوك الثلاثة القادمين من الشرق (عند ولادة المسيح عليه السلام) . واستطاع كتبغا أن يوطد سلطة المغول في المدن الكبيرة بهضبة ايران ، وأن يستولى على بعض المعاقل الصغيرة التى يملكها الاسماعيلية .

واذ هبط هولاكو من منغوليا ، اجتاز في طريقه الماليق وسمرقند ثم عبر نهر جيحون في ٢ يناير ١٢٥٦ . وقدم للترحيب به على الضفـة الفارسية للنهر ، ممثلون عن اتباعه الجدد ، ابتداء من شمس الدين كرت ملك هراة ، وابى بكر السلغورى اتابك فارس ، الى الاميرين السلجوقيين بآسيا الصغرى ، وهما كيكاوس الثانى وقلج ارسلان الرابع . ووفقا للخطة التى وضعها مونكو كان لزاما على هولاكـو أن يهاجم الاسماعيلية في معاقلهم في مازندران ، وميمونديز ، وآلموت . فلن يجرى فحسب اقامة اسرة مغولية حاكمة في ايران ، بل انشاء حكومة مركزية لم تشهدها البلاد منذ أن الغى نظام الملك فكرة الدولة ، وتستند الى قانون جنكيزخـان والادارة الصينية . ولن يتحقق ذلك الا بالتخلص من الاسماعيلية والخلافة العباسية .

لم تستطع اسرة اسلامية حاكمة أن تتخلص من الاسماعيلية في فارس والشام . بل ان محاولات السلاجقة ، زمن السلاطين الأقوياء أمثال ملك شاه ، ذهبت أدراج الرياح . وما لجأ اليه زعماء الاسماعيلية من استخدام القتل للتخلص من خصومهم ، منذ حسن الصباح ، ارغم السادة والأمراء ورجال السياسة والحكم على أن يبذلوا لهم الجزية والطاعة صاغرين .

وحينما أدرك الاسماعيلية ما يتعرضون له من الخطر ، بعد ان اجتاحت جيوش المغول، الصين وأوربا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى ، التمسوا من الوسائل ما يدرأ عنهم هذا التهديد ، وحاولوا أن يؤلفوا من جميع الشعوب المعرضة للخطر المغولى ، حتى اولئك الذين يناصبونهم العداء ، جبهة متحدة لمقاومة المغول . ولم تقتصر جهود الاسماعيلية على اجتذاب الأمراء المجاورين ، بل امتدت الى أوربا . ففى سنة ١٢٣٨ أرسلوا الى ملكى انجلترا وفرنسا يطلبون مساندتهما ، غير أنهم لم يلقوا اذنا صاغية ، ومن الدليل على ذلك أن أسقف مدينة ونشستر بانجلترا أشار الى عدم التدخل فيما ينشب من قتال بين المسلمين والمغول ، لما سوف يترتب عليه من القضاء على الجانبين ، وفي ذلك انتصار للمسيحية [١] .

ولا شك أن المغول وقفوا على أحوال الاسماعيلية ، وكراهية الناس لهم ، فحينما أوفدوا رسلهم الى قراقورم اثناء اختيار كيوك خانا ، لم يلقوا معاملة طيبة . ورفع المسلمون ، في قزوين الخاضعة لحكم المغول الشكوى الى مونكو خان ، لما يتعرضون له من الأذى والضرر من قبل الاسماعيلية

Let these dogs devour each other, and be utterly wiped out, and then shall be founded on their ruins, the Universal Catholic Church, and then shall truly be one shepherd and one faith. Camb. Med. Hist. Vol. IV p. 639.

وأشاروا الى أن افراد هذه الطائفة يخالفون في عقيدتهم ، ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول .

حاول ركن الدين خورشاه ، الذى يعتبر آخر مقدمي الاسماعيلية أن يتجنب الخطر المغولى بما لجأ اليه من أساليب دبلوماسية ، وقد اعتصم في قلعة ميمون دز المنيعة . ولم يسع هولاكو آخر الأمر الا ان يبعث اليه برسالة ، يطلب منه التخلى عن المقاومة ، والقدوم عليه في معسكره ، ويهدده بالمضى في القتال اذا رفض هذا العرض . واذ ادرك ركن الدين خورشاه أنه لا سبيل الى المقاومة ، وأن اليأس تطرق الى نفوس رجاله المحاصرين ، توجه الى هولاكو ، وأعلن طاعته واذعانه ، في نوفمبر ١٢٥٦ واستسلمت قلعة آلموت في ديسمبر سنة ١٢٥٦ .

واذ كفل هولاكو لركن الدين الابقاء على حياته ، أراد ركن الدين أن يتوجه الى مونكو ، لعله يحصل على ما يأمل من شروط حسنة . غير أنه حينما وصل الى مقر الخان ، صحبة جماعة من المغول ، رفض أن يستقبله ، وقال ما كان لكم أن ترهقوا الجياد في سفارة غير مجدية . واذ بقى من قلاع الاسماعيلية ، اثنتان لم تستسلما للمغول ، تقرر الاستعانة بركن الدين خورشاه في تدبير أمر اذعانهما .وفي اثناء عودته ،لقى مصرعه، مع جميع رفاقه . وصدرت الأوامر الى هولاكو بالتخلص نهائيا من هذا المذهب . فتم الاجهاز على طائفة كبيرة من أقارب خورشاه ، بينما تقرر حشد عدد كبير من الاسماعيلية ، بناء على طلب المغول ، لاحصاء عددهم ، فتعرض هؤلاء الالوف للقتل ، ولم يبق على قيد الحياة الا من اعتصم بجبال فارس . وأدرك الاسماعيلية في الشام ما سوف يتعرضون له من مصير[١] .

---

(١) طلب هولاكو من ركن الدين أن يسانده في الاستيلاء على حصون الاسماعيلية في الشام فانفذ فعلا الرسل الى لبنان لتحقيق هذا الغرض .

واحتفظ الاسماعيلية في آلموت ، بمكتبة ضخمة زخرت بالمؤلفات عن الفلسفة والتنجيم . وعهد هولاكو الى امينه عطا ملك الجويني ، مؤلف تاريخ جهانكشاى ، بان يفحص ما بها من الكتب ، ليبقى ما صلح منها ، ويحرق ما يتعلق بعقائد الاسماعيلية . فاستطاع بذلك ان ينقذ من الدمار مجموعة قيمة من المصاحف والكتب وآلات رصد النجـوم ، ومن بين الكتب التى عثر عليها عطا ملك كتاب « سركذشت سيدنا » الذى يعالج عقائد الحسن بن الصباح وخلفائه . وأورد الجويني خلاصة لهذا الكتاب في مؤلفه الذى سبق الاشارة اليه .

ويشير الجويني الى أن شدة خوف الناس من هؤلاء الاسماعيلية هي التى حملتهم على الإذعان لهم ، ومن يعاديهم ويخالفهم عاش ليله ونهاره سجينا خوفا من رعاعهم ؛ فتبدد هذا الخوف بما جرى من القضاء عليهم . على أن الناس استبدلوا بالخوف من الاسماعيلية ، ما هو أشد من الخوف والرعب على أيدى المغول .

الخلافة العباسية

أفادت الخلافة من ضعف سلطان السلاجقة بالعراق ، وبلغت ذروة افاقتها في زمن الخليفة الناصر لدين الله (١١٨٠ ــ ١٢٢٥) ، الذى يعتبر أقوى الخلفاء منذ القرن التاسع الميلادى . وسار الناصر على سنة أسلافه في اخضاع من تبقى من العناصر التركمانية المتمردة ، وفي جعل العراق دولة تدين بالولاء والخضوع للخلافة .

وما اتخذه في ايران ، ازاء طغرل الثالث آخر السلاطين السلاجقة ومع الخوارزمية ، من سياسة دبلوماسية عسكرية ، بلغت من القوة والأثر ما لم تبلغه سياسة غيره من أمراء المسلمين سنوات عديدة . يضاف الى

ذلك أنه أفاد الى أقصى حد من لقب الخليفة ، وحاول أن يسوى ما وقع من انقسامات دينية بين المسلمين ، وأن يخضعهم جميعا لسلطانه الروحى .

وعلى الرغم من أن زوال الخلافة الفاطمية في ١١٧١ ، أى قبل أن يتولى الخلافة في بغداد ، كان في صالح ما يبذله الناصر من جهود ، غير أنه شغله ما حدث من تطور الأحوال في الجزيرة وايران ، فلا زال عدد الشيعة كبيرا برغم ما فرضته السلاجقة عليهم من قيود سياسية . واعترض السنيون على محاولات الناصر لان يتزعم المسلمين ، من سنيين وشيعيين ، وعلى ما أجراه من التقارب مع الاسماعيلية . ولا شك أن الناصر لم يستطع أن يرضى ارباب المذاهب الاسلامية المختلفة ، ولذا حينما ظهر المغول ، وامتد خطرهم الى الشرق الاسلامى ، تعرض للاتهام بأنه هو الذى استدعاهم لتحطيم الخوارزمية .

وما لجأ اليه خوارزمشاه محمد ، من محاولة اختيار خليفة من سلالة على ابن ابي طالب لمناهضة الخليفة العباسى ، الناصر لدين الله ، بعد اتهامه باستعداء الخطا والمغول ، اصابها الفشل نظرا لما حل بالشيعة من الضعف نتيجة ضغط السنيين عليهم نحو مائة وخمسين سنة . ومن الطبيعى أن يجرى الصدام بين جلال الدين خوارزمشاه والخليفة العباسى ، غير أن جلال الدين لم يوفق في حملته على العراق . على أن الأيوبيين ، الكامل والأشرف ، كانوا من القوة سنة ١٢٣٢ ، ما يكفى لحماية الجزيرة وديار بكر من الخطر المغولى من قبل الجيوش المغولية المرابطة في فارس والقوقاز .

كان يلى الخلافة عند قدوم هولاكو ، المستعصم (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨) الذى يعتبر السابع والثلاثين من بين الخلفاء العباسيين ، وتكاد المصادر

العربية تجمع على ما اتصف به هذا الخليفة من الضعف برغم شـــدة تدينه ولين جانبه ، وسهولة أخلاقه . « فلم يكن شديد البأس بل كان قليل الخبرة بامور المملكة ، مطموعا فيه ، غير مهيب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور . وكان أصحابه قد سيطروا عليه ، وكلهم جهال أراذل » . وحرض الخلفاء العباسيون في المائة سنة السابقة على حكمه ، على استعادة سلطتهم الزمنية ، وعلى أن يجعلوا لهم من الجيوش ما يكفى لأن يخشاهم ويحترمهم الأمراء الذين تعاقبوا على حكم ايران ، بل ان الخوارزمشاهية ، اعـداء الخلافة ، لم يجرءوا علـى مهاجمة بغداد . وما حدث مـن التخاصم بـين الأمراء الأيوبيين في مصر والشام ، هيأ للخليفة أن يتولى التحكيم فيما نشب من نزاع . ومـع أن المستعصم أحاط نفسه بكل مظاهر الأبهة والعظمة ، فانـه حرص على أن يقضى اكثر وقته في سماع الأغانى والتفرج على الملاهى والمساخر . واشتدت العداوة في داخل بلاطه بـين وزيره الشيعى مؤيد الدين بن العلقمى ، وكاتبه السنى مجاهد الديـن ايبك الـدوادار الـذى يلقى التأييـد والمساندة مـن ولى العهد ، أبى بكر ابن الخليفة . وكانت بغداد بالغة التحصين والمناعة ، وفي وسع الخليفة أن يحشد ١٢٠ ألف مقاتل . غير أن ذلك يتوقف على ثقته في الأمراء الذين حظوا بالاقطاعات الحربية ، ونظرا لأنه لم يثق في أتباعه الاقطاعيين ، قـادة الجيش ، أشار عليـه وزيره بأن يخفض عدد الجيش ، ويحمل الى المغول متحصل اقطاعاتهم ، وبذا يتجنب خطر المغول ، فاضحى عدد الجيش لا يتجاوز عشرين ألفا . على أن ما لاح للمغول من ثروة البـلاد ، ومن ضعف الجيش ، زادهم اصرارا على المضى للقتال .

وساعد على سوء الاحوال ، عنـد اقتراب وقوع الكارثة ، مـا شب من الحروب الداخلية . فالمعروف أنه كان يسكن بغداد عناصر مختلفة

المذاهب، من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود ، على أن اشد ما وقع من الفتن والمنازعات ، ما حدث عند الغزو المغولى ، من اندلاع الفتنة بين السنيين بمدينة بغداد وأهل الشيعة في ضاحية الكرخ . والمعروف أن مؤيد الدين ابن العلقمى وزير الخليفة كان شيعيا ، لذا بذل المساعدة لأهل الكرخ . ويشير ابو الفدا الى أنه حدث في أول هذه السنة (٦٥٥ ـ فبراير ١٢٥٧) أن جرت فتنة بين السنية والشيعة على جارى عادتهم ، فأمر ابو بكر ابن الخليفة ، وركن الدين الداوادار، العسكر فنهبوا الكرخ ، وهتكوا النساء ، فعظم ذلك على ابن العلقمى ، وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد ، ثم أرسل اليهم أخاه يستدعيهم ، فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم . والواضح أن هذه الرواية التى يوردها المؤرخون السنيون ، تجعل الشيعة مسئولين عن كارثة تخريب بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨

ويورد رشيد الدين رواية الشيعة الفرس ، التى تعتبر داوادار الخليفة ، ايبك ، وهو من السنيين ، مسئولا عن هذه الكارثة ، اذ أن دراية أيبك التامة بضعف الخليفة واستناده الى تأييد السنيين ، أثار خوف الخليفة بأن هدده بعزله عن الخلافة ، فاتهم الوزير ابن العلقمى بانه يتآمر مع المغول . على ان اختلاف الروايتين دلّ على الانقسام الشديد في بغداد بين المذهبين السنى والشيعى الذى أفاد منه المغول ، مثلما أفاد منه الصليبيون من قبل ، حينما وقع النزاع بين السلاجقة والفاطميين .

طلب هولاكو الى الخليفة العباسى المستعصم أن يجعل له من السلطات الزمنية في بغداد ما سبق أن حازه أمراء بني بويه وسلاطين السلاجقة . وأشار الى « أنك علمت أن الجيوش المغولية منذ زمن

جنكيزخان قد أخضعت العالم بأسره . وبفضل عـون السماء ، أنزلت ضربات المغول الدلة والمهانـة بأسرات الخوارزمشاهية في خوارزم ، والسلاجقة وملوك الديلم ، وسائر الأتابكة . ومـع ذلك لم يكن باب بغداد موصدا في وجه هذه العناصر ، التى استطاعت أن تفرض سيطرتها عليها . فكيف يجرى اذن منعنا مـن الدخول اليها . أتحب أن تخوض الحرب ضد لوائنا .

على أن الخليفة رفض هذا الانذار من قبل هولاكو . فما استرده آباؤه من آخر سلاطين السلاجقة من سلطة زمنيـة ، ليس بوسعه أن يتنازل عنها . وأنكر عليه اعتقـاده في أن له السيادة والسلطان عـلى العالم ، وتجاهله وأعلن أن كل المؤمنين بالله في المشرق والمغرب ،من الملوك والفقراء ، يخضعـون لسلطان الخليفـة ، وفي وسعـه أن يستنفرهم لمساندته . وقـد تعرض الرسل الذيـن بعث بهم هولاكو الى الخليفة للأذى من قبل سكان بغداد .

وأعلن هولاكو عزمه على الاستيلاء على بغداد ، واذ أدرك الخليفة أنه تعجل في الرد ، قبل نصيحـة وزيره الشيعى ، بأن يبذل مـن المال للمغول مـا يجعلهم يتراجعون ، وأن يذكر هولاكو في خطبة الجمعة ، وينقش اسمه على النقود ، مثلما جرى مع السلاجقة . غير أن الدوادار أيبك الذي يستند الى تأييد السنيين والجيش ، أصر عـلى المقاومة ، والواقع أن الخليفة اعتقـد بانه سوف يلبى نداءه الأيوبيون في الشام والمماليك في مصر ، فيهرعون الى الانضواء تحت العلم الأسود شعار العباسيين ، وسوف تعلن ايران وتركستان التمرد والعصيان على المغول.

على أن هذه الآمال كانت خادعة ، اذ أن الأيوبيين بالشام والمماليك

بمصر ، توافر عندهم من المشاكل ما يمنعهم من النهوض لمساعدة بغداد، ولن يتحرك الأتابكة الترك والفرس لمساندة الخليفة ، بعد أن استبد بهم الخوف والرعب من المغول . ومع ذلك استطاع الخليفة آخر الأمر ، أن يؤلف من الفرس والترك بالعراق جيشا من المرتزقة ، غير أنه لم يؤد لهم أرزاقهم . واذ تنبأ الفلكيون السنيون في أنه سوف يحدث من المعجزات والكرامات ما يهدد هولاكو . فلو أقدم هولاكو على مهاجمة بغداد ، سوف لا تشرق الشمس ، وسوف يحدث زلزال ، وسوف يندلع وباء يفنى الجيش المغولى ، وأشار الخليفة الى مصرع كل من سولت له نفسه على مهاجمة بغداد ، واجترأ على تدنيسها ، أمثال يعقوب وعمر الصفار ، والبساسيرى التركى الذى لقى جزاءه على يد طغرل بك السلجوقى فضلا عن خوارزمشاه محمد ، الذى دمره جنكيزخان . على أن هذه التهديدات لم تكن مجدية ، فالمعروف أن هولاكو وصحبه كان من البوذيين والنساطرة ، فلا يحفلون بهذه النبوءات الصادرة عن أهل السنة ، ولو أنهم تعرضوا لها ، فسوف تحميهم نبوءات أخرى من قبل الشيعة ، فسوف تساند هولاكو وتشجعه على تدمير الخلافة السنية ، وتكفل له الانتصار .

أخذت الجيوش المغولية تهبط الى بغداد في نوفمبر سنة ١٢٥٧ ، واجتاز بايجو الموصل في طريقه الى بغداد ، وكان التتار قد كاتبوا لؤلؤا صاحب الموصل في تهيئة الاقامات والسلاح ، فأمدهم بعسكر من عنده وجاءت أيضا امداد من مغول القبجاق ، والكرج . ونزل بايجو بقرية قبالة بغداد ، لا يفصلهما الا نهر دجلة . أما كتبعانوبان ، وهو تركى نايمانى ، يدين بالنسطورية ، وكان السند الأكبر لهولاكو ، فانه اتخذ طريق لورستان الى بغداد . وزحف هولاكو على بغداد ، قادما من همذان ، فاجتاز في طريقه على نهر دجله ، كرمانشاه وحلوان .

واحتشدت كل الجيوش في ١٨ يناير ١٢٥٨ ، ونصب هولاكو معسكره في ضاحية بشرق بغداد . وخرج جيش الخليفة من بغداد بناء على أوامر الدوادار ، لمنع احتشاد القوات المغولية ، غير أن المغول قطعوا السدود والجسور ، فغمرت المياه الأراضى الواقعة وراء جيش الخليفة ، وفي صبيحة اليوم التالى ، وقع الهجوم على جيوش الخليفة ، واشتد القتال، فتحطمت المقاومة ، ولقى أثنى عشر ألف مقاتل من جيش الخليفة ، مصرعهم في ساحة القتال ، بينما لاذ الباقون بالفرار الى الشام .

وفي ٢٢ يناير سنة ١٢٥٨ اجتمع في ضاحية بغداد ، على الضفة الغربية لنهر دجلة ، القادة المغول ، بايجو ، بقا تيمور ، وسوجونجق (أو سونجاق) ، بينما ضايق المدينة من الجانب الآخر ، هولاكو وكتبغا بجيوشهما . وحاول الخليفة استمالة المغول ، فأنفذ اليهم وزيره الشيعى، وجاثليق المسيحيين النساطرة ، ماكيخا **Makikha** ، والواضح أن لأختياره للجاثليق أهمية خاصة ، نظرا لما كان للمغول الترك والنساطرة من نفوذ عند هولاكو . وما لجأ اليه الخليفة من ارسال زعيم النساطرة ، مندوبا عنه الى هولاكو ، دل على أن المستعصم أراد استمالة طقزخاتون زوجة هولاكو .

على أن ما من شىء يثير عطف هولاكو ورحمته . اذ أنه قبل أن يبادر بالرد على هذه السفارة ، طلب تسليم زعماء الحزب الذى يدعو للقتال ، ومنهم الدوادار . غير أن ما حدث من هجمات المغول العنيفة على القطاع الشرقى ، هيأ للمغول الاستيلاء على استحكامات هذا الجانب من المدينة ، في ٥ ، ٦ فبراير سنة ١٢٥٨ . وأقام هولاكو على مجرى نهر دجلة ، بأعلى المدينة وبأسفلها ، جسرين قائمين على السفن لتضييق الحصار على المدينة ، حتى لا تتهيأ الفرصة للمحاصرين للفرار عن طريق النهر .

حلّ بسكان بغداد من تدهور الروح المعنوية ما لم يحل بغيرها في سائر المدن . حاول عدد كبير من رجال الحامية الفرار ، غير أن المغول أوقعوا بهم ، وتقاسمتهم الجماعات المغولية فأجهزت عليهم عن آخرهم ، واتنهجت في ذلك من الأساليب والأناة ما سبق ان اتخذه جنكيزخان في معاملة حاميات المدن التى سقطت في يده . وفي ١٠ فبراير، قدم الخليفة على هولاكو ، الذى طلب اليه أن يصدر الأوامر الى جميع السكان بالخروج من المدينة واعلان الاذعان برفع ايديهم الى أعلا . فصاروا يخرجون الى المغول طائفة بعد طائفة ، فلما تكاملوا قتلهم المغول عن آخرهم . على أن جانبا من سكان بغداد لم ينفذوا ما صدر اليهم من أوامر ، فلما دخل المغول الى المدينة ، أخذوا يطاردونهم ، وأجروا فيهم مذبحة جماعية ، وأتبعوا ذلك باشعال الحرائق في المدينة (١٣ فبراير) ، وظل العساكر المغول ينهبون المدينة ويستبيحونها مدة سبعة أيام . وأمر هولاكو عساكره المرابطة بأعلا الأسوار ، بالهبوط الى داخل المدينة والاشتراك في الاجهاز على كل سكان ، من الشيوخ الى الأطفال ، فلقى حتفه جموع الناس ، من الرجال والنساء والأطفال . ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوما ، واذ حلّ التعب بالسفاحين ، وأرهق ايديهم ما استحر من القتل ، ركنوا الى الراحة فترة ، استأنفوا بعدها الاجهاز على كل من بقى على قيد الحياة ، وبلغ عدد ضحايا المغول نحو ٨٠ ألف نسمة .

ولما دخل هولاكو المدينة في ١٥ فبراير ١٢٥٨ (٩ صفر ٦٥٨) قصد دار الخلافة ، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم ، فأمر باحضار الخليفة ، وقال له : نحن الضيوف وأنت المضيف ، فماذا يليق بنا من ضيافتك . واذ صدق الخليفة هذا القول ، وبلغ به الاضطراب والخوف ، أنه لم يستطع أن يتعرف الى مفاتيح خزائنه ، أمر بكسر الأقفال ، وقدم

من الهدايا ما مقداره الفان من الثياب ، وعشرة آلاف دينار ، ومقادير كبيرة من الأحجار الكريمة والحلى مختلفة الأنواع . على أن هـولاكو تلقى هذه الهدايا بالامتعاض والازدراء وأمر بتوزيعها على أتباعه . ثم طلب الى الخليفة أن يدله على ما خفى من الثروة ، فأشار الخليفة الى نافورة بداخل القصر ، وقد امتلأت بسبائك الذهب ، كل منها تزن مائة مثقال ، ثم جرى احصاء حريم السلطان ، فتبين أنه شمل ٧٠٠ من النساء والسرايا ، و ١٠٠٠ مـن الطواشية ، وما اجتمـع للخلفاء العباسيين في خمسة قرون (٧٥٠ ــ ١٢٥٨) من كنوز ، تكدست في شكل تلال حول خيمة الخان . واشتعلت النيران في معظم مباني المدينة ، ولا سيما المسجد الجامع ، ودور العباسيين وقبورهم . وعصفت النيران بأجساد القتلى ، وكان لزاما على هولاكو أن يبتعد عن بغداد حتى يتجنب ما ينبعث منها من الوباء . ثم أصدر أمرا بالأمان ، وبأن كل الذين بقوا على قيد الحياة أضحوا من رعاياه .

ولقى الخليفة المستعصم مصرعه في ٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨ ، كما أن كل أفراد أسرته اصابهم هذا المصير ، وعلى الرغم من أن رشيد الدين تغنى دائما بأمجاد أسرة جنكيزخان ، ويعتبر المؤرخ الرسمى لهولاكو وأبنائه فانه لم يسعه الا أن يردد بان الخليفة المستعصم وحاشيته ماتوا شهداء في سبيل الدين الاسلامي . على أن الاستيلاء على بغداد ، وزوال الخلافة ، الذى شجعه حاشية هولاكو من النساطرة ، ابتـداء من طقز خاتون حتى كتبغا نويان ، تراءى كأنه من أعمال حملة صليبية نسطورية، ومن الدليل على ذلك ما كان من اختيار بطريـرك النساطرة ، مكيخا ، ليكون رسولا من قبل الخليفة لهولاكو . يضاف الى ذلك ما نصادفه بين جيوش هولاكو من وحدات عسكرية من الكرج كانت أول من اقتحم أسوار المدينة ، واستخدمت كل أساليب العنف والقسوة في تدميرها .

ومن الطبيعي ألا يتعرض المغول بأذى بناء على أوامر طقز خانون ، للسكان المسيحيين الذين لجأوا للكنائس ، التى لم يصبها شيء من الضرر . وطرب المسيحيون في آسيا لسقوط بغداد ، التى اعتبروها بابل الثانية ، وأشاد كتابهم بهولاكو وطقز خانون ، فاعتبروهما قسطنطين وهيلينا ، وأن الله أعدهما للانتقام من أعداء المسيح . وخص هولاكو ، بطريرك النساطرة ، بالأحباس المستمرة ، ومنحه من دور الخلافة ، ما اتخذه مقرا له ، وكنيسة لقومه .

ظهر المغول العتاة على أنهم الثائرون لنصرة المسيحية ، حسبما يروى المؤرخ النسطورى كيرياكوس ، وقد أرسلهم الله من صحارى جوبى لتحطيم الاسلام . فمنذ الذى يقول ان أولئك المبشرين النساطرة الفقراء ، الذين ارتحلوا في القرن السابع الميلادى من سلوقية على نهر دجلة ، أو من بيت (Abe) للدعوة الى الانجيل في بلاد ساذجة في تركستان الشرقية ومنغوليا ، سوف يجنون في يوم من الأيام محصولهم ، فالواقع أنه حدث منذئذ أن الاويغور في كوتشا وطورفان ، والنايمان بجبال التاى ، والكرايت بشرقى جوبى ، والأونجوت ، في الجنوب الشرقى من منغوليا ، الى سور الصين الكبير الذى يقع على حدود بلاد الصين ، استجابوا الى جانب دياناتهم الأصلية ، الشامانية ، الى تعاليم البوذية والمسيحية النسطورية ، وأضحى من بين المحاربين الذين صحبوا هولاكو ، الألوف من المسيحيين ، الذين يعتبرون من تلاميذ جاثليق كلديا (العراق) ، فربطوا من عقيدتهم ، صليب المسيحية النسطورية المنصوب على مقابر بشبك الى لواء مغول جنكيزخان [1] .

---

(١) واذا كان الشامانيون والبوذيون يؤلفون الجانب الاكبر من سكان الشطر الشرقى في امبراطورية المغول فان المسيحيين ، من النساطرة واليعاقبة،سواءكانوامن الارمن،او الكرج،توافر عددهم في ايران بعد دخولها

وعلى هذا الأساس أيضا يصح تبرير ما كان يعلقه القديس لويس التاسع من أمل في بيت البرسترجون (القس يوحنا) ، وهو الملك المسيحى الاسطورى ، الذى يقيم في اقصى أطراف المعمورة والذى حطم المغول أمبراطوريته ، غير أنهم تبنوا رعاياه ومعتقداته . وما كان لطقز خاتون من أهمية في هذه الأحداث ، لم تغب عن خاطر المؤرخين . فباعتبارها حفيدة آخر ممثلى القسيس يوحنا ، وزوجة هولاكو ، لا شك أنها أوحت اليه بتدمير الخلافة . وها هى الحرب الصليبية المغولية ، والحرب النسطورية التى أعدها بعد أقل من سنتين من سقوط بغداد ، هولاكو وقائده النايمانى النسطورى كتبغا ، بمساندة هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى وبوهمند السادس أمير انطاكية ، تهيأت لغزو بلاد الشام الاسلامية .

ولما تم نهب بغداد واستباحتها ، أرسل هولاكو عددا كبيرا من تحفها وكنوزها الى أخيه مونكو ، ثم انسحب بقواته الى همذان ، ومنها توجه الى أذربيجان حيث شيد قلعة منيعة في شها ، الواقعة على بحيرة ارميه بشمال اذربيحان ، فأودعها ما حازه من بغداد من الذهب والجواهر والمعادن النفيسة ، وقد عين على بغداد قبل رحيله ، الوزير ابن العلقمى الذى كان ينفذ سياسة الموظفين المغول .

واذا كان المسيحيون قد طربوا لسقوط بغداد ، فان المسلمين تعرضوا لصدمة بالغة العنف ولتحد شديد البأس .

في حوزة المغول . وفي حديث لهولاكو مع جماعة من رجال الدين من الارمن والكرج ، سنة ١٢٦٤ ، اشار الى ان عواطفه وميوله نحو المسيحية ، اقامت فجوة بينه وبين بنى عمومته من الخانات في جنوب روسيا وتركستان (خانيتى القبجاق وجغتاى) نظرا لميلهم نحو المسلمين .

فعلى الرغم من أن الخلافة العباسية فقدت منذ قرون جانبا كبيرا من قوتها المادية،فلا زالت تدخر قدرا كبيرا من سلطانها الأدبي والروحي .وما حدث من ازالة الأسرة العباسية وتدمير العاصمة أدى الى شغور منصب الخليفة ، الذى صار يتطلع اليه كل مسلـم طموح . علـى أن اطمئنان المسيحيين وارتياحهم لم يستمر طويلا . فلم يلبث الاسلام ، بعد فترة قصيرة ، أن قهر غزاته ، برغم أن وحدة المسلمين تعرضت لضربة ظلـت تعانى منها زمنا طديلا . يضاف الى ذلك أن سقوط بغـداد الذى تلى سقوط القسطنطينية في أيدى اللاتين ١٢٠٤ ، بعد خمسين سنة ، قضى نهائيا على ما كان معروفا من قديم الزمن من التوازن بين بيزنطة والخلافة ، والذى أدى الى ازدهار حضارة الشرق الأدنى زمنا طويـلا ، فلم يعد الشرق الأدنى يسيطر على مقدرات المدنية .

حروب المغول في الشام سنة ١٢٦٠

وما أرتكبه المغول من أعمال العنف والقتل والتدمـير ، أثار من الخوف في قلوب الأمراء المسلمين المجاورين ، ما جعلهم يبادرون بالاعراب عن عواطفهم لهولاكو . ومن هؤلاء بدر الدين لؤلـؤ صاحب الموصل (الذى استقل بحكم الموصل سنة ١٢٣٣ ، بعد أن كان وزيرا لآخر أمراء الزنكيين بها ، وظل يحكمها حتى سنة ١٢٥٩) . والمعروف أن بدر الدين لؤلؤ قد صانع هولاكو ودخل في طاعته وحمل اليه الأموال ، وحينمـا سقطت بغداد ، أرسل اليه هولاكو رءوس الوزراء ببغداد فعلقها عـلى أسوار مدينة الموصل ، ولم يكتف بذلك بل انه توجه الى هولاكو ، بعد عودته من بغداد الـى مقر سلطاتـه (اوردو) بالقرب مـن موقان في أذربيحان . وقدم أيضا على هولاكو أتابك فارس ليبذل له التهنئة باستيلائه

على بغداد ثم جاء الاخوان ، عز الدين كيكاوس الثانى وركن الدين قلج ارسلان الرابع اللذان اقتسما سلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى[1] ، واشتد اضطراب عز الدين ، نظرا لانه سبق أن حاول التمرد على القائد المغولى بايجو فانزل به هزيمة ساحقة عند أقصرا سنة ١٢٥٦ ، فأظهر الندم، وألح في طلب العفو من هولاكو ، حتى أقره على ملكه .

واذ اقترب خطر المغول من الشام ، التى استقر حكمها للناصر يوسف الايوبى، برغم مناوئة المغيث صاحب الكرك له من حين الى آخر ، تبعا لانحياز البحرية لأحدهما ومساندتهم له على الآخر ، وأعلن الناصر ولاءه للمغول . فأنفذ في سنة ١٢٥٨ ، ابنه العزيز الى هولاكو ، ومعه تقادم وعدة من الأمراء ، وطلب اليه أن ينهض لمساعدة ابيه في استخلاص مصر من أيدى المماليك ، على أن هولاكو ، أراد أن يتوجه اليه أبوه في عسكر قدر العشرين ألف فارس .

وعلى الرغم من مبادرة الأمراء الى اعلان الولاء لهولاكو ، فانه لم يتردد في أن يتوجه لقتال الأيوبيين بأعالى الجزيرة ، لتوطيد سلطانه بها ، فانفذ حملة لقتال الكامل محمد بن شهاب الدين غازى الأيوبى صاحب ميافارقين ، الذى رفض الاعتراف بسيادة المغول ، بل انه مضى الى اكثر من ذلك ، بأن أمر بصلب احد القسس اليعاقبة ، الذى قدم الى ميافارقين رسولا من قبل هولاكو . وتولى أحد قادة هولاكو فرض الحصار على المدينة . تسانده وحدات عسكرية من الكرج والأرمن ، ولما قامت به هذه الوحدات المسيحية من مساعدة كان لها أهمية خاصة ، بأن ما كان من انحياز مسيحى الشرق الى

---

(١) تولى عز الدين الاقاليم الغربية ، بينما حكم ركن الدين الاقاليم الشرقية وكان نهر قول ارمك حدا بين القسمين (المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٠٨ ، حاشية ١) .

المغول ، لقتال المسلمين في الشام ، ليس في الواقع الا اسهاما في حملة صليبية جديدة .

وسقطت ميافارقين في أوائل سنة ١٢٦٠ بفضل مساعدة حلفائه من الكرج والأرمن ، ودارت مذبحة في السكان المسلمين ، بينما لم يتعرض المسيحيون لشيء من الأذى . وبلغ من تعذيب المغول للكامل ، لأنهم أخذوا يقتطعون أجزاء من جسمه ، ويرغمونه على تناولها حتى لقى حتفه آخر الأمر . ورفعوا رأسه على رمح ، طافوا به كل أرجاء الشام من حلب حتى دمشق . والواضح أن حصار ميافارقين والاستيلاء عليها ليس الا تمهيدا لحرب شاملة ، يشنها المغول على بلاد الشام .

كان لزاما على هولاكو ، أن ينفذ الخطة التى وضعها مونكو ، والتى تقضى باخضاع الشام ومصر . والمعروف أن الأمراء الايوبيين والصليبيين يقتسمون حكم بلاد الشام . اذ حاز الفرنج (الصليبيين) على ساحل البحر المتوسط ، امارتى أنطاكية وطرابلس في الشمال ، وكان يحكمهما بوهمند السادس ، ومملكة بيت المقدس ، (دون أن تدخل فيها مدينة القدس ذاتها) ، في الجنوب ، ولم تكن الملكية بها قوية ، بل أنها تألفت فعلا من اتحاد من البارونيات والقومونات ، أمثال بارونية صور ، وقومون عكا ، وكوتتية يافا . يضاف الى ذلك أن بوهمند السادس ، أمير انطاكية وطرابلس كان حليفا قويا لهيثوم الأول ملك لأرمينية الصغرى التى تتاخم أملاكه من جهة الشمال . والمعروف أن بوهمند السادس قد تزوج ابنة هيثوم الأول ، فمن الطبيعى أن يلتمس التحالف أيضا مع المغول . أما الاقليم الداخلى ، الذى يواجه الاملاك الصليبية على الساحل ، والذى تعتبر حلب ودمشق أهم بلاده ، فكان

خاضعا لسلطان الأمراء الايوبيين ، وأشهرهم الناصر يوسف (١٢٣٦ — ١٢٦٠)

الواقع أنه منذ أن قدم الملك لويس التاسع الى عكا ، بعد اطلاق سراحه من الأسر ، ورحيله من دمياط في مايو سنة ١٢٥٠ ، صار الملك لويس مسئولا عن سياسة الصليبيين في الشام ، فاتخــذ من الأساليب العسكرية والسياسية والدبلوماسية ، ما واساه عن الكارثة التى لحقت به في حملته على مصر . صارت اليه مقاليد ادارة مملكة بيت المقدس ، فاستطاع أن يكفل لها الهدوء والسلام . والمعروف أن عرش مملكة بيت المقدس لا زال وقتذاك من الناحية الشرعية ، من حق كنراد أمبراطور ألمانيا ، والواضح أن كنراد لن يأتى الى الشرق . فلما ماتت أليس ملكة قبرص ، وخالة أمه ، والوصية على عرش بيت المقدس ، انتقلت الوصاية الى ابنها هنرى ملك قبرص ، فجعل ابن عمه يوحنا ، كونت أرسوف ، نائبا عنه ، فلم يلبث يوحنا أن سلم ادارة المملكة الى لويس التاسع .

ترتب على كارثة شرمساح بدلتا مصر ، التى استسلم فيها الجيش الصليبى بقيادة لويس التاسع ، أن أضحى الموقف في الشام بالغ السوء ، ليس فحسب لما نعرض له جيش لويس من التدمير ، بل أيضا لمصرع جيوش نبلاء الفرنج والداوية والاسبتارية التى قدمت من الشام لمساندة الملك لويس التاسع .

وما حدث بالامارات الصليبية وقتذاك من الاضطراب والفوضى دل على ما حل بها من ضعف وانحلال ، فعجزت انطاكية عن رد العصابات التركمانية التى دأبت على نهبها واستباحتها ، وتشاجن بارونات طرابلس فيما بينهم ، وهاجم جنود الشام صيدا . يضاف الى ذلك أنه على الرغم

من أن مملكة بيت المقدس تخضع رسميا لفردريك الثانى ، ولابنه كنراد الرابع ، ومن أن فردريك انفذ الرسل للسعى في اطلاق سراح لويس التاسع ورفاقه ، فان المؤرخ جوانفيل اتهـم فردريك بأنه كان يثير المشاكـل للفرنسيين ، نظرا لما كان يربطه من تحالف مع المصريين . وزاد الأمر سوء في المستعمرات الصليبية في الشام ، ما نشب حديثا من حروب داخلية فيها . ففى سنة ١٢٤٩ تعرضت مدينة عكا للنهب والسلب ، بما نشب في شوارعها من القتال بين الجنوبيين والبيازنة ، الذى استمر ما يزيد على شهر تحطمت أثناءه دور ومنازل عديدة .

وأسهم قدوم لويس التاسع الى عكا في مايو سنة ١٢٥٠ في تهدئـة أحوال الصليبيين ، يضاف الى ذلك أنه لا بد من أن يعالج مع أمـراء المماليك الذين صارت لهم الحكومـة والدولة في مصر وقتـذاك ، أمر الأسرى الذين بلغ عددهم ١٤ ألف أسير . وعلى الرغم من الحاح أمه عليه بالعودة الى فرنسا ، ولا سيما أنها كانت تخشى مهاجمة الانجليز لفرنسا ، فانه أدرك أنه ما لم يبق في الشرق الأدنى ، سوف ينتزع المماليك كل ما تبقى من أملاك الفرنج ، فضلا عن أنه كان يراوده دائما الأمل في استجابة المغول للتحالف معه .

وفي ٣ يوليه سنة ١٢٥٠ أعلن الملك قراره الذى يقضى بالبقاء في الشرق الادنى . ووجه خطابا الى البارونات في فرنسا يدعوهم فيه الى ارسال أمداد لمواصلة الحرب الصليبية ، بينما غادر عكا أخواه وطائفة من كبار المحاربين الصليبيين ، بعد أن بذلوا له كل ما فيحوزتهم منأموال، فضلا عن ١٤٠٠ رجل .

وترتب على ارتحال أتباعه الفرنسيين ، أن أضحى لـويس اكثر

استجابة لاستماع النصائح ، كما أن ما تعرض له من تجربة وخبرة ادى الى اتساع مداركه ، واذ افتقر لويس الى القوات المحاربة، أضحى في حاجة ماسة الى توطيد العلاقات الدبلوماسية مع غير المسيحيين . وتهيأت له الفرصة لاستخدام الدبلوماسية .

فالمعروف أن المماليك البحرية وزعماءهم أمثال أيبك وبيبرس وأقطاى ، أطاحوا بالأسرة الايوبية في مصر ، وتطلعوا الى اضافة الشام الى ممتلكاتهم ، غير أن تعلق سكان بلاد الشام بالأسرة الايوبية لا زال من القوة ما يكفى لانكار ما أقامه المماليك من حكومة في مصر . فحينما ذاعت أنباء مصرع توران شاه ، قدم الناصر يوسف صاحب حلب الى دمشق ، في يوليه ١٢٥٠ ، فاستقبله الناس في حماس شديد باعتباره حفيد صلاح الدين ، فتوحدت بذلك بلاد الشام تحت زعامته . واستند الناصر يوسف الى تأييد العساكر القيمرية (من الاكراد) التى اعلنت استعدادها للتغلب على المماليك واعادة مصر الى الأيوبيين .

على أن معركة العباسة التى نشبت بين أيبك ومماليكه من جهة ، وبين الناصر يوسف وعساكر الشام من جهة أخرى ، والتى انتصر فيها المماليك ، في فبراير سنة ١٢٥١ ، قررت مصير مصر لمدة ٢٥٠ سنة تقريبا . أضحى وادى النيل أثناءها خاضعا لفئة عسكرية من المماليك الأرقاء . ومن الطبيعي الا يلقى الصليبيون من هذه الفئة من التسامح ما صادفوه عند صلاح الدين وللعادل والكامل .

أضحى في يد الناصر يوسف من بلاد الشام ، حلب ، ودمشق ، وبيت المقدس ، وطالما بقيت مملكة الناصر بالشام مستقلة عن دولة المماليك في مصر ، واستمرت الأحقاد والكراهية بين الأيوبيين والمماليك ، كان ذلك في صالح الصليبيين . واذ انقسم المسلمون على أنفسهم في الشام

ومصر ، تهيأت الفرصة للصليبيين للافادة من هذا الانقسام .

شرع لويس التاسع منذ قدومه الى عكا في الافادة من هذا الموقف . فما تعرضت له دولة المماليك الناشئة من تهديد من قبل الأيوبيين بالشام لاستعادة سلطانهم ، هيأ للملك لويس الفرصة ، لان يحقق اغراضه في مصر . فلما نقض المماليك نصوص الاتفاقية التى عقدوها مع لويس التاسع ، بما تعرض له عدد كبير من الأسرى ، الذى لم يجر افتداؤهم بعد ، من معاملة بالغة السوء ، أرسل الى مصر ، مبعوثا من قبله ، يوحنا فالنسيين ، للاحتجاج على عدم تنفيذ شروط المعاهدة. واستطاع يوحنا أن يحمل المماليك على اطلاق عدد كبير من الأسرى ، وبذا تحسنت العلاقات بين لويس التاسع والسلطان أيبك ، الذى بعث الى الملك الصليبى بالهدايا . والواضح أن المماليك حرصوا على ألا يتحالف ضدهم لويس التاسع والناصر يوسف . اذ أنه لم يكد لويس التاسع يصل الى عكا حتى قدمت اليه سفارة من قبل الناصر يوسف ، وعرضت عليه التنازل عن بيت المقدس، مقابل ما يبذله من مساعدة للسلطان الأيوبى لانتزاع مصر من أيدى المماليك . غير أن لويس لم يشأ أن يلتزم بشيء ، نظرا لاهتمامه وقتذاك بأمر الأسرى الصليبيين في مصر . ومع ذلك أرسل لويس التاسع ، سفارة الى دمشق ، من أشهر رجالها الراهب الدومنيكانى ، ايفز البرتيونى Yves le Breton الذى يجيد التحدث بالعربية فعرض على السلطان الأيوبى ، أنه ما لم يطلق سراح الاسرى ، فسوف يتحالف

---

(١) من هؤلاء الاسرى مقدم الاستبارية ، و ٢٥ من الاستبارية و ١٥ من الداوية ، و ١٠ من الفرسان التيوتون ، ١٩٠ من الفرسان . ٢٨٠٠ من الاسرى وتقرر ان يطلق الفرنج نحو ٣٠٠ من اسرى المسلمين في امارات الصليبيين بالشام . وبفضل سفاراته المتتالية الى المماليك ، ثم اطلاق سراح كل الاسرى .

انظر Grousset : Histoire des Croisades III. p. 500

ضدهم ، للأخذ بثأر توران شاه ولاعادة مصر للايوبيين . وفي نفس الوقت أرسل لويس الى أيبك الرسول الذى سبق الاشارة اليه ، فاستجاب أيبك لطلب لويس ، بشرط ألا يتم تحالفه مع الناصر يوسف . بل انه وعد أنه متى تم للماليك الاستيلاء على فلسطين ودمشق ، فسوف يـردون الى الصليبيين مملكة بيت المقدس بحدودها القديمة ، الممتدة شرقـا الى الاردن (فتدخل فيها بيت لحم ، وحبرون ، ونابلس ، والجليل) . ووافق لويس التاسع على هذه الشروط ، وتـم اطلاق سراح مـن تبقى من الأسرى الصليبيين في نهاية مارس سنة ١٢٥٢ . على أن الداوية لم يكونوا راضين عن المعاهدة ، لحرصهم على استئناف العلاقات مع دمشق ، غير أن الملك لويس أنكر عليهم موقفهم . ومع ذلك لم يؤد التحالف بـين الفرنج والمماليك الى نتيجة من النتائج . اذ أن النـاصر يوسف بـادر بارسال العساكر الى غزه ، لمنع الاتصال بين المتحالفين المماليك والفرنج . وتحرك لويس بعساكره الى يافا ، غير أن المماليك لم يخرجوا من مصر . وظلت قوات الفرنج تواجه قوات الناصر يوسف نحو سنة ، دون أن تنشب بينهم معركة[1] . وفي أوائل سنة ١٢٥٣ ، سعى الناصر عند الخليفة المستعصم للتوسط بينه وبين المماليك . واستجاب الخليفة لرجاء الناصر ، لما في توحيد العالم الاسلامى من أهمية لدرء خطر المغول . واذ سبق لأيبك أن اعترف بسلطان الخليفة ، لم يسعه الا النزول على رغبة الخليفة ، بأن يقبل ما عرضه الناصر يوسف من شروط . فتقرر الاعتراف بالمعز أيبك سلطانا على مصر ، وبأن يكون للمصريين من فلسطين ، ما يمتد شمالا الى الجليل ، وشرقا الى الاردن ، فيدخل فيما للمصريين غزه والقدس ونابلس والساحل كله ، وللناصر ما وراء ذلك ، وعلى المعز أن يطلق سراح جميع

---

(١) وفي تلك الاثناء قام لويس التاسع بعمارة استحكامات يافا ، مثلما قام باصلاح استحكامات عكا وحيفا وقيسارية .

من أسره من أصحاب الناصر . وتم التوقيع على هذه الاتفاقية في ابريل سنة ١٢٥٣ ، وبذلك جرى اغفال ما وضعه أيبك من تدابير وخطط مع الفرنج ، وتحطم آخر امل عند لويس لاسترداد بيت المقدس . على أن الفرنج نشطوا في عمارة استحكامات عكا ، وقيسارية ، وحيفا ، وصيدا ، وبعض المواقع الصغيرة . وتجلت أهمية هذه الاصلاحات ، فيما حدث عقب انعقاد الصلح بين الأيوبيين والمماليك ، من تعذر استيلاء القوات الشامية عليها ، أثناء عودتها الى دمشق . وحاول لويس أيضا أن يحمى الجناح الشمالى للمملكة الصليبية ، بتوطيد مركز انطاكية ، فنجح في التوفيق بين أمير انطاكية بوهمند السادس ، وبين أمه لوسيين ، وفي توثيق العلاقات بين انطاكية ومملكة أرمينية الصغرى ، بان تزوج بوهمند السادس من سبيلا ابنة هيثوم ، فصار الأرمن بذلك مسئولين عن الدفاع عن انطاكية .

واذ تطلع لويس لالتماس حلفاء أجانب ، أقام علاقات ودية مع الاسماعيلية . فحينما ادرك لويس ما يكنه الاسماعيلية من كراهية للمسلمين السنيين ، أنفذ رسوله ايفز البريتونى ، الى مقر زعيمهم بالشام فى مصياف . وتم التصديق على اتفاقية للدفاع المشترك . وسبق الاشارة الى ما كان من علاقات بين لويس التاسع والمغول[١] .

---

(١) بدات الاتصالات بين المغول ولويس التاسع ، اثناء مقامه في قبرص سنة ١٢٤٨ . وعلم لويس وقتذاك ما كان من ميول المغول نحو المسيحيين النساطرة ، وما وضعوه من خطط لمهاجمة المسلمين في الشرق الادنى ،وهذه الاسس كانت كافية لان يقوم عليها تحالف . غير أن كلا من الفريقين لم يفهم هدف الاخر . اذ أصر لويس على ان يتحول المغول أولا للمسيحية ،بينما أراد المغول الغزو والفتح . وساء لويس ما حاوله المغول من اعتباره من اتباعهم بينما اثار المغول حرص لويس على الاستقلال . ومع ذلك لم يكن عقد الاتفاق متعذرا ، انما يحتاج ذلك الى الدراية بأحوال الشرق ، فضلا عن المرونة ، ولم يكن ذلك متوافرا عند لويس ، بل عند هيثوم ملك ارمينية الصغرى الذى نجح في اجراء ذلك فيما بعد مع المغول .
انظر Setton : History of the Crusades vol. II. p. 507.

على أنه لم يعد ثمة ما يدعو لويس التاسع للبقاء في الشرق ، بعد أن تم الاتفاق بين دمشق والقاهرة ، وبعد أن فشل في احراز انتصارات على قوات دمشق في الشام ، ولم يعد للصليبيين في الشام من غرض سوى المحافظة على ما تبقى في أيديهم من بلاد ، بينما اشتدت الحاجة في فرنسا الى لويس التاسع ، اذ ماتت أمه بلانش ، أواخر سنة ١٢٥٢ ، ولم يكن بوسع اخوته أن يملأوا الفراغ الناشىء عن بقائه خارج فرنسا ، وشرع ملك انجلترا ، هنري الثالث في اثارة الاضطراب ، واندلعت الحرب الأهلية بسبب النزاع على امتلاك فلاندر ، وازداد نفوذ كبار اتباع لويس التاسع . فلم يسع لويس التاسع الا أن يقرر الرحيل الى فرنسا ، فأقلع من عكا في ابريل سنة ١٢٥٤ ، بعد أن خلف جفرى سارجينز على مائة فارس لتعزيز حامية عكا وليكون صنجيلا لمملكة بيت المقدس .وقد وصل لويس الى فرنسا في يوليه سنة ١٢٥٤ .

على أن لويس التاسع قبيل رحيله الى فرنسا ، عقد هدنة مع الناصر يوسف ، صاحب دمشق ، لمدة سنتين ، وستة شهور وأربعين يوما ، ابتداء من ٢١ فبراير سنة ١٢٥٤ . اذ أن الناصر أدرك ما تتعرض له بلاده من تهديد المغول ، فضلا عن كراهيته لقتال الفرنج . وحرص أيبك سلطان مصر على تجنب الحرب ، فعقد مع الصليبيين ، في سنة ١٢٥٥ هدنة لمدة عشر سنوات . غير أنه استبعد من الهدنة يافا ، لاتخاذها ميناء لأملاكه في بلاد فلسطين . على أن الحروب كانت تنشب عند الحدود بين الفرنج والمماليك ، ففي سنة ١٢٥٦ ، استولى جفرى سارجينز على قافلة ضخمة ، ولحقت الهزيمة بحاكم القدس من قبل المماليك ولقى مصرعه . وما حدث من النزاع بين أيبك وأمراء المماليك ، من أمثال بيبرس ، أدى الى أن يعقد أيبك معاهدة جديدة مع الناصر يوسف بناء على وساطة الخليفة ، على أن يكون للملك الناصر الشام جميعه الى العريش ، ويكون بيد المعز ايبك الديار المصرية .

وتجددت الهدنة بين الفرنج وبين كل من سلطان مصر ، وسلطان دمشق ، لمدة عشر سنوات ، على أن يدخل فيها يافا .

على أنه اذا كان ازدياد الخوف من المغول دفع كـلا من دمشق والقاهرة الى تجنب الاشتباك مع الصليبيين ، فان هذه السياسة الاسلامية انقذت الفرنج من النتائج الحتمية للحرب الأهلية التى نشبت عقب رحيل لويس . ذلك أن التجار الايطاليين أضحوا يؤلفون أنشط العناصر في مدن الشرق الفرنجي . اذ تحكم في تجارة البحر المتوسط الجمهوريات الايطالية الثلاثة الكبرى ، جنوه والبندقية وبيزه ، وما كان لها من جاليات في كل ميناء في شرق البحر المتـوسط . وباستثناء ما كان للداويـة من نشاط مصرفي ، كانت تجارة الجمهوريات الايطالية قد حققت للشرق الفرنجى معظم موارده ، وأضحت من الأهمية للأمراء المسلمين ، أن كان الخوف من انقطاع هذا المصدر المثمر ، من العوامل التى حفزتهم على تجديد مـا انعقد من هدنات ، فترة بعد فترة . غير أن التنافس بـين الجمهوريات الايطالية البحرية كان حادا وعنيفا . فما وقع من نزاع بين بيزا وجنوه منع لويس من مغادرة قبرص سنة ١٢٤٩ . ونشب القتال في أحياء عكا سنة ١٢٥٠ ، بعد أن لقى تاجر جنوى مصرعه على يد أحـد البنادقة . ونشب القتال من جديد ، بعد أن غادر لويس عكا الى فرنسا . ذلك أن حى الجنوبيين يفصله عن البنادقة بعكا تل يقع في حـوزة الجنوبيين ، باستثناء قمته التى يحتلها دير القديس سابـا ، الذى تنـازع البنادقة والجنويون ملكيته .

والمعروف أن حى البنادقة بعكا الذى لا يقل ما به من عقارات عن ٧٠٠ ، يقع على المرفأ ، ويتوسطه برج يشرف على القصر وكنيسة القديس مرقص ، اما حى الجنويين فيقع الى الشمال الغربى من حى البنـادقة ، وبه برج منيع اسمه Montejoie ، ويفصله عن حى البنادقة في الزاوية

الجنوبية الشرقية ، تل Montejoie وهو الذى يقع بأعلاه دير القديس سابا . ويرجع سر النزاع على امتلاك هذا الموقع ، الى أنه يتحكم في الميناء . وحدث في أحد أيام سنة ١٢٥٦ أن استولى الجنويون على هذا الموقع ، ثم اندفعوا الى سوق البنادقة بالشارع الرئيسى ، حتى بلغوا كنيسة القديس مرقص . واذ تلقوا المساعدة من البيازنة ، أخذوا ينهبون الدور ويحرقون سفن البنادقة الراسية بالميناء .

على أن النضال لم يلبث أن اشترك فيه البارونات الفرنج ، بعد أن كان قاصرا على الايطاليين . ذلك أنه حينما بلغت الأنباء صور ، اغتنم سيد صور ، فيليب موتتفورت ، هذه الفرصة للتخلص من سيطرة البنادقة الذين كانوا يملكون ثلث المدينة وما يجاورها من القرى العديدة، منذ أن اشتركوا مع الصليبيين في الاستيلاء عليها من أيدى المسلمين سنة ١١٢٤ ، فبادر فيليب بطرد البنادقة وأضحت حكومة المدينة كلها بيده ، كما أنه أعلن استقلاله عن نائب مملكة بيت المقدس في عكا .

واذ لقى الجنويون التأييد والمساندة من البيازنة ، حرصوا على أن يتقاسموا سويا احتكار التجارة بعكا . ولم يلبث أن انحاز الى كل فريق ، فئات مختلفة . فقد استطاع قنصل البندقية في عكا ، ماركو جيوستنيانى Giustiniani ، المعروف بالذكاء والدهاء ، أن يثير البيازنة ، ويخرجهم من التحالف مع الجنوبيين ، بل انه عقد معهم سنة ١٢٥٦ معاهدة دفاعية هجومية لمدة عشر سنوات . ثم وطد اواصر الصداقة مع بيت الابلين ، ومنهم يوحنا بارون أرسوف ، ونائب المملكة في الوقت ذاته ، ويوحنا كونت يافا ، وكلاهما اعترضا على سياسة موتتفورت المناوئة للبنادقة ، نظرا للتخوف من اعلان موتتفورت الاستقلال عن عكا فضلا عن انكارهما لما أقدم عليه موتتفورت من انتقاص حق شرعى للبنادقة بمقتضى معاهدة

سنة ١١٢٤ . يضاف الى ذلك ما أقدم عليه أحد الجنويين من محاولة اغتيال كونت يافا نفسه ، وفي دلك ما يدعو الى أن يؤثر البنادقة بتأييده . وانحاز الى معسكر البنادقة أيضا ، أرباب الحرف والصنائع في عـكا ، لما يخشونه من نهوض صور ومنافستها التجارية لمدينتهم ، فضـلا عن فرسان الداوية والتيوتون ، على حين أن الاسبتارية انحازوا الى جنوه . ومن الطبيعى أن يتلقى الجنويون تأييد أمراء جبيل الذين ينتمون لاسرة امبرياكو الجنوية الأصل ، فأثاروا بذلك سيدهم بوهمند السادس أمير انطاكية وطرابلس ، فانحاز الى البنادقة .

أضحى المجتمع اللاتينى منقسما الى معسكرات متعادية ، فالبنادقة والبيازنة يواجهون الجنوبيين ، والبروفنسال يخاصمون الكتالانيين ، والداوية والتيوتون ، ضد الاسبتارية ، والابليون ضد بيت مونتفورت . ولم يتخذ طريق الحياد الا الملكة الوصية في قبرص ، وجفرى مسارجينس الذى لم يتوافر له من الوضع والوسائل المادية ما يكفل اعادة الأمن . أما البطويرك الجديد الذى تعين في ديسمبر ١٢٥٥ ، فلم يصل الى عكا الا سنة ١٢٦٠ .

وما نشب من قتال ، يعتبر الايطاليون مسئولين عن الجانب الاكبر منه . فلم يلبث الجنويون أن هاجموا حى البيازنة بعد أن تخلوا عنهم ؛ فصارت لهم السيطرة على ميناء عكا . غير أن اسطولا ضخما للبنادقة وصل الى الميناء ، فهبط منه الى الميناء رجال أجلوا الجنويين عن أحياء البنادقة والبيازنة ، واستولوا على تل القديس سابا ، غير أنهم لم يخرجوا الجنويين من حيهم ، لما تلقوه من مساعدة الاستبارية . وظل الجنويون والبنادقة نحو سنتين ، ينقض كل فريق على سفن الفريق الآخر حتى كادت تتوقف تجارة الشرق الادنى الخارجية . وفي يونيه سنة ١٢٥٨ ، دارت

معركة بحرية رهيبة ، تجاه عكا ، تعرض فيها الجنويون لهزيمة بالغة الشدة.. واستطاع ارباب الحرف في عكا أن يوقفوا زحف موتتفورت على بلدهم ، وترتب على كل ذلك أن قرر الجنويون الجلاء عن حيهم بعكا ، والاقامة في صور غير أن أعمال القرصنة ظلت مستمرة بين الجانبين .

على أنه جرت محاولات لاعادة السلام ، ففى سنة ١٢٥٨ وصلت الى عكا ، بلايسانس ملكة قبرص والوصية على عرش بيت المقدس ، وحينما عارض ابنها بوهمند دعواها باعتبارها قيمة على ابنها اتفقت آراء الابليين والداوية والتيوتون على مساندتها ، بينما اتخذ الاسبتارية وموتتفورت جانب المدافعين عن حقوق كنرادين ، واعلنوا أنه لا يجوز اتخاذ قرار اثناء غيبته ، غير أن بلايسانس فازت آخر الأمر ، بعد أن انغمست في المنافسات الحزبية . وحاول البطريرك عند بابا روما التدخل لتسوية المنازعات ، فتقرر انفاذ مبعوثين من الجنويين والبيازنة والبنادقة ، ولما علموا أثناء سيرهم بما نشب من القتال بحرا تجاه عكا ، عادوا الى ايطاليا . ولم تجد نفعا المحاولات الاخرى التى بذلها البابا والوصية ونائبها لتسوية الامور سنة ١٢٥٩ .

ولم تلبث المفاوضات ان دارت من جديد ، بعد قدوم البطريرك الجديد ، جيمس ، سنة ١٢٦٠ . ففى يناير ١٢٦١ ، شهد الممثلون الرسميون عن البنادقة والجنويين والبيازنة ، جلسة المحكمة العليا التى انعقدت في عكا ، وتم الوفاق بين هذه الجاليات ، وبين الفئات المتنازعة من النبلاء والفرسان الرهبان . وتقررت الموافقة على أن يكون لجنوه منشآتها في صور ، بينما تختص البندقية وبيزا بما لهما من مؤسسات في عكا ، غير أن كلا من البندقية وجنوه لم تعتبر ذلك قرارا نهائيا ، فاستمرت أعمال القرصنة . على أن المصالح الرئيسية للبندقية وجنوه تركزت وقتذاك في

اـــى الشمال ، حيث أعد البيزنطيون في نيقية بالتحالف مع جنوة خطتهم ، لتوجيه ضربة قاصمة للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية التى أسهمت البندقية في قيامها . واستعادت بيزنطة آخـر الامـر بالقسطنطينيـة وصار لجنوة السيطرة على تجارة البحر الاسود التى ازدادت حجمـا وأهمية بما كان لفتوح المغول من أهمية في تطور طرق القوافل عبـر آسيـا الوسطـى .

لم يستطع بوهمند أمير انطاكية أن يخدم أخته بلايسانس ، نظرا لانغماسه في العداء مع جبيل ، اذ رفض أميرها سيادة بوهمند ، وأعلن استقلاله ، بفضل مساعدة الجنويين . وفي تلك الأثناء ، ساء النبـلاء الوطنيون في طرابلس ما حظى به من عطف أصدقاء لوسيين والـــدة بوهمند . وفي سنة ١٢٥٨ ، زحف على طرابلس برتراند امبرياكو من زعماء اسرة امبرياكو في جبيل ، وصهره يوحنا سيـد البطرون ، واعلنا تمردهما ، وتعرض بوهمند للهزيمة خارج أسوار المدينة ، وأصـابته الجراح ، ولم ينقذ المدينة الا قوة عسكرية من الداوية . واذ لقى برتراند مصرعه بتحريض بوهمند ، ازداد حنق اسرة امبرياكو ، فاعلنت عن عزمها على الانتقام .

وبوفاة الملكة بلايسانس سنة ١٢٦١ ، وقع الخلاف على الوصاية على عرش قبرص وبيت المقدس ، واستقر الأمر سنة ١٢٦٤ علـى أن يتولى الوصاية على بيت المقدس هيو الوصى أيضاعلىعرشقبرص .وبذلله يمين للولاء الجاليات الايطالية ، والطوائف الدينية العسكرية ؛ وعزم هيو على أن ينيب عنه في عكا جفرى سارجنس أثناء غيابه في قبرص .

وفي أثناء هذه السنوات ، وقعـت في الجهات المجـاورة للامارات الصليبية أحداث بالغة الأهمية . منها أن هيثوم الاول ملك أرمينيـة

الصغرى ، أعلن ولاءه وانتماءه للخان مونكو سنة ١٢٥٤ ، وحصل من الخان على الوعد بألا يتعرض للاذى والضرر ، وألا تنتهك حرمة مملكته ، واعتبره الخان كبير مستشاريه المسيحيين فيما يتعلق بأمور غرب آسيا ، ووعده باعفاء كل الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب ، وأخطره بأن أخاه هولاكو الذى استقر فعلا في حكومة فارس ، تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد وتدمير الخلافة العباسية ، وانه لو تعاونت معه الدول المسيحية ، فسوف يسترجع للمسيحيين بيت المقدس ، ولم يغب عن بال هيثوم أن يقوم بزيارة هولاكو ، وهو في طريق عودته الى أرمينيا . وحاول هيثوم أن يحمل الأمراء اللاتين على قبول فكرة التحالف المسيحي المغولى ، غير أنه لم يقتنع بهذه الفكرة سوى صهره ، بوهمند السادس أمير أنطاكية ، على أنه ظل من جانبه حريصا على التفاهم مع المغول . اذ تكررت زيارته لمقر ايلخانات فارس ، وبذل ما تطلبته الأحوال من مساعدات عسكرية . واشتركت القوات الارمنية مع المغول فيما نشب من القتال في الأناضول والشام . وترتب على انتصارات المغول ، ان استعاد هيثوم بعض البلاد التى كانت تابعة لكواسيل ، فضلا عن بعض الحصون الارمنية التى سبق ان استولى عليها السلاجقة بآسيا الصغرى .

وعلى هذا النحو أفاد الأرمن من تحالفهم مع المغول ، وأحرز هيثوم أيضا انتصارات على قلج ارسلان الرابع سنة ١٢٥٩ ، وعلى التركمان النازلين على الأطراف الغربية لقليقية (١٢٦٣) . غير أنه كان لزاما على الأرمن ان يتعرضوا للنتائج السيئة لهذا التحالف ، ولا سيما حينما حلت الهزيمة بالمغول في وقعة عين جالوت (١٢٦٠) ، فتخلوا عن البلاد التى استولوا عليها في الشام ، وأهمها حلب ودمشق ، بعد ان تعرض الارمن لهجمات بيبرس .

قيام دولة المماليك

ما حدث في مايو سنة ١٢٥٠ من مصرع توران شاه على أيدى

المماليك، أنهى حكم الأيوبيين في مصر ، وأحدث فراغا كان لا بد من المبادرة الى ملاه . واذ كان الأمراء الايوبيون بالشام يتطلعون الى امتلاك مصر منذ سنوات عديدة ، وخشى امراء المماليك أن تقدم حملة صليبية جديدة ، لتنتقم للحملة الفاشلة التى قادها لويس التاسع ، ولاطلاق سراح هذا الملك ، حرص المماليك البحرية على أن يختاروا سلطانا من بينهم ، بعد أن أصبحوا يسيطرون على الموقف في البلاد ؛ فوقع اختيارهم على شجر الدرّ باعتبارها ارملة السلطان الصالح أيوب ، وأم ولده خليل الذى مات وهو طفل ، كيما يحولوا دون الطامعين في الوصول الى الحكم من الأمراء الأيوبيين في الشام ، وأمراء الاكراد والمماليك الاقوياء أمثال **الهذبانى واقطاى ، وتولى أيبك أتابكية العساكر .**

كان هذا هو بدء قيام أسرة المماليك في حكم مصر ، مايو سنة ١٢٥٠ . ومع أن شجر الدر تنتمى الى أصل أرمنى أو تركى ، فليست الاسرة الجديدة الا استمرارا للأيوبيين ، فيما اتخذوه من سياسة . اذ أن المماليك أنفسهم أنشأهم الأيوبيون ، وتلقوا التربية والتدريب على أيديهم . أما خبرتهم في الحكومة والادارة فاقتصرت زمن الأيوبيين ، على المحافظة على الأمن في مصر والشام .

واستهلت شجر الدر اعمالها ، بأن أقرت ما سبق الوصول اليه من تسوية حول افتداء لويس التاسع والجلاء عن دمياط ، الذى تم بعد أيام من قيام الاسرة المملوكية في الحكم . وغمرت شجر الدر المماليك البحرية بالتشاريف والاقطاعات . غير أن الأمراء الأيوبيين بالشام وسائر أجنادهم لم يعترفوا بما حدث في مصر من انتزاع السلطنة من الايوبيين ، وارتضوا بأن يكون السلطان عليهم ، الناصر يوسف صاحب حلب ، فقدم الى دمشق ، فأضحى أميرا على حلب ودمشق ، وتم القاء القبض على المماليك

المرابطين بالشام . ونظرا للاعتراض على أن تتولى امرأة الحكم ، تزوجت شجر الدر من أيبك في يوليه سنة ١٢٥٠ ، وتقرر اختيار الأشرف موسى الامير الأيوبى الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره ، قسيما في الحكم .

وأثبت أيبك براعته السياسية ، بعد أن عزم الأيوبيون في الشام على استرداد مصر ، وقام بعضهم باعلان السلطنة .فلم يسع أيبك الا أن يعلن أن مصر من توابع الخلافة العباسية في بغداد ، وأنه يتولى مقاليد الحكم بها من قبل الخليفة . واذ توقع اتصال الأيوبيين بالملك لويس التاسع في عكا ، بادر باطلاق سراح جماعة من الأسرى الفرنسيين في مصر واستطاع آخر الأمر أن يقضى على آمال الأيوبيين في مصر بما أنزله من هزيمة بحملتهم التى توجهوا بها الى مصر ، سنة ١٢٥١ ووقع في أسره عدد من الامراء الأيوبيين ، ومضت عساكره الى فلسطين ، حيث قضى المماليك على أوكار المقاومة بها ، وبدا تعذر على الأيوبيين ارسال حملة جديدة لغزو مصر .

وحينما لاح خطر المغول وقتذاك في غرب آسيا ، وتهددت الخلافة في بغداد بالزوال ، دعا الخليفة الأمراء المسلمين الى نبذ الشقاق والفرقة ، والى أن يتحدوا لمواجهة الخطر المحدق بهم . ووطد مركز الدولة المملوكية الناشئة ، المعاهدة التى انعقدت في ابريل ١٢٥٣ بين أيبك والناصر يوسف، وبمقتضاها يحكم أيبك مصر وجانبا من فلسطين يمتد من الساحل الى شاطىء نهر الأردن ، ويدخل فيه بيت المقدس ، بينما يستقر الأمراء الايوبيون فيما بأيديهم من الممتلكات بفلسطين والشام . واذ اطمأن ايبك بعد هذه المعاهدة ، أطاح بالامير الأيوبى الذى كان يشترك في الحكم بمصر ، وعين قطز نائبا للسلطنة ، وقمع الثورات الداخلية ، التى دعت الى التخلص من حكم المماليك الأرقاء ، وتزعم البدو هذه الثورة ، ثم

تخلص أيبك من اكبر المنافسين له من الأمراء المماليك ، أقطاى (١٢٥٤) ، فلجأ كثير من الامراء المماليك الى الأمراء الأيوبيين بالشام، وظلوا يهددون حدود مصر (١٢٥٤–١٢٥٧) فلم يسع أيبك الا أن يلتمس العون من الخليفة، ويطلب منه تقليدا بحكومة مصر ، وجدد الهدنة التى سبق أن عقدها مع الصليبيين ، وسعى الى التحالف مع لؤلؤ أمير الموصل ، على أن يطلب منه يد ابنته ، لما لمسه من ممالأة شجر الدر للأمراء المتمردين ، على أنه لقى حتفه بتدبير شجر الدر سنة ١٢٥٧ ، ولم تلبث أن لقيت مصرعها على أيدى اتباع أيبك .

وما حدث من تخريب بغداد على أيدى المغول ، وازدياد الخطر المغولى على الشام ومصر ، أدى الى أن ينعقد مجلس بالقلعة أعلن فيه قطز انه « لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك المنصور على (بن المعز أيبك) ، صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة » ، واستطاع قطز أن ينتزع السلطنة لنفسه ، في نوفمبر سنة ١٢٥٩ . ولما حاول هولاكو أن يوقع بين الناصر يوسف وقطز ، ارسل قطز الى الناصر ، كتابا يترفق فيه ، ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، وأنه مستعد لان يرسل اليه العساكر نجدة له على القادم عليه ، (التتار) ، فاطمأن اليه الناصر .

وعلى الرغم من هذا التحالف الذى انعقد مع المماليك ، لم يستطع الناصر ان يبقى بحلب لمواجهة المغول ، بعد أن استولوا على حران ، وكانت من أملاك الناصر ، ثم اجتازوا نهر الفرات ، فاضطربت أحوال حلب ، وأضحى المسئول عن الدفاع عنها ، نائبها تورانشاه بن صلاح الدين ، بينما كان الناصر يوسف مقيما بدمشق ، وقد استبد به الاضطراب والقلق، وأدرك أنه لا بد من اللقاء مع المغول، فخيم على برزه (من ضواحى

دمشق) ؛ وكتب الى معظم الأمراء الأيوبيين ، ولا سيما ابن عمه المنصور صاحب حماه ، أن يقدموا عليه بعساكرهم ، كما أنـه ارسل الى قطز يطلب منه النجدة ، ومع ذلك ، كانت نفس الناصر قد «ضعفت وخارت» وبينما يرابط الجيش الأيوبى في برزه (بضواحى دمشق) ، أعد جماعة من الامراء المماليك مؤامرة لاغتيال الناصر يوسف لما لمسوه فيه من التخاذل ، فهرب الى قلعة دمشق واحتمى بها ، بينما هرب المماليك ، ومنهم بيبرس ، الى غزه ؛ فنادوا بالظاهر ، أخى الناصر سلطانا لما هو معروف عنه من الشهامة ؛ ولم يلبث الأمراء المماليك ان قدموا على قطـز وتم الوفاق بينهم ، ويتضح من ذلك ما كانت عليه الجيوش الأيوبية مـن الضعف وما استولى من الهلع والاضطراب عـلى السكان ، فضلا عـن المشاحنات بين المماليك ، عند قدوم المغول الى الشام .

على أن غزو المغول للشام سنة ١٢٦٠ ليس الا عملية جرى تنفيذها وفقا لأصول ومبادىء الاستراتيجية الجنكيزخانية . اذ أن خطة الحملة تقررت في اجتماع انعقد بـين هولاكو وهيثوم الأول ملك قليقية . اذ طلب هولاكو الى حليفه أن تنحاز القوات الأرمنية الى المغول ، عنـد الرها . ويشير كاتب أرمني ؛ الى أنه حينما غزا هولاكو الجزيرة ، قدم عليه جاثليق الأرمن ومنحه البركات ، فكأن هـذه الحملة اتخذت صفة حملة صليبية أرمنية مغولية ، اذ المعروف أن هيثوم في اتصاله بالمغول انما يتحدث باسمه وباسم صهره بوهمند السادس أمير أنطاكيةوطرابلس.

حروب المغول في الشام

قدم الجيش المغولى الضخم من أذربيجان قاصدا بلاد الشام ، في اوائل شهر سبتمبر ١٢٥٩ . وتولى قيـادة مقدمة الجيش ، كتبغا بينما كان عـلى ميمنة الجيش بيجو وسنقر ، وعلى الميسرة سنجاق واختص هولاكو بقلب الجيش ، وبصحبته زوجته المسيحية طقزخاتون . وقد

هبط هولاكو من كردستان الى الجزيرة ، فاستولى على نصيبين ، وخضعت له حران والرها، ودارت مذبحة في أهل سروج لاصرارهم على المقاومة . ثم نزل هولاكو على البيرة (على نهر الفرات) ، واستباح العسكر منبج ، ثم نزلوا على حلب .

خرج عسكر حلب لقتال المغول ، ولم يكن من رأى تورانشاه الخروج اليهم ، وتظاهر المغول بالفرار قدامهم ، حتى خرجوا من البلد ، ثم عادوا عليهم ، ينزلون بهم القتل ، فهرب المسلمون طالبين المدينة والمغول يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد ، واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين . ثم رحل المغول الى اعزاز فتسلموها بالأمان . والملحوظ أن مطران حلب اليعقوبى ، وهو المؤرخ الشهير المعروف ابن العبرى ، قدم الى القادة المغول ، كيما يعلن ولاءه لهولاكو .

الاستيلاء على حلب

ثم وصل الى حلب الجيش الأساسى للمغول ، بقيادة هولاكو ، وقد انحاز اليه الأرمن من قبل هيثوم ، والفرنج من قبل بوهمند السادس . واذ حرص هولاكو ، على تجنب حصار المدينة ، أشار في رسالته الى تورانشاه نائب السلطنة بحلب الى أننا نقصد الملك الناصر والعساكر . فاجعلوا لنا بحلب شحنة ، وبالقلعة شحنة ، ونتوجه نحن الى العسكر ، فان كانت الكسرة على عسكر المسلمين كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين بين الشحنتين ، فان شئتم طردتموهما ، وان شئتم قتلتموهما . على أن المعظم تورانشاه ، لم يقبل هذا الاستسلام المقنع ، وقال « ليس لكم عندنا الا السيف » .

شرع المغول في القاء الحصار على حلب في يناير ١٢٦٠ ، وافتسم

القادة المغول قطاعاتها ، فاتخذ اركاتو نويان موقعه عند باب اليهود ، بشمال المدينة ، ورابط سنجاق عند باب دمشق في الجنوب ، وأقام هولاكو عند باب أنطاكية في الغرب ، واشتدت مضايقة المغول للمدينة ، فهاجموها من جهة الجنوب ، ولم يلبثوا أن نفذوا اليها ، وبذلوا السيف في المسلمين بينما صمدت القلعة ولم تستسلم الا بعد شهر ، واستمر القتل والنهب ستة أيام ، ثم أمر هولاكو برفع السيف ونودى بالأمان . ومن سلم من القتل من المسلمين ، جرى بيعه في أسواق قليقية وفي موانى الصليبيين بالشام . واذ كان هجوم المغول موجها الى المسلمين السنيين ، صدرت أوامر هولاكو باحترام المؤسسات الدينية التى تنتمى للمذاهب الأخرى ، ومنها الخانقاه التى فيها زين الدين الطوسى ، وكنيسة اليهود وأما المسجد الجامع الكبير ، فانه تعرض للحريق ، في يناير ١٢٦٠ ، وكان ملك قليقية الذى قاتل في صفوف المغول هو الذى بادر الى اشعال الحرائق بهذا الجامع ، وامتدت الحرائق الى سائر المساجد .

وامتنعت قلعة حلب ، غير أنها لم تلبث أن أذعنت في فبراير ١٢٦٠ ، فأمر هولاكو بتدميرها وامتلأت يداه بالغنائم ، على أنه لم يمس توران شاه بسوء نظرا لكبر سنه ولم يلبث أن مات بعد أيام . وسمح هولاكو لمن بقى حيا من السكان ، أن يعودوا الى ديارهم وأملاكهم ، وعين من قبله حاكما على حلب .

ولما اشتهرت به حلب من أنها حصن منيع ، لم يستطع الظفر به الأمراء الصليبيون والأباطرة البيزنطيون ، ومن أنها كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين ، أثار سقوطها في يد التتار الفزع والوجل في نفوس المسلمين ببلاد الشام ، فوصل الى هولاكو ، بحلب ، كثير من

الأمراء المسلمين ليعلنوا ولاءهم وخضوعهم ، ومنهم الأشرف موسى صاحب حمص ، الذى سبق أن أنتزع منه الناصر امارته ، فأعادها اليه هولاكو ، على أن تكون اقطاعا وراثيا له من قبل هولاكو ، ولما رفض رجال حامية حارم أن يستسلموا الا لقائد حامية حلب ، اعتبر هولاكو ذلك اهانة له ، فأمر بقتل أهل حارم عن آخرهم وبسبى النساء ، فضلا عن رجال الحامية .

وبوصول المغول الى حارم ، اضحوا على حدود امارة انطاكية التى تحالف معهم أميرها بوهمند السادس . والمعروف أن كلا من هيثوم وبوهمند السادس ، حاز قدرا من الغنائم التى نهبها المغول من حلب . يضاف الى ذلك أن هيثوم استرد ما انتزعه سلاجقة آسيا الصغرى من أراضى قليقية ، بينما استعاد بوهمند السادس ما سبق أن استولى عليه صلاح الدين من بلاد وحصون كانت تابعة لأنطاكية ، ومن أهمها اللاذقية ، ومقابل ذلك أعاد بوهمند الى كرسى أنطاكية البطريرك اليونانى ايثيميوس .

على أن الفرنج بعكا أنكروا ما انعقد من الصداقة بين بوهمند أمير أنطاكية والمغول . فليس لاسترداد اللاذقية من الأهمية عندهم ما يضارع الاهانة التى لحقت الكنيسة اللاتينية ، بسبب اعادة البطريرك اليونانى الى مقره في انطاكية . فبادر البابا الى حرمان بوهمند من الكنيسة ، بينما وجه بارونات انطاكية رسالة الى شارل كونت انجو ، شقيق لويس التاسع (في ابريل ١٢٦٠) يصفون فيها ما ينجم عن زحف المغول من أخطار سياسية وأدبية ، ويلتمسون منه المساعدة . والراجح أن البارونات وقعوا تحت تأثير البنادقة ، فلا زال للبنادقة علاقات تجارية وثيقة مع مصر ، وتركز اهتمامهم على التجارة الواردة من الشرق

الأقصى ، والتى تتخذ الطريــق الجنوبى الى الخليج العربى او البحر الأحمر . ووجهوا اهتمامهم الى طرق القوافل المغولية التى تجتاز آسيا الوسطى الى البحر الأسود ، وبفضل تحالف الجنويين مــع البيزنطيين ازدادت سيطرتهم على هذه الطرق ، واذ تطلعت حكومة عكا الى أمير يساندها ، اختارت أن توجه رسالتها الى شارل كونت انجو نظرا لان له مطامع في البحر المتوسط ، وانــه يدبر مؤامرة لانتزاع عرش صقلية ، أما المغول فليس الحلفاء عندهم الا اتباعا . يضــاف الى ذلك ، أنــه على الرغم من أن بينهم عددا كبيرا من المسيحيين ، مثل طقزخاتون زوجة هولاكو ، والقائد كتبغا ، فليس هؤلاء الا من الملحدين النــاطرة الذين لا يكنون الاحترام للكنيسة اليونانية[1] ، وما تردد من روايــات عن نهب بغداد ، يدل على همجية المغول ، وأنه ليس لديهم قدر كبير مــن الحضارة والمدنية . فاذا وقع صدام بــين المغول والمماليك فالراجح أن ميول الفرنج وعاطفتهم سوف تتجه الى المماليك .

دمشق

من الطبيعى أن يستأنس هولاكو برأى بوهمند أمير أنطاكية عند غزو دمشق ، بعد أن أفاد ، هو وملك أرمينية ، مــن الاستيلاء عــلى حلب ، بالحصول على ما يقع من المواضع والحصون الاسلامية المتاخمة لبلادهم .

واذ تخلى المنصور الثانى عن حماه ولحق بابن عمه الناصر يوسف

---

(١) اعتبر اللاتين أن المغول انما نزعوا الى محاباة اليونانيين على حساب اللاتين . ومن الدليل على ذلك ما خص المغول به البطريرك ايثيميوس من العطف ، فاضحى مقبولا عندهم وعند البلاط البيزنطي فهو الذى صحب مارية أبنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، الى تبريز ، لعقــد قرانها من ابغا بن هولاكو وذلك سنة ١٢٦٥ .

بدمشق، حرص أعيان المدينة على أن يجنبوها ما حل بحلب من الخراب، فقدموا الى حلب واعلنوا اذعــانهم لهولاكو ، فاعطاهم الأمان ، وجعل عندهم شحنة في بلدهم خسروشاه ، من قبله ، وكان من الفرس .

ولما علم الناصر يوسف باستيلاء المغول على حلب، رحل من دمشق بمن بقي معه من العسكر ، الى جهة مصر ، وفي صحبته المنصور صاحب حماه . وبعد أن أقام بنابلس أياما ، توجه الى غزه والعريش ، على أن يمضى منها مع أصحابه الى مصر[1] . ونظرا لما شهده أهل دمشق مــن تخلى سلطانهم عنهم ، ولتجردهم مــن السلاح ، ولخوفهم من أن يحل بمدينتهم من الدمار ما حل بسائر المدن الاسلامية الأخرى ، توجه وفد من الشيوخ والأعيان للاجتماع بكتبغا . وقبل المغول ما أظهروه مــن الولاء والخضوع ، وتولى ادارة دمشق حاكم مغولى ، يساعده ثلاثــة من الفرس ، علاء الدين الشاشى ، وجمال الدين القزوينى، وشمس الدين القمى . على أن القلعة بدمشق أعلنت العصيان والتمرد فشرع كتبغا في حصارها في مارس ١٢٦٠ ، ونصب عليهــا المجانيق فاستسلمت للمغول ، فنهبوا جميع ما فيها ، وجدوا في خراب أسوار المدينة واعدام ما بها من الأسلحة . وبناء على ما تلقاه كتبغا مــن أمر عاجل من هولاكو ، تولى كتبغا بنفسه قتل والى القلعة ونائبه .

وفي الاسابيع القليلة التالية ، أتم كتبغا فتح بــلاد الشام . فتوجه أحد قادته ، كشلج خان ، الى نابلس ، وحينما حاول أهلها المقاومة جرى

---

(١) خاف الناصر ان يدخل مصر ، فيقبض عليه المماليك ، على حين ان المنصور صاحب حماه لقى مع عساكره معاملة طيبة من السلطان قطز . والقى المغول القبض على الناصر يوسف حينما حاول السير شمالا . ثــم سيره كتبغا الى هولاكو ، الذى توجه الى قراقورم ، للاشتراك في اختيار خان جديد . ولقى الناصر مصرعه على أيدى التتار .

قتل عدد كبير من السكان . وأغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام ، حتى وصلت أطراف بلاد غزه ، وبيت جبرين ، والخليل والصلت وبعلبك وبانياس ، فقتلوا وسبوا ما قدروا عليه وعادوا الى دمشق فباعوا بها المواشي وغيرها ، والملحوظ أنهم لم يهاجموا بيت المقدس .

والواقع أن سيطرة المغول كانت شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام ، اذ انهم بادروا قبل كل شيء الى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع بالبلاد التي خضعت لهم ، مثل حلب ، وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وبانياس ،والمعروف أن هذه المدن امتنعت على الصليبيين. لم يلتزم المغول ، بما اشتهروا به من التسامح مع سائر المذاهب التي تخالف مذهبهم الديني . على أن سيادتهم لم تتخذ طابع مناهضة الدين الاسلامي ، برغم أنهم ليسوا مسلمين ، بل كانوا بوذيين وشامانيين ونساطرة . ومع ذلك أقاموا في حكومة المدن الشامية حكاما يخالفون عادة السكان الأصليين من حيث العنصر والمذهب ، وكان معظمهم من الفرس الشيعيين . والمعروف أن النساطرة ازداد عددهم في الجيش ، وفي بعض الأحوال نصادف قادة من النساطرة ، اذ أن كتبغا كان من النايمان النساطرة ، ولذا نلحظ طابع النساطرة ظاهرا في أعمالهم . ومن الطبيعي أن يتآخى هؤلاء النساطرة مع الجماعات الأرمنية واليعاقبة والملكانية التي تكاثر عددها في البلاد الكبيرة أمثال حلب ودمشق ، فضلا عن النساطرة أنفسهم في ملطيه ، وحلب ودمشق ولبنان .

ولما دخل كتبغا الى دمشق على رأس الجيش المغولي في مارس ١٢٦٠ ، كان بصحبته ملك أرمينية وأمير أنطاكية . وشهد سكان عاصمة الخلافة الأموية ، دمشق ، لأول مرة منذ ستة قرون ، ثلاثةامراء مسيحيين يشقون بموكبهم شوارع المدينة . فسقوط المدن الثلاثة الكبيرة في أيدي

المغول ، بغداد ، وحلب ، ودمشق ، يعتبر من الكوارث الفاجعة التى هزت العالم الاسلامى ؛ وترتب على سقوط دمشق في أيدى المغول أن أعلن المسيحيون بها التمرد ، ولم يخفوا فرحتهم بما حل بالمسلمين من نكبة . ولم يخف كتبغا ما يكنه من الميل نحو هؤلاء المسيحيين . ويشير المقريزى الى أن النصارى بدمشق استطالوا على المسلمين ، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم واقامة دينهم ، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان ، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات وصبوه على أبواب المساجد ، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام اذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب ، وصاروا يمرون به في الشوارع الى كنيسة مريم ، ويقفون ، ويخطبون في الثناء على دينهم ، وقالوا جهرا « ظهر الدين الصحيح دين المسيح » . فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو (وهو كتبغا) ، فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظّم قدر قسوس النصارى ، ونزل الى كنائسهم وأقام شعارهم . وجمع الزين الحافظى ، الذى قام بامر دمشق للمغول ، من الناس أموالا جزيلة واشترى بها ثيابا وقدمها لكتبغا نائب هولاكو وسائر الأمراء المقدمين من المغول ، وواصل حمل الضيافات اليهم في كل يوم » . فاشتدت ثائرة المسلمين للأنتقام .

أضحى المغول ، بعد أن دانت لهم حلب ودمشق وتوابعهما ، يتاخمون الامارات الصليبية . والمعروف أن هيثوم ملك قليقية (أرمينيه الصغرى) وبوهمند السادس أمير أنطاكية صارا من أتباع هولاكو وأفادا من هذه التبعية بما حصلا عليها من أراضى ، وبما كان لهما من مكانة عند المغول . أما مملكة بيت المقدس التى تشمل ما يقع على الساحل من حصون أمثال بيروت وصور وعكا ويافا ، ولم يدخل في نطاقها بيت المقدس ذاتها ، فكان يتولى حكمها في عكا ، الصنجيل

جفرى سارجينس نائبا عـن ملوكها الشرعيين في قبرص . ومـا وقـع بالمسلمين في الشام من كارثة على أيدى المغول ، وما كـان من انحياز ملك أرمينية وأمير أنطاكية الى المغول ، قد يؤدى الى أن يدخل في هذا التحالف الوصية على مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس ، بلايسانس شقيقة بوهمند السادس ، والى استعادة الأراضى المقدسة ، وما كان من العداء المشترك الذى يكنه كل من الفرنج والمغول للمماليك ، كل هذه العوامل تقضى بضرورة عقـد محالفة بـين المغول والصليبيين . وعلى الرغم من أن المغول صاروا يتاخمون امارات الفرنج ، فانهم لم يضمروا العداوة للصليبيين ، بشرط أن تتوافر النية الطيبة عند الصليبيين أيضا . حرص الصليبيون على أن يتجنبوا كل اثارة للمغول ، غير أنه لم يكن بوسعهم أن يضبطوا تصرفات المتهورين منهـم ، وحدث فعلا ما كـان يخشاه الأمراء الصليبيون . ذلـك أن جوليان أمـير صيدا ، وشقيف ارنون ، وهو رجل وسيم ضخم الجثـة ، اشتهر بالميـل الى المجون والمباذل ، والتهور ، ولم يحز شيئا من ذكاء جده رينالد . وما اشتهر به من التبذير حمله على أن يرهن امارته ، صيدا ، لدى الفرسان الداوية ، مقابل أموال طائلة استدانها منهم . وما اتصف به من سوء الخلق وسرعة الاثارة ، دفعه الى الشجار والخصام مع فيليب أمير صور الذى يعتبر من أعمامه ، تزوج من احدى بنـات هيثوم ، غير أنه لـم يكن لصهره تأثير عليه . وما نشب من القتال بين المغول والمسلمين ، هيأ له الفرصة لأن يغير من الشقيف على أرض البقاع الخصيبة . ولم يكن لكتبغا لأن يجيز لهؤلاء المغيرين أن يفسدوا ما استقر من نظـام المغول فأرسل ثلة من العساكر بقيادة ابن أخته ، لرد المعتدين ولانزال العقاب بهم . ولـم يلبث جوليان أن استنفر جيرانه للنهوض الى مساندته ، فاستطاعوا أن يوقعوا القائد المغولى في كمين وأن يجهزوا عليه . ولم يسع كتبغا الذى اشتدت ثائرته ، الا أن يرسل جيشا كثيفا ، نفذ الى صيدا ونهبها ، وأنقذ

قلعة المدينة ما تلقته من مساعدة من أسطول جنوى قدم من صور . ولما سمع هيثوم بهذه الانباء استشاط غضبا ، وأنحى باللائمة على الداوية الذين استغلوا خسائر جوليان ، كيما ينتزعوا منــه صيدا والشقيف ، لعجزه عن تسديد الأموال التى استدانها منهم . وما قام به يوحنا الثانى صاحب بيروت والداوية من الغــارة على الجليل ، ولم يمض الا فترة قصيرة على الغارة السابقة ، لقيت مــن القوات المغولية ما تستحقه من العقاب والردع .

وفاة مونكوخان سنة ١٢٥٩

على أنه لم يكن في استطاعة كتبغا أن يمضى في حملات كبيرة ، اذ أن الخــان مونكو ، قضى نحبــه في ١١ أغسطس سنــة ١٢٥٩ بينما كان يشترك مع أخيه قوبيلاى في القتال بالصين . وكــان ابناؤه صغار السن لم يكتسبوا شيئا من الخبرة والتجربة . على ان أريق بوكا أصغر اخوة مونكو ، فرض سلطانه على الموطن الأصلى لأسرة جنكيزخان ، حيث تقع قراقورم ، وتستقر به الخزانة المركزية للأمبراطورية ، وحرص على أن يتولى العرش . وظل اريق بوكا شهورا عديدة يسعى للحصول على أصدقاء له ، وعقد كل من الأخوين، اريقبوكاوقوبيلاى ، قوريلتاى في ربيع سنة ١٢٦٠ ، وتقرر انتخاب اريق بوكا خانا كبيرا ، بعد أن سانده معظم أفراد الأسرة في منغوليا ، على حين أن قوبيلاى حظى بتأييد قادة الجيش . على أن اجتماع كــل من المجلسين كــان باطلا ، نظرا لأنه لم يشهده سائر فروع أسرة جنكيزخان . ولم يكن كل من الأخوين مستعدا للانتظــار حتى يجرى اخطــار هولاكو وسائر القبيلة الذهبيــة وبيت جغتاى ، حتى يتيسر لهم ارسال مندوبين عنهم أو القدوم بأنفسهم . كان هولاكو يميل الى اختيار قوبيلاى ، بينما انحــاز ابنه شوموجهار الى

جانب اريق بوكا . ولم يستطع قوبيلاى أن يقهر منافسه الا في نهاية سنة ١٢٦١ . وأخذ هولاكو يرقب الأحداث الجارية بالقرب من الطرف الشرقى لممتلكاته ، وقد تجهز للتحرك الى منغوليا متى دعت الحاجة الى ذلك . والواقع أنه توافر له من الأسباب ما يبرر قلقه ، اذ أن أريق بوكا كان ظالما عند تدخله في أمور خانية تركستان ، بأن عزل الوصية على العرش اورخانه ، وأحل مكانها الجو ابن عم زوجها والذى بذل له من المساعدة ما جعله يفوز بتركستان . غير أن قوبيلاى استطاع أن يجتذب اليه الجو الذى أسهم فيما أحرزه قوبيلاى من الانتصار . وخشى هولاكو أن يحدث بممتلكاته تدخل من هذا القبيل . يضاف الى ذلك ما كان من ازدياد العلاقات سوءا بين هولاكو ، وبنى عمومته خانات القبيلة الذهبية (القبجاق) . اذ أن بركة خان ، زعيم القبيلة الذهبية كان يميل الى المسلمين ، بينما حرص هولاكو وحاشيته على ارضاء المسيحيين . وتعرض للتأنيب والتقريع من قبل بركة ، الذى أنكر عليه ما أنزله من الدمار ببغداد ، وما تعرض له الخليفة من الهوان والاغتيال على يديه ، ولذا وقع الاحتكاك دائما بينهما عند القوقاز ، وهى الجبال التى تفصل بين منطقتى نفوذهما وسلطانهما . وما قام به بركة وقادته من اضطهاد للقبائل المسيحية ليس الا ردا على ما سلكه هولاكو وقادته من سياسة مناوئة المسلمين واذلالهم . وحينما حاول هولاكو أن يفرض سلطانه على الجانب الشمالى لجبال القوقاز ، أنزل نوغاى حفيد اخى بركة ، الهزيمة الساحقة بجيوش هولاكو .

الفصل الثالث عشر

المغول وعلاقتهم بمصر

سبق الاشارة الى ما وضعه مونكو خان المغول من خطة ترمى الى تحطيم الاسماعيلية وتدمير الخلافة ببغداد ، وانتزاع ما يخضع لسلطانها من الأقاليم ، من فارس والشام ومصر . وعهد الى أخيه هولاكو أن يقوم بتنفيذ هذه الخطة ، بعد أن جعل له حكومة فارس ، وأطلق يده فيما يتخذه من تدابير لتحقيق هذا الهدف . والواقع أن المغول أفادوا من الأحوال السيئة التى أحاطت ببلاد فارس والشام وآسيا الصغرى ومصر ، فضلا عن الحروب الداخلية التى نشبت بين الامارات الصليبية ، فتحقق لهم ما أرادوا من القضاء على قلاع الاسماعيلية ، وتدمير بغداد، وفرض سلطانهم على اقليم الجزيرة وأذربيجان حتى جبال القوقاز ، ولم يجدوا من الأمراء الأيوبيين من المقاومة ما يردهم عن المضى في سياستهم ، فاضحوا يهددون أطراف مصر الشمالية الشرقية . وفي تلك الأثناء مات مونكو خان في اغسطس سنة ١٢٥٩ ، فكان لزاما على

هولاكو أن يعود الى مقر خانيته ، حتى يكون قريبا من مجرى الأحداث في منغوليا ولا سيما بعد أن وقع النزاع بين قوبيلاى وأخيه الأصغر اريق بوكا على ولاية عرش جنكيزخان ، ويصح أن تقتضى الأحوال منه أن يتولى الفصل في هذا النزاع ، فلا بد أن يكون قريبا من الحدود الشرقية ، كيما يتحرك الى منغوليا اذا كانت الحاجة ماسة اليه ، يضاف الى ذلك ما تعرضت له أطراف مملكته من جهة القوقاز للتهديد من قبل ابن عمه بركة خان القبجاق الذى كان يميل الى المسلمين ، مثلما كان هولاكو يعطف على المسيحيين ، بل انه أنّبه وأنكر عليه ما أجراه من مذابح في سكان بغداد ، ومن قتل الخليفة العباسى . ولكل هذه الأسباب ، أبقى هولاكو في الشام وفلسطين قوة عسكرية ، اختلف المؤرخون في تقدير عددها ، بين ٢٠ ألف ، ١٠ آلاف ، تحت قيادة كتبغا ، ثم عاد هولاكو الى فارس .

واذ صار كتبغا مسئولا عن حكومة الشام وفلسطين ، كانت نواياه طيبة تجاه المسيحيين ، لا لأنه فحسب من النساطرة ، بل لأنه أدرك أهمية قيام تحالف بين المغول والفرنج . على أنه اذا كان ملك قليقية ، هيثوم ، وأمير أنطاكية ، بوهمند السادس يشاركانه الرأى في هذا الاتجاه ، فان بارونات المملكة بعكا لا زالوا يعتبرون المغول متبربرين ، ويؤثرون عليهم المسلمين . وما حدث من الاعتداءات المتكررة التى قام بها أمير صيدا على المغول المجاورين له ، وما ترتب على ذلك من قيام المغول بنهب صيدا ، أضاع الأمل في عقد محالفة بين المغول والفرنج . ومن الطبيعى أن يفيد المماليك من النزاع بين المغول والصليبيين ، اذا تهيأت لهم الأحوال ، لأن ينزلوا الهزيمة أولا بالمغول ، ثم بالصليبيين ، ولان يطاردوا المغول الى ما وراء نهر الفرات ، ثم يقذفون بالفرنج الى البحر . فما وجهه الفرنج الى شارل أنجو من رسالة في ابريل سنة ١٢٦٠ ، تنطوى

على ميلهم الى المسلمين وعلى أساهم وحزنهم على سقوط حلب وحمص وحماه في أيدى المغول وعلى ما حل بالأيوبيين من كارثة ، ولذا كـان متوقعا أن يستند الفرنج الى تأييد المماليك ضد المغول ، وأن يلتمسوا المساعدة من قطز وبيبرس لمواجهة كتبغا .

حينما استقر الملك للسلطان قطز ، وعـاد الى مصر أمراء المماليك الذين سبق أن هربوا من مصر زمن السلطان ايبك وانحازوا الى السلطان النـاصر يوسف في دمشق ، ومـن هؤلاء الأمراء بيبرس ، الذى لقى الترحيب والتكريم من قطز ، وقد اخذ يتهيأ للقاء بعد أن كانت القلوب قد أيست من النصرة على التتار ، الذيـن استولوا على معظم بـلاد المسلمين ، وانهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ، ولا عسكرا الا هزموه ، ولم يبق خارج حكمهم في هـذا الجانب الا الديـار المصرية والحجاز واليمن ، واذ بلغ الخوف بالناس في مصر ، أن هرب جماعة من المغاربة الذين كانـوا بمصر الى الغرب ، وهرب جماعة مـن الناس الى اليمن والحجاز ، بينما عاش الباقون في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعـون دخول العدو وأخذ البلاد .

وفي أوائل يناير سنة ١٢٦٠ ، وجه هولاكو سفارة الى مصر تطلب الى السلطان قطز التسليم ، ووصل الرسل الى مصر بكتاب نصه :

« من ملك الملوك ، شرقا وغربا ، القان الأعظم ، باسمك اللهم ، باسط الأرض ورافع السماء ، يعلـم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا[١] الى هـذا الأقليم يتنعمون

---

(١) هنا اشارة الى أصل قطز ، الذى ينتمى الى الخوارزمية

بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعـد ذلك . يعلم الملك قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على مـن حلّ به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر . فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم ، قبل ان ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البـلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العبـاد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا مـن مهابتنا مناص . فخيولنا سوابـق ، وسهـامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلـوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فانكـم آكلتم الحرام ، ولا تعفون عند الكلام ، وخنتم العهود والايمان وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهـوان . « فاليـوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذيـن ظلموا أى منقلب ينقلبون » . فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . فان أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا . وان خالفتم هلكتم ، فلا تهلكـوا نفوسكم بأيديكم ، فقـد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكـام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلـوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبـل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها . فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرازا . وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكـم خالية . فقد أنصفناكم اذ راسلناكم ، وأيقظناكم اذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد

سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هلاون قد أتى   بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة   ويلحق أطفالا لهم بالأكابر

فاجتمع قطز بالأمراء للتشاور في الأمر ، والمعروف أنهم جميعا مماليك من الترك ، جاءوا من بلاد قبجاق او التركستان أو خوارزم وأن جماعات من الخوارزمية دخلت في الجيش المملوكى ، وفي جيوش صاحب حماه وصاحب الكرك من الأيوبيين . ولا شك ان قطز أفاد من رحيل هولاكو الى فارس على رأس معظم الجيش المغولى بالشام ، فمن تبقى من عساكر المغول ، تحت قيادة كتبغا يتراوح عددهم بين ١٠ آلاف و ٢٠ ألف رجل . وزاد في حرج مركز كتبغا ما أظهره الفرنج من العداء للمغول .

وقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠.

على أن مبادرة قطز لقتال المغول لم ترجع فحسب الى أوضاع المغول والصليبيين فيالشام، بل ترتكن أيضا الى ايمانه وعزمهعلى الجهاد، ومن الدليل على ذلك حديثه الى الأمراء الذين أظهروا التردد في الرحيل اذ قال لهم « يا أمراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وانتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » ، وأشار الى أنه يلقى التتار بنفسه . وتقرر قتل الرسل الموفدين من قبل كتبغا ، أى أن الحرب لا مفر منها . على أن هذه الحماسة والشجاعة نلمسها أيضا في بيبرس ، الذى وقف ، أثناء وجوده مع المماليك البحرية المنفيين في الشام زمن السلطان أيبك ، على ما أصاب

الناصر يوسف من الخوف والوجل ، والى ما كان من تخاذل الأمراء عن قتال هولاكو ، فاتهمهم بيبرس بأنهم سبب هلاك المسلمين ، وقرر العودة الى مصر كيما يسهم فيما يجرى من استعداد حربى لقتال المغول ، فطلب اليه قطز أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار المغول ، فسار الى غزه وبها جموع التتر بقيادة بيدر الذى بعث الى كتبغا ينذره بزحف المماليك ، غير أنه لم يستطع الصمود للجيش المصرى ، فرحل عن غزه ، التى ملكها بيبرس (يوليه ١٢٦٠) .

كان كتبغا وقتذاك في بعلبك ، فتجهز للمسير ازاء بحر الجليل ، الى وادى نهر الأردن ، غير أنه توقف عن المسير لما قام من حركة ثورة وتمرد في دمشق ، فحينما ذاع بين أهل دمشق خروج العساكر من مصر لقتال التتر ، أوقعوا بالنصارى ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع ، فنهبهم المسلمون ، وخربوا كنيسة مريم ، وكانت الحاجة ماسة الى العساكر التتار لاعادة الأمن الى نصابه ، وفي تلك الأثناء عزم قطز على أن يتخذ طريق الساحل الفلسطينى ثم يفارقه الى الشمال ، كيما يهدد مواصلات كتبغا اذا زحف على فلسطين . فتوجهت سفارة مصرية الى عكا تطلب من الفرنج السماح للجيوش الاسلامية باجتياز بلادهم ، وبشراء ما تحتاجه من المؤن .

اجتمع البارونات الفرنج في عكا للتشاور في هذا الطلب . والواقع أنهم لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم للمغول ، بعد أن قاموا بمهاجمة صيدا ونهبها ، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية ، على حين أنهم اتصلوا بالحضارة الاسلامية وألفوها ، بل ان معظمهم كانوا يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين ظفروا بعطف المغول . أبدوا أول الأمر استعدادهم الى أن يبذلوا للسلطان

مساعدة عسكرية ، غير أن مقدم طائفة الرهبان التيوتون ، أنوسانجرهاوسن Anno of Sangerhausen ، أنذرهم أنه متى انتصر المسلمون على المغول ، فلم يأمنوا جانبهم . على أن قطز نفسه شكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة ، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه . والواقع أن مصالح الرهبان الفرسان تحكمت في سياسة الفرنج ، فالمعروف أن لطائفة التيوتون ، أملاكا كثيرة في مملكة أرمينية الصغرى ، وأن مقدمهم ، فيما يبدو كان يقدر سياسة هيثوم . وكيفما كان الأمر استجاب الأمراء الصليبيون لرغبة السلطان قطز في أن يأذنوا له باجتياز أراضيهم ،وأن يمدوه بالمؤن اللازمةلجيشه .

وقاد السلطان جيشه على امتداد الساحل ، في أغسطس ١٢٦٠ ، وأقام أياما بعسكره بالحدائق خارج عكا ، على أنه جرت دعوة كثير من أمراء المماليك لزيارة المدينة ، ومنهم بيبرس . ضاق الفرنج بكثرة عدد الزائرين لعكا ؛ غير أنهم قبلوا هذه الزيارات ، لما كانوا يأملون من شراء الأفراس التى تقع في أيدى المسلمين بعد انتصارهم على المغول بأثمان منخفضة .

ولا شك أن القوات المصرية أفادت من فترة الراحة ، وتوافر المؤن التى تهيأت لها في عكا ، يضاف الى ذلك أن قطز استطاع أن يقف على تحركات جيش كتبغا ، فعلم أنه اجتاز نهر الأردن ، ونزل بشرق بحر الجليل ، وتألف الجيش المغولى من الفرسان المغول ومن قوات من الكرج والأرمن ، واكثر ما اعتمد عليه كتبغا في حربه ، ما تأصل فيه من الاعتقاد بأن عساكر المغول لا تقهر ؛ ولم تكن لديه كشافة ، ولم يلق من السكان المحبة والمودة ، ولم يكن يعلم بأن الجيش المصرى ينزل موضعا قريبا منه ، اذ أن قطز توجه من عكا صوب الجنوب الشرقى ، فاجتاز

الناصرة، ومضى في سيره حتى بلغ عين جالوت في ٢ سبتمبر سنة ١٢٦٠ . واذ اطمأن قطز لتفوق جيشه في العدد ، أخفى الجانب الأكبر من الجيش في التلال المجاورة ، ولم يظهر من الجيش الا مقدمته التى كان يقودها بيبرس ، وبذا وقع كتبغا فيما نصبه له المماليك من فخ . وكان قطز قد اجتمع بالأمراء ، فحضهم على قتال التتار وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق ، وخوفهم وقوع مثل ذلك ، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الاسلام والمسلمين وحذرهم عقوبة الله، فضجوا بالبكاء ، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد . فبادر كتبغا بالهجوم بجيشه على قوات المماليك التى احتشدت أمامه ، وأخذ بيبرس في مناوشتهم ، فتارة يقدم وتارة يحجم ، ويرتد الى التلال . فاشتدت مطاردة المغول له ، حتى أكمل تطويق الجيش المغولى ، وعندئذ استحر القتل واستبسل كتبغا في القتال ، واضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه ، وعندئذ ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه الى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته « وا اسلاماه » وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره واستطاعت جماعة من رجاله أن يشقوا طريقهم الى خارج المعركة ، غير أن كتبغا ظل يقاتل ، حتى لقى مصرعه[١] على يد الأمير جمال الدين أقوش الشمسى. وبذا انتهت المعركة في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ (سبتمبر ١٢٦٠) .

ولم ينكر المؤرخون المسلمون ما كان لكتبغا من صفات ، اذ أشاروا الى أنه كان عظيما عند التتار يعتمدون على رأيه وشجاعته

---

(١) تشير بعض المراجع الى ان كتبغا وقع اسيرا . وحينما قدم على السلطان قطز صار يسخر منه ، غير انه رد في كبرياء بانه سوف يحل بالمماليك الانتقام ، وانه يختلف مع الامراء المماليك في انه ظل دائما مخلصا لسيده ومولاه ، وعندئذ أمر السلطان بقتله . انظر
Runciman : History of the Crusades III. p. 313

وتدبيره. وكان بطلا شجاعا مقداما ، خبيرا بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك ، وهو الذى فتح معظم بلاد العجم والعراق . وكان هولاكو ملك التتار يثق به ، ولا يخالفه فيما يشير اليه ، ويتبرك به . وقد استراح الاسلام منه ، فانه شر عصابة على الاسلام وأهله .

ولمعركة عين جالوت نتائج بالغة الأهمية ، فلأول مرة يلقى المغول هزيمة حاسمة ، ويتعرض جيشهم للدمار التام . واشتد الحزن والأسى بهولاكو عند سماع هذه الكارثة . فما زعمه المغول لجيشهم من قوة خارقة ، وزاد في أثرها ما حل من الخوف والرعب بضحاياهم ، ليس الا خرافة . فنهضت دمشق لترفع عن كاهلها نير المغول ، اذ أن « القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ، ولأنهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ، ولا عسكرا الا هزموه ، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم » . فلما ورد خطاب السلطان الى دمشق يبشر الناس بفتح الله له ، وخذلانه التتار ، اشتد سرور الناس ، وبادروا الى دور النصارى فنهبوها ، وأخربوا ما قدروا على تخريبه ، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم ، وقتلوا عدة من النصارى ، واستتر باقيهم ، اذ كانت النصارى أثناء استيلاء التتار على دمشق ، خربوا ما كان بجوار كنائسهم من المساجد والمآذن ، وأعلنوا بضرب الناقوس ، وركبوا بالصليب ، والزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصليب ، ومن لم يقم أهانوه ، وشربوا الخمر في الطرقات ، ورشوه على المسلمين .

ثم نهب أهل دمشق اليهود حتى لم يتركوا لهم شيئا ، ثم كفوا عنهم ولم يسلم أعوان التتار من غضب السكان ، فقتلوا من صادفهم منهم . وأمر السلطان قطز بقتل أحد الأمراء الأيوبيين ، وهو السعيد بن العزيز، صاحب الصبيبة وبانياس الذى كان في صحبة كتبغا أثناء القتال ، كما

أمر بشنق جماعة من المنتسبين للتتار فشنقوا .

ولم يقنع المماليك بنصر واحد على المغول ، فان ما حل بالمغول من الهزيمة والانكسار ، دفع المماليك الى مطاردتهم ، اذ ورد الخبر على السلطان بدمشق في اكتوبر ١٢٦٠ بأن المنهزمين من رجال التتار ونسائهم، لحقهم عسكر بيبرس ، بالقرب من حلب فأطلقوا سراح من كان في أيديهم من أسرى المسلمين ، ورموا أولادهم فخطفهم الناس ، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه .

اصبحت بلاد الشام حتى نهر الفرات خاضعة لسلطنة المماليك في مصر . وحينما حاول هولاكو في نوفمبر ١٢٦٠ أن يوجه طائفة من عساكره ، مضوا في زحفهم حتى بلغوا حلب ، فنهبوها ، تعرضوا للهزيمة بالقرب من حمص ، في ديسمبر ١٢٦٠ ، فارتدوا الى ما وراء نهر الفرات .

والواقع أن ما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ المسلمين والاسلام من أشد ما تعرضوا له من أخطار . فلو أن المغول تفذوا الى مصر فما بقي في العالم الاسلامى ، الى الشرق من المغرب ، دولة اسلامية قوية ، فعلى الرغم من أن المسلمين بآسيا كانوا من وفرة العدد ما لم يكن في وسع المغول ابادتهم ، غير أنهم لم يؤلفوا عنصرا حاكما قويا ، ولو تحقق النصر لكتبغا المسيحى ، لازداد عطف المغول على المسيحيين . فبلاد العراق وايران ، التى كانت اكبر معقل للاسلام ازاء الفرنج ، أضحت بعد سقوط بغداد ، مركزا لبلاط مغولى ، شديد العطف على المسيحيين، وأضحى البطريرك النسطورى ، بعد زوال الخلافة ، من أهم رجال الدولة المغولية ، وصار له سلطان ونفوذ كبير . أما دمشق التى امتنعت

على بلدوين الثانى ولويس السابع ، فقد أعلنت خضوعها للقائد المغولى المسيحى كتبغا ، واذ احس سكانها المسيحيون بمساندة المغول لهم استطالوا على المسلمين ، فحولوا مسجدا الى كنيسة . وأضحت بلاد الشام يقتسمها المغول والصليبيون . فلو تيسر للمغول الانتصار في معركة عين جالوت لامتد سلطانهم الى ما شاءت ارادة خانهم له من الحدود ، حتى تبلغ ليبيا وبلاد النوبة ، ولاسترد الفرنج مملكة بيت المقدس .

ومن نتائج انتصار المماليك في عين جالوت ، أن احتفظت مصر بما لها من حضارة ومدنية ، فلم تتعرض لما تعرضت له بغداد من الخراب والدمار ، وتحطيم كل ما كانت تزخر به بغداد من الفنون والعلوم والآداب ، بينما كانت أوربا تتردى في الجهل ، فاضحت القاهرة المركز الجديد للاسلام ، اذ هرع اليها عدد كبير من العلماء المسلمين وأضحوا باعثا لافاقة جديدة للاسلام . وما حدث زمن السلطان بيبرس من احياء الخلافة العباسية ، هيأ لمصر أن تصير لها الزعامة والقيادة في العالم الاسلامى .

وبفضل انتصار المماليك في عين جالوت ، أضحت سلطنة المماليك أقوى دولة في الشرق الأدنى لمدة تزيد على قرنين من الزمان ، الى أن ظهر الأتراك العثمانيون . فما حدث حتى سنة ١٢٥٩ من انقسام امبراطورية صلاح الدين في مصر والشام والجزيرة بين الأمراء الأيوبيين ، وما تلى ذلك من العداء بين سلاطين الايوبيين في مصر وسائر الأمراء الأيوبيين ، ثم قيام دولة المماليك سنة ١٢٥٠ ، وما ترتب على ذلك من العداء بين المماليك في مصر ، والأيوبيين في الشام وافادة المغول والصليبيين من هذا الانقسام ، كل هذه الاوضاع تغيرت بعد زحف المغول على بلاد

الشام ، اذ أسهم المغول في تدمير سلطان الأيوبيين بالشام ، وفي ازالة الانقسام بين المسلمين في الشام ومصر . فما قام به المماليك من تحرير بلاد الشام واستخلاصها من المغول ، هيأ لهم الفرصة الى أن يضيفوا الى دولتهم كل بلاد الشام ، ومن استقر من الأمراء الأيوبيين في امارته ، صار يحكم باسم السلاطين المماليك ، فولى المنصور امر حماة والمعرة ، وعاد الأشرف موسى الى حمص .

واذ ترتب على معركة عين جالوت ، أن تداعى أمر المسيحيين الوطنيين في آسيا ، بينما ارتفع شأن المسلمين ، وكان ذلك من العوامل التى حملت من بقى من المغول في غرب آسيا على اعتناق الاسلام .

وعجلت وقعة عين جالوت بزوال ما تبقى من الامارات الصليبية ، فما كان من مشروع اقامة تحالف بين المغول والصليبيين قد تبدد . وما كان من الحروب الداخلية بين العناصر المختلفة في مملكة بيت المقدس ، وما جرى من التنازع بين البارونات وبين الأوصياء على العرش ، وضعف الأمل في قدوم أمداد صليبية من الغرب ، فضلا عن موقف انطاكية وقليقية العدائى ازاء المسلمين ، وتوحيد الجبهة الاسلامية ، كل ذلك يؤذن بأن زوال الامارات الصليبية بات محققا .

وترتب أيضا على انتصار قطز على المغول في وقعة عين جالوت أنه لم يسنع الخطر عن مصر فحسب ، بل انه أنقذ أوربا تبعا لذلك من تهديدهم .

بيبرس والمغول

الواضح أن ما أقامه المماليك من نظام للحكم في مصر يختلف عن نظام الأيوبيين . واذ جاءوا أرقاء من أسواق البحر الأسود وبحر قزوين ، اعتمدوا في الوصول الى العرش على اعتبارات خاصة ، منها

الرق ، ومنها أن يكون الواحد منهم مجلوبا مـن خارج حدود الديار المصرية ، وان يتوافر له مـن الصفات ما يؤهله للسلطنة ، كالفروسية وكثرة عدد زملائه (خشداشيته) ، فضلا عما يشتهر به من الاقدام والمكر والقدرة على اجتذاب الرفاق اليه. ولذا حفل عصر المماليك بما قام به من انقلابـات عسكرية . وعلى أساس هـذه القاعـدة ، أقـام السلاطين المماليك حكمهم ، فلا يقرون مبدأ الوراثة ، واذا أقروا سلطنة ابن احد السلاطين ، فليس ذلك الا من قبيل الولاء للسلطان السابق مـن جهة ، وتحين الفرصة للتخلص من السلطان الطفل من جهة أخرى .

واذ حانت الفرصة لبيبرس أن يتخلص مـن قطز ، وهو في قمة مجده ، لم يتردد مطلقا في الاطاحة به . اذ أنه دبر المؤامرة باحكـام في طريق العودة الى القاهرة بعد الانتصار علـى المغول في عين جالوت ، فلقى قطز مصرعه ، وأقبل الأمراء المماليك والعساكر علـى بذل الولاء للسلطان الجديد بيبرس في نفس اليوم الذى لقى فيه قطز مصرعه (١٧ ذى القعدة ٦٥٨ ـ ٢٤ اكتوبر ١٢٦٠) .

على أن الأمير سنجر الحلبى الذى جعله قطز نائبا عنه في حكومة دمشق ، جمع الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة في أوائل ذى الحجة سنة ٦٥٨ (١٢٦٠) ، وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه. واغتنم المغول فرصة الانقسام الذى وقع بـين المماليك ، فبادروا بشن هجوم عـلى الشام . فتوجه أحد قادتهم من أعالى الجزيرة الى البيرة وأنزل الهزيمة بجماعة من عساكر حامية حلب ، في نوفمبر سنة ١٢٦٠ ، ثم استولى على حلب ، وقتل عددا كبيرا مـن سكانها انتقـاما لمصرع كتبغا . ومضى المغول في زحفهم حتى بلغـوا ضواحى حماه وحمص . غير أنـه نظرا لانصراف هولاكو وتتذاك الى قتال ابن عمه بركة خان القبجاق ، على

حدود القوقاز ، لـم يستطع برغم غضبه لمصرع كتبغا ، أن يوجه مددا الى الشام ، ولم تكن القوات التى توجهت للاستيلاء على حاب سوى الحاميات المرابطة باقليم الجزيرة . واستطاع أميرا حماه وحمص ، أن يحرزا انتصارا باهرا علـى المغول بالقرب من حمص ، في ديسمبر سنة ١٢٦٠ ، فاستقرت بذلك الأوضـاع الناجمة عـن معركة عين جالوت ، وجرى دفع المغول الى شرق الفرات .

كان لزاما على بيبرس اول الأمر أن يوطد مركزه في السلطنة . لم يلق مقاومة في مصر ، انما جاءت المعارضة من قبل سنجر الحلبى الذى أعلن نفسه سلطانا بالشام ، واقترن ذلك بهجوم المغول على حلب ، واذ أحرز أميرا حماه وحمص النصر على المغول استطاع بيبرس أن يلتقى مع خصمه في معركة حاسمة خارج دمشق في ١٧ يناير سنة ١٢٦٠ ، أدت آخر الأمر الى الاستيلاء على دمشق والقضاء على المقاومة . ثـم بادر بيبرس الى اعادة تنظيم الحكومة في الشام، فتقرر طرد أمير الكرك الذي كان يأمل في الوصول الى السلطنة ، بينما جرى الاتفاق على أن يبقى الأشرف صاحب حمص على امارته حتى وفاته (١٢٦٣) فتقرر بعدئذ اضافتها الى أمـلاك السلطنة . أما أمير حماه وأسرته فظلوا يحكمـون حماه لمدة ثلاثة أجيال ، والواضح أنه لم يتحقق لهـم ذلك الا نتيجة علاقاتهم الطيبة وولائهم للسلطنة المملوكية ، وأراد بيبرس أن يجعـل السلطنة سندا دينيا ، فأعلن استمرار الخلافة العباسية في مصر ، بعد أن قدم اليها أحد أعمـام الخليفـة المستعصم (آخر الخلفاء العباسيين في بغداد) ، واسمه أحمد ، فبايعه السلطان والأمراء والعلماء بالخلافة في يناير ١٢٦٢ ، فاتخذ لقب الحاكم، ولما لقى مصرعه، أثناء محاولته استعادة بغداد من المغول ، جرت البيعة لابنـه ، وعلى الرغم مـن أن لم يكن

للخلفاء سلطة فعلية ، فانهم كانوا سندا دينيا لسلاطين المماليك طوال حكمهم .

بيبروس والصليبيون

التفت بيبرس لانزال العقاب بالصليبيين الذين ساندوا المغول . والمعروف أن هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، وبوهمند السادس أمير أنطاكية هما اللذان تحالفا مع المغول ، وأفادا منهم فيما انتزعاه من أملاك بالشام وآسيا الصغرى ، وكان لهما دور كبير فيما اتخذه المغول من سياسة نحو المسلمين في الشام وسائر البلاد الاسلامية التى خضعت لهم قسرا . ففى خريف سنة ١٢٦١ أرسل بيبرس جيشا لبسط السيادة على حلب بعد أن أعلن أميرها التمرد ، ولشن الغارات على بلاد أنطاكية وتواصلت الغارات على أنطاكية في الصيف التالى ١٢٦٢ ، فتعرضت ميناء السويدية (سان سيمون) للنهب ، وأصبحت أنطاكية ذاتها واقعة تحت تهديد قوات المماليك ، فلم يسع هيثوم الا أن يستنجد بهولاكو ، وقدم هيثوم في الوقت المناسب ، على رأس قوات مغولية وأرمنية لانقاذ أنطاكيه . ولا زال للمغول ، فيما يبدو ، في شمال شرقى الشام ، من القوة ما يكفى لارهاب بيبرس ، ولذا لجأ الى استخدام دبلوماسيته في معالجة ما يصادفه من المشاكل .

على أنه ما حدث وقتذاك من انقسام الامبراطورية المغولية الأصلية ، أدى الى شل حركة هولاكو ، خان فارس . اذ أن هذه الأمبراطورية انقسمت بعد وفاة مونكو ثلاثة أقسام ، خانات ، مستقلة بين أفراد الأسرة الجنكيزية ، فاختص هولاكو بخانية فارس ، وأضحت الصين من نصيب قوبيلاى . أما خانية التاى وغرب منغوليا ، فصارت

الى قيدو حفيد اوكتاى ، وعدو قوبيلاى اللدود واختص بيت جغتاى بتركستان ، بينما كانت خانية مغول جنوب روسيا ، أو القبجاق ، من نصيب بركة . اتخذ ملك المغول بالصين قوبيلاى لقب الخان الأعظم ، غير أنه لم يعترف له بالسيادة الا أخـوه هولاكو . وأظهر العداء لـه ولهولاكو كل من ألجو من بيت جغتاى ، وبركة مـن سلالة جوجى . والواضح أن هذه الكراهية والعداوة ولا سيما من قبل بركة ، أزعجت هولاكو ، نظرا لأنه لم يفصل بين أملاكهما الا جبال القوقاز .

واذ اعتبر هولاكو نفسه نصيرا وحاميا للمسيحية بتأثير زوجتـه طقز خاتون النسطورية ، فان بركة الذى اعتنق الاسلام ، بلغ من شدة عطفه على المسلمين أن أزعجته ما سبق أن حازه هولاكو من انتصارات على المسلمين . ومن الدليل علـى ذلك قوله للمؤرخ رشيد الدين عن هولاكو : لقد أطاح بعروش الملوك المسلمين ، بـل انه أقدم ، دون ان يستشير أقاربه ، على قتل الخليفـة ، وانى لأدعو الله أن ينتقم للدماء البريئة التى جرى سفكها . ولذا كان بركة مستعدا للتحالف مع بيبرس. ففى سنة ١٢٦٢ ــ ١٢٦٣ (٦٦١ هـ) جرى بينهما تبادل الرسل والكتب، اذ وجه بيبرس الفقيه مجد الديـن والأمير سيف الدين كشن تك(١) ، وكتب على يدهما كتب « بأحوال الاسلام ومبايعة الخليفة ، واستمالة الملك بركة وحثه على الجهاد ، ووصف عساكر المسلمين وكثرتهم وعدة أجناسهم ، وما فيها من خيل وتركمان وعشائر وأكـراد ، ومن وافقها وهاداها وهادنها ، وأنها كلها سامعة مطيعة لاشارته ، الى غير ذلك من

---

(١) وهو رجل تركى كان جمدار خوارزم شاه ، له معرفة بالبلاد وخبرة بالالسنة .
(المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جاص ٤٧٩ حاشية ٣)

الأغراء بهلاون وتهوين أمره والاشلاء عليه وتقبيح فعله ونحو ذلك[١] .
وسار معهما نفران من التتر أصحاب الملك بركة ليعرفاهما بالطـرق .
وحدث وقتذاك أن نشبت الحرب بـين هولاكو وبركة ، ورجحت كفة هولاكو أول الأمر ، اذ استطاع في نوفمبر ـ ديسمبر ١٢٦٢ أن يجتاز دربند ، وأن يتقدم الى شمال القوقاز حتى بلغ نهر تريك Terek في خانية قبجاق . غير أن جيوش بركة لم تلبث أن شنت هجوما مفاجئا على قوات هولاكو على شاطيء نهر تيريك ، وردتها الى أذربيجان .

واذ اعتنـق الاسلام مغول جنوب روسيا (قبجاق) ، ثم مغول التركستان ، واستقر حكـم المماليك في الشام ومصر ، ازداد موقف مغول فارس حرجا ، لما جروا عليه من سياسة موالية للمسيحية ومناهضة للاسلام ، فاضحى يطوق بيت هولاكو قوى اسلامية ، من جهة القبجاق والتركستان ودولة المماليك بمصر والشام ، فأحاط به الأعداء على نهر حيجون ، والقوقاز والفرات . ولـم يعد بوسع هولاكو وخلفائه أن يوجهوا الحملات ، لمساندة الأرمن والفرنج ، دون أن يتعرضوا لهجمات من قبل أقاربهم ، في جنوب روسيا وتركستان . هذا الوضع الجديـد لا بد أن يكـون له تأثير بالغ السوء ، حينما يتعرض الأرمن والفرنج لهجمات المماليك .

ومن نتائج ما كان من علاقات بين بيبرس وبركة ، انه حدث ٦٦٢هـ (١٢٦٣) أن لجأ كيكاوس ، أحد السلطانين السلجوقيين اللذين نصبهما المغول في حكم الأناضول ، بعد أن حرمه من بلاده أخوه قلج ارسلان الذى كان يخضع لأوامر المغول ، والذى ارتبط من جهة أخرى بصلة التحالف مع الأمبراطور البيزنطى ، ميخائيل لاسكارس ، فتلقى كيكاوس المساعدة من كل من بيبرس وبركة . كما انهما أفادا من قرمان التركمانى

---

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

الذى استقر وقتذاك في جنوب غربى قونية ، في الضغط على الأرمن .

على أن الصليبيين في عكا كانوا يأملون في أن موقفهم الودى من المماليك أثناء حملتهم الى عين جالوت سوف يجنبهم عداوة المماليك . غير أنه حينما توجه يوحنا كونت يافا ، ويوحنا كونت بيروت ، الى معسكر بيبرس في أواخر سنة ١٢٦١ ، للتفاوض في أمر اطلاق سراح من وقع في أسرهم من السنوات الأخيرة ، وفي الوفاء بالوعد الذى بذله لهم السلطان أيبك ، بان يعيد لهم زرعين بالجليل ، أو بذل تعويض عنها . وعلى الرغم من أن بيبرس يميل الى يوحنا كونت يافا ، فانه لم يستجب لهما ، بل انه وجه الأسرى للعمل فيما كان يقيمه من منشئات في دمشق والقاهرة ، وفي فبراير ١٢٦٣ قام يوحنا كونت يافا بزيارة أخرى للسلطان بيبرس ، أثناء نزوله على جبل الطور ، والتمس منه مد أجل الهدنة واطلاق سراح الأسرى ، غير أن الداوية والاسبتارية لم يقبلوا أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين ، الذين في حوزتهم ، نظرا لما لهم من أهمية للطوائف الدينية بسبب ما اشتهروا به من المهارة في حرفهم . وعندئذ انقطعت المفاوضات ، وأغار بيبرس على بلاد الفرنج . فتوجه جماعة من العسكر المملوكى الى الناصرة فنهبوها وهدموا كنيستها « وكانت من أجل مواطن عبادتهم ، ويزعمون أن دين النصرانية ظهر منها » . ثم وجه السلطان بيبرس طائفة أخرى من العسكر الى عكا ، فاقتحموا أبوابها ، ثم أغاروا على مواشى الفرنج واستاقوها الى مخيم السلطان . وفي ابريل سنة ١٢٦٣ قدم بيبرس على رأس جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل لمنازلة عكا ، فهاجم استحكاماتها الأمامية . ثم ساق العسكر الى أبواب عكا ، وحمل الأمراء حملة واحدة القوا فيها الفرنج في الخنادق ، واستولى السلطان على برج الداعون (Doc) الواقع في جنوب المدينة ، ثم خرب المزارع حول المدينة ، وعاد الى القدس ،

وأصابت الجراح جفرى سارجينس صنجيل مملكة بيت المقدس .

على أن الغارات علـــى حدود الامارات الصليبية ظلت مستمرة ، وتعرضت المدن الواقعة بالسهل الساحلى لتهديد قوات المماليك ، بينما لم تكن بنجوة من خطر الجنوبيين مـــن جهة البحر ، اذ حرصت جنوة على أن تنتقم لنفسها ، منذ أن جرى طرد الجنوبيين من عكا في اعقاب حرب دير سابا. واستندت جنوة الى تأييد فيليب موتنفورت صاحب صور الذى لم يكن أقل منها[1] ميلا الى الانتقـــام . وكـــان من أثر تعرض أطراف أملاك الصليبيين للتهديد مـــن قبل القوات الاسلامية ، أن قام باليان ابلين صاحب ارسوف ، منذ ابريل سنة ١٢٦١ ، بتأجير اقطـــاعه للاسبتارية ، على أن يؤدوا له ١٠٠٠ دينار ، خراجا ثابتا ، وأن يبذلوا له ٣ آلاف دينـــار ، عـــن بعض القرى ، فضلا عما يؤدونه مـــن الخدمة العسكرية المقررة على التابع نحو السيد . والواضح أن هـــذا التأجير ليس الا تنازلا فعليا عن أرسوف للاسبتارية .

وحدث في أوائل سنة ١٢٦٤ أن اجتمع عساكر الاسبتارية والداوية للاستيلاء على حصن اللجون (مجدو القديمة) ، ثم هاجموا عسقلان بينما أوغلت العساكر الفرنسية ، التى كان ينفق عليها لويس التاسع ، في زحفها ، حتى بلغت بيسان ، غير أن المسلمين أغاروا على القرى جنوب جبل الكرمل ، فلم يطق الناس الحياة بها .

---

(١) تشير بعض الروايات الى أن اتفاقا سريا انعقد ، فيما يبدو ، بين بيبرس مـــن جهـــة ، وبين الجنويين وفيليب مونتفورت ، يقضى ببذل المساعدة لبيبرس للاستيلاء على عكا ، غير انهم تخلوا عنه آخر الامر ، وترتب على ذلك أن فشلت محاولة بيبرس، نظرا لتوقف المساعدة البحرية من قبل جنوة .
انظر Grousset : Histoire des Croisades III p. 623.

وفي بداية سنة ١٢٦٥ خرج بيبرس من مصر ، بعد أن ترامت اليه الأنباء بخروج المغول ومهاجمتهم شمال الشام ، وحينما علم بأن قواته بالشام أوقفت زحف المغول ، لم يتردد في أن يستخدم جيشه لقتال الفرنج بالجنوب . فلم يلبث أن ظهر بعساكره أمام قيسارية التى سقطت في يده ٢٧ فبراير، ثم سقطت قلعتها واستسلمت الحامية في مارس ١٢٦٥، فاطلق سراح الأسرى وأمر بتدمير المدينة والقلعة . وحينما ظهر بعساكره أمام حيفا ، هرع سكانها الى السفن الراسية بالميناء ، وتعرضت المدينة والقلعة للخراب والدمار ، ومن بقى من سكانها جرى قتله . ثم هاجم بيبرس عثليت من قلاع الداوية ، فأشعل الحرائق بالقرية الواقعة خارج أسوار المدينة ، غير أن القلعة صمدت للهجوم ، فتخلى عنها وغادرها في مارس ١٢٦٥ ، الى أرسوف . وحشد بها الاسبتارية من العساكر والمؤن ما يكفل الدفاع عنها ، واستماتت حامية القلعة ، التى يبلغ عددها نحو ٢٧٠ فارس في القتال ، غير أن المدينة لم تلبث أن سقطت في يد بيبرس في ٢٧ ابريل ، وتحطمت الأسوار تحت ما انهمر عليها من قذائف المجانيق ، ولما تبين لقائد القلعة أنه ليس بوسعه المضى في الدفاع بعد أن هلك ثلث عساكره ، استسلم ومن معه من العساكر للسلطان بيبرس . وترتب على سقوط قيسارية وأرسوف في أيدى بيبرس أن بلغ الخوف والجزع من الفرنج ، أن نظم شاعر الداوية ريكو بونومل Ricaut Bonomel قصيدة أشار فيها الى أن اذلال المسيحيين ومهانتهم أرضت الله .

ومن أرسوف توجه بيبرس لمهاجمة عكا ، غير أنه تبين له أن هيو أمير أنطاكية هبط الى عكا في ٢٥ ابريل ، قادما من قبرص ، فاكتفى بيبرس بالمحافظة في الوقت الراهن على ما انتزعه من الصليبيين من البلاد ، فاضحت عكا على مرمى النظر من الحدود المصرية الجديدة ، وكتب بيبرس باخبار انتصاراته الى مانفرد ملك صقلية بعد أن توطدت

الصداقة بين والده فردريك الثانى والمسلمين .

السنوات الاخيرة من حيـاة هولاكو

سبق الاشارة الى ما حدث من التقارب بـين بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) وبـين بركة خان القبيلة الذهبيـة (القبجاق) بسبب العداء المشترك ، ضد هولاكو وحلفائه من الأرمن والصليبيين . والمعروف أن بركة كان يميل الى نصرة المسلمين بل انـه وجه اللوم الى هولاكو لما أقدم عليه من نهب المدن الاسلامية وتخريبها ، ومن اغتيال الخليفة ، دون استشارة اقاربه ، ودعا الله أن يعينه على الانتقام لهذه الدماء البريئة . ومن الطبيعى أن يفيد بيبرس أيضا مـن الصلة العنصرية التى تربطـه بالقبجاق الذيـن ينتمى الى جنسهم فضلا عما ذاع مـن اعتناق بركة للاسلام[١] . على ان من عوامل كراهية بركة لهولاكو أيضا ، أن بيت جوجى ، الذى ينتمى له بركة ، اعتبر سيطرة هولاكو على اقليم أذربيجان اغتصابا لجانب من أملاكهم ، فالمعروف أن هـذه الأملاك اختص بهـا منذ زمن جنكيزخان ، بيت جوجى ولذا جرى تبـادل السفارات بـين بيبرس وبركة منـذ ١٢٦١ . فهبطت سفارة بيبرس في سوداق بالقرم ، بينما وصلت سفارة بركة الـى الاسـكندرية . وفي سنة ١٢٦٣ انعقدت معاهدة التحالف بين السلطان بيبرس ، والسلطان بركة خان ، لمناهضة هولاكو .

وتحقق لبيبرس من هذه المعاهدة فائـدة مزدوجة ، اذ أضحى في

---

(١) في سنة ١٢٦١ (٦٥٩ هـ) كتب السلطان بيبرس الى الملك بركة خان ، يغريه بقتال هولاكو ، ويرغبـه في ذلك ، وسببه تواتـر الاخبار باسلام بركة .
انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٤٦٥

استطاعته أن يحصل على مماليك من القبجاق ، يزيد بهم عدد عساكره ، كما أن ما حدث من القتال بين هولاكو وبركة على حدود جبال القوقاز الواقعة بينهما ، صرف هولاكو عن توجيه الحملات الى الشام ليثأر لوقعة عين جالوت . واذ اشتد النفور بين هولاكو وبركة ، كان لا مفر من القتال ، ففي نوفمبر ـ ديسمبر ١٢٦٢ ، اجتاز الدربند (ممر بجبال القوقاز) الذى يفصل بين الخانيتين ، ومضى حتى بلغ نهر تريك ، غير أن جيوش بركة بقيادة نوغاى ، انقضت عليه ، ودحرت جيوشه الى أذربيجان ، وهذا يفسر ما أورده المؤرخون المسلمون بأنه حينما بلغ ذلك السلطان (بيبرس) ، سر به ، وفرح الناس باشتغال هولاكو عن قصد بلاد الشام[١] . يضاف الى ذلك أن تهيأت الفرصة لعدد كبير من التتار بالقدوم الى مصر مستأمنين ، فأمر السلطان أكابرهم ، ونزل باقيهم في جملة البحرية ، ودخلوا في الاسلام[٢] .

وما تعرض له جيش هولاكو من كارثة فاجعة ، حينما غرق عدد كبير من الفرسان أثناء اجتياز النهر ، الذى تجمدت مياهه وقتذاك ، زاد في حدة العداء بين الأميرين ، اذ أقدم هولاكو على قتل كل من صادفه في البلاد الايرانية من التجار القادمين من بلاد القبجاق ، ولم يسع بركة الا أن يتخذ هذا الاجراء مع تجار فارس الذين يمارسون تجارتهم في بلاد القبجاق .

ولم يتعرض هولاكو للعداء من قبل مغول قبجاق فحسب ، بل لقى الكراهية أيضا من مغول تركستان ، وبذا تعطل نشاطه الحربى في

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جا،ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤
(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جا،ص ٤٧٤

بلاد الشام ، بل ان ما نشب من حروب داخلية بين أمراء بيت جنكيزخان أدى الى توقف التوسع المغولى .

على أن هولاكو حرص على توحيد أملاكه في فارس ، بأن قضى على استقلال الأسرات الحاكمة بالأقاليم . فالمعروف أن أتابك الموصل ، بدر الدين لؤلؤ (١٢٣٣ ــ ١٢٥٩) انحاز الى المغول فابقوه في حكومة الموصل ، وحينما حاول ابنه الصالح اسماعيل أن ينحـاز الى السلطان بيبرس ، وجه هولاكو حملة بقيادة صندغون مقدم التتار الى الموصل ، سنة ١٢٦٢ (٦٦٠) فحاصرها ، فلما خرج اليه الصالح اسماعيل ، ألقى القبض عليـه وعلى مـن معه ، ووقع التخريب في سور المدينة ، ثـم اقتحمها المغول ووضعوا السيف في أهلها تسعة أيام ، وهدموا مبانيها ، وأضاف هولاكو هذه الامارة بعدمقتل أتابكها الى أملاكه. وهذا ماحدث أيضا لأتابك فارس ، سلجوق شاه (١٢٦٢ ــ ١٢٦٤) من السلغوريين ، حينما أعلن الثورة ، اذ قتله المغول بعد أن تم لهم الاستيلاء على قازرون، (١٢٦٤) ، وجعل العرش لأميرة سلغورية ، اسمها أبيش خاتون ، بعد أن زوجها من ابنه مونكو تيمور . أما أبغا الابن الاكبر لهولاكو وولى عهده ، فقـد تزوج باجاخاتون ، وريثـة أسرة كتلغ خان في كرمان ، فخضعت هذه الأقاليم لسلطان أسرة هولاكو .

وعلى الرغم مما اشتهر به هولاكو من أنه نقمة الله على المسلمين ، فانه لم يغفل تشجيع رجـال الأدب والعلم من بـين الفرس . فالمؤرخ الفـارسى المعـروف ، الجوينى حظى هـو واسرتـه بتقديـر هولاكو ، فأبوه بهاء الدين المتوفى سنة ١٢٥٣ الذى ينحدر من أسرة كـانت تقيـم في نيسابور ، دخل في خدمتـه المغول ، حتى بـرع في الشئون المالية بخراسان . وسلك الجوينى هذا الطريق . ففى سنة ١٢٥٦

نجح الجوينى في اقناع هولاكو بألا يحرق مكتبة الاسماعيلية في آلموت. واذ تهيأ له أن يرتحل مرتين الىمنغوليا (١٢٤٩—١٢٥١ ، ١٢٥١—١٢٥٣) ووقف على جميع أحوال وسط آسيا ، ألف في سنة ١٢٦٠ كتابه القيم المعروف باسم تاريخ جهان كوشاى Djahân - kouchai (تاريخ جنكيزخان وأخلافه حتى سنة ١٢٥٨) . وولاه هولاكو حكومة بغداد (١٢٦٢ — ١٢٦٣) . وحينما تهيأت الفرصة للمسلمين ١٢٦٨ فاعلنوا الثورة في بغداد ، لجأ الى دار الجوينى ، بطريرك النساطرة ، مار دنها Denha . وتولى أخوه شمس الدين ديوان المالية (صاحب الديوان) زمن أبغا وتكودار اللذين خلفا هولاكو في الحكم ، فيما بين ١٢٦٣ ، ١٢٨٤ .

مات هولاكو في ٨ فبراير ١٢٦٥ بالقرب من مراغه ، ولم تلبث زوجته طقز خاتون أن لحقت به ، وحزن لوفاتهما المسيحيون في الشرق ، فاعتبروهما كوكبى الدين المسيحى ، وأنهما في مكانة قسطنطين وهيلين.

ابغا بن هولاكو
١٢٦٥ — ١٢٨٢

خلف هولاكو على العرش ابنه الأكبر ، أبغا (١٢٦٥ — ١٢٨٢)، وظل الخان الجديد يقيم في أذربيجان . على أن ما كان لمراغة من أهمية باعتبارها حاضرة زمن هولاكو ، تحولت الى تبرير (توريز) ، التى ظلت محتفظة بمكانتها حتى نهاية أسرة هولاكو ، باستثناء الفترة الواقعة بين ١٣٠٤ ، ١٣١٦ ، التىحكم فيها اولجايتو الذى اتخذ حاضرته في سلطانية.

وبقى ابغا ، مثلما كان ابوه هولاكو ، نائبا للخان الكبير قوبيلاى الذى بعث اليه ببراءة (يارليج) بتقليده الحكم .

ومع أن أبغا كان بوذيا ، مثل أبيه ، فانه لم يختلف عنه أيضا فيما أولاه من العطف على الجاليات المسيحية ، أمثال الأرمن والنساطرة واليعاقبة ، وفي التحالف مع المسيحيين ضد المماليك في مصر والشام.

تزوج في السنة التى تولى فيها الحكم مارية ابنة الأمبراطور البيزنطى ، ميخائيل باليولوجوس ، واشتهر أبغا بانه كان نصيرا وحاميا لبطريرك النساطرة ، مار دنها ، وكان صديقا أيضا لخليفته مار يهبالة الثالث[1] .

حرص أبغا على تصفية الحرب التى شنها ابوه على بركة خان القبجاق . واستهل هذه الحرب نوغاى ابن اخ بركة ، بأن اجتاز في ربيع سنة ١٢٦٦ الدربند ونهر كور ، غير أنه تعرض لهزيمة قاسية ، فارتد الى شيروان . غير أن بركة لم يلبث أن قام من جديد على رأس جيش كثيف، غير أنه مات أثناء الطريق سنة ١٢٦٦ ، فارتدت عساكره .

وما نشب من الحروب بين أبغا وخانية تركستان ، في سنة ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، انتهت بانزال الهزيمة بخان تركستان براق من بيت جغتاى ، بالقرب من هراة في يوليه سنة ١٢٧٠ ، ولما لمسه أبغا من ملك هراة ،

---

(١) ومن الدليل على اهمية الكنيسة النسطورية في بلاد فارس زمن المغول ، ما أورده راهبان نسطوريان ، احدهما ، واسمه ربان سوما من اقليم توقتو بشمال شانسى ، والآخر ، واسمه مرقص من اقليم بكين ، اذ قاما للحج الى بيت المقدس. فوصلا الىبلاد فارس سنة ١٢٧٦ . وزارا أثناء طريقهما المشاهد والاديرة النسطورية في طوس ، ومراغة ، وبغداد ، واربل ، ونصيبين . وحظيا بمقابلة بطريرك النساطرة ، وابغا الذى أعطاهما رسائل بالتوصية بتيسير الوصول الى بيت المقدس ، نظرا لان الحرب الناشبة بين خان المغول في فارس ، وبين خان القبجاق والمماليك ، قد تعطل بلوغ غايتهما . وحدث أثناء رحلتهما ان مات بطريرك النساطرة ؛ فوقع الاختيار على مرقس ليكون بطريركا واتخذ اسم مار يهبالله على الرغم من انه لم يعرف من السريانية الا قليلا ، ويجهل اللغة العربية تماما . ولكنه مغولي ينتمى الى عنصر الترك الانجوت ، الذى يشتهر امراؤه بصلتهم الوثيقة بأسرة جنكيزخان . وتسلم تقليد وظيفته من ابغا . وشهد رسامته في نوفمبر ١٢٨١ ، مطران القدس ، ومطران سمرقند ، ومطران التانجوت .
(انظر Grousset : L'Empire des Steppes p. 445.

شمس الدين كرت من الخيانة ، استطاع أن يقنعه بالقدوم عليه في تبريز ، حيث دس له السم، فمات سنة ١٢٧٨ ، وأقام مكانه ابنه الذى اتخذ أيضا اسم شمس الدين الثانى ، في الحكم .

كان لزاما على أبغا أن يواصل ما شنه ابوه هولاكو من الحروب ضد المماليك الذين استقر سلطانهم في الشام ومصر .

الواقع أن وفاة هولاكو في فبراير ١٢٦٥ في أذربيجان كانت شديد الاثر في موقف المغول من حلفائهم الأرمن والكرج والفرنج . ولما انعقد قوريلتاى في يوليه ١٢٦٤ في مقر حكمه بالقرب من تبريز، شهد الاجتماع أتباعه وحلفاؤه ، ومنهم داود ملك الكرج ، وهيثوم ملك قليقية (أرمينيا الصغرى) ، وبوهمند السادس أمير انطاكية . وقد أحس بالخزى والخجل ، هيثوم وبوهمند ، لما لجآ اليه في السنة السابقة ، ١٢٦٣ ، من اختطاف ايثيميوس بطريرك الأرثوذكس في أنطاكية ، الذى أصر هولاكو سنة ١٢٦٠ على اقامته وتنصيبه ، ونقله هيثوم الى قليقية ، واستقر مكانه في أنطاكية البطريرك اللاتينى أوبيزون Opizon . واذ أدرك هولاكو ما تتعرض له سيادة المغول على سلطنة السلاجقة ، بآسيا الصغرى ، من تهديد من قبل الترك والمماليك أيضا ، حرص على التحالف مع البيزنطيين ، فدارت المفاوضات مع أمبراطور القسطنطينية حول اختيار أميرة من الاسرة المالكة ، ليتخذها هولاكو زوجة بالاضافة الى من في حوزته من زوجات عديدات . ووقع الاختيار على مارية ابنة الامبراطور ميخائيل ، فصحبها الى تبريز البطريرك ايثيموس الذى لجأ الى القسطنطينية ، والذى قدم الى الشرق بناء على دعوة هولاكو . على أنه لم يكن لهذا الحادث ، عزل ايثيموس عن بطريركية أنطاكية ، أن يغير من السياسة العامة التى جرى عليها المغول ، الذين اكتفوا بأن يعتذر

بوهمند، وألا يعود ايثيموس الى أنطاكية .

ولا شك أن وفاة هولاكو أضعفت مركز المغول في مرحلة بالغة الحرج . فلم يستقر الحكم لابغا الا بعد شهور عديدة ، حينما تم توزيع الاقطاعات من جديد . وما حدث من وفاة طقز خاتون زوجة هولاكو بعد شهور من وفاة زوجها ، وما تهدد أملاك أبغا من الخطر من قبل مغول القبجان من جهة الشمال ، جعل من االمستحيل في الوقت الراهن أن يتدخل أبغا في شئون الشام .

واذ حرص المغول على أن يؤلفوا جبهه يشترك فيها الارمن والكرج والصليبيين ، وينحاز اليها السلاجقة بآسيا الصغرى ، والبيزنطيون ، فضلا عما يجرى من اتصالات مع البابوية ودول غرب أوربا ، لمناهضة سلاطين المماليك وحلفائهم من مغول القبجاق ، والقوى المناهضة لهم في ايران وتركستان وآسيا الصغرى ، كان بيبرس حريصا على أن يوطد السلطنة المملوكة باقامة جيش نظامى من المماليك ، والافادة من الكتائب العربية ، واعادة انشاء البحرية ، ثم توزيع الاقطاعات من جديد بين الأمراء ، واصلاح الطرق والجسور وحفر الترع والمصارف في جميع أنحاء البلاد ، يضاف الى ذلك ما أجراه في الشام من عمارة الاستحكامات والحصون وشحنها بالعساكر وتنظيم البريد بين القاهرة والشام . ووجه اهتمامه أيضا الى اصلاح استحكامات الاسكندرية .

بيزنطة بين المماليك والمغول

وقامت سياسة بيبرس الخارجية على ابعاد المغول عن أطراف السلطنة المملوكية المتاخمة لشمال العراق ، والتى تطابق اطراف الدولة الأيوبية ، بعد استعادة ما انتزعه المغول وحلفاؤهم من المواضع أثناء السنوات الاخيرة للحكم الايوبى ، يضاف الى ذلك انزال العقوبة بالامارات التى

كانت تساند المغول ، كالكرج والأرمن والصليبيين، فضلا عن الاستعداد لمواجهة كل حملة صيليبية تقدم من الغرب لنصرتهم ، وكـان حريصا على تحصين السواحل المصرية وشحن قلاعها بالعساكر ، علما أن الاحوال في أوربا جعلت اعداد حملة صليبية على نحو ما كان معروفا من قبل ، أمرا يكاد يكون مستحيلا . وما قام من علاقات بين بيبرس وخانات القبجاق بجنوب روسيا ارتبط أولا باسلام بركة خان وميوله الطيبة نحو المسلمين ، وكراهيته وعداوته لابناء عمومتـه ، بيت هولاكو في فـارس ،، الذين اشتهروا بعداوتهم المريرة للمسلمين علىالرغم من أنهم كانوا حتى وقتذاك بوذيين ، ولانهم اغتصبوا من الاملاك ما كان أصلا يخص بيت جوجي الذى ينتمي اليه بركه . وترجع أهمية حرصه على التحالف مع سلاجقة آسيا الصغرى الى موقع بلادهم الاستراتيجي ، بين توابع وحلفاء المغول : مملكة الكرج ، ومملكة ارمينيا الصغـرى ، وانطاكية وسائـر الامارات الصليبية . ونظرا لتعذر الاتصال برا مع مغول القبجاق ، بسبب القوى المعادية التى تمنع هذا الاتصال والتى سبق الاشارة اليها ، كان لا بد من أن تتخذ السفارات المتبادلة بين بيبرس ومغول القبجاق طريق البحر ، فلا بد لتأمين هذا الطريق ، من السعى للحصول على تأييد القوى البحرية والبلاد التي تتحكم في هذا الطريق .

ومن هنا نبعت أهمية الافادة من جنوة ، لما أصبح لها من امتيازات ونفوذ في الدولة البيزنطية منذ استرداد القسطنطينيـة من أيدى اللاتين سنة ١٢٦١ ، وما ترتب علـى ذلك من سيطرتهـا على موانـىء البحر الأسود ، التى يحمل منها المماليك الذين يتألف منهم الجيش المصرى ، على أن سياسة بيزنطة الخارجية كانت ترمى الى أن تتخذ من الوسائل والأساليب ما يكفل لها توطيد مركزها في الداخل ، ودرء الاخطار التى تتعرض لها من الخارج .

ولذا أفادت بيزنطة من جنوة والبندقية على الرغم من عداء كل منهما للاخرى ، فالمعاهدة التى سبق أن عقدها الأمبراطور البيزنطى مع جنوة سنة ١٢٦١ ، تعدلت نصوصها بعد أن انهزمت جنوة من البندقية سنة ١٢٦٣، ١٢٦٦ اذ أجازت لها حرية التجارة في داخل أملاك الأمبراطورية وان يكون لها أحياء في غلطة من ضواحى القسطنطينية، وتقع على القرن الذهبى، والتى لم تلبث أن نمت حتى صارت مدينة تجارية زاهرة ، والواضح أن البندقية لم تعد تتسلط على بيزنطة ، وأن بيزنطة أفادت من الاتفاق مع الامارتين ، بأن تجنبت خطر ما قد يحدث من تحالف الامارتين البحريتين، أو تحالف البندقية مع دول معادية لبيزنطة ، كما أنها في الوقت ذاته صار في استطاعتها أن تستغل لصالحها التنافس بين المدينتين التجاريتين الايطاليتين ، وأن توقع بينهما متى تهيأت لها الأحوال .

والعامل الثانى الذى تحكم في سياسة بيزنطة الأوربية هو ما حدث من زوال حكم مانفرد في صقلية ، فأضحى شارل كونت أنجو ، وشقيق لويس التاسع ملكا على صقلية . وانحاز شارل الى جميع العناصر المناهضة لبيزنطية ، فعقد اتفاقا مع الأمبراطور اللاتينى بلدوين الثانى في ١٢٦٧ بعد طرده من القسطنطينية ، وحل مكان مانفرد فيما كان له أملاك في بلاد اليونان ، وشجع بلغاريا والصين على الانحياز الى الجبهة المعادية لبيزنطة . على أن ميخائيل الثامن الأمبراطور البيزنطى ، لم يفقد الامل ، اذ حرص على استرضاء البابا ، كلمنت الرابع. والواقع أن سياسة كلمنت كانت ترمى الى منع حدوث شقاق بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما، فضلا عن استرداد الأراضى المقدسة ، وهذه السياسة لا تتفق مع سياسة شارل انجو التوسعية على حساب بيزنطة ، واستعادتها (بيزنطة) للاتين، وحينما مات البابا كلمنت ، لجأ ميخائيل الثامن الى لويس التاسع لمساندته ، ولم تكن سياسته تختلف عن سياسة البابوات وقتذاك ؛

واستطاع أن يثنى أخاه عن عزمه ، وأن يشركه في الحملة الصليبية التى توجهت الى تونس ١٢٧٠ . وظفر ميخائيل الثامن بالتحالف مع المجر ، لمناهضة تحالف الأنجويين مع الصربيين . وأفاد أيضا من المغول في تدعيم مركزه ازاء ما يتهدده من خطر من قبل البلغار .

وهنا تتضح أهمية بيزنطة في الافادة من موقعها الـذى يتحكم في العلاقات بين المماليك ومغول القبجاق ، وفي علاقاتها مع السلاجقة بآسيا الصغرى ، ولذا تحالف ميخائيل الثامن مع هولاكو ، وترتب على ذلك أن ما كان من تحالف البلغار مع مغول القبجاق ، أدى الـى انزال الهزيمة بالأمبراطور البيزنطى سنة ١٢٦٤ ، وكاد ميخائيل يلقى مصرعه في هذه الحرب . وما توالى مـن غـارات التتار على أمـلاك بيزنطة ، ومـا أثارتـه بلغاريا مـن المتاعب للأمبراطور البيزنطـى ، كـل ذلـك حمل الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن على أن يسعى لتسوية المنازعات مع مغول القبجاق ، بجنوب روسيا ، فانعقدت معاهدة صداقة بينه وبين القائد المغولى نوغاى سنة ١٢٧٢ ، وقـد كان بالغ النفوذ عند مغـول القبجاق ، فضلا عن قدرته على ردع بلغاريا اذا حاولت مهاجمة بيزنطة . وتزوج نوغاى من ابنة غير شرعية للامبراطور ، وبذل له ميخائيل الهدايا الثمينة . ومنذئذ اضحت العلاقـات وثيقة بين بيزنطة ومغول القبجـاق والمماليك ، وتزايد تبادل السفارات بين مغول القبجاق وسلاطين المماليك . وبذلك استطاع ميخائيل الثامن أن يحيط امبراطوريته بحلقة متينة مـن الدول، كفيلة بردعأعداء الامبراطورية. فأبعد نوغاى خطرالبلغار، وأبعد المجريون خطر الصربيين ، أما شارل الانجو فأوقفت البابوية أطماعه .

ولا شك أن دبلوماسية بيبرس كانت عاملا كبـيرا فيما تعرض له ايلخان فارس الجديد ، أبغا ، من متاعب، من قبل جيرانه بالشمال (مغول القبجاق) ، فأضحى في وسع بيبرس أن يستأنف حروبـه مع الصليبيين دون أن يخشى التدخل من قبل المغول . واذ انصرف أبغا الى رد هجمات

بركه خان على فارس سنة ١٢٦٦ ، مضى بيبرس الى منازلة صفد ، التى كانت بحوزة الداوية ، والتى تشرف على مرتفعات الجليــل . وتجددت عمارة صفد قبل خمس وعشرين سنة ، وتوافر عدد عساكر حـاميتها ، على الرغم من أن جانبا كبيرا مــن هؤلاء العساكر كـان من المسيحيين الوطنيين أو من التركبولية (المدجنين) . وفشلت الهجمات الثلاث التى وجهها بيبرس للاستيلاء على هذا المعقل ، في ٧ ، ١٣ ، ١٩ يوليه ١٢٦٦ (٦٦٤ هـ) . على أن صفد استسلمت آخر الامر لبيبرس في آخر يوليه ١٢٦٦[1] ، وبسقوطها صارت له السيطرة على اقليم الجليل . واشتد قلق الصليبيين ، فسقطت يبنه دونقتال، وجرى الاستيلاء على القليعة وعرقة، وبذلك تمت السيطرة على الطريق المؤدى الى طرابلس من البقاع .

بيبرس والارمن

وتوقع الأرمن مهاجمة بيبرس لهم ، بعد أن امتدت غزواته وغاراته حتى بلغت طرابلس وانطاكية . ولا شك أن بيبرس يدرك أهمية هيثوم في كل ما يتعلق بالفرنج والمسيحية في الشرق ، استنادا لما ارتبط به هيثوم من التحالف مع المغول وسائر القوى المناهضة لدولة الممـاليك التى تكفلت باعادة الوحدة للعالم الاسلامى ، والتخلص من بقايا الصليبيين . ومع أن حملة هولاكو التى ساندها الأرمن والصليبيون تعرضت لهزيمة ساحقة في عين جالوت ، فلا زال خطر المغول وتهديدهم لأطراف الدولة المملوكية قائما . على أن اذا حدث تدخل من قبل المغول في بلاد الشام ، فانــه لن يكون على النحو الذى جرى قبيل معركة عين جالوت ، لانصراف المغول الى تسوية مشاكلهم مع سائر أفراد أسرة جنكيزخان في تركستان وفي بلاد القبجاق .

---

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٩

حاول هيثوم اجراء مفاوضات مع بيبرس ، وترددت السفارات بينهما ، دون أن تؤدى الى نتيجة . ولما أحس هيثرم بأنه لا بد أن تنشب الحرب مع بيبرس ، فكر في أن يعلن حربا اقتصادية على المماليك . فالمعروف أن البحرية المصرية تستند في بناء السفن على ما يرد من أخشاب من الأناضول ولبنان . واذ خضعت الغابات بهذين الاقليمين لسلطان هيثوم وصهره بوهمند السادس أمير انطاكية فضلا عن توقع المساعدة من المغول والصليبيين من الغرب ، حرص على أن يتخذ من هذا الوضع أساسا لما يجرى من مساومة مع بيبرس . غير أن بيبرس كان أشد اصرارا على الحرب . وحينما علم هيثوم سنة ١٢٦٦ بأن القتال يوشك أن ينشب ، هرع الى تبريز يلتمس المساعدة من المغول ، وفي تلك الأثناء هبت العاصفة علىقليقية (أرمينيا الصغرى) . اتخذ الجيش الأرمنى بقيادة ليو وثوروس ولدى هيثوم ، مواقعه عند دروب جبال طوروس المؤدية الى بلاد الشام ، يحمى جناحيه فرسان الداوية بقلعة بغراس . غير أن عساكر المماليك ، وعساكر المنصور الثانى صاحب حماه توجهوا صوب الشمال لتجتاز جبل أمانوس بالقرب من سرفندار ، فتجنبت بذلك دروب طوروس المعروفة بالمنافذ السورية .

وبادر الأرمن الى اعتراض طريق العسكر المصرى والشامى ، أثناء هبوطهمالىسهل قليقية. دارتمعركةرهيبة في٢٤ أغسطس ١٢٦٦ (٦٦٤ هـ)، وحلت الهزيمة بالأرمن ، فلقى توروس مصرعه ، ووقع ليو أسيرا في يد القوات المملوكية . واجتاح المسلمون قليقية ، فصاروا ينهبون ويقتلون ويأسرون ويحرقون ما يصادفهم، واستولوا على قلعة للداوية ، فأحرقوها بما فيها من الحواصل ، ودخلوا سيس عاصمة قليقية فأخربوها ، وأقاموا أياما يحرقون ويقتلون ويأسرون . وتوجه الامير قلاون بعساكره الى

المصيصة وأذنه وأياس وطرسوس فقتلوا وأسروا وهدموا عدة قـلاع . وفي نهاية سبتمبر انسحب الظافرون المنتصرون الى حلب ، وبصحبتهم من الأسرى نحو أربعين ألف ، ومن الغنائم ما حملته قافلة ضخمة .

وعاد هيثوم من تبريز ، بجماعة قليلة من العساكر المغولية ، وشهد ما حل بعاصمة بلاده ، سيس ، من الخراب والدمار ، وما تعرضت لـه بلاده من النهب والتدمير ، فلم يعد في وسعه أن يقوم بدور ايجابى في سياسة آسيا وأخذ يرتقب اطلاق سراح ابنه ليو من الأسر ، ليترك الملك له ، ويلجأ الى الدير .

وظل هيثوم يسعى الى اطلاق سراح ابنه ليو ، فعرض في فـدائه الأموال والقلاع والمواقع الهامة الواقعة بالاطراف التى انتزعها المغول من امارة حلب ، وبذلوها هدية للارمن ، وتشمل دربساك التـى تتحكم في الدرب الممتد من اسكندرونة ويـكفل انتظام المواصلات بـين مملكة قليقية وانطاكية، وبهسنا الواقعة باقليم مرعش، وتسيطر علىالطرقالممتدة من سيس الى سميساط بأعالى الفرات ، أى أنها تتحكم في المواصلات بين قليقية وفارس (الخاضعة للمغـول) ، ويضاف الى هذه البـلاد ، مرزبان ورعبان وشبح الحديد. والواضح أن انتزاع هذه البلاد ، يؤدى الى تجريد قليقية من اسباب دفاعها ، وعزلها عن حلفائها الفرنج والمغول. على أن بيبرس اشترط أيضا لاطلاق سراح ليو ، ضرورة أخلاء سبيـل الامير شمس الدين سنقر الأشقر ، الذى أسره المغول من حلب بعد أن انتزعوها من يد الناصر يوسف .

واذ تم الاتفاق على هذه الشروط ، انعقدت المعاهدة في مايو ١٢٦٨ (٦٦٦ هـ) ، فأضحى المسلمون يحدقون بقليقية من كل جانب ، واقتربت ساعة زوال امارة انطاكية بشمال الشام .

ولما كان المغول لا زالوا القوة المحالفة الوحيدة التي يصح أن تنهض لمقاومة المصريين ، على الرغم من أن مركزهم لم يـــكن من القوة والمتانة مثلما كان زمن هولاكو ، صحب هيثوم ابنه ليو الى الاجتماع بأبغا كيما يقره خلفا له في الحكم ، ولما تنازل هيثوم فعلا عن العرش الى ابنه سنة ١٢٦٩ ، توجه ليو الى بلاط أبغا للتصديق على هذا الاتفاق ، بينما لجأ هيثوم الى دير بالقرب من سيس ، واتخذ اسم الراهب مكاريوس .

وسار ليو الثالث على سياسة أبيه هيثوم ، من حيث التمســك بـسياسة التحالف بين المسيحيين والمغول ، الذى يؤدى في اعتقاده الى استعادة الاراضى المقدسة . وجرى أبغا أيضا على هذه السياسة ، وحرص كــل منهما علــى أن يستنجد بالقوى المسيحية في الغرب ، انجلترا ، والبابوية. على أنه ليس من المحقق أن تنجح هذه المساعى المشتركة . بينما تهيأت للماليك من الاحوال ، ما جعلهم يمعنون في فتوحهم والاستيلاء على ما تبقى في أيدى الصليبيين من أملاك بالشام وفلسطين ، وتدمير أرمينية الصغرى .

واذ اطمأن بيبرس الى نجاح دبلوماسيته في عزل بقايا الامارات الصليبية ، لم يأل جهدا في أن يواصل هجماته عليها . فتوالت هجمـــاتـــه على عكا. وعلى الرغم من ارتداده عنها بسبب مناعة تحصيناتها فانه ألحق بها خسائر كبيرة في الارواح ، وأنزل بقراها وأراضيها مــن النهــب والتخريب ما الزم الفرنج بانفاذ الرسل اليه في صفد يطلبون الهدنة . وزاد في اضطراب أحوال عكا ، ما تجدد من نشوب الحرب بين البنـــادقـــة والجنويين ، حول السيطرة عــلى ميناء عكا . ففى ١٦ أغسطس سنـــة ١٢٦٧ ، استطاع قائد البحر الجنوبى ، جريمالدى ، أن يشق باسطوله البالغ عدده ثماني وعشرون سفينة ، الطريق الى الميناء ، بعد أن استولى

على برج الذباب ، الواقع في طرف حاجز المياه . غير أن البنادقة لم يلبثوا أن ظهروا بأسطول مؤلف من ست وعشرين سفينة ، فهاجموا الجنويين ، الذين فقدوا خمس سفن في المعركة ، ولجأت السفن الباقية الى صور .

وفي اوائل سنة ١٢٦٨ ، خرج بيبرس من القاهرة مرة أخرى لمهاجمة ما تبقى من أملاك الصليبيين جنوبي عكا ، وتشمل قلعة عثليت التابعة للداوية ، ومدينة يافا التى يحوزها يوحنا ابلين .(١) . لم يكن في استطاعة يافا أن ترد هجمات بيبرس ، الذى استولى عليها بعد قتال لم يستمر اكثر من اثنتى عشرة ساعة ، وأبقى بيبرس على حياة حامية يافا ، وأذن لها بالرحيل الى عكا ، غير أن القلعة تعرضت للدمار ، وما تخلف عنها من حجارة ورخام وأخشاب ، جرى ارساله الى القاهرة للافادة منه فيما أقامه بيبرس من عمائر .

وسقطت قلعة كوكب التى يملكها الداوية ، في ٥ ابريل ١٢٦٦ ولجأ أطفالها ونساؤها الى صور ، وحرص بيبرس على عمارة القلعة وشحنها بالعساكر . وجرى بيبرس على أن تكون حربه خاطفة . ولذا حينما يصادف في القلاع والمواقع أنها من المناعة والقوة ، ما يتطلب الاستيلاء عليها زمنا طويلا ، ينصرف عنها مؤقتا ، ويمضى لمهاجمة المواقع التى تفوقها أهمية . فحينما تراءى للسلطان بيبرس مناعة طرابلس وقوة حاميتها ، وكان وقتذاك يتطلع الى الاستيلاء على أنطاكية ، التى ارتبط أميرها بوهمند السادس بملك ارمينية الصغرى ، بالمصاهرة وبالتحالف

---

(١) يوحنا ابلين هو مصنف ما هو معروف باسم قوانين مملكة بيت المقدس . انظر . باركر : الحروب الصليبية ص ٦٠ ــ ٦١ . والمعروف أن يوحنا قد مات في ربيع سنة ١٢٦٦ بعد أن عقد هدنة مع المسلمين .

لمناهضة الدولــة المملوكية ، لــم يحفل بالاستيلاء عــلى طرابلس أول الأمر بل زحف صوب الشمال ، وقد هرع اليه فرسان الداوية يتوسلون اليه الابقاء على انطرسوس وصافيتا ، فاستجاب بيبرس لرجائهم ، وهبط الى وادى نهر الأورنت . وفي ١٤ مايو ١٢٦٨ ، وصل بجيوشه الــى انطاكيــة .

سقوط انطاكية ١٢٦٨ (٦٦٦ هـ)

جعل بيبرس قواته ثلاثة اقسام : توجه أولها للاستيلاء على ميناء انطاكية ، وهو السويدية، حتى يقطع طريق الاتصال بين أنطاكية والبحر. وسار الجيش الثانى نحو الدروب السورية (في جبال طوروس) ، حتى يحول دون قدوم أمداد من قبل ارمينية الصغرى (قليقية) . أما الجيش الثالث وهو الذى يؤلف القوة الأساسية ، فتولى قيــادته بيبرس الذى قام بتطويق المدينــة .

كان أميرها ، بوهمند ، وقتذاك في طرابلس ، وقد عهد بادارتها أثناء غيابه الى الكندسطبل سيمون مانزل Simon Mansel الذى تزوج من أميرة أرمنية تمت بصلة القرابة لزوجة بوهمند . وعلى الرغم مــن اهتمام الصليبيين طوال حكمهم في انطاكية بعمارة اسوارها، والاستكثار من العساكر ، فان هذه العساكر لم تكن مــن الوفرة ما يكفى لحراسة أسوار المدينة بالغة الامتداد . وحينما حاول سيمون منع المماليك مــن مهاجمة المدينة ، وقع في أسرهم ، فطلبوا اليه تدبير امر اذعان الحامية وحقن الدماء ، غير أن نائبه داخل المدينة رفض الاستجابة له ، فــقام المماليك في ١٨ مايو بهجوم شامل على كل قطاعات المدينة ، واستطــاع المماليك أن يتدفقوا الى داخل المدينة من ثغرة في استحكاماتها ، ففــر

أهلها الى القلعة ، ووقع النهب والقتل والأسر في المدينـــة ، فلم يرفع السيف عن أحد من الرجال ، وكان بها فوق المائة ألف . وأحاط الأمـــراء بأبواب المدينة حتى لا يفر أحد . واجتمع بالقلعة من المقاتلة ثمانية آلاف سوى النســاء والاولاد ، فبعثوا يطلبون الأمان فأمنوا ، وصعد السلطان اليهم ، ومعه الحبال . فكتفوا وفرقوا على الامراء والكتاب بيـــن يدى السلطان ينزلون الاسماء (١) .

ثم أمر السلطان باحضار المغانم لتقسم ، فاحضر الناس الأمـــوال والمصاغ والذهب والفضة حتى صارت تلا . وقسمت في الناس ، وطال الوزن فقسمت النقود بالطاسات ، وقسمت الغلمان على الناس ، فلـــم يبق غلام الا وله غلام ، وتقاسم النساء والبنات والأطفال . وأبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم . وأقام السلطان يومين وهو يباشر القسمة بنفسه . وما ترك شيئا حتى قسمه .

ثم ركب السلطان الى القلعة وأحرقها ، وعم بالحريق انطاكية ، فأخذ الناس مـــن حديد أبوابها ورصاص كنائسها ما لا يوصف كثرة . وأقيمت الاسواق خارج المدينة ، فقدم اليها التجار من كل جهة .

ولسقوط انطاكية أهمية كبيرة ، اذ انها كانت أول امارة أقامهـــا الفرنج في الشرق الأدنى ، فكأنها بقيت ١٧١ سنة ، ويعتبر سقوطها ضربة قاضيةلكرامة المسيحيين وهيبتهمفيالشرق، اذ عجلسقوطها بتدهورأحوال المسيحيين في شمال الشام ، فقد مضت أيام الفرنج ، وساءت أحوال المسيحيين الوطنيين وحان وقت العقاب على مساندتهم للفرنج والمغول . ولم تنهض انطاكية من كبوتها ، اذ فقدت أهميتها التجارية .

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ، ص ٥٦٧

وما كان يصل اليها من تجارة العراق والشرق عن طريق حلب، تحول الى أياس ثغر أرمينية الصغرى على البحر المتوسط ، نظرا لسيطرة المغول على العراق وفارس ومعظم القارة الاسيوية ، وامتداد سلطانهم الى أرمينية الصغرى ، وآسيا الصغرى ، فلا بد للتجارة أن تتجنب الطريق الذى يجتاز أراضى المماليك في الشام . ولم يحفل المسلمون بأن تعمر أنطاكية من جديد بالسكان ، فلم يعد لها من أهمية ، سوى أنها حصن واقع على الاطراف الاسلامية . وتحول مقر الكنيسة الأرثوذكسية واليعقوبية الى دمشق ، التى تزيد نشاطا وحيوية عن انطاكية .

وما تعرضت له انطاكية وأرمينيا الصغرى من الدمار ، جعل من المستحيل على الداوية ان يحافظوا على قلاعهم بجبال آمانوس ، فتخلوا عن بغراس ولاروش دى روسول ، ولم يبق من أملاك أنطاكية سوى اللاذقية التى سبق للمغول أن بذلوها هدية لبوهمند، فأضحت بعد سقوط أنطاكية تؤلف جيبا للفرنج ، اما قلعة القصير فان صاحبها ظل محتفظا بها سبع سنوات أخرى ، لموقفه الودى مع المسلمين .

على أن بيبرس أبدى استعداده لعقد هدنة مع الصليبيين ، لما تردد من الشائعات من تحرك المغول ، واحتمال رجوع لويس التاسع الى الشرق . وفرح هيو الوصى على عرش المملكة لعقد الهدنة ، لانه لم يستطع وقتذاك وقف القتال الذى نشب سنة ١٢٦٧ بين البنادقة والجنوبيين ، ولان مركزه صار قلقا بعد وفاة نائبه ، جفرى سارجينس . وعلى الرغم من أنه صار ملكا على قبرص سنة ١٢٦٧ ، بعد وفاة هيو الثانى ، فان البارونات بقبرص لا زالوا على عنادهم ، فاخطروه بأنهم ليسوا ملزمين بأن يصحبوه الى القتال عبر البحار . فاذا أراد ان يستخدم جيشا في الارض الاصلية لمملكة بيت المقدس ، فلا بد أن يكون هذا

الجيش مؤلفا مـن متطوعين . ثم حدث في سنة ١٢٦٨ أن لقي كنرادين ملك بيت المقدس ، مصرعه حينما حاول انتزاع مملكة صقلية التـي آلت برضى البابا ، الى شارل كونت أنجو ، مـن مانفرد بن فريدريك الثـانـي .

ولما اتخذ هيو لقب ملك بيت المقدس ، نازعه هذا اللقب امـراء وأميرات كثيرون ، فتحالف مـع فيليب مونتفورت والاسبتارية وفـاز بالتاج في صور ، في سبتمبر ١٢٦٩ ، وتزوجت ابنة الملك من ابن يوحنـا صاحب بيروت . وتزوج الملك من احدى فتيات بيت ابلين في قبرص .

وتراءى أن كل شيء تم على أحسن وجه ، وركن بيبرس للراحـة والهدوء ، علـى ان الايلخان أبغا لا زال يعطف على قضية المسيحيين ، وشاع أن الملك لويس التاسع ، يعد حملة صليبية جديدة للشرق .

على أن ظهور شارل أنجو في البحر المتوسط ، بعد انتزاع صقليـة أثار الاضطراب في عالم البحر المتوسط . اذ كانت آمال الصليبيين معقودة على قدوم لويس التاسع في حملة صليبية الى الشرق .

غير أن أنجو استطاع أن يحول هذه الحملة سنة ١٢٧٠ الى تونس، لان ذلك يتفق مع مصالحه الخاصة في شرق البحر المتوسط .

ولما مات لويس التاسع سنة ١٢٧٠ في تونس ، طابت نفس شارل ، لما كان يلتزم به نحوه من احترام شديد، وخضوع تام لمشيئة لويس. وكان شارل يرتبط بعلاقات ودية مع السلطان بيبرس ويكن الكراهية والعداء لملك بيت المقدس هيو ، ويؤيد دعاوى كل من هيوبريين في عـرش قبرص ، وماريه أميرة أنطاكية في عرش بيت المقدس . والواقع أن مـن

حظ الصليبيين في الشرق ، أن وجه شارل أطماعه الى بيزنطة . فمن المحقق أن كل حملة صليبية يرعاها انما تخدم غرضه .

ولما لم تتحقق المساعدة من الغرب للصليبيين ، فلا يزال يراودهم الأمل في الحصول على هذه المساعدة من الشرق .

المغول والغرب المسيحي

فالمعروف أن أيلخان فارس الجديد ، أبغا ، برغم دياتنه الشامانية ، سار على خطى أبيه في رعاية المسيحين ومساندتهم . ومع أن وفاة ظقز خاتون ، زوجة هولاكو المسيحية ، حرمت المسيحيين على اختلاف مذاهبهم من أهم صديق لهم ، فان الأميرة ماريا البيزنطية زوجة أبغا ، تولت رعايتهم وحمايتهم . ولما اشتهرت به ماريا من حب الخير ، والتعقل ، لقيت الاحترام والتبجيل من أبنائه وسائر رعاياه . واذ تواترت الأخبار في الغرب بنوايا أبغا الطيبة ، وحرصه على انتهاج سياسة ابيه في حماية المسيحيين ، اتفق ملك أراجون والبابا كلمنت الرابع على أن يبعثا اليه سنة ١٢٦٧ بسفارة ، برياسة جيمس الريك بربجنان ، تخطره بما يعده كل من ملك أرجون ولويس التاسع من حملة صليبية ، وتطلب منه الاشتراك في محالفة عسكرية . على أن أبغا لم يستطع أن يبذل وعودا حاسمة وقتذاك لانصرافه الى قتال مغول القبجاق .

ومن الدليل على أنه لم يكن بوسعه أن يبذل سوى ذلك ، أنه لم ينهض لانقاذ أنطاكية ومنعها من الوقوع في أيدى المماليك في السنة التالية (١٢٦٨) . وكان لزاما عليه أيضا أن يشتبك في القتال مع بني عمومته من بيت جغتاى (في اقليم ما وراء النهر) الذين أغاروا سنة ١٢٧٠ على الشطر الشرقى من ممتلكاته ، ولم يرتدوا الا بعد معركة حاسمة نشبت بالقرب من هراة .

وكان لزاما على أبغا في السنتين التاليتين أن يستأنف علاقاته من جديد ، مع عمه وسيده قوبيلاى ، الخاقان الاعظم ، بالصين[1] .

على أنه عقب انتصار أبغا في هراة سنة ١٢٧٠ ، كتب الى الملك لويس التاسع ، أنه سوف يبذل للصليبيين المساعدة الحربية ، عند ظهورهم في فلسطين . واذ توجه لويس بحملته الى تونس ، لم يكن بوسع المغول ان ينهضوا لمساعدته . وكل ما قدمه أبغا من مساعدة عملية للمسيحيين ، أنه سلم لهيثوم ملك قليقية ، الامير المملوكى المعروف ، شمس الدين ستقر الاشقر (الصقر الاحمر) ، الذى سبق أن اسره المغول في حلب .

أما اغتيال فيليب مونتفورت على أيدى الاسماعيلية في صور ، سنة ١٢٧٠ ، حتى يتخلصوا نهائيا من دفع الاتاوة التى التزموا بها للاسبتارية، وانتقاما لما جرى من زوال معاقل الاسماعيلية في فارس ، بعد تحالف المغول والفرنج ، فيعتبر ضربة عنيفة لما تبقى من الامارات الصليبية في الشرق .

---

(١) كان لقوبيلاى ، الخان الأعظم سياسة مزدوجة ، صينية ومغولية ، فمن حيث ارتباطها بالمغول ، حرص على المحافظة ، من ناحية المبدا ، على وحدة امبراطورية جنكيزخان . فباعتباره الخان الاعظم ، حرص على أن يدين بالولاء له سائر الولايات التى أضحت تؤلف خانيات تمارس الاستقلال الداخلى . وكان لزاما عليه ان يخوض الحرب مع بيت اوكيتاى (قايدو)، وبيت جغتاى ، لفرض سلطانه عليهما ، ونظرا لأن فارس لم تكن من أملاك الامبراطورية، وكان يحكمها أخوه هولاكو، اعتبر امراءها نواباعنه (ايلخانات) يحصلون على تقليد منه ، ويكونون على صلة وثيقة به ،
انظر Grousset : Histoire de l'Extrême Orient p. 458.

واذ تهيأت الاحوال لبيبرس ، بوفاة لويس التاسع سنة ١٢٧٠ ، ومصرع فيليب مونتفورت ، ولم يكن ثمة من الدواعي ما يجعله يخشى شارل أنجو ، فضلا عن ضعف بقايا الامارات الصليبية ، أغار على أملاك الصليبيين ، فاذعنت صافيتا (من أملاك الداوية) سنة ١٢٧١ والتجأت حاميتها الى انطرسوس ، بموافقة السلطان . ثم زحف الى قلعة الحصن (حصن الاكراد) التى تعتبر من أشهر قلاع الاسبتارية ، وانحاز اليه الاسماعيلية والمنصور صاحب حماه ، واستولى المسلمون ، بعد فترة وجيزة من القذف بالمناجيق ، على البرج الذى يقع باعلا باب الحصن ، ولم يلبثوا ، بعد اسبوعين ، أن شقوا طريقهم الى داخل الحصن ،فقتلوا من صادفهم من الفرسان الاسبتارية واكتفوا بأسر العساكر من المسيحيين الوطنيين ، وأعلن المدافعون الاذعان آخر الأمر ، في ابريل ١٢٧١ ،فسمح لهم بيبرس بالانسحاب الى طرابلس . وباستيلاء بيبرس على حصن الاكراد ، أضحى يسيطر على الطرق المؤدية الى طرابلس .

وما حدث من قدوم حملة صليبية انجليزية بقيادة ادوارد الأول ، سنة ١٢٧١ ، أجل سقوط طرابلس بعد أنعقد أميرها هدنةمع بيبرس لمدة عشر سنوات ، غير أن ادوارد أدرك أنه ليس بوسعه أن يواجه قوات المسلمين ، لقلة عدد من كان معه من العساكر ، وكان يأمل في أن يحصل على مساعدة عسكرية من المغول اذا أراد مهاجمة بيبرس . كما أن القوى البحرية عند البندقية وجنوة ، انصرفت الى تنشيط تجارتها في الشرق الادنى . اذ حرص البنادقة على المضى في تجارتهم مع السلطان بيبرس ، فأمدوه بكل ما يحتاج اليه من الاخشاب والمعادن اللازمة لتسليحه ، وحرص الجنويون على أن يسلكوا هذا الطريق ، فكانت لهم السيطرة على تجارة الرقيق اللازمة لتدعيم الجيش . وحينما وجه ادوارد اللوم للايطاليين علىهذهالتجارة، التىتعرض للخطر مصالح المسيحيين فيالشرق،

أطلعوه على الاجازة التى حصلوا عليها من المحكمة العليا في عكـا ، التى تأذن لهم بذلك . ووقف ادوارد أيضا على ما كـان من نزاع بين الباورنات وهيو ملك قبرص وبيت المقدس ، حول اصرار بارونات قبرص وعساكرهم ألا يتبعوا الملك خارج الجزيرة . ولم يظفر الامير الانجليزى بما كان ينشده من مساعدة المغول .

لم يكد ادوارد يصل الى عكا ، حتى أرسل سفارة الى ايلخان المغول ، أبغا . واذ انصرفت جيوش أبغا وقتذاك الى القتال بتركستان ، وافق أبغا على أن يبذل من المساعدة ، ما يستطيع أن يؤديه .

وفي منتصف اكتوبر سنة ١٢٧١ ، أوفى أبغا بوعده ، بان سحـب من حامياته في آسيا الصغرى (حيث سلاجقة الروم) نحو عشرة آلاف فارس ، فأخذوا يعيثون فسادا فيالبلاد التى يجتازونها الى الشام، فنهبوا عينتاب ، وانزلوا الهزيمة بالتركمان الذين يتولون الدفاع عن حلـب ، وهربت حامية حلب الى حماة . ومضى المغول الى حلب ومعرة النعمـان، وأفامية ، فاثاروا الذعر في المسلمين . كان بيبرس وقتذاك بدمشق ،فطلب الامداد من مصر ، وحينما شرع في التحرك لمواجهة المغول ، لم يسـع المغول الا التراجع ، اذ لا قبل لهم بمواجهة الجيش المملوكى ، يضاف الى ذلك ما ساد من التمرد بين اتباعهم الترك في آسيا الصغرى ، فاكتفى المغول بما حصلوا عليه من غنائم وارتدوا الى ما وراء نهر الفرات .

والواقع أن ما تردت فيه بقايا الامارات الصليبية مـن الضعف ، جعلها تحت رحمة بيبرس ، ما لم يعطله أخطار خارجيه . فكان من أهـم الواجبات الملقاة على عاتق جيشه ، هو ان يدرأ خطر المغول ، الذين لا بد من استخدام الدبلوماسية لحجزهم في بلاد الاناضـول وفي أقاليـم الاستبس .

وفي نفس الوقت ، لا بد من منع التدخل من قبل الغرب ، ولذا ينبغي ان تتوطد علاقات الصداقة بينه وبين شارل أنجو . وهو الوحيد الذى تعتبر مساعدته لعكا بالغة القيمة . على أن الاستيلاء على القسطنطينية كان أهم ما يتطلع اليه شارل ، وكل ما يهتم به شارل من امور الفرنج في الشام ، هى أن تبقى الاحوال على ما هى عليه ، وألا يقدم على أمر من شأنه يزيد من سلطة الملك هيو ، الذى كان يأمل في أن يحل مكانه في وقت من الأوقات . ولذا أحب أن يتوسط بين بيبرس وادوارد ، وترتب على هذه الوساطة أن انعقدت الهدنة في قيسارية بين السلطان بيبرس وحكومة عكا في مايو سنة ١٢٧٢ ، لمدة عشر سنوات وعشرة شهور ، فكفلت بذلك بقاء المملكة التى شملت السهل الساحلى الممتد من عكا الى صيدا ، وعلى أن يكون لها الحق في استخدام طريق الحجاج المؤدى الى الناصرة . أما طرابلس فانه كفل بقاؤها الهدنة المعقودة سنة ١٢٧١ . ولم يلبث ادوارد أن عاد الى انجلترا في ١٢٧٢ ، ليتوج ملكا بعد وفاة أبيه .

أضحى شارل أنجو ملكا على صقلية وبيت المقدس ، بعد أن اشترى حقوق ماريه صاحبة انطاكية في بيت المقدس سنة ١٢٧٧ . فاطمأن بيبرس، استنادا الى علاقته الطيبة مع شارل ، الى أنه سوف لا يثير حملة صليبية . ولن يتآمر مع المغول ، وبذا لم يكن لديه ما يدعو للتعجل بالقضاء على الأملاك الصليبية ، على حين أن بوسعه أن ينصرف لقتال المغول . أحس أبغا بما يتهدده من خطر فكان حريصا على قيام تحالف مع الغرب . ففى سنة ١٢٧٣ أرسل كتابا الى ادوارد ملك انجلترا ، وانفذ رسولين الى البابا يتساءل عن موعد الحملة الصليبية القادمة ، غير أنه لم يتلق الا وعودا غامضة . ولم تلق سفارته ، في سنة ١٢٧٦ ، الى البابا

وملكي انجلترا وفرنسا ، ماتبتغيه من نجاح ، بل ان البابا وقع تحت تأثير شارل أنجو ، الذى أقام سياسته على الوفاق الودى مع بيبرس ، كما أنه لم ينس أن المغول اصدقاء خصومه البيزنطيين والجنوبيين . وما كان يأمله البابا من اعتناق المغول المسيحية ، وما ينالونه من جزاء من السماء، ليس كافيا لارضاء الايلخان . بل أن توسلات ليو الثالث ملك أرمينية ، الذى يعتبر أصدق حليف للايلخان ، ووثيق الصلة بروما ، لم تظفر من البابوية بمساعدة عملية .

أضحى بوسع بيبرس أن يمضى في خططه دون أن يخشى تهديدا من قبل الغرب . ففى ربيع سنة ١٢٧٥ ، قام بغارة على قليقية ، نهب فيها المدن الواقعة بالسهل ، غير أنه لم يستطع أن يبلغ سيس[1] ثم قرر أن يغزو سلاجقة الروم ، وكان سلطانهم طفلا ، وهو كيخسرو الثالث فاصبحت مقاليد الدولة في يد وزيره سليمان برواناه ، الحاجب ، على أنه لم يكن من القدرة ما يكفى لضبط سائر الامارات ، وأهمها امارة قرمان ، التى اعلنت التمرد والعصيان . والمعروف ان ايلخان فارس

---

(١) اغتنم ليو الثالث ، ملك قليقيه ، فرصة انصراف بيبرس عنه ، فيما انشبه من حروب في جهات أخرى ، فحاول اصلاح ما سببه المماليك فى غزوتهم السابقة من خسائر . اذ بذل للتجار البنادقة سنة ١٢٧١ امتيازات وجرت عمارة اياس ، التى اضحت مركزا تجاريا نشيطا . ويشير ماركوبولو اليها ، أثناء زيارته سنة ١٢٧١ على انها مدينة جميلة وضخمة، وذات تجارة عظيمة ، فيحمل اليها التوابل والثياب المصنوعة من الحرير والموشاة بالذهب ، والثياب المصنوعة من الصوف ، وكلها ترد اليها من البلاد الداخلية . ويرجع نمو ميناء أياس الى سيطرة المصريين على موانىء الشام وفلسطين. اضحت اياس اكبر المرافىء علىالبحر المتوسط لما يردمن اسيا الوسطى من سلع . وما اشتهرت به من الثراء والمكانة ، جعلها من اهداف المصريين الذين يودون تحقيقها .

Setton : op. cit. II p. 625

يلتزم بحماية هذه السلطنة، بما أقامه فيها من حامية مغولية قوية، تعرضت هذه الحامية لهزيمة حاسمة في البستان، في ابريل ١٢٧٧ ، وبعد أيام قليلة، دخل السلطان بيبرس المدينة ، قيصرية ، واقبل الوزير ، سليمان ، والأمير القرماني ، يهنئان بيبرس على انتصاره . أما أبغا فاستشاط غضبا ، وقاد جيشا كثيفا ، وأخذ طريقه الى آسيا الصغرى ، فاستعاد السلطنة بعد أن عاد بيبرس الى الشام ، وأمر باعدام سليمان . ولم يعش بيبرس بعد حملته على آسيا الصغرى ، اذ مات في يوليه ١٢٧٧ .

ومع أن بيبرس لم يعش ليشهد زوال الامارات الصليبية ، فان ما انتزعه من معظم بلادها جعل زوالها أمرا لا مفر منه .

المنصور قلاون والمغول والصليبيون

تعرضت قليقية للهجمات المتتالية من قبل المماليك سنة ١٢٧٥ ، والى الغارات المستمرة على غربيها من قبل التركمان. يضاف الى ذلك ان الفتن الداخلية التى أثارها البارونات ولدت المتاعب للملك ليو الثالث ، ولا سيما أنه لم يتلق وقتذاك مساعدة مباشرة من المغول .

والفترة الواقعة بين ١٢٧٧ ، ١٢٨٠ ، أى منذ وفاة بيبرس حتى قيام المنصور قلاون في السلطنة ، حفلت بالقلاقل والفتن في مصر والشام، بسبب التنازع على العرش ، فعلى الرغم من أن الامراء المماليك لا يقرون الوراثة ، فقد جرى التقليد على أن يعترفوا بسلطنة من اختاره السلطان وليا لعهده ، ولم يلبث أن يجد نفسه مضطرا للتخلى عن الحكم ، لأقوى الامراء المماليك . وهذا ما حدث حينما تولى قلاون السلطنة ١٢٧٩ ولم يلبث أن هزم سنقر الاشقر عند دمشق ١٢٨٠ ، بعد أن أعلن نفسه سلطانا . وتهيأت بذلك الأحوال لأن يقوم المغول بالاغارة . فأرسل أبغا في سبتمبر ١٢٨٠ ، جيشا خبيرا بأحوال شمال الشام . وافترق هذا الجيش

ثلاث فرق ، فرقة سارت من جهة بلاد الروم (آسيا الصغرى) ، وفرقة من جهة الشرق بقيـــادة بيدو بن طوغاى بن هولاكو وصحبته صاحب ماردين ، وفرقة فيها معظم العسكر مع منكوتمر بن هولاكو .

وهجمت طوائف المغول على أعمال حلب ، فاستولوا على عيـــن تاب وبغراس ودربساك ، ودخلوا حلب وقد خلت من العساكر ، فعمدوا الى القتل والنهب والسبى ، واحراق الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء . واغتنم الفرصة الاسبتارية الذين تقع معاقلهم بالقرب من مسرح الأحداث ، ووجهوا هجومهم ، بعد الاتصال بالمغول ، الى حصـــن الكرك . على أنه حينما حشد قلاون عساكره ، بدمشق ، ارتد المغـــول الى ما وراء الفرات .

وحدث حوالى ذلك الوقت أن قدم الى عكا مبعوث من قبـــل المغول ، ينهى للفرنج بأن ايلخان عزم على أن يرسل الى الشام ، في الربيع التالى ، جيشا مؤلفا من مائة ألف مقاتل . ويطلب اليهم أن يمدوه بالمون والرجال ، فأنفذ الاسبتارية هذا الرسول الى ادوارد ملك انجلترا ، غير أن هذا الرسول لم يلق استجابة لطلبه . واهتم قلاون بأمر المغول ، بعد أن ترامت اليه أنباء حملتهم المقبلة ، فانعقد الصلح بينه وبين سنقـــــر الاشقر ، في يونيه سنة ١٢٨١ ، بأن جعل أنطاكية وأفامية اقطاعا له .

وتقرر عقد هدنة مـــع الطوائف العسكريـــة لمدة عشر سنوات . والمعروف أن بيبرس عقد هدنة مع حكومة عكا سنة ١٢٧٢ لمدة عشـــر سنوات . وانعقدت الهدنة أيضا مع بوهمند صاحب طرابلس ، في نفـــس السنة (١٢٨١) . ولا شك أن قلاون حقق بذلك انتصارا دبلوماسيا باهرا ، فاستطاع بذلك أن يطمئن الى جانب الفرنج ، أثناء اشتباكه في الحرب مع المغول .

وفي سبتمبر ١٢٨١ ، زحف على الشام جيشان مغوليان ، الجيش الأول قاده أبغا ، فأخضع المعاقل للاسلامية الواقعة على نهر الفرات ، بينما تولى أخوه منكوتمر قيادة الجيش الثانى ، وبادر منكوتمر الاتصال بملك قليقية ، ليو الثالث ، ثم مضى الى وادى نهر الاورنت ، بعد أن اجتاز اليه عين تاب ، وحلب .

أما المنصور قلاون فانه توجهالى دمشق ، حيث حشد قواته ، وزحف صوب الشمال ، وامتنع الفرنج عن الانحياز لأى الجانبين ، غير أن الاسبتارية بالمرقب لم يعتبروا انفسهم داخلين في عقد الهدنة الذى اشتركت فيه طوائف الفرسان الرهبان بعكا ، فانحازت جماعة منهم الى ملك أرمينية .

وقع الاشتباك بين الجانبين المغولى والمملوكى ، خارج مدينة حمص . وكان منكوتمر يقود قلب الجيش ، وكان على ميسرته امراء من المغول ، بينما تالفت ميمنة الجيش من قوات الكرج ، ومعهم ليو الثالث والاسبتارية . وخضعت ميمنة الجيش الاسلامى لقيادة المنصور صاحب حماه ، وقاد المنصور قلاون الجيش المصرى في القلب ، والى جانبه الامير لاجين بقوات دمشق ، وفي الميسرة سنقر الاشقر ومن معه من الامراء والتركمان ، واشتد القتال بين الفريقين ، وأصاب منكوتمر من الجراحما جعلهيأمربارتداد الجيشالمغولى،بينما انعزل ليو ورفاقهعنسائر الجيش ، بعد أن ساقوا خلف المسلمين الذين تقهقروا نحو الجنوب ،وكان لزاما على ليو أن يشق طريقه الى الشمال ، فتكبد جيشه خسائر فادحة في الأرواح ، واجتاز المغول نهر الفرات ، الذى أضحى الحد الفاصل بين الامبراطوريتين المغولية والمملوكية . ولم يشترك في هذه المعركة من الفرنج هيو ملك قبرص ، وبوهمند أمير انطاكية ، بل ان شارل أنجو

أرسل نائبه في عكا لتهنئة قلاون على انتصاره على المغول ، بينما اشتد حزن أبغا ، الذى صب غضبه على أخيه منكوتمر ، فقال « لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت » . وهذه العبارة لها دلالتها ، اذ أن المغولى في حروب جنكيزخان كان يحرص دائما على احراز النصر ، أو لقاء الموت .

واذ تداعت دولة شارل أنجو في البحر المتوسط ، نتيجة للثورات الداخلية ، ومبادرة ملك أراجون الى انتزاع نابولى ، وتخلى البابوية عن تأييده ، لم يحفل المماليك بالابقاء على العلاقات الودية التى ارتبطوا بها مع الانجويين ، فلم يهاجموا ممتلكاته بالشرق . وما لم يجر التحالف بين المغول والفرنج ، فما من قوة تستطيع أن تثنى السلطان قلاون عن تحقيق غرضه ، وهو ازالة بقايا الامارات الصليبية . ولما كانت الهدنة التى سبق ابرامها في قيسارية ، انقضى أجلها في يونيه سنة ١٢٨٣ ، لم يمانع قلاون في تجديدها لمدة عشر سنوات أخرى بين حكومة عكا والداوية في عثليت وصيدا من جهة ، وبين قلاون من جهة أخرى . وكفلت الهدنة للفرنج امتلاك الاراضى الممتدة من صور شمال عكا ، الى جبل الكرمل ، فضلا عن عثليت وصيدا . غير أنه تقرر استبعاد صور وبيروت من المعاهدة ، وتقرر أيضا الابقاء على حرية اجتياز طريق الحجاج الى الناصرة .

وعزم قلاون على أن ينزل العقاب بمن لم يرتبط معه من الفرنج بهدنة ١٢٨٣ ، فقرر مهاجمة حصن المرقب الذى يملكه الاسبتارية ، الذين تحالفوا مع المغول ، فزحف السلطان قلاون بجيشه في ابريل سنة ١٢٨٥ ، واستمر الحصار مفروضا على الحصن ما يزيد على ثلاثين يوما .

واذ أدركت حاميته أن ليس في استطاعتها المضى في المقاومـة ، أعلنت التسليم ، واجاز قلاون للاسبتارية الذيـن يدافعـون عن القلعة ، بأن يخرجوا بخيولهم وأسلحتهم وامتعتهم ، أمـا سائر عساكر الحامية فانه سمح لهم بالخروج على ألا يحملوا شيئا معهم ، فلجأوا الى انطرسوس ، ثـم الـى طرابلس . ودخل قلاون المدينـة في مايو ١٢٨٥ وازدادت الأمور سوء في عكا ، بعد وفـاة هيو ملك قبرص وبيت المقدس سنة ١٢٨٤ ، ولم تزد مدة حكمه على سنة . اذ مات في سنة ١٢٨٥ ، وخلفه على الحكم أخوه هنرى الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، الذى قدم الى عكا سنة ١٢٨٦ ، ولما لم يلق القبول والتأييد ، عاد الى قبرص. والواقع أن ما حدث في عكا من الاضطراب والفوضى ، بسبب المنافسة التجارية ، والمنازعات بين طوائف الفرسان الرهبان ، والاختلاف حول السيطرة على الحكومة ، من قبل البارونات ورجال الدين ، كل ذلك لم يخف على قلاون .

أما المغول فانهم أدركوا ان الوقت قد حـان لمواصلة القتال ضد المماليك ، علـى ان ابغا مات في ابريل سنة ١٢٨٢ ومات في تلك السنة أيضا منكوتمر بن طغان ، خان مغول القبجاق .

تكودار
١٢٨٢ - ١٢٨٤

تولى الحكم بعد أبغا أخوه تكودار الذى جرى تنصيره نسطوريا باسم نقولا ، غير أنه كان يميـل الى الاسلام . فلم يكد يتولى العرش حتى أعلن اسلامه ، واتخذ لنفسه اسم أحمد ، ولقب السلطان . وأرسل الى القاهرة يطلب عقد معاهدة صداقة مع السلطان قلاون ، وذلك سنة ١٢٨٢ ، وورد في كتابه الى السلطان المنصور قلاون[1] ، أنه مسلم، وأنه

(١) انظر الملحق الثانى بآخر الكتاب ، ص ٣٥٦ وما يليها .

أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف ، وأمر بتجهيز الحجاج ، وسأل اجتماع الكلمة واخماد الفتنة والحرب ، وأنه ظفر بجاسوس ، وعادة مثله أن يقتل ، فجهزه الى الأبواب السلطانية ، وقال أنه لا حاجة الى الجواسيس ولا غيرهم بعد الاتفاق واجتماع الكلمة . وبالغ في استجلاب خاطر السلطان. فاجاب السلطان يهنئه بالاسلام والرضى بالصلح، وعادت الرسل بعد أن لقوا الاكرام والاحترام ، فعرض بذلك التحالف والسلام على السلطان .

وجه أحمد كل اهتمامه لأن يحمل التتار على اعتناق الاسلام . على أن قدامى المغول من البوذيين والنساطرة ، احتجوا على ذلك ، لدى الخان الأكبر بالصين ، قوبيلاى ، عم توكدار والسيد الأعلى لايلخانية فارس . وبلغ من سخط قوبيلاى على هذا التصرف ، أنه هدد بالتدخل . أما تكودار فانه أدرك أن المسئولين عن استعداء قوبيلاى ، ليسوا الا زعماء الكنيسة النسطورية ، والبطريرك يهبا لله الثالث ، ونائبه سوما . فأمر توكدار بالقاء البطريرك في الحبس ، ولم يطلق سراحه الا بعد توسط الملكة الأم قوتوى خاتون .

على أن الساخطين لم يلبثوا أن التفوا حول أرغون بن أبغا وحاكم خراسان . ولم تلبث الحرب الأهلية أن نشبت ، وهى في الواقع تمثل اختبارا بالغ الأهمية ، يصح أن تتعرف منه ما اذا كانت فارس المغولية لا تزال محافظة على صفتها المغولية ، أو أنها أضحت سلطنة اسلامية ، أو أنها لا زالت حريصة على الميل الى النساطرة واليعاقبة ، في الداخل ، وعلى ممالأة الأرمن والفرنج في الخارج ، أم أنها سوف تدخل في تحالف مع المماليك . لم تكن الحرب أول الأمر في صالح أرغون . فقد أعلن التمرد في ولايته خراسان ، ومنها زحف على العراق العجمى ، غير أن

الهزيمة حلت به عند اقخوجه قرب قزوين ، في ٤ مايو سنة ١٢٨٤ وأعلن الاستسلام لتيكودار . على أن كبار قادة تكودار دبروا فتنة بالقصر ، أطاحت بتكودار ، وأدت الـى مصرعه في أغسطس سنة ١٢٨٤ ، فتولى أرغون العرش .

ارغون بن ابغا ١٢٨٤ - ١٢٩١

الواضح أن أرغون كان يحرص على منع خانيه فارس من الدخول في الاسلام . واذ كان أرغون بوذيا مثلما كـان أبوه ابغا ، وجده هولاكو ، فانه سلك طريقهما في الانحياز الى المسيحيين واليهود ، فخصهم بالوظائف الأساسية في الادارة المدنية ، ولا سيما ما يتعلق منها بادارة المالية فجعل الطبيب اليهودى سعد الدولة وزيرا للمالية وكبير لمستشاريه ، وقد ظل سعد الدولة منذ سنة ١٢٨٨ حتى الأيام الأخيرة لحكم أرغون (فبراير ١٢٩١) موضع ثقة الأمير . وما اشتهر به سعد الدولة من الذكاء والمكر، والمرونة ، وطلاقة الحديث باللغتين التركية والمغولية ، ودرايته بحيـاة البلاط ، جعله يقف على كل ما يرضى أرغون ، الذى قدّر له تفانيه في خدمة الدولة . وبفضل مهارته الادارية أصلح الشئون الماليـة ، فمنع ما لجأ اليه السادة الاقطاعيون من النهب وابتزاز الأموال ، وحرّم على القادة العسكريين الامتناع عن تنفيذ قرارات المحـاكم ، وأنكر ما لجأ اليه ممثلو الطبقة الارستقراطية من اثقال كاهل الشعب ، بكثرة الطلبات. وفي الجملة ، حاول أن يقضى على كـل العيوب ، وأن يحول الحكومة التى غلبت عليهـا الصفة العسكرية ، الى ادارة مدنية سليمـة . وكيما يتجنب اثـارة سخط المسلمين ، أقر أن يجرى النظر في قضايا المسلمين وفقا للشريعة الاسلامية ، وزاد فيما يرصد من الأوقاف على الأعمـال الخيرية ، وشجع العلماء والأدباء . ولم ينكر عليه المسلمون الا ما خص به أهل ملته من اليهود ، من الوظائف الرئيسية في الادارة المدنية ، ولا سيما ما لجأ اليه من توزيع التزام جباية الأموال على أقاربه ، ولم يستثن

مـن ذلك الا خراسان وآسيا الصغرى ، باعتبارهما اقطاعين للأميرين غازان بن أرغون ، وكيخاتو أخيه . وكيفما كـان الأمر فان هذا الوزير اليهودى جلب متاعب كثيرة ، اذ كرهه السادة المغول لاقدامه على منع النهب ، وزعم المسلمون أنه بالاشتراك مـع أرغون حاول اقـامة ديانة جديدة ، تدعو المؤمنين الى أن يكونوا وثنيين ، والى أن تتحول الكعبة بمكة الى هيكل لعبادة الأوثان ، كأن تكون معبدا للبوذية . وأدت هذه الاتهامات آخر الأمر الى الاطاحة به .

ومن زوجـات أرغون ، اوروق خاتون التى تنتمى أصلا الـى الكرايت . وهى ابنة أخت الملكة الراحلة طقز خاتون ، وكانت مسيحية نسطورية ، وقد نصرت ابنا لهما في سنة ١٢٨٩ ، باسم نقولا تيمنا باسم البابا نقولا الرابع ، وأضحى نقولا فيما بعـد الخان ، اولجايتو . فمن الطبيعى أن يلقى المسيحيون من أرغون العطف والمحبة ، فأعـاد عمارة الكنائس التى دمرها تكودار ومنها كنيسة في مراغة .

سفارة رابان سوما الى الغرب

حرص أرغون على استئناف القتال مع المماليك ، فكان لزاما عليه أن يسعى للتحالف مع المسيحية . فاقترح القيـام بهجوم مشترك ، بأن يجرى في وقت واحد ، اغارة المغول على الشام، ونزول الصليبين في عكا أو دمياط، ويترتب على هذا الاشتراك في الهجوم أن يقتسم الجانبان أملاك المماليك بالشام، فيحوز المغول حلب ودمشق، بينما يحصل الصليبيون على بيت المقدس . ولتحقيق هذا الغرض أرسل أرغون الى البابا هونوريوس الرابع رسالة سنة ١٢٨٥ . وتضمنت هذه الرسالة ، « أن أرغون ، بعد أن أشار الـى جنكيزخان ، جد جميـع التتار ، والـى الخان الكبـير ، قوبيلاى ، أمبراطور الصين ، وعمه الكبـير ، وسيده وحليفه ، شرح

الروابط بين المسيحية وأسرة جنكيزخان ، فأمه مسيحية ، واشتهر جده هولاكو وأبوه أبغا بحمايتهما للمسيحيين ثم تلا هؤلاء قوبيلاى ، فيتكفل باستخلاص الأراضى المقدسة وبجعلها تحت حمايته . وختم رسالته بأن اقترح على البابا توجيه حملة مشتركة لقتال المماليك ، فيبعث الفرنج بجيش الى مصر ، بينما يتولى المغول اعادة فتح بلاد الشام . واذ تقع بلاد المسلمين (الشام ومصر) بيننا وبينكم ، فسوف نطوقهما ونفصلهما الواحدة عن الأخرى . أنفذنا اليك رسلنا ، لتلتمس من قداستكم أرسال جيش الى مصر ، فاذا قدمتم من جهة ، وجئنا من الجهة الأخرى ، استطعنا بفضل عساكرنا الأصحاء الاشداء أن نستولى على هذه البلاد . ولتخطرنا عن طريق رسول صادق أمين كيف يجرى تحقيق هذا الموضوع . وسوف نطرد بذلك المسلمين بفضل ما يبذله من مساعدة ، كل من البابا والخان الكبير » . على أنه لم يتلق ردا من البابا هونوريوس الرابع ، لأنه لم يكن بوسعه أن يحقق هذا المشروع الذى يرمى الى اجراء تحالف مغولى صليبى ، على أن أرغون قرر سنة ١٢٨٧ أن يبعث سفارة الى الغرب ، واختار لسفارته ربان سوما ، الذى كتب تقريرا فيما عن سفارته. وقد أبحر سوما من اطرابزون في أوائل سنة ١٢٨٧، فبلغ القسطنطينية حوالى موعد عيد القيامة ، واحتفل بقدومه الأمبراطور البيزنطى أندرونيكوس، وقام بزيارة كنيسة القديسة صوفيه وسائر المشاهد الكبيرة بالعاصمة . وما ارتبط به أندرونيكوس مع المغول من علاقات ودية جعله يبدى الاستعداد لأن يبذل لمساعدة المغول ما تستطيع موارده الضئيلة أن تتحمله . ثم توجه سوما الى نابولى ، التى بلغها في شهر يونيه ، وشهد بالميناء ما نشب من معركة بحرية بين اسطول نابولى ، وأسطول اراجون ، فأدرك أن غرب أوربا انما شغلته المنازعات والمشاجرات. ثم مضى الى روما، وتبين له أن البابا هونوريوس قدمات، وأن هيئة الكرادلة التى تتولى انتخاب البابا ، والتى استقبلته، غارقة في

الجهل . ولا يرتجى منها مساعدة ، فلم يعرف هؤلاء الكرادلة شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول ، وارتاعوا لاقدامه على خدمة سيد وثني . وحينما حاول أن يناقشهم في الأمور السياسية ، جابهوه بأسئلة عن دياناته . وانتقدوا ما ينطوي عليه مذهبه من انحرافات عن مذهبهم . وضاق بهم صدره آخر الأمر ، فأشار الى أنه انما جاء ليعرب عن احترامه للبابا . وليرسم خططا للمستقبل ، لا ليدخل في مناظرة عن العقيدة الدينية .

ثم توجه سوما الى فرنسا . فبلغ باريس في سبتمبر ، فلقى بها كل ما كان ينشده ، اذ صحبه الى العاصمة حرس من الجند ، وحينما حظى بمقابلة الملك الشاب ، فيليب الرابع ، حاز التشاريف من الملك ، الذى نهض من عرشه لتحيته ، وأبدى اهتماما كبيرا للاستماع الى رسالته . وظفر من الملك بوعد ، بأنه اذا أراد الله سوف يقود فيليب جيشا لاستخلاص بيت المقدس ، وابتهج الرسول لما شهده في باريس ، وأكثر ما تأثر به ، كان جامعة باريس التى بلغت وقتذاك ذروة مجدها . وصحبه الملك في زيارة الى كنيسة Saint Chapelle ، ليشهد المقدسات الدينية التى اشتراها لويس التاسع من القسطنطينية . ولما عزم على مغادرة باريس ، قرر الملك اختيار جوبر هلفيل Cobert of Helville سفيرا له ، ليرافقه عند عودته الى بلاط ايلخان فارس ، وليعد تفاصيل التحالف .

والتقى سوما بادوارد ملك انجلترا في بوردو ، عاصمة ممتلكاته الفرنسية . والمعروف أن ادوارد حارب في الشرق ، وظل زمنا طويلا يدافع عن فكرة التحالف مع المغول ، ولذا لقيت مقترحاته الاستجابة التامة من الملك ، الذى اعتبره سوما اكفأ من لقيه في الغرب من رجال السياسة . غير أن ادوارد تجنب ما عرضه سوما من اعداد خطة زمنية ،

فلم يعرف منه . ومن ملك فرنسا ، متى يجرى توجيـه حملة صليبية اضطرب تفكير سوما لما حدث ، وأفصح عن مخاوفه للكاردينال يوحنا John of Tusculum عند لقائه به في جنوة . واستعد المماليك وقتذاك ، لأزالة ما تبقى للفرنج من امارات في الشام ، ولم يحفل الغرب بهـذا التهديد الخطير .

وفي فبراير سنة ١٢٨٨ ، تم انتخاب البابا نقولا الرابـع ، واول ما باشره من الأعمال ، أن استقبل السفير المغولى ، وما كان بينهما مـن علاقات شخصية اتسمت بالمودة ، اذ أن السفير سوما خاطب البابا على أنه أعظم اساقفة العـالم المسيحى ، بينما بعث البابا نقولا ببركاته الى جاثليق النساطرة واعترف به بطريركا في الشرق . ثم غادر روما ، السفير المغولى وبصحبته جوبر هيلفيل ، في اواخر ربيع سنة ١٢٨٨ ، بعد أن حصل من البابا الهدايا ، التى تألف معظمها من المقدسات الدينية ، الى الايلخان والجاثليق ، ونقـل الرسائل اليهما والى الأميرتين المسيحيتين بالبلاط ، والى دنيس Denys أسقف اليعاقبة في تبريز . غـير أن هذه الرسائل لم تنطو الا على عبارات غامضة ، ولـم يعد البابا باجراء معين ، أو بتاريخ محدد .

والواقع أن ملوك الغرب ، كما أدرك سوما ، كانوا منصرفين الى مشاكلهم . فما كان من أطماع شارل انجو ، وموقف البابوية منه ، كان كفيلا بعرقلة كل حملة صليبية . فالمعروف أن البابا أسهم في استحواذ الأنجويين على صقلية . واذ خرج أهل صقلية على طاعة الأنجويين ، صار لزاما على البابوية وفرنسا ، وفي سبيـل المحافظة علـى كرامتهما أن يتـاتلا دولتـين بحريتين ، مـن أقـوى دول البحر المتوسط ، وهما أراجون وجنوه ، من اجل استرداد الجزيرة (صقلية) . وليس في وسع البابا نقولا ، والملك فيليب ، أن يفكرا في حملة صليبية الا بعـد تسوية

مشكلة صقلية . أما ادوارد ملك انجلترا فقد شعر بالخطر ، فحاول في سنة ١٢٨٦ اجراء هدنة بين فرنسا وأراجون ، غير أن هذه الهدنة كانت محفوفة بالخطر ، طالما القتال مستمر في ايطاليا وفي البحر . يضاف الى ذلك ما توافر لدى ادوارد من متاعب ومشاكل . واذ كان يأمل في اعادة الاستيلاء على بيت المقدس ، فان اهتمامه العاجل كان موجها الى فتح ويلز ، ومحاولة الاستيلاء على سكتلندا ، وشجعه على ذلك ما حدث من وفاة اسكندر الثالث ملك سكتلندا ، سنة ١٢٨٦ ، فاضحى الحكم في يد وريثته الطفلة مرجريت ، وليس للشرق الا أن ينتظره . ولم يكن الرأى العام وقتذاك من القوة ما يحمل الملك على المسير ، ومن هنا يتبين كيف خمدت الروح الصليبية .

على أن أرغون لم يصدق أن المسيحيين في الغرب بما اشتهروا به من تعلق بالأرض المقدسة ، لا يحفلون بما يتعرض له مصيرها من الخطر . رحب أرغون بمقدم سوما وجوبر هلفيل . على أن ما عرضه جوبر من تفاصيل لم تقنع أرغون ، فأراد الحصول على ما هو أكثر دقة وتحديدا ، ولذا ارسل عقب عيد القيامة ، سنة ١٢٨٩ مبعوثا آخر ، اسمه بوسكاريل جيزولف Buscarel of Gisolf وهو جنوى ، أقام زمنا طويلا في بلاد الايلخانية ، وقد حمل معه رسائل موجهة الى البابا وملكى انجلترا وفرنسا. ولا زالت الرسالة الموجهة الى ملك فرنسا باقية، وتضمنت أن الملك أرغون ينهى الى ملك فرنسا ، بأنه سوف يتوجه الى الشام في يناير سنة ١٢٩١ ، فيبلغ دمشق في فبراير . فاذا أرسل الملك قوات مساعدة ، واستطاع المغول فتح بيت المقدس ، صارت له . أما اذا لم يتعاون ، فسوف تفشل الحملة . وكتب بوسكاريل حاشية باللغة الفرنسية تشير الى أن أرغون سوف يصحب معه ملك الكرج المسيحى بعساكره الذين

يتفاوت عددهم بين عشرين وثلاثين الفا ، وسوف يتكفل بما تحتاج اليه عساكر الغرب من المؤن .

والراجح أن الرسالة الموجهة الى ملك انجلترا لا تختلف كثيرا عن هذه الرسالة ؛ أما رد ملك انجلترا الذي لا زال باقيا فيشمل التهنئة لما يعده الايلخان من حملة لصالح المسيحيين ، ويبعث اليه بالتحية الأخوية . غير أنه لم يشر الى تاريخ معين ، أو الى شيء من الوعــود . ونصح الايلخان بالرجوع الى البابا ، الذى ليس في وسعه أن يؤدى شيئا الا بالتعاون مع الملكين . وحدث في تلك الأثناء أن نشر ، أحد الفرنج ، لم يعرف اسمه ، رسالة ، تبين أنه من اليسير على قوات الغرب أن تنزل في آياس بأرمينية ، وسوف تجد من ملكها كل مساعدة ، ومنها يجري الاتصال بــالمغول ، غير أن نصيحته لم تلق الاهتمام .

وعلى الرغم من أن بوسكاريل لم يحظ باجابات مشجعة، فان أرغون أنفذه مرة أخــرى ، وبصحبته مغوليــان مسيحيان : اندرو زاجان ، وساهادين . فتوجهوا اول الأمر الى روما ، حيث استقبلهم البابا نقولا ، ثم مضوا لزيارة ملك انجلترا بعد أن تزودوا برسائل من البابا ، الــذى اعتقد أن الاحتمال في أن يشارك ملــك انجلترا في الحــرب الصليبية ، يفوق احتمال اشتراك ملك فرنسا . وصلت السفارة الى انجلترا في أوائل سنة ١٢٩١ . غير أنه تصادف وقتذاك أن انصرف ادوارد ملــك انجلترا الى شئون اسكتلندا ، بعد وفاة ملكتها ، فكان حريصا عــلى الاستيلاء عليها . فعادت السفارة الى روما ، وقد استبد بها الأسى ، فأمضت بها شهور الصيف . وحدث وقتذاك (١٢٩١) أن تقــرر مصير الامــارات الصليبية ، وأن مات ايلخان أرغون .

والواضح أن كل ما كان يأمله أرغون من التحالف مع الصليبيين ،

هو محاولة الابقاء على بقايا الامارات الصليبية واقامة التحالف مع المسيحيين ، لسحق قوة المماليك ، واضافة بلادهم الى امبراطورية المغول . على أن ما حدث فعلا أن ظلت الأمبراطورية المملوكية قائمة لمدة ثلاثة قرون ، ولم يمض على وفاة أرغون اربع سنوات حتى دخل مغول فارس في الاسلام .

ساءت أحوال بقايا الامارات الصليبية فيالشرق الأدنى، نظرا لما ساد بها منالفتن والمنازعات الداخلية، ولما تعرضت له منالخطر المملوكيالذى قوى واشتد ، بعد أن تعذر الاتفاق بين المغول والقــوى المسيحية في غرب أوربا .

قلاون والصليبيون

لم تكن بمملكة بيت المقدس (عكا) حكومة قوية تستطيــع أن تتحمل مسئولياتها ، فلم يكد الملك هنرى يعود من عكا الى قبرص ، حتى اندلعت الحرب من جديد على الساحل السورى بين الجنويين والبيازنة . ففى ربيع سنة ١٢٨٧ ، أرسل الجنويون الى شرق البحر المتوسط أسطولا تحت قيادة أميرى البحر توماس سبينولا ، وأورلاندو أشيرى . وقصد سبينولا الاسكندرية كيما يحصل من السلطان قلاون ، على وعد بالتزام الحياد ، بينما سار أشير الى الساحل السورى ، فصار يغرق أو يأسر كل ما يصادفه في طريقه على امتداد الساحل من سفن بيزا ، أو سفن الفرنج الذين ترجع أصولهم الى بيزا . ولولا تدخل الفرسان الداوية ، لانتهى الأمر ببيع الملاحين الأسرى رقيقا . ولجأ أشيرى الى صور ، ليعد هجوما على عكا . على أن البنادقة أمدوا البيازنة باسطولهم في هذه الجهات ، للدفاع عن ميناء عكا . غير أن أشيرى حقق انتصارا باهرا في مايو ١٢٨٧ ، ومع ذلك لم يستطع أن يشق طريقه الى المينا . ولما أقلــع سبينولا من الاسكندرية ، استطاع الجنويون أن يفرضوا الحصـــار على الساحل

باكمله . ونجح آخر الأمر ، مقدما الداوية والاسبتارية ، وممثلوا النبلاء في اقناع الجنويين بالانسحاب الـى صور ، حتى يتيسر قـدوم السفن وشحنها .

على أن هذه المساعي السلمية لم تمتد الى ميناء اللاذقية. ذلك أن تجار حلب ظلوا زمنا طويلا يجارون بالشكوى للسلطان بأنه لم يتيسر لهم ارسال سلعهم التجارية الى ميناء اللاذقية ، الذى يعتبر آخر ما تبقى من امارة أنطاكية . وسنحت الفرصة للسلطان قلاون في صيف هذا العام (١٢٨٧) . واذ تعرضت أسوار اللاذقية للأضرار الناجمة عن وقوع زلزال في مارس ١٢٨٧ ، ولم تدخل اللاذقية في نطاق المعاهدة المعقودة مع طرابلس ، أرسل قلاون الأمير حسام الدين طرنطاى للاستيلاء على المدينة ، فاذعنت له ، واستسلمت الحامية بعد أن يئست من قدوم مساعدة .

أما سيدها ، بوهمند السابع كونت طرابلس ، فانه مات في اكتوبر سنة ١٢٨٧ ولم يكن له وريث سوى اخته لوسيا زوجة نارجو توسى الذى كان أميرا لبحرية شارل أنجو، وكانت وقتذاك تقيم في ابوليا. واذ كره نبلاء طرابلس وسكانها أن يتولى أمرهم أميرة غريبة عنهم وتنتمى الى أعدائهم الأنجويين، عرضوا الكونتية (طرابلس) على سبيل أميرة أرمينية الصغرى. ولما كانت سبيل حريصة على أن تجعل بارثلميو أسقف انطرسوس، نائباعنها في طرابلس ، لم يقبل النبلاء والتجار هذا الاتجاه ، وقرروا عزل الأسرة الحاكمة، واقامة قومون يتولى الحكومة، وقام بأمر القومون بارثولوميو امبرياكو . وصدرت الأوامر من جنوة الى قائد الأسطول الجنوى في الشرق ، زكريا ، Zaccaria ، بالتوجه الى طرابلس لاجراء التـدابير اللازمة بالاشتراك مع القومون، على أن ممثلى الطوائف الدينية، الداوية والاسبتارية والتيوتون ، المتحالفة مع البندقية ، عدوة جنوة ، قدموا الى

طرابلس ، لمساندة لوسيا صاحبة الحق الشرعي في البلاد. غير أن سفارتهم باءت بالفشل . على أن جنوة أصرت على أن يكون لها حي كبير في طرابلس ، وأن يكون لها حاكم مستقل (بودشتا) .

ونظرا لحرص امبرياكو على الاستقلال بطرابلس ، انفذ رسولا من قبله الى السلطان قلاون يطلب منه المساعدة ، عند اعلان استقلاله . واذ انكشفت النوايا ، تقررت دعوة لوسيا الى طرابلس لتتولى أمرها . واستقر الأمر على أن يكون للجنويين شوارع اضافية وبودشتا ، وأن يكون للقومون الحق في الادارة ، وأن تكون لوسيا كوتيسة لطرابلس.

على أن حكمها لم يستمر طويلا . ففي شتاء سنة ١٢٨٨ ، قدم الى القاهرة رسولان من قبل الفرنج (الصليبيين)[1]، فحذرا السلطان ، بانه اذا صار للجنويين السيادة على طرابلس ، فسوف تكون مصر تحت رحمتهم . واذ كانت سياسة السلطان ترمى الى الافادة من الايقاع بين جنوة والبندقية ، فقد تهيأت له الفرصة للتدخل . هرع لمساعدة طرابلس ، وحدات من الداوية الاسبتارية ، وقوة فرنسية من عكا ، وأرسل هنرى ملك قبرص أخاه الصغير املريك في صحبة جماعة من الفرسان ، وخمس سفن . وكان بالميناء أربع سفن جنوية ، وسفينتان للبنادقة ، فضلا عن مراكب صغيرة أخرى يمتلكها وطنيون وايطاليون .

الاستيلاء على طرابلس

والمعروف أن طرابلس تحتل شبه جزيرة ، حيث تقع الميناء اليوم . وكانت منفصلة عن جبل الحاج ، الذي يشرف على المدينة الحالية ، ولم يتوافر للقلعة شيء من وسائل الدفاع . وفي الأيام الأخيرة من شهر مارس

---

(١) ليس معروفا ما اذا كان هذان الرسولان ، جاءا موفدين من قبل البنادقة او من قبل امبرياكو .

١٢٨٩ ، تحرك جيش قلاون الى أسوار المدينة . ولما كان للمسيحيين السيطرة على البحر ، صار بوسعهم ان يضمنوا وصول المؤن الى الميناء ، ولكن الاستحكامات البرية لا تستطيع الصمود للقذائف المتدفقة من المجانيق ، فلما تدمر برجان في الجنوب الشرقي للمدينة ، أدرك البنادقة أنه لا جدوى من الدفاع ، فانسحبوا بأمتعتهم الى سفنهم ، ولم يلبث الجنويون أن تبعوهم خوفا من مبادرة البنادقة الى سرقة سفنهم ، وترتب على انسحاب الايطاليين ، أن وقع الاضطراب والفوضى . وحينما أمر السلطان قلاون بالقيام بهجوم شامل في صبيحة ٢٦ ابريل ١٢٨٩ ، لم يلق مقاومة ، فتدفق العساكر الى داخل المدينة ، وهرب أمامهم الى الميناء جموع العساكر والسكان . ولجأت الكونتيسة مع الأمير أملريك الى سفينة قبرصية .

وفي الأيام القليلة التالية استولت قوات السلطان قلاون على البطرون ونيفين ، ولم يبق من أملاك طرابلس سوى جبيل ، التى ظل أميرها بطرس أمبرياكو يحكمها ، تحت مراقبة المماليك نحو تسع سنوات أخرى ،

سقوط عكا ، سنة ١٢٩١

على أن سقوط طرابلس كان نذيرا بالهجوم على عكا . ومع ذلك لم يعتقد سكان عكا بأن السلطان ينوى حقيقة ازالة هذا المركز التجاري الهام . وقدم هنرى ملك قبرص لزيارة عكا ، فعين أخاه نائبا عنه في ادارتها، وأنفذ يوحنا جرايلى مبعوثا الى الغرب يلتمس المساعدة العاجلة. على أن جرايلى لم يحظ باستجابة مادية في الغرب .

وحاول الجنويون الانتقام لما أصابهم من خسائر في طرابلس، فصاروا يعترضون طريق السفن التجارية المصرية ويهاجمونها ، ويغيرون على الدلتا ، فأمر قلاون باغلاق ميناء الاسكندرية دون سفنهم ، فلم يسعهم

الا طلب الصلح . لم يحزن البنادقة لسقوط طرابلس ، غير أنهم يجزعون اذا تعرضت عكا لنفس المصير، نظرا لما للبندقية من السيادة التجارية بها. ولم تتجاوز المساعدة التى حصل عليها جرايلى ، سوى ما قدمته البندقية من أسطول مؤلف من عشرين سفينة، وما أرسله جيمس ملك أرجون من قوة بحرية لا تتجاوز خمس سفن ، فضلا عن مبلغ من المال يبلغ نحو ثلاث آلاف قطعة ذهبية ، بذلها البابا للقادة الذين تولوا قيادة هذه الحملة ، التى وصلت الى عكا في أغسطس سنة ١٢٩٠ .

وترتب على الهدنة التى عقدها الملك هنرى مع قلاون ١٢٨٩ ، أن استردت عكا نشاطها ، فظفرت في هذه السنة بمحصول طيب ، وتجارة زاهرة ، وزخرت عكا بالتجار القادمين من الداخل . على أن قدوم الصليبيين الايطاليين أثار الاضطراب ، فما اشتهروا به من الاستهتار ، دفعهم الى أن يهاجموا كل من صادفهم من السكان الوطنيين ، فلقى كثير من الوطنيين مصرعهم ، وتدخل الفرسان الرهبان لقمع الفتنة واعادة السلام ، وألقوا القبض على مثيرى الشغب .

ولما علم قلاون بهذه المذبحة ، قرر أن الوقت قد حان للتخلص نهائيا من الفرنج . لم يستمع قلاون لاعتذارات الفرنج ، ولم يقبل ما عرضوه من الترضيات ، واستشار القضاة ، فأفتوا بأنه لا جناح عليه فى نقض الهدنة .

خرج قلاون بجيشه من القاهرة في ٤ نوفمبر سنة ١٢٩٠ ، غير أنه لم يلبث أن خر مريضا ثم مات بعد أيام ، واعتقد أهل عكا ، أن متاعبهم زالت بوفاة قلاون .

وحينما تولى خليل بن قلاون السلطنة ، أرسلت حكومة عكا سفارة

لتهنئة خليل بالسلطنة ، وتلتمس عقد هدنة غير أن خليــلا ، أمر بالقاء السفراء بالحبس ، حيث لقوا حتفهم . وسار خليل بجيوشه الى دمشق في مارس سنة ١٢٩١ . واجتمع لديه الرجال وأدوات الحصار التى بلغت نحو مائة منجنيق من كل أنحاء الأمبراطورية، وشملت قواته نحو ٦٠ ألف فارس ، ١٦٠ ألف من الرجالة . وعسكر هذا الجيش الضخم أمام أسوار عكا في ابريل ١٢٩١ .

وما احتشد من قوات الفرنج في عكا . شمل قوات الفرسان الرهبان بقيادة مقدميهم ، والفرسان الذين بعث بهم ادوارد الأول ملك انجلترا ، والعساكر الذين أرسلهم الملك هنرى من قبرص ، وكانت القيادة العليا لأملريك نائب هنرى في عكا ، وتقررت التعبئة العامة في عكا ، بتجنيد كل الأفراد القادرين على حمل السلاح . أما استحكامات المدينة فكانت قوية متينة بفضل سهر الحكومة على صيانتها ، وبما بذله الحجاج من أموال لعمارتها . ويحمى البحر المدينة من الغرب والجنوب . ويحيط بــالمدينة وضاحيتها من جهة الشمال والشرق سوران متوازيان . وفي الزاوية التى يلتقى فيها السور الشمالى بالسور الغربى ، أقام هنرى برجا ، وتعتبر هذه المنطقة أضعف خطوط الدفاع ، ولذا تولى الدفاع عنها أملريك وقوات الملك هنــرى ، واحتشدت العساكــر الانجليزيـــة والفرنسيـــة ، والبنادقة والبيازنة ، وسكان القومون ، والفرسان التيوتون ، والاسبتارية والداوية . وصار عسكر حماه يواجه الداوية . ويقابل جيش الزاوية التى يلتقى فيها السور الشمالى بالسور الشرقى ، وانتصبت خيمة السلطان بالقرب من الشاطىء .

استمر الحصار من ٤ مايو حتى ١٨ مايــو ١٢٩١ ، ولــم تتحمل الأسوار ما تعرضت له من القذائف المستمرة ، فانهارت ، ولم يستطع

المدافعون عن عكا أن يستردوا ما احتله المسلمون من مواضع ، ولم تلبث العساكر الاسلامية أن تدفقت الى داخل المدينة ، وليس معروفا عدد الذين لقوا مصرعهم ، على أن عدد الأسرى كان قليلا . وأعقب سقوط مدينة عكا ، أن أذعنت صور ، ثم صيدا ، وبيروت (٣١ يوليه) . ولم يحاول الداوية الاحتفاظ ، بقلعة الحاج ، وانطرسوس . ولم يبق في حوزتهم سوى جزيرة ارواد التى تقع تجاه انطرسوس ، التى ظلت بأيديهم نحو اثنتى عشرة سنة أخرى .

الاستيلاء على قلعة الروم

وبعد أن أصبحت البلاد في قبضة خليل بن علاون ، أمر بتدمير كل ما يقع على الشاطىء من قلاع حتى لا يعود الفرنج للنزول بها. على أنهم لم يعودوا أبدا .

وحدث بعد سقوط عكا وطرابلس ، أن حاول هيثوم الثانى الذى خلف أباه ليو الثالث في حكم أرمينية الصغرى سنة ١٢٨٩ ، اجتلاب رضى القوات المصرية التي بلغت وقتذاك حمص ، بأن بذل لها أموالا طائلة ، قبلها السلطان الأشرف خليل ، الذى أرجأ غزو أرمينية الى ما بعد اتمام الاستيلاء على الممتلكات الصليبية . وفي ربيع سنة ١٢٩٢ ، (٦٩١ هـ) خرج السلطان خليل بن قلاون من حلب قاصدا قلعة الروم[١] ، وظل يحاصرها مايزيد على ثلاثين يوما حتى سقطت عنوة في ١١ مايو سنة ١٢٩٢، واحتفل السلطان بهذا الانتصار الباهر ، فسماها قلعة المسلمين ، ولما وردت البشائر الى دمشق بفتح قلعة الروم ، زينت البلد ودقت البشائر . وما ورد في هذه البشائر يدل على مناعة هذه القلعة ، وكانت هذه القلعة

(١) اسمها الوارد في المصادر الأجنبية Hromgla وهى قلعة تقع الى الغرب من نهر الفرات ، تجاه البيرة . وكانت بيد الارمن ، واتخذها جاثليقهم مقرا له . انظر
Le Strange : Palestine under the Moslems p. 475

« للثغور الاسلامية بمنزلة الشجن في الحلق ، والغلة في الصدر ، والخسوف الطارىء على طلعة البدر ، لا تخلو من غيل تضمره في لين تظهره ، وغدر تستره . وقد سكن أهلها الى مخادعة الجار ، وموادعة التتار ، وممالأتهم على الاسلام بالنفس والمال ، ومساواتهم حتى في الزى والحال ، يمدونهم بالهدايا والألطاف ، ويدلونهم على عورات الأطراف » .

ثم يجرى وصف موضع القلعة وسكانها ، « بأنه قد أرخت الجبال الشواهق ذوائبها ، وقد امتدت الفرات من شرقيها ، واكتنفها من جهة الغرب نهر آخر استدار نحوها كالسور ، وحولها من الأودية والخنادق ، لا يعرف فيها الهلال الا بوصفه ، ولا الشهر الا بنصفه . وبها من الأرمن عصب جمعهم للتكسير ، ومن التتار فرق زيادتهم للتغوير ، قد بذلوا دونها النفوس » . وتشير الى الغارات المتتالية عليها حتى سقطت أسوارها ، والى أنه « بفتح هذه القلعة وحيازة ثغرها ومعقلها ، تحقق من بسيحون وجيحون أنهم بعد فتح باب الفرات بكسر أقفالها اقفال هذه القلعة لا يرجون أنهم يربحون . وما يكون بعد هذا الفتح ان شاء الله الا فتح المشرق والروم والعراق ، وملك البلاد من مغرب الشمس الى مطلع الاشراق » .

المماليك والارمن والمغول

ولم يبادر المصريون الى دخول قليقية ، غير أن الجيش المرابط في دمشق ، تلقى في مايو سنة ١٢٩٣ الأوامر بالزحف على سيس ، فانفذ الأرمن الرسل يعرضون التنازل عن كل ما تبقى من الحصون الشرقية وهي : بهسنا ، ومرعش ، وتل حمدون ، فضلا عن مضاعفة الاتاوة التى كانوا يؤدونها حتى وقتذاك .

ولما وردت الأنباء بمصرع السلطان خليل آواخر سنة ١٢٩٣ ، وما

تلى ذلك من وقوع اضطرابات داخلية ، وحدوث اوبئة ومجاعات في مصر والشام ، حمل ملك قليقية هيثوم على أن يوطد صلاته بمملكة قبرص التى أضحت البقية الباقية من مملكة بيت المقدس ، فتزوج أملريك أخ الملك هنرى الثانى من ايزابيل أخت ثوروس ، ثم حاول تجديد التحالف مع المغول ، فتوجه لزيارة الايلخان بيدو ، غير أنه حدث أثناء مقامه في مراغه ، أن انتزع غازان السلطة من بيدو . فتوجه اليه هيثوم ، فبذل له يمين التبعية ، وحصل منه على وعد بأن الكنائس المسيحية لن تتعرض للتدمير . والراجح أن هذا الوعد شمل أيضا بذل المساعدة الحربية . وعند عودته الى سيس سنة ١٢٩٥ التمس صداقة البيزنطيين ، فعرض أن يتزوج ميخائيل التاسع قسيم اندرونيق الثانى في عرش بيزنطة ، من أخته ريتا ، ولم يلبث أن توجه الى القسطنطينية لعقد محالفة مع البيزنطيين ، غير أن أخاه سمباد اغتنم فرصة غيابه ، وانتزع السلطة سنة ١٢٩٥ ، بمساعدة الجاثليق والبابا ، على أنه لم يلبث أن عاد الى الحكم ١٢٩٩ ، واستطاع المماليك ١٢٩٨ أن يغيروا على قليقية ، وأن يستولوا على أحد عشر معقلا ، منها مرعش وتل حمدون .

وكان لزاما على المغول أن ينهضوا لمساعدة حليفهم ، فتوجهت ثلاث حملات لمهاجمةالشام سنوات ١٢٩٩ ، ١٣٠١ حتى ١٣٠٣ ، وانتهت بالفشل وتراجع المغول الى بلادهم ، وأضحى الطريق الى قليقية مفتوحا ، وتعرضت القوات الأرمنية المغولية للهزيمة في ١٣٠٢ ، ١٣٠٤ ، ووصف المؤرخ سانودو ما بلغته أحوالقليقية من السوء، بأن ملك أرمينية وقع بين أنيات اربعة وحوش ضارية ، الأسد اى التتار الذين يؤدى لهم اتاوة ثقيلة ، والفهد ، اى السلطان المملوكى الذى لم يكف عن الاغارة على أطراف مملكته ، والذئب أى الأتراك الذين دمروا سلطانه ، والثعبان ، أى القرصان في بحارنا الذين أزعجوا المسيحيين بأرمينيا » . وازدادت متاعب

قليقية ، لما نشب بها من الحروب الداخلية ، ولتعرضها للخطر من جانب الأتراك بآسيا الصغرى ، فضلا عن انصراف المغول لتسوية مشاكلهم الداخلية والى ما وقع من الحروب بين الأسرات المغولية في تركستان وفارس وجنوب روسيا . فاستولى الأتراك سنة ١٣٣٧ على الشطر الأكبر من أملاكها ، وفي سنة ١٣٧٥ اشترك الترك والمماليك في اخضاع ما تبقى من املاكها ، وبذلك فقدت قليقية استقلالها .



الفصل الرابع عشر

الخاتمة

الواضح أن الزحف المغولي توقف نهائيا بعد معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وأضحت مصر نقطة بالغة القوة في الدفاع عن الشرق الأدنى ولا سيما بعد أن تداعت امارات الأيوبيين في الشام ، وما اشتهر به المغول من عوامل التفوق في مستهل تاريخهم ، أخذوا يفقدونها منذ أن وقع الشقاق بينهم على اقتسام الفتوح ، فلم يعد بوسعهم اجتياز الحد الغربى (الفرات) الذى استقر وضعه سنة ١٢٦٠ ، أو الحد الشرقى (الصين) الذى قام حوالى سنة ١٢٨٠ . والواقع أنه أضحى مستحيلا ألا يكون لامتداد الأمبراطورية حدود تقف عندها ، بعد أن أضحت رحلة القائد في الجبهة الغربية تستغرق سنتين حتى يبلغ حاضرة الخان الكبير في قراقورم بمنغوليا .

على أن فتوح المغول لم تؤد فحسب الى تغيير في الأسرة الحاكمة بالأقاليم التي خضعت لهم، فقدظلت الوحدة السياسية لدولة المغول فترةمن

الزمن عاملا كبيرا في تيسير اجتياز قارة آسيا من الشرق الى الغرب ، دون أن يعبر المسافر حدا سياسيا واحدا . وظل هذا الوضع سائدا ، حتى بعد انقسام الأمبراطورية الى أربع ممالك عقب وفاة مونكو خان ، وأفادت التجارة الاسيوية من ذلك . اذ أن اتساع الأمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر ، غير الطرق التجارية القادمة من الشرق الأقصى . فحينما تم للمغول فتح آسيا الوسطى ، شجعوا التجار على اتخاذ الطريق البرى للتجارة الذى يبدأ من الصين ثم يخترق تركستان ، ويتجه اما الى شمال بحر قزوين ، الى الموانىء الواقعة على الشاطىء الشمالى للبحر الأسود ، مثل كفه ، واما الى جنوب بحر قزوين ، مجتازا ايران الى اطرابزون على الشاطىء الجنوبى للبحر الأسود ، واما الى أياس ، بمملكة قليقية الأرمنية . وبفضل ما أقره المغول من حفظ الأمن والسلام ، كان هذا الطريق البرى يفضل الطريق البحرى ، المحيط الهندى ، الذى يتعرض للخطر . واذا كانت السفن الصينية قد مضت في طريقها في القرن الثانى عشر الى غرب سيلان ، والى الموانىء العربية ، فانها منذ القرن الثالث عشر لم تتجاوز الساحل الشرقى للهند ؛ ذلك أن استيلاء المغول على العراق أدى الى أن جانبا من التجارة الهندية كان يصل الى الغرب عن طريق الخليج العربى ، ويتصل قدر منها عن طريق دمشق أو حلب ، الى موانى شرق البحر المتوسط . على أن معظم التجار كانوا يؤثرون البقاء في داخل الأملاك المغولية ، ومنها يشقون طريقهم مباشرة الى البحر المتوسط عند أياس ، بينما اتخذ معظم التجارة الهندية ، الطريق البرى الذى يجتاز افغانستان وفارس . ومع ذلك فان مصر لا زالت سوقا غنية بالمتاجر الشرقية برغم أنها لم تقع على أرخص طريق ممتد من الشرق الأقصى الى أوربا .

وفي تلك الأثناء ازداد النشاط التجاري للمدن الايطالية البحرية ،

كالبندقية وجنوة وبيزا . واشتد التنافس بينها ، ولا سيما بين البندقية وجنوة . وما حدث من تحول الطرق التجارية ، زاد في مجال المنافسة بينهما . فالمعروف أن البندقية سيطرت أول الأمر على تجارة البحر الأسود ، نظرا لما كان لها من سيادة على الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، ولذا لم تعترض على قيام الأمبراطورية المغولية . وحينما استرد البيزنطيون حاضرتهم ، القسطنطينية ، سنة ١٢٦١ ، بفضل مساعدة جنوة ، لجأ الجنويون الى طرد البنادقة من تجارة البحر الأسود ، والى احتكار ما يرد من تجارة من آسيا الوسطى ، وتجارة الرقيق بين البرارى الروسية ومصر . وطالما استندت الدولة المملوكية الى ما يرد اليها بانتظام من الرقيق من القبجاق والقبائل التركية[1] المجاورة، أضحى مستحيلا على البندقية أن تطرد جنوده من تجارة الاسكندرية . ومع أن ملك قليقية الأرمنى أجاز للبنادقة أن يشاركوا فيما يرد الى ميناء أياس من تجارة المغول ، فقد حرصت البندقية على أن تطرد الجنويين من موانىء الفرنج ، فنجح البنادقة في منع جنوة من ممارسة تجارتها في عكا ، وأضحى من السياسة العامة للبندقية ، نتيجة كراهيتها لجنوه ، أن تناهض المغول ، الذين هيأت امبراطوريتهم هذه الأرباح الوفيرة لجنوة . ولذا استخدمت البندقية نفوذها في عكا ، لحمل حكومتها على مساندة المماليك ضد المغول . عقب رحيل لويس التاسع من عكا ، سنة ١٢٥٤ .

ومن الطبيعى أن يترتب على نمو أياس ، باعتبارها منفذ التجارة المغولية ، على البحر المتوسط ، أن تتضاءل أهمية موانىء الفرنج في شرق البحر المتوسط . على أن تجارة آسيا بلغت من الزيادة والوفرة ، أن

---

(١) انظر المعاهدة التى انعقدت بين السلطان المنصور قلاون وبين الامبراطور البيزنطى ، ميخائيل الثامن باليولوجوس ، سنة ١٢٨١ (٦٨٠ هـ) ، في الملحق (١) ص ٣٤٧ وما يليها .

تحقق فائضا منها يتخذ الطرق التجارية القديمة . فتردد تجـار الموصل باتنظام على عكا ، في الشطر الثانى من القرن الثالث عشر . وما نشب من الحروب بين المماليك والمغول لم يعطل نهائيا طريق القوافل من العراق وايران الى فلسطين . وظلت عكـا حتى أيامها الأخيرة حـافلة بنشاطها التجارى ، وبلغت ميناء اللاذقية من الأهمية لتجار حلب ، أنهم طلبوا الى السلطان المملوكى ضرورة انتزاعها من أيدى الصليبيين .

وعلى الرغم من أن حـروب المغول اقترنت بالتدمـير والتخريب الشامل ، فانه متى عاد الاستقرار والهدوء ، صحبه عمارة ما تخرب من المدن ، وان لم يكن الاصلاح تاما وعامـا . ومن الدليل على ذلـك أن بخارى قد نهضت سريعا بعد أن استولى عليها المغول سنة ١٢٢٠ ، بـل وصلت في خلال الثلاثين سنة الأولى من حكمهم الى درجة من الازدهار لم تبلغها من قبل ، وأشار الجوينى الى أن لا مثيل لها في العالم الاسلامى . وقال عنها ماركوبولو ، (وكان أبوه وعمه قد عاشا في بخارى ثلاثة أعوام ١٢٦٢ ـ ١٢٦٥) ، انها أجمل مدينة في بلاد الفرس . ولم تؤثر الثورة التى قامت بها ضد المغول (١٢٣٨ ـ ١٢٣٩) على عمرانها وازدهارها . فقد استطاع محمود يالواج ان يقنع المغول ، ولا سيما أوكيتاى ، بـأنه لا صالح للدولة في تدمير مدينة غنيـة ، مثل بخارى ، ثأرا لجرائم بعض المتمردين . وما هو جدير بالذكر ما أشار اليه رشيد الديـن « من أن المغول ، الذين ظلوا حتى وقتذاك (زمن غازان) لا يحفلون الا بالتدمير ، أضحوا يوجهون اهتمامهم الى العمارة والبناء » . والواقع أن عهد غازان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) ، يعتبر الفترة التـى تحولت فيها حياة البـدو الى الاستقرار ، واخذ فيها المغول يندمجون ويذوبون في البيئة الجديدة التى عاشوا فيها .

وفيما يتعلق بالمسلمين بصفة خاصة ، ترتب على حروب المغول ، أن عددا كبيرا من التركمان اندفع تحت ضغط المغول الى الحدود البيزنطية ، بينما صحب المغول معهم ، من التركمان ايضا ، أعدادا تفوق في ضخامتها أعداد رجال القبائل المغولية أنفسهم ، واستعانوا بهم ، حسب تقاليدهم الحربية ، في الفتوح الأخرى ، فلم تجر من جديد زراعة الأراضى التى سبق تخريبها . وما حدث زمن الخطا من التسامح مع كل الديانات على اختلاف مذاهبها ، تكرر زمن المغول في أقاليم بالغة الاتساع وفي ظل حكومة قوية ، غير أن الدواعى السياسية والعسكرية في القرن الثالث عشر . حملت المغول على أن يتشددوا في معاملة المسلمين ، ولا سيما بعد أن استقر بيت هولاكو في فارس .

وأتم المغول ما سبق أن بدأ السلاجقة القيام به ، من فصل ايران عن العالم العربى ، فلم تعد بغداد حاضرة الخلافة الاسلامية ، بل أضحت من توابع ايران . ويقابل العالم الايرانى المغولى ، الدولة المملوكية بمصر والشام التى أضحت معقل الاسلام ، والثقافة العربية بعد أن قامت بها من جديد الخلافة العباسية ، وهاجر اليها العلماء الذى لقوا التشجيع من سلاطين المماليك . على أن مؤثرات مغولية ، نفذت الى المماليك ، نتيجة لما قام بينهم من علاقات عدائية وسلمية ، وتجارية ، فضلا عن أن العناصر المملوكية نفسها مستمدة من أجناس الترك والقبجاق الذين ينزلون ببلاد المغول .

وكان للمغول تأثير كبير فيما قام من علاقات « دولية » ، ولا سيما تلك التى جرت بين المماليك والصليبيين ، فأضحوا عاملا بالغ الأهمية اذا انحازوا الى أحد الجانبين . ولا شك أن انصراف سلاطين المماليك الى رد المغول عن الشام ، وتوقع حدوث الغارات من قبلهم ، فضلا عن

محالفة المغول للقوى المسيحية المتاخمة للمماليك ، كل ذلك أطال عمر الامارات الصليبية فترة من الزمن . كما أن من عوامل اصرار المماليك على التخلص من البقية الباقية للصليبيين ، ادراكهم ان الفرنج هم الذين استنجدوا بالمغول الذين يعتبرون مسئولين عن تقويض الحضارة والمدنية . وما يدعو الى الالتفات أن قدوم المغول استهل فترة جديدة في تاريخ كل منطقة وصلوا اليها .

وما اتصف به المغول من الوحدة ، والحكومة الساذجة لم يعش طويلا . فالمعروف أن الامبراطورية المغولية انقسمت اربع ممالك ، تخضع من الناحية الاسمية لسيادة الخان الكبير ، الذى اتخذ مقره في بكين . وما يهمنا هنا من هذه الممالك ، مملكة ايلخانات فارس (التى شملت ايران ، والجزيرة . وآسيا الصغرى) ، نظرا لعلاقاتها بالامارات الاسلامية في الشرق الاسلامى .

سبق الاشارة الى أن هولاكو هو الذى أسس ايلخانية[1] فارس ، وكانت تبريز عاصمتها في أول الامر ، ثم صارت العاصمة سلطانية بشمال غربى ايران بعد زمن أولجايتو (١٣٠٤ — ١٣١٦) .

وتتلخص سياسة ايلخانات فارس الخارجية ، فيما قام من علاقات عدائية مستمرة مع مغول القبيلة الذهبية بجنوب روسيا ، والحروب التى نشبت من حين لآخر مع بيت جغتاى في تركستان ، ثم تبادل الاعتداءات والهجمات بينهم وبين المماليك لامتلاك البلاد الواقعة على الحدود التى تفصل الشام عن الجزيرة ، يضاف الى ذلك ما كان من علاقات

---

(١) والايلخان هنا نائب الخان الكبير ، الذى له السيادة على جميع ممالك جنكيزخان ، والذى صار يقيم في بكين منذ زمن قوبيلاى .

دبلوماسية طيبة مع الدولة البيزنطية ، لمناهضة كل من مغول القبيلة الذهبية والمماليك ، ومع المسيحيين بالغرب لمناوئة المماليك .

وما له أهمية خاصة ما كان للمغول من سياسة دينية وسياسة اقتصادية ، لما لهما من تأثيرات عالمية بالغة الاهمية .

لم يكن للمغول ديانة ، بالمعنى المعروف عن الديانات العالمية الكبيرة. ولذا تسامح المغول مع أصحاب هذه الديانات الكبيرة ، ومع ذلك فان المغول لأسباب سياسية ، ظلوا منذ البداية يميلون الى المسيحيين والى غير السنيين من المسلمين . ولا شك أن النساطرة بايران وآسيا الوسطى ، والارمن بقليقية كانوا يساندون المغول ، فاكتسبوا بذلك عطفهم . فعلى الرغم من أن هولاكو كان يميل الى البوذية ، غير أن زوجته طقز خاتون كانت مسيحية نسطورية ، وتضم حاشية الايلخان عددا كبيرا من المسيحيين ، كما أن سعد الدين وزير ارغون (١٢٨٤ ــ ١٢٩١) كان يهوديا وظل على دينه .

وبرغم ما صادف الاسلام من متاعب على أيدى المغول ، فانه نجح آخر الامر في حمل المغول على اعتناقه ، فاعتنق الاسلام تكودار ابن هولاكو (١٢٨٢ ــ ١٢٨٤) ، ومع أنه جرى من المؤامرات من قبل خصوم تكودار وأفراد أسرته ما أدى الى الاطاحة به ، فان غازان الذى ولى الايلخانية بفارس (١٢٩٥ ــ ١٣٠٤) والذى اعتنق الاسلام قبل أن يتولى العرش ، جعل الاسلام الدين الرسمى للبلاد ، ونقش على النقد اسمه وألقابه باللغات العربية والمغولية والتبتية ، لا على أنه نائب للخان الكبير في بكين ، بل على أنه حاكم مستقل ، بفضل الله وقوته . وزخرت عاصمته تبريز بما أقامه من العمائر التى فاقت في روعتها وجمالها ضريح

سنجر في مرو . فشيد ضريحا بالغ الابهة والجمال ، وأقام مدرستين ومارستانا ، ومكتبة ومرصدا . وعين المدرسين وبذل لهم الرواتب والمنح. وأوقف الاراضى على هذه المنشئات حتى يضمن بقاءها ، ولم يكن حظ الطلاب من هذه الجهود قليلا .

ومن أسباب انتصار الاسلام وانتشاره بين المغول ، أنه كان الديانة السائدة بين الاقوام الذين خضعوا للمغول .

على أنه لشرح اسلام المغول ، وتأثير السكان الوطنيين ، لا بد أن نولى اهتماما خاصا بالتركمان . ففى جنوب روسيا وايران ، زاد عدد التركمان على عدد المغول ، وكانوا من أشد الناس تعلقا بالاسلام ،ونظرا لما كان بينهم وبين المغول من تشابه في طرق الحياة ، استطاعوا منذ زمن مبكر ، أن يمتصوا غزاتهم ، فليس في ايران اليوم أثر للمغول ، والذين يعرفون بالتتر اليوم في روسيا ، هم الذين يتحدثون باللغة التركية . فاسلام المغول ليس الا نتيجة لتتريكهم .

ومع أن المغول اعتنقوا الاسلام ، فانهم لم يضارعوا في اسلامهم الامراء الذين نزعوهم من الحكم وحلوا مكانهم .

وعلى الرغم من معاملة الذميين وفقاللقواعد الشرعية ، فانهمحرصوا على أن يبذلوا لهم من العطف والرعاية ما قد يفيدون منه في الحصول على التأييد الدبلوماسى من العالم المسيحى . ولذا ارتاب المماليك في مغول فارس الذى تحولوا اخر الامر للاسلام ، اذ شن غازان على الشام حربا تعتبر من أعنف غزوات المغول . والمعروف ان المؤرخ رشيد الدين ، ووزير غازان ، ظل بعد اسلامه يخفى عقيدته اليهودية . ومن المغول من

اعتنق الاسلام على المذهب السنى، ومنهم من اعتنقه على المذهب الشيعى، واذ كان هولاكو محبا للمنجمين ، فقد خص برعايته العالم الخراسانى الشيعى ، نصير الدين الطوسى فأقام له مرصدا في مراغة ، واسترد الشيعة ما أضاعوه من نفوذ في القرنين السابقين ، وكان ذلك تمهيدا لما أضحت عليه ايران ، منذ القرن السادس عشر ، من ان تكون دولة اسلامية شيعية ، قطعت صلتها ببقية العالم الاسلامى ولا سيما الدولة العثمانية .

وترتب على تسامح المغول مع الديانات نتائج دبلوماسية بالغة الاهمية ، ولا سيما فيما يرتبط بالعلاقات مع الغرب . فمنذ ظهر المغول ، اختلفت آراء المسيحيين في الغرب فيهم . اذ أنهم أدركوا ما قام به الغزاة المغيرون من هجمات مدمرة اقترنت بالقتل والنهب والسلب والحريق والخراب ، وتعرض لهذا المصير أثناء حروبهم في أوربا ،الشعوب والكنائس المسيحية .

على أن المسيحيين في الغرب لم يلبثوا أن رأوا في انتصار المغول على من يجاورهم من المسلمين ، انتصارا للفرنج . وما تلقاه الفرنج (الصليبيون) من المسيحيين النساطرة في آسيا الوسطى من معلومات ، جعلتهم يدركون ما قد يجلبه لهم احتلال المغول للبلاد الاسلامية من مزايا وفوائد . فالذين انحازوا الى الارمن بقليقية في محالفة المغول ، انما أرادوا أن يشاركوا أسرة هيثوم نزعتها وميلها نحو المغول . يضاف الى ذلك أن أسطورة برسترجون اسهمت في شيوع هذه الاتجاهات ، وقد سبق الاشارة الى أصلها الخيتائى في القرن الثانى عشر .

على أن الاسطورة ، بعد أن جرى اغفال الخطا ، أضحت في الغرب مظهرا لاعتقاد وأمل قوى في قيام دولة مسيحية تقع وراء حدود الاسلام . واسهم النساطرة الذين يعيشون في كنف ورعاية المغول ويباشرون دياناتهم علنا ، في أن يجعلوا المغول يقومون بهذا الدور (برسترجون) .

كما أن ما اشتهر به المبشرون من البساطة والسذاجة ، واعتقادهم بأن كل الناس ذوى النية الطيبة السليمة يؤمنون بقولهم ، جعلهم يعتبرون ان اقدام المغول على اعتناق المسيحية ليس الا اعرابا عن الصداقة والمحبة لهم .

وصادف قدوم المغول الفترة التى شرعت فيها البابوية اتخاذ سياسة تبشيرية ، ترمى الى الاتصال بالمغول والمسيحيين الخاضعين لسلطانهم . أما الباعث الذى دفع البابوية الى اتخاذ هذه السياسة فهو ما تراءى وقتذاك من فشل الحروب الصليبية ، وتزايد نشاط طوائف الرهبان . فالمعروف ان البابا انوسنت الرابع أرسل الى منغوليا عن طريق روسيا ، الراهب الدومنيكانى روبروق ، ولا زالت تقارير رحلتيهما من المصادر الراهب الدومنيكانى روبروق ، لازالت تقارير رحلتيهما من المصادر بالغة القيمة والأهمية. ولم تلق هاتان السفارتان الاستجابة من خان المغول، اذ أنه طلب أن يخضع له جميع الملوك والاباطرة فضلا عن البابا، على أنهم مجرد سادة اقطاعيين ، بل انه لم يلتزم بأن يبذل لهم من الحماية ما يبذله لاتباعه . وعلى الرغم من أن طلب البابا لقى الفتور والبرود من قبل الخان ، فان العلاقات قامت من جديد على أساس واقعى بعد وقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ .

ذلك أن المغول أخذوا يلتمسون اقامة محالفة ، يبذل بمقتضاها

المسيحيون باوروبا والمغول جهدا مشتركا لقتال المماليك . فانفذ أبغا (١٢٦٥ ــ ١٢٨١) الرسل الى البابا كلمنت الرابع سنة ١٢٦٧ ، والى جيمس الاول ملك أراجون سنة ١٢٦٩ ، والى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ ، يعرض توجيه حملات لقتال العدو المشترك .

والواضح أنه من المستحيل ان تكون هذه الحملات من القوة ما يحقق غرضها ، نظرا لما يفصل بين المتحالفين من مسافات شاسعة ، ولما حدث في بلادهم من مشاكل داخلية تمنعهم من القيام بهذه الحملات .

وتبنى هذه الفكرة أيضا البابا نقولا الرابع ، وبعث ايلخان أرغون بالموافقة مع رسوله يابهالله النسطورى ، الذى قام بزيارة الجنويين ، وملكى انجلترا وفرنسا والبابا .

ولم تنقطع المفاوضات زمن غازان ، وجرت أيضا بين البابا يوحنا الثاني والعشرين وبين ابى سعيد (١٣١٦ــ١٣٣٥) على الرغم من أن أباسعيد عقد الصلح مع المماليك . وترتب على قدوم مفاوضين من قبل الغرب أن تيسر الاتصال بالمغول وقيام هيئة للاساقفة ، في سلطانية ، بايلخانية فارس تحت زعامة رئيس أساقفة . وفي اقليم القبيلة الذهبية قام المبشرون بتصنيف قاموس (لاتينى ــ تركى ــ تترى) ، اشتهر باسم Codex Cumanicus . واستقرت زمن المغول اسقفية لاتينية في الصين فضلا عن نشاط البعثات التبشيرية . ويقابل هذه العلاقات الدبلوماسية والتبشيرية ، بين المغول والغرب ، ما جرى من تطور في العلاقات التجارية .

أبدى المغول ، منذ البداية ، اهتماما كبيرا بالتجار والتجارة . فكان

التبشير يمضى جنبا الى جنب مع النشاط التجارى ، فقد اعتنق خان الكرايت المسيحية من التجار المسيحيين النساطرة . واسهم التجار المسلمون في رفع المستوى الحضارى بمنغوليا ، ودخل في اللغة المغولية مصطلحات تجارية جاءت من المسلمين الايرانيين . وكان الاغنياء من تجار المسلمين يشيدون في العهد المغولى المدارس والخانقاهات . والمعروف أن القافلة التجارية الذى لقى افرادها مصرعهم على يد خوارزمشاه في اوترار ، كانت مؤلفة من تجار مسلمين أرسلهم جنكيزخان. وفي السنوات الاولى من حكم جغتاى في اقليم تركستان ، تولى شئون الادارة الوزير مسعود بك يلواج ، وكان تاجرا ، وقد استطاع هذا التاجر المسلم أن يقبض طول حياته على أزمة الحكم في آسيا الوسطى ، رغم التغييرات السياسية المتعددة ، واستطاع أيضا أن يعهد بالحكومة لأبنائه من بعده . على أن الاهتمام بالتجارة كان الى حد كبير امرا مألوفا عند شعوب الرعاة ، وحققه ما قام به المغول من فتوح شاسعة . ولا نعلم ما اذا كانت تجارة آسيا زمن المغول فاقلمت النشاط التجارى، عبر آسيا ، قبل ظهورهم . لم ينبعث من جديد ما كان معروفا للايرانيين من نشاط بحرى ، والواقع أن المغول تطلعوا الى الجنويين لمناهضة الاسطول المملوكى في المحيط الهندى .

أما القوافل التجارية ، فانها سلكت طريقها مباشرة . فبعد أن كانت تنتقل الى اقوام اخرين ، عند الممرات التى تفصل بين تركستان الصينية (سيكيانج) وآسيا الوسطى الاسلامية، أضحى فيوسع التجار أن يسيروا مباشرة من البحر المتوسط حتى يبلغوا بكين حسبما أرادوا . وما جرى من ظهور المدن الايطالية وتسامح المغول ، وما تتسم به القافلة من الوحدة يفسر كيف استطاع التجار الايطاليون ، أن يتوغلوا في جوف آسيا ، وان

يبلغوا الصين مثلما فعل ماركوبولو ، وأن يعودوا بمعلومات جديدة بالغة الأهمية . وليس من الضروري أن يتبع ذلك تغيير اقتصادى ملحوظ في التجارة ، فاذا كان الاسيويون هم الذين باشروا هذه التجارة حتى وقتذاك ، فالراجح أنهم ظلوا يقومون بنشاطهم .

ويجتاز قارة آسيا ، من الشرق الى الغرب ، طريقان تجاريان ، الطريق الشمالى ويسيطر عليه خانات القبيلة الذهبية ، والطريق الجنوبي ويخضع لسلطان ايلخانات فارس ، ولم تتأثر التجارة على هذين الطريقين ، بما نشب بصفة شبه مستمرة ، من الحروب بين القبيلة الذهبية ومغول فارس . والطرق التجارية التى تبدأ من الشاطىء الشمالى للبحر الأسود ، تجتاز المجرى الأدنى لنهر الفلجا ، عند مدينة سراى ، عاصمة القبيلة الذهبية . أما الطرق التجارية التى تجتاز ايران ، فتبدأ اما عند اطرابزون على الشاطىء الجنوبى للبحر الأسود ، واما عند أياس في أرمينية الصغرى (قليقية) . ويلتقى التجار عادة في سيواس بآسيا الصغرى ، وفي تبريز ، (حتى بعد أن فقدت أهميتها السياسية باعتبارها عاصمة ايلخانات فارس) . واهتم المغول باصلاح طرق المواصلات ووسائل النقل لاسباب سياسية واقتصادية . فما أقاموه من استراحات وخانات (وكالات) وحراسا لمطاردة قطاع الطرق ، أفاد منها التجار والحكومة سواء .

وما وضعه المغول من سياسة مالية ، زادت عيوبها على مزاياها ، فأدى ذلك الى اصدار عملة ورقية ، من الحرير ، ونظرا لأنه لم يسبق التمهيد لظهورها في ايران ، ولما تفتقر اليه من الاكتمال ، لم تلبث الخطة أن تداعت وأن انهارت أمام المقاومة الاجماعية من قبل طبقة التجار .

وامتد أيضا مجال الثقافة ، فالملحوظ أن عهد المغول شهد قمة

حياة الشاعر السعدى ، وبداية ظهور الحافظ ، وهما من أشهر شعراء العالم ، وبرغم مـا اشتهر به عصر المغول مـن الفوضى وسفك الدماء والفتن ، فانه يرجع الى عهدهم معظم روائع فن العمارة الايرانى . كما أن التصوير الفارسى بدأ في النهوض بعد أن اكتمل فيه امتزاج التراث الايراني بالأعمال الفنية الصينية ، على حـين أن المؤرخ ابن العبرى ، خلط في كتابته بين المؤثرات السريانية والعربية والفارسية . وشهد زمن المغول أيضا ما جرى تحت اشراف رشيد الدين ، من تأليف تاريخ ، لا للعالم الاسلامى وحده ، بل امتد الى معالجة ما يجرى من أحداث عالمية، فتعرض لدراسة الفرنج ، وأورد تفـاصيل قيمة عن الصينيين وشعوب آسيا الوسطى ، ولا سيما الترك والمغول(١) .

---

(١) ورشيد الدين ، هو فضل الله رشيد الدين بن عماد الدولة ابـو الخير ، المعروف بالطبيب ، ولد سنة ١٢٤٧ في همذان .
كان طبيبا زمن ابغا . ولما برع فيه من الطب والدهاء والسياسة التحق بخدمة غازان (١٢٩٥ ــ ١٣٠٤) ، وحظى بعطفه وثقته وارتفع شـأنـه زمن اولجايتو . وما أحرزه رشيد الدين من شهرة وصيت ، يرجع الى كتابه المعروف باسم جامع التواريخ ، وهو تاريخ المغول ، الذى بدا في كتابته بناء على أمر غازان ، ثم اقترح اولجايتو ان يضيف الى تاريخ المغول، تاريخ العالم الاسلامى فضلا عن ملحق بالجغرافيا . وحينما اكتملت كتابة هذا التاريخ سنة ١٣١٠ ــ ١٣١١ م ، اتخذ الصورة النهائية التالية .
الجزء الاول ويشمل : تاريخ القبائل المغولية والتركية ، وجنكيزخان ، اسلافه واخلافه حتى غازان .
الجزء الثانى : مقدمة في تاريخ آدم والانبياء ، ثم ملوك الفرس القدماء ، ثم عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء حتى سنة ١٢٥٨ ــ تاريـخ الاسرات الحاكمة في فارس ــ الاسماعيلية ــ الاغوز والترك ــ الصينيون اليهود ــ الفرنج ، ملوكهم ــ البابوات ــ الهند ــ بوذا وديانته .
وحرص رشيد الدين على الاطلاع عـلى المصادر الأصلية ، وافاد مـن اصدقائه المغول والصينيين وغازان خان فيما تضمنه كتابه من دراسات عن الصينيين والمغول. واشتهر رشيدالدين ايضا بدراسته بما وقع فيزمنه من الاحداث الهامة ، كالنزاع بين البابا والامبراطور ، وقيام أسكتلندا بتأدية الجزية لملوك انجلترا .
انظر ، دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة ــ رشيد الدين .

على أنه اذا كان أثر الفتوح المغولية استمر زمنا طويلا فان النظام السياسى لهم تعرض للاضطراب والانهيـار . فعلى الرغم مما اشتهر به نظام الحكم مـن الاستقرار والثبات ، لـم يستطع أن يتجنب المشاكل الاقتصادية والعسكرية التى تعرضت لها النظم السابقة له ، والتى زاد في حدتها ، نمو الروح البدوية التـي تنزع دائما الى القيـام بمغامرة جديدة ، فلم تلبث ايلخانية فارس أن زالت ولما ينتصف القرن الرابـع عشر . وتداعت دولة جغتاى أيضا حوالى ذلك الوقت ، ومن بين أنقاض هذا البيت ، ظهر آخر قادة آسيا الوسطى ، تيمورلنك . على أن هـذه المرحلة الجديدة ، تختلف عن المرحلة السابقة في تاريخ المغول . فقـد أسهم التيموريون في احياء الامبراطورية المغولية ، وفي نشر الثقـافـة الفارسية ، غير أن ما اشتهرت به المرحلة السابقة من تاريخ المغول مـن حرية انتقال الناس والمتاجر من أقصى الأمبراطورية الى أقصاها ، فـاق ما حدث زمن التيموريين .

وليس ثمة ما يدعو الى المضى في دراسة تاريـخ ايران والجهات النائية من آسيا بعد سقوط ايلخانية فارس ، فأهم من ذلك دراسة اقليم يعتبر من توابع دولة المغول ، وهو آسيا الصغرى ، نظرا لأهمية موقعه في الاتصال بالغرب المسيحى ، ولما ترتب على حكم المغول به من قيام الأمبراطورية العثمانية ، وما كان لها من أثر كبير في تاريخ الشرق الأدبى والتاريخ الأوربى .

سبق الاشارة الى الكارثة التى أنزلها المغول بالسلاجقة في آسيا الصغـــرى ، سنـــة ١٢٤٣ (معركـة كوزداغ) . عـــلى أن آسيا الصغرى بلغ من ابتعادها عــن حاضرة الأمبراطورية المغولية ، ما منع المغول من التخلص من الحكومة السلجوقية . غير أنه أضعف الحكومة

السلجوقيه با سيا الصغرى، ما لجأ اليه المغول من ابتزاز الأموال واستخدام وسائل القهر والعنت مع السكان، وأنه لـم تقم ادارة مغولية لتحل مكان الحكومة السلجوقية بالبـلاد ؟ يضاف الـى ذلك أنـه خلف السلطان كيخسرو الثانى في الحكم ، أميران صغيرا السن ، فتهيأت الفرصة للسادة الاقطاعيين أن يتطلعوا لتحقيق أطماعهم . ومن هؤلاء السادة من كان يرى الاذعان والاستسلام للمغول ، ومنهم من حرص على الافادة من التركمان في مقاومة المغول ، ومنهم من كان يأمل في المساعدة من قبل اليونانيين (البيزنطيين) ، وترتب على الفوضى التى سادت بعـد وفاة كيخسرو الثانى ، أن تهيأت الفرصة للتركمان النازلـين على الحدود أن يثيروا الاضطراب ، ولأن يقوم في بعض المدن نظـام الأخية . وعاد الامن الى نصابه رويدا رويدا بفضل ما جرى من قيام من حكم ثنائى ، يشترك فيها أحد الأمراء السلاجقة مع بعض القادة المغول ، ولم يؤد هذا النظام الى النتيجة المطلوبة، فلم تلبث الأحوال أن اضطربت من جديد، وأضحى لزاما علـى المغول أن يقيمـوا حكما مغوليا مباشرا ، زالت أتبـاعه الأسرة السلجوقية الحاكمة . على أن آسيا الصغرى لم يعد لها الا أهمية ثانوية عند المغول ، واذ أنقسم المغول علـى أنفسهم ، وتطرق اليهم الضعف ، لم يعد بوسعهم استعـادة سلطانهم . وشهدت بدايـة القرن الرابع عشر الميـلادى تغيرا في الوضع في آسيا الصغرى ، ومن ثنايا هـذا التغيير ظهرت الدولة العثمانية .

وتفصيل هذا التطور ، أن وزراء الحكومة السلجوقية في الفترة بين ١٢٤٦ ، ١٢٥٦ ، نجحوا في المحافظة على الأوضاع السابقة ، الا فيما يتعلق بالتركمان النازلين على أطراف قليقية ، والشام ، والفرات ، فتدخل المغول لمساعدة قلج ارسلان الرابع بن كيخسرو ، عـلى أخيه كيكاوس الثانى الذى كان فعلا هو السلطان .

ومما حدث سنة ١٢٥٦ من وصول قوات مغولية جديدة بقيادة هولاكو الى ايران ، والاستعداد لغزو الجزيرة والشام ، حمل بايجو حاكم اذربيجان من قبل المغول ، على أن يطلب لعساكره ، مواطن جديدة في آسيا الصغرى . على أن مظاهر الاذعان للمغول كانت ملموسة في الشطر الشرقى من آسيا الصغرى ، بينما استقرت المقاومة في جوف الأناضول . وضم حزب المعارضة المسلمين السنيين ، الذين أزعجهم هؤلاء المغول الوثنيون ، وميلهم للمسيحيين الذين لا زال عددهم كبيرا في آسيا الصغرى . ومن المعارضين لسلطان المغول أيضا ، اليونانيون المسيحيين الذين يتطلعون الى أن يحصلوا على مساعدة من الدولة البيزنطية (في نيقية) ، ويضاف الى هؤلاء وأولئك التركمان ، الذين أحسوا بما تتعرض له مراعيهم من التهديد ، فكانوا حريصين أيضا على مناهضة المغول ، كما أن جموعا كثيرة من التركمان سبق أن اشتبكت في قتال المغول في جهات أخرى ، اضطروا الى الجلاء عنها فقدموا الى الغرب . على أنه لم يحدث بين هذه الفئات ، التى اختلفت مصالحها وأهواؤها نوع من التحالف ، وهذا هو السر في ضعف عناصر المقاومة التى التفت حول كيخسرو ، فحلت به الهزيمة ، وفر الى الأراضى البيزنطية وأقام المغول مكانه في الحكم أخاه قلج أرسلان .

ومع ذلك ، لم يلبث المغول أن قبلوا فكرة اقتسام الحكم بين السلطانين ، فاختص قلج ارسلان الموالى للمغول ، بالشطر الشرقى من الدولة السلجوقية بالاناضول ، وهو أكثر ما يهم المغول من أملاك السلاجقة ، اذ أنهم احتاجوا الى تأمين جناحهم أثناء غاراتهم على الجزيرة والشام في الفترة الواقعة بين ١٢٥٨ ، ١٢٦٠ . على أن المغول أصروا سنة ١٢٦١ على التخلص نهائيا من كيكاوس فلم يسعه الا الفرار الى القسطنطينية ، ولم تلبث آماله أن تحطمت على يد الأمبراطور البيزنطى

ميخائيل الثامن ، باليولوجوس ، الذى صالح مغول فارس وهادنهم وقضى كيكاوس نحبه في شبه جزيرة القرم بعد أن لجأ الى مغول القبيلة الذهبية ، الذين اشتد عداؤهم لبنى أعمامهم في ايران . وأفاد من هذه الأزمة الأعداء والعصاة والعناصر المتمردة . فالمنطقة الممتدة من الفرات حتى الحدود البيزنطية ، ساد بها الاضطراب والفوضى التى اثارها التركمان والكرد . واستقلت جماعة بالمنطقة الواقعة الممتدة بين المجرى الأعلى لنهر المايندر وشاطىء البحر المتوسط ، تجاه رودس . وسيطرت جماعة أخرى على جبال طوروس ، ابتداء من طرفها في ايزوريا (بآسيا الصغرى) ، الى المسالك المؤدية الى دروب قليقية . وزعيم هذه الجماعة هو فرمان الذى تحالف مع فئات النحل المخالفة . أما الجماعات الأخرى النازلة على الحدود السورية ، فانها عمدت الى استباحة ونهب كل ما يجاورها من البلاد ، التابعة للسلاجقة ، والأيوبيين والأرمن بقليقية ، والصليبيين بانطاكية ، فضلا عن المغول أنفسهم عندما تداعت قوتهم ، فنراءى كأن كل شيء قد تمزق وانهار .

وفي الفترةالواقعة بين ١٢٦١،١٢٧٥، صارتالسلطةالمطلقة لمعينالدين سليمان المشهور باسم البرواناه[1] ، نسبة الى الوظيفة الكبيرة التى كان يشغلها . وبفضل مساندة المغول له ، أضحى له من السلطان ما جعله دكتاتورا ، زمن قلج ارسلان الرابع ، وزمن ابنه كيخسرو الثالث ، اللذين لم يكن لهما من الأمر شيء ، فاستند الى تأييد الجيوش المغولية، بدلا من الجيوش السلجوقية . وما اشتهر به البرواناه من صدق الايمان، جعله يرتقى في مناصب الدولة السلجوقية ، وظفر برضى المغول ،

---

(١) البروناه ، لفظ فارسي ، معناه في الاصل الحاجب ، وجرى اطلاقه على هذا الوزير ، الذى صارت في يده كل السلطات .
(ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٥٥) .

لاستجابته لطلباتهم المالية والعسكرية ، وبذل كل ما في وسعه للمحافظة على النظم والتقاليد السلجوقية . ومع أنه لم يستطع كبح جماح التركمان ، فانه حرص على ألا يتجاوز تهورهم حدودا مقبولة . فاستعاد سينوب ، وأقر بها الأمن . ونشطت التجارة في الأناضول ، بسبب ما حدث من اضطراد نموها بين المغول في فارس ، وعادت الحياة الدينية والثقافية الى ما كانت عليه قبل زمن المغول . ومع ذلك لم يتيسر الابقاء على الوحدة ، اذ أفاد امراء الاقطاع من الاضطراب المالى ، كيما يستقلوا بالأقاليم التى حازوها اقطاعا بدلا من المرتبات ، فالبرواناه حاز اقليم الدانشمند وسينوب ، وجعل الوزير فخر الدين على لأبنائه ما يقع غرب الطرف البيزنطى من أراض ، ويضاف الى هؤلاء ممثلو الادارة المالية للمغول ، الذين تولوا ادارة قسطمنوه ، ضمانا لتسديد ما عليها من قروض ، ودارت بين هؤلاء منازعات ، لم تبلغ حد الحرب ، ثم تلى ذلك فترة هدوء نسبى ، استمرت أربع عشرة سنة .

على أن ازدياد التنافس والتنازع بين البرواناه وبعض السادة الاقطاعيين ، أدى سنة ١٢٧٦ الى وقوع أزمة حادة . يضاف الى ذلك أن السلطان بيبرس الذى طرد المغول ، والذى أوقع بالفرنج والأرمن ونهب بلادهم ، واستقر له الحكم في مصر والشام ، أخذ يسعى لدرء الخطر المغولى ، بالافادة من خصوم المغول . فكلا البرواناه والسادة الاقطاعيين انتهجوا سياسة ذات وجهين ، بأن يتفاوضوا مع بيبرس اذا اضطرب أمرهم مع المغول ، بينما يخطرون المغول بما دار بينهم وبين بيبرس من مفاوضات ، واشتدت ثائرة بيبرس ، فوجه حملة لمهاجمة قيصرية في سنة ١٢٧٧ ، أحرز فيها انتصارا حاسما على المغول . ولا زال للتركمان أيضا وزنهم ، كما أن القرمانيين بصفة خاصة كانوا يؤلفون قوة حاول أن يثيرها بعض خصوم البرواناه وبيبرس نفسه . والواضح أن مصالحهم

الخاصة حملتهم على أن ينغمسوا في هذه الاضطرابات والمشاكل ، وكان هذا هو أعنف مظهر للأزمة ، لم يستطع بيبرس أن يحافظ على مركزه في بلاد سلاجقة الروم ، اذ لم ينل كل ما يأمله من مساعدة من الأقاليم السلجوقية ، بسبب تخوفها من المغول ، أما القرمانيون فظلوا محافظين على وضعهم لمدة سنتين ، نجحوا في أن يحتلوا قونية سنة ١٢٧٦ لفترة وجيزة ، على أن معظم التركمان اشتركوا في هذه الحركة . ومع أن الحكومة المغولية السلجوقية لم تستطع أن تسترد المدن الكبيرة بهضبة الأناضول الا بعد نضال طويل مرير ، فانها لم تنجح في ازاحة التركمان من مناطق الحدود ولا سيما فيما خضع للقرمانيين من منطقة جبال طوروس .

ومع أن الهدوء والسلام عاد من جديد الى الأناضول ، فان الوضع بهذه البلاد اختلف عما كانت عليه زمن البرولناه . اعتبر المغول البروانله مسئولا عن هذه الاضطرابات فأمروا باعدامه ، وأخذوا يتولون بأنفسهم رويدا رويدا شئون الادارة ، فشغلوا الوظائف الرئيسية ، وأدخلوا نظامهم المالى ، ولم يعد للسلاطين السلاجقة مع المغول نفوذ ، حتى زال ملكهم في مستهل القرن الرابع عشر . واذ أخذ المغول يتحولون الى الاسلام ، لم تلق حكومتهم من النفور ما كانت تتعرض له منذ خمسين سنة .

لم تمتد سلطة المغول الى كل ما كان يخضع للسلاجقة من أملاك ، ولم يتغلغل سلطانهم الى داخل البلاد ، انما اكتفوا بالسيطرة على المدن الكبيرة بالأناضول ، ولم يحفلوا بالتركمان ، وحدث وقتذاك أيضا أن تداعت اسباب للدفاع عن أملاك بيزنطة في آسيا الصغرى ، ولذا حينما لجأ التركمان النازلون بشرق الأناضول ، الى الغرب ، تحت ضغط

الموجة المغولية الثانية بزعامة تيمور ، ظهرت معالم الامارات التركمانية التى امتدت حتى بلغت ساحل بحر ايجه . يضاف الى ذلك أنه لم يتعرض للدمار سلطان القرمانيين ، الذين استولوا في مستهل القرن الرابع عشر على قونية . وقامت امارات جديـدة ، ولا سيما في جنوب الأناضول والغرب . ولم يكن للمغول من التأثير على هذه الامارات ما كان لهم في المدن الكبيرة ، ولذا أصبحت هذه الامارات التركمانية قاعـدة لفرض الصفة التركية في هذه الجهات ، بل ان سلطة المغول على المدن الكبيرة أخـذت تتداعى ، فتهيأت الفرصة لطوائف الأخية أن تفرض سلطانهـا ونفوذها في حياة المدن . وما كان لهؤلاء الأخية من نفوذ لم يكن موجها فحسب لمناهضة التركمان ، بل كان ينزع أيضا الى الحد مـن سلطان المغول ، ولذا حينما صار للمدن الكبيرة في الامارات التركمانية استقلال داخلى ، لم يجد الأخيه صعوبة في التلاؤم والوفاق معها .

والواقع أن لا يصح اعتبار الحكومة المغولية الجديدة في الأناضول بديلا حقيقيا لحكومة السلاجقة . ومع أن النظم المغولية كـان لها أثر واضح في البلاد ، فان الوحدة السياسية في ظل الحكم المغولى لم تضارع ما كان معروفا زمن السلاجقة . وظهرت مراكز جاذبية جديدة ، فانجذبت أرمينية نحو ايران واقليم الجزيرة ، بينما اتجهت بـلاد الأناضول نحو الاملرات التركمانية التى نشأت على أطرافها . ولم تتوقف التجزئة عند هذا الحد ، بل ان المغول أصابهم الضعف وانقسموا عـلى أنفسهم في القرن الرابع عشر ، فما وقع من التنازع والخصومة بين قادة المغول في الاناضول ، وفي سائر بلاد ايلخانية فارس ، بلغ مـن الشدة والعنف ، ما أدى الى تجزئة المناطق التى ظلت حتى وقتذاك بايدى المغول ، ففي بعض الحالات ، انتزع بعض القادة المغول السلطة لأنفسهم ، وجرى في

حالات أخرى أن نصب بعض الأعيان المحليين أنفسهم أمراء ، مثلما حدث في سيواس .

والخلاصة أن المغول دمروا ما أقامه سلاطين السلاجقة من وحدة اقليمية وبشرية في الأناضول ، فانقسم الأناضول ثلاثة أقسام ، ساد فيها أيضا التجزئة السياسية ، الشطر الشرقى الذى لم يعد يتطلع الى الغرب ، بل اتجه الى الشرق والجنوب ، ثم المدن الداخلية الكبيرة ، التى ظلت تحافظ على التقاليد المغولية السلجوقية ، أما القسم الثالث فشمل الامارات التركمانية في الغرب ، ولم تعد الهضبة تؤلف نواة مناطق الأطراف (الحدود) .

ويرتبط التطور السياسى ، بما حدث من نمو اقتصادى ، فلم يتداع النشاط التجارى الا بعد سقوط امبراطورية ايلخانات فارس ، بل ان ما أجراه المغول من الوحدة ، وما بذلوه من التسامح بين الفئات والمذاهب المختلفة ، وما حدث من تطور في الغرب ، أدى الى ازدياد النشاط التجارى من آسيا الوسطى الى البحر المتوسط . غير أن التجارة التى تجتاز الأناضول تعرضت لشيء من الاضطراب ، فالطريق التجارى الذى يجتاز شبه جزيرة آسيا الصغرى من الشمال الى الجنوب ، الى مصر عن طريق أضاليا (أنطاليا) أصابه من التدهور والتداعى مثلما أصاب سلطان السلاجقة في قونية . فالقوافل صارت تتجه الى اطرابزون ولم تمس أملاك السلاجقة الا عند ارزروم ، أو الى أياس في قليقية . وبرغم ما كان جاريا من النزاع السياسى ، ظلت التجارة بين الشواطيء الشمالية والجنوبية للبحر الأسود ، في أيدى الأرمن والايطاليين ، أضحت سيواس مركزا بالغ الأهمية للتجارة الدولية ، بينما تعرضت تجارة المناطق الشرقية لآسيا الصغرى للخطر والتهديد ، نتيجة انحسار

سلطان المغول .

ومن الناحيــة الاجتماعية ، حل سلطان المغول مكـــان الدولة السلجوقية ، وأضحى سادة المغول ملاكا للاراضى بدلا مـن السادة السلاجقة . وترتب على ذلك أن جرى استغلال البلاد لصالح الأجانب ، الذين لم تكن اقامتهم دائمة ، على أن هذه الظاهرة كانت ظاهرة عابرة ، نظرا لما أصاب الامبراطورية الايلخانية من تجزئة . ولم تتعرض أحوال الفلاحين لشيء من التغيير ، فلم يتغير سوى ملاك الأرض ، وازدادت أهمية طوائف الأخية في المدن الكبيرة .

والملحوظ أنه جرى قدر كبير من التطور في التراث القديم ، فمع أن سياسة الايلخانات الأوائل كانت ترمى الى تشجيع الجاليات الأرمنية، فان ما كان للطبقات العليا والنظم من صفة اسلامية ، منعها من الاستجابة لسياسة المغول ، بل ان شمس الدين الجوينى وزير أمراء المغول ، لم يسعه الا أن يوطد القواعد الاسلامية في الاناضول ، ويزيد منها ، وليس من المحقق ان الحكم المغولى يسر استمرار الاتصال بايران ، على أنـه مهما جرى من أسباب الاتصال ، فانها أكدت انفصـال ايران عن العالم العربى .

أما الآداب الفارسية فقد اكتمل نموها ، الذى بدأ زمن السلاجقة في الأناضول . ففى هذا العصر ألف جلال الدين الرومى الجانب الأكبر من قصائده في التصوف ، وزاد من المؤلفات عـن التصوف ، ما جرى تصنيفه من كتب قيمة عن الفتوة ، وما ألفه ابن بيبى والاقصرائى مـن الكتب أوقفنا على أحوال المجتمع الذى عاشا فيه ، يضاف الى ذلك ما حدث من اتصال بين المؤثرات الايرانية والتركية في التصوف ، فظهرت

طائفة الدراديش البكتاشية في الدولة العثمانية ، واقترن قيام الامارات التركية بآسيا الصغرى ، بارتفاع المستوى الثقـافى للجموع التركية ، وعاش حوالى سنة ١٣٠٠ ، نصر الديــن خوجا (جحا) الذى أضحى منذئذ رمز الادراك السليم لقومه في نوادره وحكاياته .

على ان انهيار الحكم السلجوقى والنظام المغولى ، لـم يستتبع انهيار الحضارة والمدنية ، انما أدى الى ضرورة اعادة تنظيمها على أسس أقليمية وثقافية جديدة . وما أورده ابن بطوطه والعمرى عن الأناضول في السنوات الواقعة بين ١٣٣٠ـ١٣٤٠ ، يدل على أن بلاد الأناضول، انفصلت عن العالم العربى الاسلامى ، كما أن سقوط الأمبراطورية المغولية فصلها أيضا الى حد ما عن ايران ، وبفضل ما ادخرته الدولة العثمانية المستقلة من تقاليد ، هيأت لها الفرصة لأن تقــوم وتنهض على أطراف عــالم ، اشتدت عزلته عن سائر الأقاليم المجاورة .



ملاحق

ملحق ١

عن المعاهدة المعقودة بين السلطان المنصور قلاون، والأمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن (١٢٥٩ — ١٢٨٢) ، مؤرخة في سنة ١٢٨١ (٦٨٠ هـ) . وتتضمن التصديق على رسالتين متبادلتين بين الطرفين ، حسبما أوردهما ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك جـ ٧ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٣ (بيروت سنة ١٩٤٢) .

صورة نسخة الرسالة الواردة من الأمبراطور .

اذ قد أراد السلطان لعظيم النسيب ، العالى ، العزيز ، الكبير الجنس ، الملك المنصور سيف الدين قلاون ، صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، أن يكون بينه وبين مملكتى محبة ، فمملكتى أيضا تؤثر ذلك ، وتختار أن يكون بينها وبين عز سلطانه محبة .

ولهذا وجب أن يتوسط هذا الأمر يمين واتفاق لتدوم المحبة التى بهذه الصورة ، فيما بين مملكتى وعز سلطانه ثابتة بلا تشويش .

فمملكتى من هذا اليوم ، وهو يوم الخميس الثامن من شهر أيار من التاريخ التاسع سنة ستة الاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم ، يكون أواخر المحرم سنة ثمانين وستمائة .

تحلف بأناجيل الله المقدسة والصليب المكرم المحيى ، أن مملكتى تكون حافظة للسلطان العظيم النسب ، العالى العزيز ، الكبير الجنس ، الملك المنصور قلاون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، ولأولاده ولوارثى ملك عز سلطانه ، محبة مستقيمة ، وصداقة كاملة نقية .

ولا يحرك ملكى أبدا على عز سلطانه حربا ، ولا على بلاده ولا على قلاعه ، ولا على عساكره .

ولا يحرك ملكى أحدا على حربه ، بحيث أن هذا السلطان العظيم لنسب ، العالى العزيـز ، الكبير الجنس ، الملك المنصور سيف الدين قلاون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب يحفظ مثل ذلك لمملكتى ولولد مملكتـى الحبيب الكمنينوس الانجالس الدوقس البالاولوغس الملك لبراندرونيقوس[1]، ولوارثى مملكتنا محبة مستقيمة وصداقة كاملة نقية .

ولا يحرك عز سلطانه على مملكتنا حربا قط ، ولا على بلادنا ولا على قلاعنا ، ولا على عساكر مملكتنا .

ولا يحرك أحدا آخر أيضا على حرب مملكتنا .

وأن يكون للرسل المسيرون من عز سلطانه أيضا مطلقا ، أن يعبروا في بلاد مملكتى بلا مانع ولا عايق ، ويتوجهوا الى حيث يسيروا من عز سلطانه ، وكذلك يعودوا الى عز سلطانه .

وأن لا يحصل للتجار الواردين مـن بـلاد عز سلطانه الى بلاد مملكتى جور ولا ظلم ، بل يكون لهم مباح أن يعملوا متاجرهم .

ونظير هذا ، التجار الواردين الى بلاد عز سلطانه من بلاد مملكتى،

---

(١) اندرونيقوس الثانى الذى حكم بيزنطة بين ١٢٨٢ ، ١٣٣٢

لا يجدون من أحد جورا ولا ظلما ، بل يكـون لهم مباح ، أن يعملوا متاجرهم .

وكما أن التجار المزمعين أن يردوا الى بلاد عز سلطانه من أهل بلاد ملكى يقومون بالحق الواجب عـلى بضايعهم . فليقم كذلك التجـار الواردين من بـلاد عز سلطانه الى بـلاد ملكى بالحق الواجب عـلى بضايعهم .

وان حضر من بـلاد سوداق تجـار ، وأرادوا السفر الى بـلاد عز سلطانه ، فلا ينال هؤلاء تعويـق في بلاد ملكى ، بـل في عبورهم وعودهم يكونوا بلا مانع ولا عايق بعد القيـام بالحق الواجب عـلى بضايعهم في بـلاد ملكى .

ومثل ذلك ، أن وافى تجار من أهل بلاد عز سلطانه وأرادوا العبور الى بلاد سوداق ، يعبروا من بلاد مملكتى بلا عايق ولا مانع ، وكذلك اذا عادوا ، وهذا كله بعد القيام بالحق الواجب .

وهؤلاء التجار الذين من أهل بلاد عز سلطانه ، والذين من أهل سوداق ، ان حضر صحبتهم مماليك وجوار ، فليعدوا بهـم الى بـلاد عز سلطانه بلا عايق ولا مانع ، ما خلا ان كانـوا نصارى ، لأن شرعنا وترتيب ديننا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا .

ولما ان كان في بلاد عز سلطانه مماليك نصارى وروم وغيرهم من أجناس النصارى ، متمسكين بديـن النصارى ، ويحصل القوم منهـم العتق ، فليكن للذين معهم عتايق مباح ومطلق من عز سلطانه ، أن يعدوا في البحر الى بلاد مملكتى .

وكذلك ان أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانه ، أن يبيع مملوكا نصرانيا هذه صورته لأحد من رسل مملكتي أو لتجار وأناس من بلاد مملكتي ، أن لا يجد في هذا تعويقا بل يشتروا المذكور ، ويعدوا به في البحر الى بلاد مملكتي بلا عايق .

وأيضا ان أراد هذا السلطان العظيم النسيب أن يرسل الى بلاد ملكي بضايع متجر ، وأرادت مملكتي أن ترسل الى بلاد عز سلطانه بضايع متجر ، فليكن هكذا .

وهو ان أراد عزسلطانه أنتكون بضايع متاجره فيبلادملكي منجاة من القيام بكل الحقوق ، فلتكن أيضا بضايع متاجر مملكتي في بلاد عز سلطانه منجاة مثل ذلك من كل الحقوق .

وان أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة ، فلتكن أيضا متاجر عز سلطانه تقوم في بلاد ملكي بالحقوق الواجبة مثل ذلك .

وأيضا أن يطلق عز سلطانه لملكي أن يرسل أناسا من بلاد مملكتي الى بلاد عز سلطانه ، فيسيرون لي خيلا جيادا ويحملونها الى بلاد ملكي.

وكذلك ان أراد عز سلطانه شيئا من خيرات بلاد ملكي ، فمملكتي أيضا تطلق لعز سلطانه أن يرسل أناسه ليسيروه ويحملوه الى عز سلطانه .

ولما كان في البحر كرسالية[1] من بلاد غريبة ، وقد يتفق في بعض الأوقات أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي ، كذلك يجدون هؤلاء الكرسالية قوما من بلاد عز سلطانه ، فيعملون لهم خسارة .

ثم ان هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا بالاتفاق في تخوم بلاد ملكي. لأجل هذا صار اذا حضر قوم من بلاد مملكتي الى بلاد عز سلطانه

---

(١) هم قرصان البحر . Corsairs

بمتجر ، يمسكون من أهل بلاد عز سلطانه ويغرمون .

ولهذا فليصر مرسوم من عز سلطانه في كل بلاده أن أحدا من أهل بلاد مملكتى لا يغرم بهذا السبب ، ولا يمسك . وان عرض أن يقول أحد من أهل بلاد عز سلطانه أنه غرم أو ظلم من أحد من أهل بلاد ملكى فليعرف ملكى بذلك .

وان كان الذى صنع الغرامة من أهل بــلاد ملكى ، فملكى يأمر وتعاد تلك الخسارة الى بلاد عز سلطانه .

وكذلك ان قال أحد من أهل بلاد مملكتى أنه ظلم أو غرم من أحد من أهل بلاد عز سلطانه ، يأمر عز سلطانه وتعاد الغرامة الى بلاد ملكى .

وأيضا اذ قد أزمعت المحبــة أن تصير بهذه الصورة ، وتكــون الصداقة بين ملكى وعز سلطانه خالصة ، حتى أنه أرسل يقول للملكى على معونة ونجدة ملكى في البحر لمضرة العدو المشترك فمملكتى تفوض هذا الأمر الى اختيار عز سلطانه أن يرتب في نسخة اليمين مع بقية الفصول المعينة فيه ، كيف وبأى صورة تعين وتنجد مملكتى في البحر .

وان كان لا يريد نجدة ومعونة مملكتى ، فمملكتى تسمح بهذا الفصل أن لا يضعه عز سلطانه في نسخة يمينه .

وهذه اليمين اذا يحفظه ملكى لعز سلطانه ثابتا غير متزعزع ، ان كان هو السلطان العظيم ، يحلف لى يمينا مثلهـا ، وأنه يحفظ المحبة لملكتنا ثابتة غير متزعزعة والسلام .

ـ فلما عربت هــذه اليمين ، كتبت نسخة يمــين للسلطان الملك المنصور (قلاون) ـ صورته

أقول وأنا فلان ، أنـه لما رغب حضرة الملك الجليـل كرميخائيل الدوقس الانجالس الكمنينوس البالاولوغس ضابط مملكـة الـروم والقسطنطينية العظمى ، أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى محبة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيـام ، ولا تزول بزوال السنين والأعـوام ، وأكد ذلك بيمين حلف عليهـا ، تاريخها يوم الخميس ، ثامن شهر أيار سنة ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم صلوات الله عليـه ، بحضـور رسول عز سلطانى الأمير ناصر الديـن ابن الجزرى ، والبطرك الجليـل أنباسيوس ، بطرك الاسكندرية . وحضر رسولاه فلان وفلان ، الـى عز سلطانى بنسخة اليمين ، ملتمسين أن يتوسط هذا الأمر أيضا يمين واتفاق من عز سلطانى، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى ، وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فعز سلطانى من هذا اليـوم ، وهو يـوم الاثنين ، مستهل شهر رمضان المعظم ، سنة ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، علـى صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عـالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفى الصدور ، وبالقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمـن أنزل عليه ، وهو النبـى الكريـم ، محمد صلى الله عليه وسلم، على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقيـة ، للملك الجليـل ، كر ميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولد مملكته الحبيب الكمنينـوس الانجـالس الدوقس البالاولـوغس ، الملـك الأندرونيقوس ، ولوارثى مملكة ملكه .

ولا يحرك عز سلطانى أبدا على مملكته حربا ، ولا على بلاده ولا على قلاعه ، ولا على عساكره ، في بر ولا بحر .

ولا يحرك عز سلطانى أحدا آخر علـى حربـه ، بحيث أن الملك الجليل كرميخائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطانى ولملكى ولبلادى ولقلاعى ولعساكرى ، ولولدى الملك الصالح علاء الدين على ، ولوارثى ملكى من أولادى .

ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية .

ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربا قط ، ولا على بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتى .

ولا يحرك أحدا آخر علـى حرب مملكة عز سلطانى في البر ، ولا في البحر .

ولا يساعد أحدا من أضداد عز سلطانى ، ولا أعدائى مـن ساير الأديان والأجناس ولا يوافقه على ذلك .

ولا يفسح لهم في العبور الى مملكة عز سلطانى لمضرة شيء منها ، بجهده وطاقته .

وان الرسل المسيرين من مملكة عز سلطانى الى بر بركة وأولاده ، وبلادهم ، وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقا ، لهم أن يعبروا في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل من أولها الى آخرها ، بلا مانع ولا عايق ، ارسلوا في بر أو بحر ، على ما يقتضيه مصلحة ذلك الوقت ، لمملكة عز سلطانى .

ولهم أن يتوجهوا الى حيث يسيرهم عز سلطانى في تلك البلاد . وكذلك يعـودون الى مملكـة عز سلطانى آمنين مطمئنين غـير

ممنوعين ، بجميع من يصل معهم ، من رسل تلك الجهات وغربيا ، وكل من معهم من مماليك وجوار وغير ذلك .

وأن لا يحصل للتجار الواردين من بــلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخائيل ، الى بلاد عز سلطانى جور ولا ظلم .

ويترددون آمنين مطمئنين ، يعملون متاجرهم .

ولهم الرعاية في الصدور والورود ، والمقام والسفر ، بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطانى ، في بــلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخائيل مثل ذلك .

ويكونون مرعيين ، لا يجدون مــن أحد في بــلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخائيل جورا ولا ظلما .

ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلم .

وان من حضر من التجــار من سوداق وغربيا بمماليك وجــوار ، يمكنهم مملكة الملك الجليل كرميخائيل من الحضور بهم ، الى مملكــة عز سلطانى ولا يمنعهم .

وان الكرسالية ، متى تعرضوا الى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر ، وبسبب الكرسالية، الى رعية مملكة الملك الجليل كرميخائيل، يسير عز سلطانى اليه في طلبهم .

ولا يتعرض أحد مــن نواب مملكة عز سلطانى الى هذا الجنس بسببهم ، الى أن يتحقق أنهم آخذون أو يظهر عين المال معهم ، علــى ما تضمنه نسخة يمين الملك الجليل كرميخائيل .

ولمملكة الملك الجليل غرميخائيل من بلاد عز سلطانى مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين من عز سلطانى ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم ، برا وبحرا .

وتكون رعية بلاد عز سلطانى ، ورعية بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم ، آمنين مطمئنين ، صادرين واردين ، محترمين مرعيين .

وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة مستمرة ، مستقرة علـى الدوام والاستمرار .



ملحق ٢

نص خطـاب ايلخان أحمد تكدار ، ملك المغول بفارس ، الـى السـلطان الملك المنصور قلاون سنة ٦٨١ (١٢٨٢) ، وجواب السلطان قلاون عليه ، نقلا عن بيبرس المنصورى (زبدة الفكر في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٣١ وما بعدها . صورة شمسية من نسخة المتحف البريطانى بلندن ـ مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨) .

ذكر نسخة الكتاب الواصل من جهة المذكور ، مخبرا بانتقاله الى ملة الاسلام ، هو ومن معه من التتار .

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، باقبال قاآن ، فرمان أحمد الى سلطان مصر .

أما بعد ، فان الله سبحانه وتعالى ، بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده في بريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . فلم نزل نميل الى اعلاء كلمة الدين ، واصلاح أمور المسلمين ، الى أن أفضت بعد أبينا الجيد وأخينا الكبير نوبة الملك الينا ، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ،

ما حقق به آمالنا في جزيل آلائـه وعوارفه ، وجلا هدى المملكة على يدينا ، وأهدى عقيلتها الينا .

فاجتمع عندنا في قوريلتاى المبارك ، وهو المجمع الذى تنقدح فيه الآراء ، جميع الاخوان والأولاد ، والأمراء الكبار ومقدمى العساكر وزعماء البلاد . واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في انفاذ الجم الفقير من عساكرنا ، التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا لعظيم صولتها وشديد بطشها الى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزمة تلين لها صم الصلاد .

ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه ، فوجدنا مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الاسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا الا ما يوجب حقن الدماء ، وتسكين الدهماء ، وتجرى به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والامان ، وتستريح به المسلمون في سائر الأمصار ، في مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لأمر الله ، وشفقة على خلق الله .

فألهمنا الله تعالى اطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، واعلام من أشار بذلك الرأى ، بما أرشدنا اليه من تقديم ، ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، واننا لا نحب المسارعة الى هز النصال للنضال ، الا بعد ايضاح المحجة ، ولا نأذن لها الا بعد تبيين الحق ووضوح الحجة .

وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، اذكار شيخ الاسلام ، قدوة العارفين ، كمال الدين

عبد الرحمن ، الذى هو نعم العون لنا في أمور الدين ، فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه ، ونقمة على من اعرض عنه وعصـــاه ، وأنفذنا أقضى القضاة وقطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفاهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أنا لهم من الله على بصيرة ، وأن الاسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن تتبع الحق وأهله ، ويشاهدون عظيم نعمة الله على ألطافه ، بما دعانا اليه من تقديم أسباب الاحسان ، ولا يحرموها بالنظر الى سالف الأحوال ، فكل يوم هو في شأن . فان تطلعت نفوسهم الى دليل يستحكم بسببه دواعى الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا الى ما ظهر مـــن أثرنا ، مما اشتهر خبره وعم أثره .

فانا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى ، باعلاء أعلام الدين ، واظهـــاره في ايراد كل أمر واصداره تقديما ، واقامة تواميس الشرع المحمدى على مقتضى قانون العدل الأحمدى اجلالا وتعظيما . وأدخلنا السرور عـــلى قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا عفا الله عما سلف ، وتقدمنا باصـــلاح أمور أوقـــاف المسلمين ، من المشاهد والمساجد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة الـــى مستحقها لشروط واقفها ، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولا فيها . وأمرنا بتعظيـــم أمر الحاج وتجهيز وفدهـــا ، وتأمين سبلها وتسيير قوافلها .

وانا أطلقنا سبيل التجـــار المترددين الى تلك البـــلاد ، ليسافروا

بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحرمنا على العساكر والقراغول[1] والشحانى[2] في الأطراف التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم .

وقد كان صادف قراغولنا جاسوسا في زى الفقراء ، كان سبيل مثله أن يهلك ، فلم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى ، وأعدناه اليهم . ولا يخفى عليهم ما كان في انفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فان عساكرنا طالما رأوهم في زى الفقراء والنساك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وارتفعت الحاجة بحمد الله الى ذلك ، بما صدر اذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم .

فاذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها ، لا يخفى عليهم أنها أخلاق جبلية طبيعية ، وعن شوائب التكلف والتصنع عرية . واذا كانت الحال على ذلك ، فقد ارتفعت دواعى المضرة التى كانت موجبة المخالفة ، فانها كانت بطريق الدين والذب عن حوزة المسلمين . فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وان كان لما سبق من الأسباب ، فمن تحرى الآن طريق الصواب ، فان له عندنا لزلفى وحسن مآب .

وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفضل الخطاب ، وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا

---

(١) القراغول ، عند المغول ، جماعة من العسكر يتولون حراسة الطرق . المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٩٧٩ ، حاشية ٢ .
(٢) الشحانى ، والشحن ، مفردها شحنة ، وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد . المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٩٧٩ حاشية ٣ .

العمل بخلافها ، لنرضى به الله والرسول ، وتلوح على صفحاتها آثار الاقبال والقبول ، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلى بنور الأئتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ، فيسكن في سابغ ظلها البوادى والحواضر ، وتقر القلوب التى بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفى عن سالف الهنات والحرائر .

فان وفق الله سلطان مصر ، لاختيار ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بنى آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الاخلاص بحيث تنعمر تلك المدائن والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل الكافة أرض الهوينى ، وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون . وان غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا ، وأبلى عذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، وحسبنا الله وحده.

كتب في مدينة واسط في شهر جمادى الأولى سنة احدى وثمانين وستمائة بمقام الأوطاق .

ذكر نسخة جواب السلطان الصادر اليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، باقبال دولة السلطان الملك المنصور ، كلام قلاون الى السلطان أحمد .

أما بعد حمد الله الذى أوضح بنا ولنا الحق منهاجا، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا . والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذى فضله الله على كل نبى ، نجّى به أمته ، وعلى كل نبى ناجى ، صلاة تنير مادجا ، وتجير من داجى .

فقد وصل الكتاب الكريم ، المتلقى بالتكريم ، المشتمل على النبأ العظيم ، من دخوله في الدين ، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين

ولما فتح هذا الكتاب ، فاتح بهذا الخبر المعلَم المعلِم ، والحديث الذى صحح عند أهل الاسلام اسلامه ، وأصح الحديث ما روى عن مسلم ، وتوجهت الوجوه بالدعاء الى الله سبحانه ، في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت ، وأن ينبت حَب حُب هذا الدين في قلبه كما أنبته أحسن النبت من أخشن المنابت .

وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث اخلاصه النية في أول العمر وعنفوان الصبا والاقرار بالوحدانية ، ودخوله في الملة المحمدية ، بالقول والعمل والنية .

فالحمد لله على أن شرح صدره للاسلام ، وألهمه شريف هذا الالهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين الى هذا المقال والمقام ، وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد ، تتزلزل دونه الأقدام .

وأما افضاء النوبة في الملك وميراثه ، بعد والده وأخيه الكبير اليه، وافاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه ، وتوقله الأسرة التى طهرها ايمانه ، وأظهرها سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده ، وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده .

وأما حكاية اجتماع الاخوان والأولاد ، والأمراء الكبار ومقدمى العساكر ، وزعماء البلاد ، في مجمع قوريلتاى الذى تنقدح فيه زند الآراء ، وأن كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير ، في أنفاذ العساكر الى هذا الجانب ، وأنه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم ،

واتهت اليه أهواؤهم ، فوجده مخالفا لما في ضميره ، اذ قصده الصلاح، ورأيه الاصلاح ، وأنه أطفأ تلك الثائرة ، وسكن تلك النائـرة ، فهذا فعل الملك المتقى المشفق من قومه على مـن بقى ، المفكر في العواقب ، بالرأى الثاقب ، والا فلو تركوا وآراؤهم ، حتى تحملهم العزة ، لكانت هذه الكرة هى الكرة . لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عـن الهوى ، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى .

وأما القول منه بأنه لا يحب المسارعة الى المقارعة ، الا بعد ايضاح المحجة ، وتركيب الحجة ، فباتنظامه في سلك الايمـان صارت حجتنا وحجته المتركبة ، على من غدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة، فان الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا انما هو لنصر هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا انما هو على الحقيقة لله . وحيث قـد دخل معنا في الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول ، وبارتفـاع المنافرة ، تحصل المظافرة ، فالايمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره ، فله أهل بأهل في كل مكان ، وجيران بجيران في كل أرض .
وأما ترتيب هذه القواعد الجمة ، على أذكار شيخ الاسلام قدوة العارفين ، كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله من بركاته ، فلم تر لولى قبله كرامة كهذه الكرامة ، والرجاء ببركاته ، وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للاسلام دار اقامة ، حتى تتم شرائط الايمان ، ويعـود شمل الاسلام مجتمعا كأحسن ما كـان ، ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هـذا التمكن في الوجود ، أن كل حق ببركته الى نصابه يعود .

وأما انفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلها في ابلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضروا وأعادوا كل قول حسن من حوالى أحواله وخطرات خاطره ، ومنتظرات ناظره ، ومن كل ما يشكر ويحمد ، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الاشارة الى أن النفوس ان كان لها تطلع الى اقامة دليل ، تستحكم به دواعى الود الجميل ، فلينظر الى ما ظهر من مآثره في موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والاحسان بالقلب واللسان ، والتقدم باصلاح الأوقاف والمساجد والربط ، وتسبيل السبل للحج الى غير ذلك، فهذه صفات من يريد لملكه الدوام ، فلما ملك عدل ، ولم يمل الى لؤم من عدى ولا لوم من عذل . على أنها وان كانت من الأفعال الحسنة ، والمثوبات التى تستنطق بالدعاء الألسنة ، فهى واجبات تؤدى وقربات بمثلها يبدى ، وهو أكثر من أنه باجراء أجر غيره يفتخر ، أو عليه يقتصر ، أو له يدخر . بل انما يفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها ، ونظم ما كانت عليه في سلوكها ، وقد كان والده فعل شيئا مع الملوك السلجوقية وغيرهم ، وما كان أحد منهم بدينه يدين ، ولا دخل معه في دين ، وأقرهم في ملكهم ، وما زحزحهم عن ملكهم . ويجب عليه ألا يرى حقا مغتصبا ، ويأبى الا رده ، ولا باعا ممتدا بالظلم ويرضى الا صده ، حتى أن أسباب ملكه تقوى ، وأيامه تتزين بأفعال التقوى .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحانى بالأطراف ، التعرض الى أحد بالأذى ، واصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى ، فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك ، تقدمنا أيضا بمثله الى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب ، والى مقدمى العساكر بأطراف تلك الممالك ، واذا اتحد الايمان ، وانعقدت الأيمان ، تحتم هذا الاحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أمسك واطلق ، وأن بسبب من يتزيا من الجواسيس بزى الفقراء ، قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجما بالظن ، فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب سيروه، والى الاطلاع على الأمور

سوروه ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ما غطوه بخرقة الفقر بلم ولا كيف .

وأما الاشارة الى أنه باتفاق الكلمة تنجلي ظلم اختلاف ، وتدر بها من الخيرات الأخلاف ، ويكون بها صلاح العالم ، وانتظام شمل بني آدم ، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد ، وجنح الى السلم فما حاد ولا حاد ، ومن ثنى عنانه عن المكافحة ، كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة ، والصلح وان كان سيد الأحكام ، فلا بد من أمور تبنى عليها قواعده ، ويعلم من مدلولها فوائده . فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة ، يعمر بها كل مغنى ومعلم ، ان تهيأ صلح أو لم ، وثم أمور لا بد وأن تحكم ، وفي سلكها عقود العهود تنظم ، قد تحملها بلسان المشافهة ، التي اذا أوردت أقبلت ان شاء الله عليها النفوس ، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس .

وأما الاشارة الى الاستشهاد بقوله تعالى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، فما على هذا النسق من الود ينسج ، ولا على هذا السبيل ينهج ، بل الفضل للمتقدم في الدين ، ونصرة عهود ترعى ، وافادات تستدعى ، وما برح الفضل للأولوية وان تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروى وتأول .

وعندما انتهينا الى جواب ما لعله بحث عنه الجواب من فصول المكاتبة ، سمعنا المشافهة التي على لسان أقصى القضاة قطب الدين ، فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب من دخوله في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين ، وما بسطه من معدلة واحسان ، مشكورة بلسان كل انسان ، فالمنة لله عليه في ذلك ، فلا يشينها منه بامتنان ، وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن باسلامه : قل لا تمنوا على اسلامكم بل

الله يمن عليكم أن هداكم للايمان .

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ، ما أغنـاه عن امتداد الطرف الى ما في يد غيره من أرض وماء ، فان حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالامر حاصل ، فالجواب أن ثـم أمورا متـى حصلت عليها الموافقة ، اتبنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ، ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا ، واذلال عدونا واغراز مصافينا ، فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الاب والأخ والقرابة ، وما تم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الاسلام الا بمضافرةالصحافة . فان كانت له رغبة معروفة الى الاتحاد ، وحسن الوداد وجميل الاعتضاد ، وكبت الاعداء والاصداد ، والاستناد الى من يشد الأزر به عند الاستناد ، فالرأى اليه في ذلك .

ومن المشافهة أنه ان كانت الرغبة ممتدة الأمل الى ما في يـده من أرض وماء ، فلا حاجة الى انفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود . فالجواب عن ذلك ، أنه اذا كف ، كف العدوان ، وترك المسلمين وما لهم من ممالك ، سكتت الدهماء ، وحقنت الدماء ، وما أحقه بـأن لا ينه عن خلق ويأتى مثله ، ولا يأمر ببرونيسى فعله ، وقنعرطاى بالروم ، وهى بلاد بأيديكم ، وخراجها يجبى اليكم ، وقد سفك فيهـا وفتك ، وسبى وهتك ، وباع الأحرار ، وأبى الا التمادى على الاصرار والأضرار .

ومن المشافهة أنه اذا حصل التعميم على أن لا تبطل هذه الغارات ، ولا يفتر عن هذهالاثارات ، فنعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فالجواب عنذلك ، أن الاماكن التى اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة ومرة ، قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم ،

وخاف أن يعاودها فيعاود مصرع ذلك اليوم ، فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر ، وما النصر الا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر ، ولا نحن ممن ينتظر فلتة ، ولا له الى غير ذلك لفتة ، وما أمر ساعة النصر الا كالساعة لا يتأتى الا بغتة ، والله الموفق لما فيه صلاح هذه الامة ، والقادر على اتمام كل خير ونعمة .



المصادر والمراجع

اولا ـ المصادر والمراجع العربية

ابن أبى الفضائل ، مفضل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس ١٩١١ ـ ١٩٣٠) .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ
القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة ١٩٤٠.

ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . حيدر آباد ١٣٤٩ .

ابن خلدون : العبروديوان المبتدا والخبر ـ القاهرة ١٨٦٧

ابن خلكان : وفيات الأعيان ـ القاهرة ١٩٤٩

ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ـ القاهرة ١٩٥١

ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٨٩٠.

ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك . حـ ٧ ، بيروت ١٩٤٢

ابن الفوطى : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ـ بغداد ١٣٥١

ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ـ ترجمة الدكتور احمد سعيد سليمان القاهرة ١٩٥٨

بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة حـ ١٠ ، مخطوطة مصورة ـ مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨

تاريخ سلاطين المماليك : نشر تسترستين ـ ليدن ١٩١٩

حافظ احمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ـ القاهرة ١٩٤٩

الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولى ـ القاهرة ١٩٥٠

القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشا . القاهرة ١٩١٤ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ (الجزء الأول) .

: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار القاهرة ١٨٥٣ م .

النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى . نشر حافظ حمدى القاهرة ، ١٩٥٣

ياقوت : معجم البلدان ـ ليبزج ١٨٧٠



ثانياً ـ المصادر والمراجع الفارسية

الجوزجانى ، ابو عمر عثمان بن سراج الدين

طبقات ناصرى ـ نشره وليم ناساو ليز ، ومولوى خادم حسين ، ومولوى عبد الحى . كلكتا ١٨٦٤

وترجمه الى الانجليزية رافيرتى ـ وصدر سنة ١٨٨١ (لندن) بعنوان
The Tabakat - i - Nasiri

رشيد الدين فضل الله

جامع التواريخ ـ نشر كاترمير ـ باريس ١٨٣٦

عبدالله بن فضل الله الشيرازى المعروف بوصاف الحضرة

تاريخ وصاف ـ بومباى ١٢٦٩ هـ

عطا ملك الجوينى

تاريخ جهانكشاى ، نشر محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، ليدن ١٣٢٩ ـ ١٣٥٥ (١٩١١ ـ ١٩٣٧)

القزوينى ، حمد الله المستوفى .

أ ـ تاريخ كزيده ـ براون ـ ليدن (١٩١٠)

ب ـ نزهت القلوب Le Strange ـ ١٩١٣

ميرخوند ـ محمد بن خاوند شاه

روضة الصفا . لكهنو ١٩١٥

انظر عن تقييم هذه المؤلفات ـ الفصل الثانى بالمقدمة ، في كتاب

Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion.

والجزء الثانى من كتاب

Browne : A Literary History of Persia.



المصادر والمراجع الاوربية

Abel : Extrait d'un second mémoire sur les relations politiques des rois de France avec les Empereurs mongoles. (J. A. T. I 1ère série).

Atiya, Aziz-Susyal : The Crusade in the Late Middle Ages, London 1938.

Barthold, W. : Cinghis Khan. En. Is.
Khwaresm. En. Is.
Turkestan down to the Mongol Invasion. London 1928.
Turks, Turkman, Ghuzz, Berke, Kara-Khiti, Karluck, Arghun, Tatar, Ghazan, Rashid al-Din Olcaito, Bourak. En. Is. Hulagu En. Is.

Blochet, F. : Introduction à l'histoire des mongols de Rashid ed-Din. Leyde 1910.
Deux résidents mongols en Chine, et en Asie Centrale, de Tchinkhis Khan à Khoubilai, 1925.
Successaires de Tchinkhiz Khagan. Leyde 1911.
La Conquête des Etats nestoriens de l'Asie Centrale par les Chiites. Revue de l'Orient Chrétien, 1925 - 1926.

Bouvat : L'Empire Mongol. Paris 1927.

Bratianu : Recherches sur le commerce genois dans la mer noire au XIIIe siècle. Paris 1929.

Bretschnieder : Medieval Researches 2 vols. London 1888.

Brosset, M. : Histoire de la Georgie. Petersbourg 1949.

Browne. E.G. : A Literary History of Persia II.III Cambridge 1964.

Budge, Wallis : History of the Life and Travels of Rabban Souma, and Markos of the Nestorian Church in Asia 1928.

Cahun : Introduction à l'Histoire de l'Asie. Paris 1896.

Cambridge Medieval History. Vol. IV.

Canard, M. : Un Traité entre Byzance et l'Egypte au IIIe siècle et les relations diplomatiques de Michel VII Palcologue avec les Sultans Mamluks Baibars et Qala'un. Mélanges Gaudefroy Demombynes. Cairo 1937.
Le Traité de 1281 entre Michel Paleologne et le Sultan Qala'un. Byzantion X (1935) pp. 669-680.

Chabot : Relations du roi Argoun avec l'Occident. Revue de l'Orient latin 1894.

Chapman, C. : Michel Palcologue restaurateur de l'Empire Byzantin (1261-1281). Paris 1926.

Chronique de Michel le Syrien. Trans. J.B. Chabot (1899-1919).

Curtin : The Mongols. Boston 1908.

Czaplika : The Turks of Central Asia in History and present day. Oxford 1918.

Daryll Forde, C. : Habitat, Economy and Society. London 1966.

Dawson, Christopher : The Mongol Mission. London 1955.

D'Ohsson, M. : Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'à Timur Bec. 2 Vols. Amsterdam 1834-1835 III (1852), IV (1835).

Douglas : The Life of Jenghis Khan. London 1877.

Dulaurier : Les Mongols d'après les historiens arméniens. J.A. 1858-I.

Gregory of Akner : The History of the Nation of the Archers. ed. R. Blake and R. Frye. Cambridge Mass. 1954.

Grousset, R. : Le Monde Mongol, Histoire de l'Asie t. III. Paris 1922.
L'Empire des Steppes. Paris 1948.
Histoire des Croisades T. III. Paris 1936.
Histoire de l'Extrême-Orient. T. II. Paris 1929.

Heyd, U. Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. 2 Vols. 1923.

Howorth, H. : History of the Mongols. 5 vols. London 1876-1888.

Le Strange : Mesopotamia and Persia under the Mongols (XIV C). London 1903.

Martin, H.D. : The Rise of Chingis Khan and his Conquest of North China. Baltimore 1950.

Matthew of Edessa : R.H.C. Arm. I (1869).

Matthew of Paris : Chronica Majora Ed. Luard, H.R. 7 vols. London 1880.

Oliver : The Chagatai Mughals J.R.A.S. 1888.

Parker, E.H. : A thousand years of the Tartars. London 1895.
Mongolia after Genghizides and before the Manchus. Journal of North China. branch R. A.S. XLIV 1918.

Pelhiot, P. : A propos des Comans. J.A. 1920. I.
Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême-Orient. 1914.
Mongols et Papes, aux XIIIe et XIVe siècles. Séance de l'Institut. 25 Octobre 1922.
Les Mongols et la Papauté. Révue de l'Orient Chrétien XXIII, XXIV, XXVII, XXVIII (1922-1932).

Rashid ad-Din : Histoire des Mongols de Perse. trad. Quatremere. Paris 1936.

Ross, Denison : History of the Mongols of Central Asia. London 1985.

Rockhill : The Journey of William of Rubruck. Hakluyt, London 1908.

Rubens Duval : Le Patriarche Mar. Jabalaha III et les Princes Mongols de l'Adherbaidjan (Journal Asiati-que, Serie VIII T. XIII 1889).

Runciman, Steven History of the Crusades. Cambridge vol. III 1954.

Sauvaget, Jean : Introduction to the History of the Muslim East. Second Edition. Cl. Cahen. California 1965.

Semple : Geographical Environment, London 1911.

Skrine and Denison Ross : The Heart of Asia. London 1899.

Spuler, B. Die mongolen in Iran 1955.

Sykes, Sir Percy : A History of Persia. Vol. II. London 1963.
History of Bokhara. London 1873.

Vambery G. : The Golden Horde, Egypt, and Byzantium in their mutual relations in the Reign of Michel Paleologle. Annales de l'institut.

Wittek, P. : Deux chapitres de l'histoire des Turcs de Roum. Byzantian XI (1936).
The Rise of the Ottoman Empire. London 1938.

Yaballah III. : Histoire de Mar Jaballah III ed. and Trans. Chabot.

Revue de l'Orient Latin II (1894).

The History of Yaballah III Ed. and trans. Montgomery New York. 1927.

Yule : Cathay and the way thither. Hakhuyt Society 1914-1915.

محتوى الكتاب

ملاحـق

